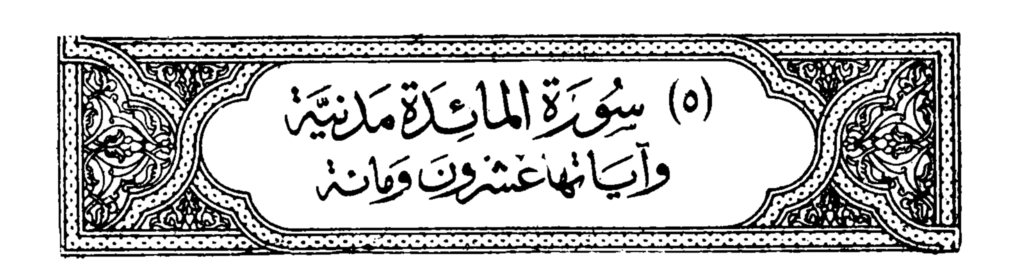


(نزلت بعد سورة الفتح)

روى ابن مردويه عن أم عمر وعن عمها ١ [أنه كان في مسير مع رسول الله ﷺ فنزلت عليه سورة المائدة فانْدقَّ عنقُ الراحلة من ثقلها .]

روى الحاكم عن جبير بن نفير قال: ٢ [حججت فدخلت على عائشة فقالت لي: يا جُبير ، تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم . فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت (١) ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه.] ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

ورواه الإمام أحمد عن معاوية بن صالح وزاد : ٣ [وسألتُها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : القرآن] . ورواه النسائي من حديث ابن مهدي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۞ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ

(١) وروي عن ابن عباس أنه قال: آخر سورة نزلت «إذا جاء نصر الله والفتح» فتلك من الأحكام، وهذه من السور

يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناًوَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ❁ (٢)

روى ابن أبي حاتم عن معن وعوف،أو أحدهما ، أن رجلاً أتى ابنَ مسعود فقال : أعهدْ إليّ ؛ فقال : إذا سمعتَ الله يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأرعِها سمعك ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه . وقوله تعالى : ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : يعني العهود .

والعهود يعني ما أحلّ الله وما حرّم ، وما فرض وما حدّ في القرآن كله ، ولا تغدروا ولا تنكثوا ، ثم شدّد فقال تعالى : ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ ويدخل في ذلك كافة العقود : كعهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين . وقوله تعالى: ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام ﴾ هي الإبل ، والبقر والغنم. وقد استدل ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية، على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت.فقد روى أبو داود والترمذي وابن ماجه ، عن أبي سعيد قال : قلنا : ٤ [يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين ، أنلقيه أم نأكله ؟ فقال : « كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه »] وقال الترمذي : حديث حسن .

وقوله تعالى : ﴿ إلاّ ما يتلى عليكم ﴾ أي إلاّ ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال . والمراد بذلك قوله تعالى : ﴿ حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع ﴾ وقوله: ﴿ غير محلّي الصيد وأنتم حُرُم ﴾ والمراد بالأنعام ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم ويعم الوحشي ، كالظباء والبقر الوحشي، والحمر .فاستثنى من الإنسي ما تقدم ،

واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام، أي كما أحللنا الأنعام في جميع الأحوال فحرّموا الصيد في حال الإحرام فإن الله قد حكم بهذا. وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إن اللهَ يحكم ما يريد﴾ ثم قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلّوا شعائر الله﴾ قال ابن عباس يعني بذلك مناسك الحج ﴿ولا الشهر الحرام﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال وتأكيد اجتناب المحارم. وقوله تعالى: ﴿ولا الهدْي ولا القلائد﴾ يعني لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام، فإنّ فيه تعظيمَ شعائر الله، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميَّزَ به عمّا عداها من الأنعام، وليُعلمَ أنها هدْيٌ إلى الكعبة، فيجتنبها من يريدها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، فإن من دعا إلى هدي كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ولهذا لما حجّ رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة، وهو وادي العقيق. فلما أصبح طاف على نسائه وكُنَّ تسعاً، ثم اغتسل وتطيّب وصلى ركعتين [1]، ثم أشعر هديه وقلّده، وأهلَّ للحج والعمرة، وكان هديه إبلاً كثيرة تنيف على الستين، من أحسن الأشكال والألوان. كما قال تعالى: ﴿ذلك ومن يعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب﴾ قال علي بن أبي طالب: ٥ [أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرفَ العين والأذن]، رواه أهل السنن.

وقوله تعالى: ﴿ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، الذي من دخله كان آمناً. وكذا من قصده طالباً فضلَ الله، وراغباً في رضوانه، فلا تصدّوه. قال مجاهد وجماعة من التابعين وغيرهم، في قوله تعالى: ﴿يبتغُون فضلاً من ربهم﴾ أي التجارة. وهذا كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أُن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ وقوله تعالى: ﴿ورضواناً﴾ قال ابن عباس: يترضون الله بحجّهم. وإن هذا الحكم نزل في حق بعضَ المشركين ثم نسخ في حقهم والله أعلم. فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به، فهذا يمنع. قال الله تعالى: ﴿إنما المشركون نجس. فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع لما أمَّر الصديقَ على الحجيج علياً وأمره أن ينادي نيابةً عن رسول الله ﷺ ببراءة [2] وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وقوله تعالى: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ أي إذا فرغتم من إحرامكم، وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم، في حال الإحرام من الصيد وهذا أمر بعد الحظر.

---

(١) لعلها ركعتا الصبح. (٢) أي سورة براءة

والصحيح أنه يرد الحكمُ إلى ما كان عليه قبل النهي.فإن كان واجباً فواجب . أو مستحباً فمستحب . أو مباحاً فمباح. وقوله تعالى: ﴿ولا يجرمنّكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أَن تعتدوا﴾ أي لا يحملنكم بغضُ قوم قد كانوا صدّوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام وذلك عام الحديبية،على أن تعتدوا حكمَ الله فيهم ، فتقتصّوا منهم ظلماً وعدواناً ، بل احكموا بما أُمركم الله به من العدل،في حق كل أحد . روى ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : ٦ [كان رسول الله ﷺ بالحديبية واصحابه حين صدّهم المشركون عن البيت وقد اشتد ذلك عليهم ، فمرَّ بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة ، فقال أصحاب النبي ﷺ : نصد هؤلاء كما صدّنا أصحابهم فأنزل الله هذه الآية .] وقوله تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، وترك المنكرات وهو التقوى . وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ٧ [« أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قيل : يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : « تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره »] أخرجاه من طريق ثابت عن أنس .

وفي الصحيح : ٨ [من دعا إلى هدي كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لا يُنقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الأثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا يُنقص ذلك من آثامهم شيئاً]روى ابو القاسم الطبراني عن أبي الحسن نمران بن صخر أن رسول الله ﷺ قال ٩[من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم انه ظالم فقد خرج من الإسلام]

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٣)

ينهي الله عباده عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة ، وهي مامات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد ، لما فيها من المضرة من الدم المحتقن فهي ضارة للدين وللبدن ، فلهذا حرمها الله عز وجل ويستثنى من الميتة السمك ، فإنه حلال سواءً مات بتذكية أو غيرها ، لما رواه مالك والشافعي وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر ، فقال : ١٠ [هو الطهور ماؤه الحل ميتته] وهكذا الجراد ، لما سيأتي من الحديث.

وقوله تعالى : ﴿ والدم ﴾ يعني به المسفوح ، كقوله تعالى : ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ قاله ابن عباس وغيره روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال فقال : كلوه ، فقالوا : إنه دم.فقال : إنما حرم عليكم الدم المسفوح.وكذا رواه حماد عن عائشة : انما نهي عن الدم السافح . وروى الشافعي عن ابن عمر مرفوعاً قال قال رسول الله ﷺ ١١ [أحل لكم ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالسمك والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال .]

قال الأعشى : وإياك والميتات لا تقربنّها ولا تأخذنْ عظماً حديداً فتفصدا

أي لا تفعل فعل الجاهلية ، وكان أحدهم إذا جاع يأخذ شيئاً محدّداً من عظم ونحوه ، فيفصد به بعيره فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه ، ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة .

قوله تعالى : ﴿ ولحم الخنزير ﴾ يعني إنسيّه ووحشيّه ، واللحم يعمّ جميع أجزائه حتى الشحم ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية وإعادة الضمير على الخنزير في قوله تعالى : ﴿ إلاّ أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس ﴾ فالهاء من : ﴿ فإنه ﴾ يعيدونها على لفظ الخنزير حتى يعم معنى الرجس سائر الخنزير لحمه وشحمه وكل جزء .. فلا حاجة إلى ذلك ، لأن مجرد قوله تعالى : ﴿ فإنه رجس ﴾ فيعم اللحم وسائر أجزائه . فإن قول الظاهرية من أن الضمير عائد على الخنزير ، فهذا بعيد من حيث اللغة فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه ، والأظهر ان اللحم يعم جميع الأجزاء،كما هو المفهوم من لغة العرب ، ومن العرف المطرد . وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ قال : ١٢ [من لعب بالنردشير ، فكأنما

صبغ يده في لحم الخنزير ودمه] وفيه دليل على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره. [١]

وقوله تعالى: ﴿وما أهلّ لغير الله به﴾ أي ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله، فهو حرام لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عُدل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات، فإنها حرام بالإجماع، إنما اختلف العلماء في متروك التسمية إما عمداً أو نسياناً كما سيأتي تقريره في سورة الأنعام إن شاء الله.

روى ابن أبي حاتم عن الجارود بن أبي سبرة، قال هو جدّي [٢] قال: كان رجل من بني رباح يقال له ابن وائل، وكان شاعراً، نافر غالباً أبا الفرزدق بماء بظهر الكوفة على أن يعقر هذا مائة من إبله وهذا مائة من إبله اذا وردت الماء فلما وردت الماء قاما إليها بسيفيهما فجعلا يكشفان عراقيبها، قال: فخرج الناس على الحمرات والبغال يريدون اللحم، قال: وعليٌّ بالكوفة قال: فخرج علي على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وهو ينادي: يا أيها الناس لا تأكلوا من لحومها فإنها أُهِلَّ بها لغير الله. هذا أثر غريب ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود عن ابن عباس قال: ١٣ [نهى رسول الله ﷺ عن معاقرة الأعراب] وقال أبو داود عن عكرمة قال: ١٤ [إن رسول الله ﷺ نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل.] ثم قال أبو داود أكثر من رواه غير ابن جرير لا يذكر فيه ابن عباس تفرد به ابو داود.

وقوله تعالى: ﴿والمنخنقة﴾ وهي التي تموت بالخنق قصداً أو اتفاقاً فهي حرام. ﴿والموقوذة﴾ فهي التي تضرب بشيء ثقيل غيرِ محدَّدٍ حتى تموت. كما قال ابن عباس وغير واحد: هي التي تضرب بالخشبة حتى يوقذها فتموت. وفي الصحيح ان عدي بن حاتم قال: ١٥ [قلت: يا رسول الله إني أرمي بالمعراض الصيدَ فأصيب؛ قال: «إذا رميت بالمعراض فخزق فكله، وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيذ، فلا تأكله»] ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق ونحوه بحده، فأحلّه. وما أصاب بعرضه فجعله وقيذاً لم يحله. وهذا مجمع عليه عند الفقهاء، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه، على قولين، هما قولان للشافعي رحمه الله (أحدهما) لا يحل كما في السهم

---

(١) وفيه دليل على تغليظ حرمة اللعب بالنردشير وهو: الطاولة، والضومنو و ورق الإسكمبيل، والمنقلة، والبرجيس ولو للتسلية..

(٢) القائل هو عبد الله، والجارود يكون جده.

والجامع أن كلاً منهما [١] ميت بغير جرح فهو وقيذ (والثاني) إنه يحل لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب ولم يستَفْصِلْ ، فدل على إباحة ما ذكرناه لأنه قد دخل في العموم .

* * *

(فصل) اختلف العلماء رحمهم الله تعالى فيما إذا أرسل كلباً على صيد فقتله بثقله، ولم يجرحه أو صدمه : هل يحل أم لا على قولين (أحدهما) أن ذلك حلال لعموم قوله تعالى : ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم ﴾ ، وكذا عمومات حديث عدي بن حاتم . (والقول الثاني) : ان ذلك لا يحل وهو أحد القولين عن الشافعي رحمه الله . اختاره ورجحه كثير من الأئمة وهذا القول أشبه بالصواب ، والله أعلم • واحتج ابن الصباغ له بحديث رافع بن خديج ١٦ [قلت يا رسول الله ، إنّا لاقو العدو غداً ، وليس معنا مُدًى ، أفنذبح بالقصب ؟ قال : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه »] والحديث بتمامه [٢] ، وهو في الصحيحين وهذا وإن كان وارداً على سبب خاص فالعبرة بعموم اللفظ عند جمهور من العلماء في الأصول والفروع ؛ فما صدمه الكلب أو غمّه بثقله ليس مما أنهر الدم ، فلا يحل لمفهوم هذا الحديث إنما لا بد من إنهار الدم بآلة ليست سناً ولا ظفراً ، هذا مسلك ...

والمسلك الثاني : طريقة المُزَنيّ ، وهي أن السهم جاء التصريح فيه بأنه إن قتل بعرضه فلا تأكل ، وإن خزق فكل ، والكلب جاء مطلقاً ، فيحمل على ما قيد هناك من الخزق ، لأنهما اشتركا في الموجب وهو الصيد ، فيجب الحمل هنا وإن اختلف السبب . وله أن يقول هذا قتله الكلب بثقله فلم يحل ، قياساً على ما قتله السهم بعرضه ، والجامع أن كلاً منهما آلة للصيد ، وقد مات بثقله فيهما ، ولا يعارض ذلك بعموم الآية ، لأن القياس مقدم على العموم ، كما هو مذهب الأئمة الأربعة والجمهور ؛ وهذا مسلك حسن .

مسلك آخر : إن آية التحريم ، أعني قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ إلى آخرها محكمة لم يدخلها نسخ ولا تخصيص ، وكذا ينبغي أن تكونَ آيةُ التخليل محكمةً أعني قوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا أُحِل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ الآية فينبغي أن لا يكون بينهما تعارض أصلاً ، وتكون السنّة جاءت لبيان ذلك ؛ وشاهد ذلك قصة السهم فإنه ذكر حكم ما دخل في هذه الآية ، وهو ما خزقه المعراض فيكون حلالاً ، لأنه من الطيبات ، وما دخل في حكم تلك الآية ، آية التحريم ، وهو ما إذا أصابه بعرض فلا

(١) أي الصيد بالسهم عرضاً أو الصيد بثقل الجارحة ، كلاهما ميت بغير جرح . (٢) تمام الحديث في الحديث رقم / ١٩/ لمراجعته لمن يشاء .

يؤكل لأنه وقيذ فيكون أحدَ أفراد آية التحريم وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواءً إن كان قد جرحه الكلب فهو داخل في حكم آية التحليل ، وان لم يجرحه بل صدمه أو قتله بثقله ، فهو نطيح أو في حكمه فلا يكون حلالاً .

والكلب من شأنه أنه قد يأكل من الصيد،لذا فقد ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد فقال : ١٧ [إن أكل فلا تأكلْ ، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه] وهذا صحيح ثابت في الصحيحين ؛ وهو أيضاً مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين فقالوا : لا يحل ما أكل منه الكلب . حكي ذلك عن أبي هريرة وابن عباس وبه قال جماعة من التابعين وأبي حنيفة وابن حنبل والشافعي في المشهور عنه .

وروى ابن جرير في تفسيره عن علي وسعيد وسلمان وأبي هريرة وغيرهم : يؤكل ولو لم يبق منه إلاّ بضعة ؛ وإلى ذلك ذهب مالك ، والشافعي في قوله القديم .

وروى ابن جرير أيضاً عن سلمان الفارسي ، عن رسول الله ﷺ قال : ١٨ [إذا ارسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكل منه ، فليأكل ما بقي] ثم علله ابن جرير بأنه موقوف على سلمان .

فأما الجوارح من الطيور لا يحرم أكل ما أكلت منه وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد قالوا لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلمُ الكلبُ بالضرب ونحوه ، وأيضاً فإنها لا تعلم الا بأكلها من الصيد فيعفى عن ذلك ، وأيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير . وأما المتردية : فهي التي تقع من شاهق أو من موضع عال فتموت بذلك، فلا تحل. وأما النطيحة : فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم، ولو من مذبحها . وقوله تعالى : ﴿ وما أكل السبع ﴾ أي ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب ، فأكل بعضها فماتت بذلك ، فهي حرام وإن كان قد سال منها الدم،ولو من مذبحها فلا تحل بالإجماع وقدكان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع فحرم الله ذلك على المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ إلا ما ذكيتم ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه ، مما انعقد به سبب موته، فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة والمراد يعني : إلاّ ما ذكيتم من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع . روى ابن أبي حاتم عن علي في الآية قال : إن مصعت بذنبها،أو ركضت برجلها،أو طرفت بعينها،فكُلْ .

وقد روي عن طاووس وغيرُه من التابعين أن المذكّاة متى تحركتْ بحركةٍ تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح،فهي حلال . وهذا مذهب جمهور الفقهاء .

وفي الصحيحين عن رافع بن خديج إنه قال : ١٩ [**قلت : يا رسول الله ، إنّا لاقو العدو غداً وليس معنا مِدًى ، أفنذبح بالقصب ؟ فقال : « ما أنهر الدم ، وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر ، وسأحدثكم عن ذلك : أما السن فعظم ، وأما الظفر فمدى الحبشة »**] وعن عمر موقوفاً وفي الحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن عن أبي العشراء الدارمي عن أبيه قال : ٢٠ [**قلت يا رسول الله أما تكون الذكاة إلا من اللبة والحلق ؟ فقال « لو طُعنتْ في فخذها لأجزأ عنك »**] وهو حديث صحيح ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه في الحلق واللبة . [1]

وقوله تعالى : ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ قال مجاهد وابن جريج : كانت النصب حجارة حول الكعبة ، وهي ثلثمائة وستون نصباً كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت،بدماء تلك الذبائح.ويشرحون اللحم،ويضعونه على النصب ، وكذا ذكره غير واحد . فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع،وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فُعِلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها،اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرّمه الله ورسوله ، وينبغي أن يحمل هذا على هذا ، لأنه قد تقدم تحريم ما أُهلّ لغير الله به . وقوله تعالى : ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ أي حرّم عليكم أيها المؤمنون ان تستقسموا بالأزلام واحدها زلم وقد تفتح الزاي ، فيقال زَلم ، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك ، وهي عبارة عن قداح ثلاثة ، على أحدها مكتوب : افعل ، وعلى الآخر : لا تفعل ، والثالث غُفْلٌ ليس عليه شيء . فإذا آجالها فطلع سهم الأمر فعله ، أو النهي تركه ، وإن طلع الفارغ أعاد ؛ والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام هكذا قرر أبو جعفر بن جرير وقال ابن عباس : ﴿ وان تستقسموا بالأزلام ﴾ قال والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها في الأمور وفي الصحيحين : ٢١ [ان النبي ﷺ لما دخل الكعبة ، وجد إبراهيم واسماعيل مصورين فيها ، وفي أيديهما الأزلام فقال « قاتلهم الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبداً »]

وروى ابن مردويه عن ابي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ ٢٢ [لن يلج الدرجات من تكهن أو استقسم أو رجع من سفرٍ طائراً] (**ذلكم فسق**) أي تعاطيه فسق

---

(١) فهم جيد ، واستدراك مهم .

وعيّ وضلالة وجهالة وشرك ولا شك ... وقد أمر الله المؤمنين إذا تردّدوا في أمورهم، أن يستخيروه بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه . كما روى الإمام البخاري وأهل السنن عن جابر بن عبدالله قال : ٢٣ [كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ، ويقول : « إذا هم أحدكم بالإمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم ان هذا الأمر، ريسميه باسمه،خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري أو قال : - عاجل أمري وآجله - فأقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفني عنه واصرفه عني وأقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضّني به »] لفظ أحمد .

وقوله تعالى : ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ﴾ أي يئسوا من مشابهة المسلمين لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله ، ولهذا قال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار ، ولا يخافوا أحداً إلاّ الله.فقال تعالى : ﴿ فلا تخشوهم واخشون ﴾ أي لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم واخشوني أنصركم عليهم وأبدْهم وأظفرْكم بهم ، وأشفِ صدوركم منهم،وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة . وقوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة،حيث أكمل تعالى لهم دينَهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ، ولا إلى نبيّ غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن فلا حلال إلا ما أحلّه ، ولا حرام إلاّ ما حرّمه ولا دين إلاّ ما شرعه ، وكل شيء أخبر به فهو الحق والصدق لا كذب فيه ولا خلْف ، كما قال تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ﴾ أي صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأوامر والنواهي ، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم، فانه الدين الذي رضيه الله وبعث به أفضل الرسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه . وبعد هذه الآية لا يحتاج المؤمنون المسلمون إلى زيادة أبداً ، وقد أتم الله الإسلام فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً . وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة ، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام ، ومات رسول الله ﷺ بعد عرفة بأحد وثمانين يوماً .

روى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب قال : ٢٤ [جاء رجل من اليهود إلى عمر

---

(١) وهو ما يسمى في عصرنا الحاضر : « باليانصب » فإنه قمار واضح ... ولا عبرة لمقصده الخيري !!! فهذا لا يحلل الحرام ، وحكمه كحكم : (مطعمة الأيتام من كد ...)

ابن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين ، إنكم تقرأون آيةً في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت ، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال وأي آية ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ فقال عمر : والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة .] ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ فمن اضطُرَّ في مخمصةٍ غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾ أي فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك ، فله تناوله ، والله غفور رحيم له ، لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك فيتجاوز عنه ويغفرله وفي المسند وصحيح ابن حبان عن ابن عمر مرفوعاً قال قال رسول الله ﷺ ٢٥ [إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته] لفظ ابن حبان وفي لفظ لأحمد ٢٦ [من لم يقبلْ رخصةَ الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة]

ولهذا قال الفقهاء : قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان،وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها ، وقد يكون مندوباً ، وقد يكون مباحاً بحسب الأحوال ، واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد الرمق به ، أوله أن يشبع ، أو يشبع ويتزود ؟ على أقوال كما هو مقرر في كتاب الأحكام ، وليس من شرطِ جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم بل متى اضطر إلى ذلك جاز له

• روى ابو داود عن النجيع العامري أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : ٢٧ [ما يحل لنا من الميتة ؟ قال « ما طعامكم » قلنا : نصطبح ونغتبق . قال أبو نعيم فسّرهُ لي عقبة قدح غدوة ، وقدح عشية قال : ذاك وأبي الجوع وأحل لهم الميتة على هذه الحال .] تفرد به أبو داود وكأنهم كان يصطبحون ويغتبقون شيئاً لا يكفيهم ، فأحل لهم الميتة لتمام كفايتهم وقد يحتج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع ولا يتقيد ذلك بسد الرمق ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ غير متجانف لإثم ﴾ أي غير متعاطٍ لمعصية الله فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر . كما قال في سورة البقرة : ﴿ فمن اضطر غير باغٍ ولا عاد فلا إثم عليه إنَّ الله غفور رحيم ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾

لما ذكر الله تعالى ما حرّمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها . إمّا في بدنه أو في دينه أو فيهما ، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة كما قال تعالى: ﴿ وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم إلاّ ما اضطررتم إليه ﴾ قال بعدها : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث . روى ابن أبي حاتم عن عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين ، ٢٨ [سألا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ؟ فنزلت : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾] قال سعيد : يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم . وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوي فقال : ليس هو من الطيبات [1] رواه ابن أبي حاتم .

وقوله تعالى : ﴿ وما علّمتم من الجوارح مكلّبين ﴾ أي أحلّ لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها ، والطيبات من الرزق ، وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح ، وهي الكلاب والفهود والصقور وأشباهها كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة .

والمحكي عن الجمهور : أن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب ، لأنها تكلّب الصيد بمخالبها كما تكلّبه الكلاب فلا فرق وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم واختاره ابن جرير واحتج في ذلك بما رواه عن عدي بن حاتم ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال : ٢٩ [ما أمسك عليك فكل] واستثنى الإمام أحمد الكلب الأسودَ . لأنه عنده مما يجب قتله،ولا يحل اقتناؤه.لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال: ٣٠ [يقطع الصلاة الحمارُ والمرأةُ والكلب الأسودُ فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر ؟ قال : الكلب الأسود شيطان] وفي الحديث الآخر ٣١ [أن رسول الله ﷺ

(١) لا يعني أنه من المحرمات والمقصود بول الحيوانات التي يؤكل لحمها ، أما بول غير ذلك فمعلوم الحرمة .

أمر بقتل الكلاب ، ثم قال ما بالهم وبال الكلاب ، أُقتلوا منها كلّ أسود بهيم] وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهنّ جوارح من الجرح ، وهو الكسب ، كما تقول العرب : فلان جرح أهله خيراً ، أي كسبهم خيراً ، ويقولون : فلان لا جارح له أي لا كاسب له • وقال الله تعالى : ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ أي ما كسبتم من خير أو شر . وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الشريفة الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ ٣٢ [ان رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب فقلت فجاء الناس فقالوا : يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمّة التي أمرت بقتلها فسكت ، فأنزل الله تعالى : « يسألونك ما اذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين » الآية فقال النبي ﷺ « إذا ارسل الرجل كلبه وسمى ، فأمسك عليه فليأكل ما لم يأكل »]

وقوله تعالى : « مكلّبين » أي وما علـّمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها ، فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته وبمخلابه وظفره أنه لا يحل له ، كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء ولهذا قال تعالى : ﴿ تعلمونهن مما علمكم الله ﴾ هو أنه إذا أرسله استرسل ، وإذا أشلاه (١) استشلى ، واذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ، ولايمسكه لنفسه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ فمتى كان الجارح معلماً وأمسك على صاحبه ، وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله ، حل الصيد ، وإن قتله بالإجماع ، وقد وردت السنّة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة ؛ كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال : ٣٣ [قلت : يا رسول الله إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر أسم الله ؛ فقال « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكُلْ ما أمسك عليك » فقلت : وإن قتلن ؟ قال « وان قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها ، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسمِّ على غيره » قلت له : فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب فقال : « إذا رميت بالمعراض فخزق فكله ، وإن أصابه بعرض فإنه وقيذ،فلا تأكله»] وفي لفظ لهما ٣٤ [إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله فإن أمسك عليك فأدركته حياً ، فاذبحه وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله ، فإن أخذَ الكلب ذكاتُه] وفي رواية لهما ٣٥ [فإن أكل فلا تأكلْ فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه] فهذا دليل للجمهور وهو الصحيح من مذهب الشافعي وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً ، ولم

---

(١) قلت : إذا أشلاه استشلى : أي إذا دعاه أتى .

يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث ؛ وحكي عن طائفة من السلف أنهم قالوا : لا يحرم مطلقاً . — أي هناك تفصيل —

﴿ ذكر الآثار بذلك ﴾

ذكرت آثار ثابتة عن سلمان الفارسي وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وابن عمر وهو محكي عن علي وابن عباس تتلخص : في أن الكلب إذا أرسل وكان معلماً فصيده يؤكل إذا أكل الكلب منه أولم يأكل حتى لو أكل ثلثيه فيؤكل الثلث الباقي .

وقد روى ابو داود عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن أعرابياً يقال له أبو ثعلبة قال : يا رسول الله إنّ لي كلاباً مكلّبة فأفتني في صيدها.فقال النبي ﷺ ٣٦ [« إن كان لك كلاب مكلبة ، فكل مما أمسكن عليك » فقال : ذكياً وغير ذكي ، وإن أكل منه قال « نعم وإن أكل منه » فقال يا رسول الله ، أفتني في قوسي ، قال : « كل ما ردت عليك قوسك ، » قال ذكياً وغير ذكي ؟ قال « وإن تغيب عنك ما لم يصل أو تجد فيه أثر غير سهمك » قال أفتني في آنية المجوس إذا اضطررنا إليها ، قال : « إغسلها وكل فيها »] هكذا رواه ابو داود وقد أخرجه النسائي ، وكذا رواه ابو داود من طريق يونس بن سيف عن أبي أدريس الخولاني عن أبي ثعلبة ، قال قال رسول الله ﷺ ٣٧ [إذا أُرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وان أكل منه ، وكل ما ردت عليه يدك .] وهذان إسنادان جيدان .

وقد روى الثوري عن عدي قال : قال رسول الله ﷺ ٣٨ [« ما كان من كلب ضار أمسك عليك فكل » قلت : وإن أكل ؟ قال « نعم »] فهذه آثار دالةعلى أنه يغتفر ، وإن أكل منه الكلب ، وقد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه كما تقدم .. وقد توسط آخرون فقالوا : إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدي بن حاتم وللعلة التي اشار اليها النبي ﷺ : [فإن [١] أكل فلا تأكل ، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع فأكل منه لجوعه ، فإنه لا يؤثر في التحريم وحملوا على ذلك حديث أبيثعلبة الخشنيوهذا تفريق حسن ، وجمع صحيح بين الحديثين .

---

(١) ورد في الحديث رقم /٣٥ /

وقوله تعالى: ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ أي عند إرساله له كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم: [إذا أرسلت (١) كلبك المعلم، وذكرتَ اسم الله فكلْ ما أمسك عليك] وفي الحديث عن أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضاً: [اذا (٢) أرسلت كلبك فاذكر اسم الله وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله] ولهذا اشترط من اشترط من الأئمة كالإمام أحمد رحمه الله في المشهور عنه، التسمية عند إرسال الكلب والرمي بالسهم. وهذا القول هو المشهور عن الجمهور أنّ المراد بهذه الآية عند الإرسال وقال ابن عباس: إذا أرسلت جارحك فقل: بسم الله وإن نسيت فلا حرج.

وقال بعض الناس: المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله علّم ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال: ٣٩ [سمّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك]

* وفي صحيح البخاري عن عائشة أنهم قالوا: ٤٠ [يا رسول الله، إنّ قوماً يأتوننا حديثٌ عهدهم بكفر بلُحمان لا ندري أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: « سموا الله أنتم وكلوا »]

وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عبيد بن عمير ان امرأةً منهم يقال لها أم كلثوم حدثته عن عائشة ٤١ [إن رسول الله ﷺ كان يأكل طعاماً في ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابي جائع فأكله بلقمتين، فقال « أما إنه لو ذكر اسم الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم، فليذكرِ اسمَ الله، فإن نسيَ اسم الله في أوله، فليقل باسم الله أوله وآخره »] رواه أحمد أيضاً وأبو داود والترمذي والنسائي من غير وجه عن هشام الدستوائي به وقال الترمذي: حسن صحيح. وروى مسلم وأهل السنن إلا الترمذي من طريق ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر بن عبدالله عن النبيّ ﷺ قال: ٤٢ [إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله. قال الشيطان: أدركتم المبيت فإذا لم يذكراسم الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء] لفظ أبو داود.

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(١) و (٢): راجع الحديث رقم /٣٣/ و الحديث رقم /٣٧/.

حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ۞ (٥)

لما ذكر تعالى ما حرّمه على عباده المؤمنين ، من الخبائث وما أحل لهم من الطيبات ، قال بعده : ﴿ اليوم أحلّ لكم الطيبات ﴾ ثم ذكر ذبائح أهل الكتابيْن ، من اليهود والنصارى فقال تعالى : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعني ذبائحهم ، وهذا أمر مجمَع عليه بين العلماء ، إن ذبائحهم حلال للمسلمين ، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله ، وإن اعتقدوا فيه تبارك وتعالى ما هو منزه عنه ، تعالى وتقدس .

وقد ثبت في الصحيح : عن عبدالله بن مغفل ، قال : ٤٣ [أدلى بجراب من شحم يوم خيبر ، فحضنته ، وقلت : لا أعطي اليوم من هذا أحداً ، والتفت فإذا النبي ﷺ يبتسم] فاستدل به الفقهاء ، على أنه يجوز تناولُ ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة ، وهذا ظاهر ، واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على المالكية في منعهم أكلَ ما يعتقد اليهودُ تحريمَه من ذبائحهم ، كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم. واجود منه في الدلالة؛ ما ثبت في الصحيح، ٤٤ [أن أهل خيبر أهدوا لرسول‌الله ﷺ شاة مصليّة وقد سمّوا ذراعها وكان يعجبه الذراع ، فتناول فنهش منه نهشةً فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه ، وأثر ذلك في ثنايا رسول الله ﷺ وفي أبهره وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات ، فقتل اليهودية التي سمتها ، وكان اسمها زينب] ، ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ، ولم يسألهم هل نزعوا منها ما يعتقدونه حراماً من شحمها أم لا . ولم يبح ذبائح من عدا اليهود والنصارى من أهل الشرك ، ومن شابهم ، لأنهم لم يذكروا اسم الله على ذبائحهم بل ويأكلون الميتة بخلاف أهل الكتابين. ومن غير أهل الكتاب من يعاملون بأخذ الجزية منهم تبعاً وإلحاقاً لأهل الكتاب ، ومع ذلك فإنّه لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم ، وإن قوله تعالى : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ دل بمفهومه مفهومَ المخالفة على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل .

وقوله تعالى: ﴿وطعامكم حلٌّ لهم﴾ أي ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة فأما الحديث الذي فيه ٤٥ [لا تصحب إلاّ مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي] فمحمول على الندب والاستحباب، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ أي وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات وذكر هذا توطئة لما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أي المحصنات العفيفات عن الزنا. كما قال تعالى: ﴿محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان﴾. وقد كان الناس لا ينكحون الكتابيات بعد أن نزلت الآية التي في سورة البقرة وهي: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾ حتى نزلت الآية: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ فجعلوا هذه مخصصةً للتي في سورة البقرة: ﴿ولا تنكحوا المشركات ...﴾ وقوله تعالى: ﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أي مهورهن أي كما هن محصنات عفائف فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس. وقوله تعالى: ﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾ فكما شرط الإحصان في النساء، وهي العفة عن الزنا، كذلك شرطها في الرجال ان يكونوا محصنين عفيفين، ولهذا قال تعالى: ﴿غير مسافحين﴾ وهم الزناة، ﴿ولا متخذي أخدان﴾ أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلاّ معهن، ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصحُّ نكاح المرأة البغي حتى تتوب، وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوبَ لهذه الآية، وللحديث: ٤٦ [لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله] وقال ابن جرير عن الحسن، قال: قال عمر بن الخطاب لقد هممت أن لا أدع أحداً أصاب فاحشةً في الإسلام أن يتزوج محصنةً؛ فقال له أُبيُّ بنُ كعب: يا أمير المؤمنين، الشرك أعظم من ذلك، وقد يقبل منه إذا تاب. وسيأتي الكلام على هذه المسألة مستقصى عند قوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ [1] ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾

(١) راجع الآية رقم /٣/ من سورة / النور / رقم /٢٤/

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلوة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ۞ (٦) ﴾

قال كثيرون من السلف في قوله تعالى : ﴿ إذا قمتم الى الصلاة ﴾ يعني وأنتم محدثون وقال آخرون : إذا قمتم من النوم إلى الصلاة ، وكلاهما قريب . وقال آخرون : بل المعنى أعم من ذلك ، فالآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حق المحدث واجب ، وفي حق المتطهّر ندب ، وقيل : إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام ثم نسخ فصار مستحباً كما يستأنس من مداومة ابن عمر على إسباغ الوضوء لكل صلاة فيه دلالة على استحباب ذلك كما هو مذهب الجمهور .

روى ابن جرير عن ابن سيرين : أن الخلفاء كانوا يتوضأون لكل صلاة . روى الإمام أحمد عن بريدة قال ٤٧ : [كان رسول الله ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه ، وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر : يا رسول الله ، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله قال : « إني عمداً فعلته يا عمر »] وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث سفيان وقال الترمذي حسن صحيح . روى ابن جرير عن النزال بن سبرة قال : [رأيت علياً صلى الظهر ثم قعد للناس في الرحبة ، ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه ، ثم مسح برأسه ورجليه ، وقال : هذا وضوء من لم يحدث] وروى ابن جرير عن إبراهيم : [إن علياً اكتال من حب فتوضأ وضوءً فيه تجوز فقال : هذا وضوء من لم يحدث] [1] روى ابن جرير أيضاً عن أنس : [توضأ عمر بن الخطاب

(١) وهذه طرق جيدة عن علي يقوي بعضها بعضاً .

وضوءً فيه تجوّز خفيفاً فقال : هذا وضوء من لم يحدث] وهذا إسناد صحيح وهكذا فإن مشروعية الوضوء استحباباً فقد دلت عليه السنة .

وقوله تعالى : ﴿ فاغسلوا وجوهكم ﴾ قد استدل طائفة من العلماء بقوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ على وجوب النية في الوضوء ، لأن تقدير الكلام ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ لها ، كما تقول العرب إذا رأيت الأمير ، فقم ، أي له ، وقد ثبت في الصحيحين : ٤٨ [الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرىء ما نوى] ويستحب أن يذكر اسم الله على الوضوء ، لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أنه قال ٤٩ : [لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه] ويستحب غسل الكفين قبل إدخالهما في الإناء ، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم ، لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال ٥٠ : [إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثاً فان أحدكم لا يدري أين باتت يده] .

حدُّ الوجه من منبت الشعر طولاً إلى منتهى اللحيين والذقن ، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً وفي المسترسل من اللحية عن محل الفرض ، قولان (أحدهما) أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة . وروي في الحديث ٥١ : [إن النبي ﷺ رأى رجلاً مغطياً لحيته فقال : « اكشفها فإن اللحية من الوجه »] ويستحب تخليل اللحية الكثيفة وصح أنه خلَّل لحيته ثلاثاً من غسل وجهه ، روى الامام أحمد عن شقيق ٥٢ [قال رأيت عثمان توضأ ، فذكر الحديث ؛ قال وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتموني فعلتُ] رواه الترمذي وحسنه ورواه ابن ماجه ، وحسنه البخاري . قال البيهقي ... وروينا في الرخصة في ــ ترك تخليل اللحية ــ عن ابن عمر والحسن بن علي ثم عن النخعي وجماعة من التابعين .

٥٣ [وثبت عن النبي ﷺ في الصحاح أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق] . فاختلف الأئمة في ذلك ، هل هما واجبان في الوضوء والغسل[١] أو مستحبان؟ روى الإمام أحمد عن ابن عباس ٥٤ [أنه توضأ فغسل وجهه ، أخذ غَرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر ثم أخذ غرفةً فجعل بها هكذا ، يعني أضافها إلى يده الأخرى ، فغسل بها وجهه ثم أخذ

(١) قلت : صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ٥٤ (الفم والأنف من الوجه والأذنان من الرأس) فثبت بهذا الحديث وجوب المضمضة والاستنشاق لكون الفم والأنف من الوجه والوجه غساه واجب كما ثبت بهذا الحديث وجوب مسح الأذنين .

غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى ، ثم مسح رأسه ، ثم أخذ غرفة من ماء ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى ؛ ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يعني يتوضأ] ورواه البخاري . وقوله تعالى : ﴿ وأيديكم إلى المرافق ﴾ أي مع المرافق عن جابر بن عبدالله قال ٥٥ : [كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه [١] /ض/] . ويستحب أن يغسل العضد مع ذراعيه لما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ ٥٦ : [إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرّته فليفعل] .

وقوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ الباء هنا للإلصاق وقد ثبت في الصحيحين في صفة وضوئه ﷺ عن عبدالله بن زيد بن عاصم أن رجلاً قال له ٥٧ : [هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ فقال عبدالله بن زيد : نعم فدعا بوضوء ... ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر بدأ بمقدم رأسه ، ثم ذهب بهما إلى قفاه ، ثم ردّهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه ثم غسل رجليه] وعن عليّ نحو هذا [٢] وروى أبو داود عن معاوية والمقداد بن معديكرب في صفه وضوئه ﷺ مثله ؛ ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس كما هو مذهب مالك وأحمد ..

وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس ، وهو مقدار الناصية ، وقال الشافعية إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح ، فلو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة الذي فيه ... فغسل ذراعيه ومسح بناصيته ، وعلى العمامة، وعلى خفّيه وباقي الحديث في صحيح مسلم وغيره فقال لهم أصحاب الإمام أحمد : إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة ونحن نقول بذلك ، وانه يقع عن الموقع .كما وردت بذلك أحاديث كثيرة وإنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين ، فهذا أولى وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة . وقوله تعالى : ﴿ وأرجلَكم إلى الكعبين ﴾ قريء وأرجلُكم بالنصب عطفاً على فاغسلوا وجوهكم وأيديكم . قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قرأهـــا وأرجلَكم يقول : رَجَعَتْ الى الغَسْلِ .

---

(١) فيه القاسم بن محمد متروك وجده ضعيف والله أعلم / ابن كثير/. (٢) من رواية عبد خير فما يقول الشيعة ...؟

وروي عن عبدالله بن مسعود وعروة وعطاء وعكرمة والحسن ومجاهد ، وإبراهيم والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان والزهري وإبراهيم التيمي نحو ذلك ، وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل كما قاله السلف ، ومن هاهنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء كما هو مذهب الجمهور خلافاً لأبي حنيفة الذي لم يشترط الترتيب ؛ بل لو غسل قدميه ، ثم مسح رأسه ، وغسل يديه ، ثم وجهه ، أجزأه ... !!! لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء ، والواو لا تدل على الترتيب وقد أجاب الجمهور : الآية دلت على وجوب التعقيب المقتضي للترتيب من /الفاء/ من قوله تعالى : ﴿... فاغسلوا وجوهكم﴾ فدل على وجوب غسل الوجه ابتداءً عند القيام إلى الصلاة لأنه مأمور به بفاء التعقيب وهي مقتضية للترتيب ، وقال آخرون قولاً آخر رداً على الحنفية لا يخلو إما أن يكون الرسول ﷺ توضأ مرتباً ، فيجب الترتيب ، أو يكون توضأ غير مرتب فيجب عدم الترتيب ، ولا قائل به ، فوجب ما ذكرناه ، أي وجوب الترتيب .

* * *

وأما القراءة الأخرى وهي قراءة الخفض ... فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين ، لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس ، وقد جاءت هذه القراءة بالخفض . إما على المجاورة وتناسب الكلام كما في قول العرب : جحر ضبٍ خربٍ ، وكقوله تعالى : ﴿عاليهم ثياب سندسٍ خضرٍ وإستبرق﴾ وهذا شائع في لغة العرب سائغ . وإما محمول على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان ، وعلى كل فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بدّ منه للآية والأحاديث التي سنوردها .

على أن جماعة قالوا : هي دالّة على المسح ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف ومن أحسن ما يستدل على ذلك ما رواه الحافظ البيهقي حيث قال بسنده ٥٨ [عن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر ، ثم قعد في حوائج الناس في رحبة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر ثم أتي بكوز من ماء فأخذ منه حفنة واحدة فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه ثم قام فشرب فضلته وهو قائم ثم قال : ان أناساً يكرهون الشرب قائماً ، وان رسول الله ﷺ صنع كما صنعت وقال هذا وضوء من لم يحدث »] رواه البخاري في الصحيح عن آدم ببعض معناه . ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف فقد ضل وأضل .

﴿ ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه ﴾

روي عن أمير المؤمنين عثمان وعلي بن أبي طالب وابن عباس ومعاوية وعبدالله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معد يكرب ٥٩ [أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه إما مرةً وإما مرتين أو ثلاثاً] ، على اختلاف رواياتهم. وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ٦٠ [أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه . ثم قال : « هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلاّ به »] .

وفي الصحيحين عن عبدالله بن عمرو قال ٦١ : [تخلّف عنا رسول الله ﷺ في سفرةٍ سافرناها ، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ، صلاة العصر ، ونحن نتوضأ ، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته [« أسبغوا الوضوء ويلٌ للأعقاب من النار »] وكذلك هو في الصحيحين من حديث أبي هريرة .

وفي صحيح مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال ٦٢ : [أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار] .

روى ابن جرير عن أبي أمامة أو عن أخي أبي أمامة ٦٣ [أن رسول الله ﷺ أبصر قوماً يصلون ، وفي عقب أحدهم أو كعب أحدهم مثل موضع الدرهم أو موضع الظفر لم يمسه الماء فقال « ويل للأعقاب من النار » قال فجعل الرجل إذا رأى في عقبه شيئاً لم يصبه الماء أعاد وضوءه] .

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة ، وذلك لو كان فرض الرجلين مسحهما ، أو أنه يجوز ذلك فيهما لما توعّد على تركه ، لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف . وهكذا وجّه هذه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى .

وقد روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب ٦٤ : [« أنّ رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبي ﷺ وقال « إرجع فأحسن وضوءك . »] ومن رواية أحمد ٦٥ [أمره أن يعيد الوضوء] [1]

وقال الامام أحمد وأهل السنن عن لقيط بن صبره قال ٦٦ [قلت يا رسول الله

---

(١) وفي رواية أبي داود زيادة : « والصلاة » وهذا اسناد جيد قوي صحيح .

أخبرني عن الوضوء فقال : « أسبغ الوضوء ، وخلل بين الأصابع ، وبالغ في الاستنشاق إلاّ أن تكون صائماً »]

وقال الإمام أحمد من بعض حديث له ٦٧ : [... ثم يغسل قدميه كما أمره الله ...][1] عن عمرو بن عبسة (رض) وهو في صحيح مسلم من وجه آخر ، وفيه : ... ثم يغسل قدميه كما أمر الله . فدلّ على أن القرآن يأمر بالغسل . وهكذا روى أبو اسحق السبيعي عن الحارث عن علي بن أبي طالب (رض) أنه قال ٦٨ : [اغسلوا القدمين الى الكعبين كما أمرتم] .

ومن ههنا يتضح لك المراد من الحديث الذي رواه عبد خير عن علي ٦٩ [أن رسول الله ﷺ رش على قدميه الماء وهما في النعلين ، فدلكهما] ، إنما أراد غسلاً خفيفاً ، وهما في النعلين ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها ، ولكن في هذا رد على المتعمقين والمتنطعين من الموسوسين .

وهكذا روى ابن جرير عن حذيفة قال ٧٠ : [أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم ، فبال قائماً ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على نعليه] وهو حديث صحيح وقد أجاب ابن جرير عنه بأن الثقات الحفاظ رووه عن الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة ، قال ٧١ [فبال قائماً ثم توضأ ومسح على خفيه .] قلت : ويحتمل الجمع بينهما بأن يكون في رجليه خفان وعليهما نعلان . وفي رواية أحمد عن أوس بن أبي أوس قال ٧٢ : [رأيت رسول الله ﷺ توضأ ومسح على نعليه ، ثم قام إلى الصلاة] وفي رواية أبي داود عن أوس نفسه قال ٧٣ : [رأيت رسول الله ﷺ أتى سباطة قوم ، فبال وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه]

قال ابن جرير : وهذا محمول على أنه توضأ كذلك هو غير محدث وهكذا فقد صح عنه ﷺ الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء بالنقل المستفيض ، القاطع عذر من انتهى اليه وبلغه . وقد زعم البعض أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين استناداً إلى رواية لم تصح عن علي (رض) بينما الثابت عن علي (رض) ثبوت المسح على الخفين ، كما ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة . قال الإمام أحمد عن جرير بن عبدالله البجلي ٧٤ : [أنا أسلمت بعد نزول المائدة وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح [2] بعدما أسلمت .]

---

(١) عن عمرو بن عبسة ... وقال في آخر الحديث : لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا ، لقد سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع مرات وأكثر من ذلك . وإسناده صحيح . (٢) أي على الخفين .

وفي الصحيحين عن همام قال ٧٥ : [بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه ، فقيل : تفعل هذا ؟ فقال نعم ، رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه] وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلاً .

* * *

وقد خالفت الروافض في ذلك بلا مستند ، بل بجهل وضلال مع أنه ثابت في صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رض) مثلما ثبت في الصحيحين عن علي (رض) عن النبي ﷺ النهي عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها ، وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة ، وهم مخالفون لذلك كله . وكذلك خالفوا في الكعبين اللذين هما العظمان الناتئآن عند مفصل الساق والقدم كما دلت عليه السنة ، ففي الصحيحين : ٧٦ [عن عثمان أنه توضأ فغسل رجله اليمنى إلى الكعبين واليسرى مثل ذلك] .

وروى البخاري تعليقاً مجزوماً به ، وأبو داود ، وابن خزيمة في صحيحه عن النعمان بن بشير قال : ٧٧ [أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال : « أقيموا صفوفكم – ثلاثاً – والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفنَّ الله بين قلوبكم » قال : فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه ، وركبته بركبة صاحبه ، ومنكبه بمنكبه .] لفظ ابن خزيمة . فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه إلا والمراد به العظم الناتىء في الساق حتى يحاذي كعبه كعب الآخر . فدل ذلك على ما ذكرناه من أنهما العظمان الناتآن عند مفصل الساق والقدم كما هو مذهب أهل السنة . وعند الروافض أنهما في ظهر القدم وفي كل رجل كعب واحد فتأمل ...

وقوله تعالى : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾ كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء [1] فلا حاجة بنا إلى إعادته لئلا يطول الكلام وقوله تعالى : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ أي يسر ولم يعسر بل أباح التيمم عند المرض وفقد الماء توسعة عليكم ورحمة وأقامه مقام الماء إلاّ من بعض الوجوه كما تقدم بيانه .

---

(١) راجع الآية رقم /٤٣/ من سورة النساء رقم /٤/ .

وقوله تعالى : ﴿ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلّكم تشكرون﴾ أي فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة ، وقد حثت السنة على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة وفي صحيح مسلم عن عمر (رض) عن النبي ﷺ ٧٨ [ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ، يقول : أشهد أن لا آله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء] ولمسلم أيضاً عن كعب بن مرة قال : قال رسول الله ﷺ ٧٩ : [ما من رجل يتوضأ فيغسل يديه أو ذراعيه ، إلاّ خرجت خطاياه منهما ، فاذا غسل وجهه خرجت خطاياه من وجهه ، فإذا مسح رأسه خرجت خطاياه من رأسه فإذا غسل رجليه خرجت خطاياه من رجليه] . وله أيضاً عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : ٨٠ [الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض ، والصوم جنة والصبر ضياء والصدقة برهان ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها .] وله أيضاً رحمه الله تعالى عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ ٨١ : [لا يقبل الله صدقة من غلول ، ولا صلاة بغير طهور] . وكذا رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث شعبة .

وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ❁ (٧) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ❁ (٨) وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ❁ (٩) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ ❁ (١٠) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ❁ (١١)

يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمته عليهم في شرعه لهم الدّين العظيم ، وإرساله اليهم هذا الرسول الكريم ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعته ومناصرته وإبلاغ دينه وقبوله منه ؛ فقال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ . وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم كما قالوا : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله ؛ وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ أمر بالمواظبة على التقوى في كل حال ، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر ، فقال تعالى ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ﴾ أي كونوا قوامين بالحق لله عز وجل لا لأجل الناس والسمعة وكونوا ﴿ شهداء بالقسط ﴾ أي بالعدل ، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال ٨٢ : [نحلني أبي نحلاً فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي ، فقال : « أكلّ ولدك نحلت مثله » فقال : لا... فقال : « اتقوا الله واعدلوا في أولادكم »وقال « إني لا أشهد على جور . قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة .] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ أي لا يحملنّكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل اعدلوا في الصديق والعدو.ولهذا قال : ﴿ إعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ أي عدلكم أقرب للتقوى من تركه . وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي وسيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها خيراً أو شراً ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وأجر عظيم ﴾ وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده لا ينالونها بأعمالهم بل برحمةٍ منه وفضل . مع العلم أن أعمالهم جعلها تعالى سبباً إلى نيل رحمته ، وفضله وعفوه ورضوانه ، فالكل منه وله ، فله الحمد والمنة .

ثم قال تعالى:﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ وهذا من عدله تعالى وحكمته وحكمه الذي لا يجور فيه ، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير . وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم ﴾

روى عبد الرزاق عن جابر ٨٣ : [أن النبي ﷺ نزل منزلاً وتفرق الناس في

العضاه [1] يستظلون تحتها ، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة ، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسلّه ، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال : من يمنعك مني ؟ قال : « الله عز وجل » قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً : من يمنعك مني ؟ والنبي ﷺ يقول «الله» قال [2] فشام الأعرابي السيف ، فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي وهو جالس إلى جنبه ، ولم يعاقبه .] وقال معمر : كان قتادة يذكر نحو هذا ويذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ فأرسلوا هذا الإعرابي .

وتأوّل ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم ... ﴾ الآية ؛ وقصةُ هذا الأعرابي وهو غورث بن الحارث ، ثابتة في الصحيح .

وقيل أنها نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا بالنبي ﷺ وأصحابه في دار كعب بن الأشرف . رواه ابن أبي حاتم .

وقيل أنها نزلت في بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى ، لما جاءهم بستعينهم في دية العامريين فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالأوا عليه . وقوله تعالى : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ يعني من توكل على الله كفاه الله ما أهمه ، وحفظه من شر الناس وعصمه ، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدو إليهم فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۞ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا

(١) العضاه : كل شجر يعظم و له شوك . (٢) شام السيف : أغمده .

قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۞ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۞ (١٤)

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ وأمرهم بالقيام بالحق ، والشهادة بالعدل ، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم إليه من الحق والهدى ، شرع يبيّن لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه ، أعقبهم ذلك لعناً منه لهم ، وطرداً عن بابه وجنابه ، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق ، وهو العلم النافع ، والعمل الصالح ؛ فقال تعالى : ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه . وقد ذكرت التوراة في السفر الرابع تعداد النقباء على أسباط بني اسرائيل : فعلى بني روبيل : البصور بن سادون ، وعلى بني شمعون ، شموال بن صورشكي ، وعلى بني يهوذا : الحشون بن عمياذاب . وعلى بني يساخر شال بن صاعون ، وعلى بني زبولون : الياب بن حالوب ، وعلى بني افرايم : منشا بن عمنهور وعلى بني منشا حمليا ئيل بن يرصون ، وعلى بني بنيامين : أبيدن بن جدعون ، وعلى بني دان : جعيذر بن عميشذي ، وعلى بني أشار : نحايل بن عجران ، وعلى بني كان : السيف بن دعوايل وعلى بني نفتالي أجزع بن عمينان . وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة ، كان فيهم إثنا عشر نقيباً : ثلاثة من الأوس ، وهم : أسيد بن الحضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعة بن عبد المنذر ، ويقال بدله أبو الهيثم بن التيهان . وتسعة من الخزرج وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبدالله بن رواحة ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء بن معرور ، وعبادة بن الصامت ، وسعد بن عبادة وعبدالله بن عمرو بن حرام ، والمنذر بن عمر بن حنيش رضي الله عنهم أجمعين .

وهؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذٍ عن أمر النبيّ ﷺ لهم بذلك ، وهم الذين

وُلوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة .

وفي الصحيحين من حديث جابر بن سمرة ، قال ٨٢ : [سمعت النبي ﷺ يقول : « لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً » ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عليّ فسألت أي ماذا قال النبي ﷺ ؟ قال : كلهم من قريش »] وهذا لفظ مسلم .

ومعنى هذا الحديث : البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ، ويعدل فيهم ، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم ، بل قد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، رضي الله عنهم ، ومنهـــم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة ، وبعض بني العباس ، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة ، والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره فذكر أنه يواطىء اسمه اسم النبي ﷺ ، واسم أبيه اسم أبيه ، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً .

وليس هذا ، بالمنتظر الذي تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامرا ، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود له بالكلية ، بل هو من هوس العقول السخيفة [1] وتوهم الخيالات الضعيفة وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الإثني عشر الذين يعتقد فيهم الروافض من الأئمة الاثني عشر الذين يزعمون فيهم العصمة = وفي هؤلاء من الأخيار من لا يرضى المقالات التي تقال فيهم لم يدَّعها أحدٌ منهم لنفسه ألبتَّة ، وكل قول ينسب إليهم مؤيداً هذه الترهات ، هم برآء منه . ويعلمون أنفسهم (رض) أنهم غير معصومين . وما العصمة إلا للأنبياء فحسب. وان الله سينصر دينه ويعلي كلمته ويحق الحق بإذنه وسيعود المسلمون ـــ بإذن الله ـــ أمةً واحدة تهتدي بخير الكلام كلام الله ، وبخير الهدى هدى محمد ﷺ . = [2]

وقوله تعالى : ﴿ وقال الله إني معكم ﴾ أي بحفظي ونصري ﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي ﴾ أي صدقتموهم ﴿ وعزرتموهم ﴾ أي نصرتموهم في الحق ﴿ وأقرضتم الله قرضاً حسناً ﴾ وهو الإنفاق في سبيله ، وابتغاء مرضاته . ﴿ لأكفرنَّ عنكم سيآتكم ﴾ أي ذنوبكم أمحوها وأسترها ، ولا أؤاخذكم بها ، ﴿ ولأدخلنكم جنات

---

(١) قلت : بل من مؤامرات الشعوبيين الذين ملئت قلوبهم حقداً على الاسلام والمسلمين حتى يعلقوا أحلام الناس بمجهول مفقود ، ويتواكلوا فيتركوا الجهاد حتى يلد السرداب هذا المنتظر ... ؟ مسكين هذا السرداب المتهم بابتلاع هذا المهدي المعدوم ، إنه وذئب ابن يعقوب ، المتهمان البريئآن .

(٢) قلت : إن الكلام ما بين « المساويين » من كلامي وليس من كلام ابن كثير رحمه الله .

تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي أدفع عنكم المحذور . وأحصل لكم المقصود . وقوله تعالى : ﴿ فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ أي فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده . وجحده فقد أخطأ الطريق . وعدل إلى الضلال . ثم أخبر تعالى عما حلّ بهم من العقوبة عند مخالفتهم لميثاقه . فقال تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم ﴾ بسبب نقضهم الميثاق وطردناهم عن الهدى ﴿ وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ فلا يتعظون لغلظها وقساوتها ﴿ يحرّفون الكلم عن مواضعه ﴾ أي تصرفوا في آيات الله وتأوّلوها على غير ما أنزلت وقالوا على الله ما لم يقل عياذاً بالله من ذلك ﴿ ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ أي رغبوا عن العمل بدينهم فآلوا إلى أردىء حال ، فلا فطر مستقيمة ولا أعمال قويمة . ﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴾ يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك حين تمالأوا على الفتك برسول الله ﷺ ، ﴿ فاعف عنهم واصفح ﴾ وهذا هو عين النصر ﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾ يعني به الصفح عمن إساء إليك . وقال قتادة : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ﴾ أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومؤازرته ومناصرته وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ، ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق ، ونقضوا العهود ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فنسوا حظاً مما ذُكّروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ أي أن طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفّر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها ، فالملكية تكفّر اليعقوبية وكذلك الآخرون ، وكذلك النسطورية والآريوسية ، كل طائفة تكفّر الأخرى ثم قال تعالى : ﴿ وسوف ينبّئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ وهذا تهديد ووعيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ ، وما نسبوه إلى الرب عز وجل وتعالى وتقدّس عن قولهم علواً كبيراً ، من جعلهم له صاحبة وولداً ، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم

مِنَ اللهِ نورٌ وَكِتابٌ مُبينٌ ❁ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ❁ (١٦)

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض عربهم وعجمهم ، أمّيهم وكتابيّهم فقال تعالى : ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾ أي يبين ما بدلوه وحرفوه وأوّلوه وافتروا على الله فيه ، ويسكت عن كثير مما غيروه ، ولا فائدة في بيانه . وقد روى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس (رض) قال : من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب قوله تعالى : ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ فكان الرجم مما أخفوه ؛ ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيّه الكريم فقال تعالى : ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾ أي طرق النجاة ، ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ أي ينجيهم من المهالك ، ويوضح لهم أبين المسالك .

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَٱللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ❁ (١٧) وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ❁ (١٨)

يخبر تعالى حاكياً عن كفر النصارى في ادعائهم في المسيح بن مريم ، وهو عبد من

عباد الله ، وخلق من خلقه أنّهُ هو الله ؛ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء ، وكونها تحت قهره وسلطانه ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعاً ﴾ أي لو أراد ذلك ، فمن يملك منعه من ذلك ، ويقدر على صرفه عن ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء ﴾ أي جميع الموجودات ملكُه وخلقه ، وهو على كل شيء قدير . وهذا ردٌّ على النصارى ، عليهم من الله ما يستحقون . ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه ، وله بهم عناية ، وهو يحبنا ، فرد الله عليهم : ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءَه ، فلمَ أعدَّ لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم ؟ ﴿ بل أنتم بشر ممَّن خلق ﴾ أي لكم أسوة أمثالكم من بني آدم وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أي هو فعال لما يريد لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴿ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه وإليه المرجع والمآب ، فيحكم في عباده بما يشاء ، وهو العادل الذي لا يجور .

﴿ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * (١٩) ﴾

يخاطب الله أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً ﷺ خاتم النبيين والرسل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ على فترة من الرسل ﴾ أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله ، وعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي ؟ فقد روى البخاري عن سلمان الفارسي أنها ستمأة سنة وثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال ٨٥ : [أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي] وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له خالد بن سنان . والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل فكانت النعمة به أتم النعم ، والحاجة إليه أمر عممٌ ، فان الفساد والجهل قد ظهر في سائر العباد إلاَّ قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين من بعض أهل الكتاب : ومن بعض حديث رواه الامام أحمد

عن عياض عن حماد المجاشعي (رض) جاء فيه : ان النبي ﷺ خطب فيما خطب ٨٦ : [: ... وان الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني اسرائيل . — وفي لفظ لمسلم : — من أهل الكتاب] وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمداً ﷺ ، فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور ، وتركهم على المحجة البيضاء والشريعة الغراء ولهذا قال تعالى : ﴿ أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ أي لئلا تحتجوا أو تقولوا يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيروه ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر ، فقد جاءكم بشير ونذير محمد ﷺ ، ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ قال ابن جرير : معناه إني قادر على عقاب من عصاني ، وثواب من أطاعني .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٢٠) يَا قَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۞ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۞ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ ۞ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ ۞ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ ۞ (٢٦) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة ، لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة فقال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء ﴾ أي كلما قبض نبيٌّ قام فيكم نبيٌّ من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بَعَده حتى عيسى عليه السلام الذي هو خاتم أنبياء بني اسرائيل ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء من الرسل كافة : محمد بن عبدالله المنسوب إلى اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام وهو أشرف من كل من تقدمه من الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ قال عبد الرزاق عن ابن عباس قال : الخادم والمرأة والبيت .

وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمّي ملكاً ، وقال ابن شوذب : كان الرجل من بني اسرائيل إذا كان له منزل وخادم واستؤذن عليه ، فهو ملك . وقال قتادة : كانوا أول من اتخذ الخدم . وقال مالك : بيت وخادم وزوجة . وقد ورد في الحديث ٨٧ [من أصبح منكم معافى في جسده ، آمناً في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها .]

وقوله تعالى : ﴿ وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين ﴾ يعني عالمي زمانكم ، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ﴾ والمقصود أنهم كانوا أفضل زمانهم ، وإلاّ فهذه الأمة أشرف منهم ، وأفضل عند الله ، وأكمل شريعة ، وأقوم منهاجاً ، وأكرم نبياً ، وأعظم ملوكاً ، وأغزر أرزاقاً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، وأوسع مملكة ، وأدوم عزاً . قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى عليه السلام لبني اسرائيل على الجهاد ، ودخول بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام ، ثم لم يزالوا فيها حتى خرجوا مع موسى ، فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين قد استحوذوا عليها وتملّكوها ، فأمرهم رسول الله ﷺ موسى بالدخول اليها وبقتال أعدائهم وبشّرهم بالظفر عليهم فنكلوا وعصوا

أمره ، فعوقبوا بالذهاب في التيــه ، والتمادي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد ، مدة أربعين عاماً عقوبة لهم ، على تفريطهم في أمر الله **فقال تعالى** مخبراً عن موسى أنه قال : ﴿ يا قومي ادخلوا الأرض المقدسة ﴾ أي المطهرة ـ وهي بيت المقدس ـ . وقوله تعالى : ﴿ التي كتب الله لكم ﴾ أي التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنه وراثة من آمن منكم ، ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم ﴾ أي لا تنكلوا عن الجهاد ﴿ فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون ﴾ أي اعتذروا بأن في هذه البلدة قوماً جبارين أهل قوة هائلة شديدة ، فلا نقدر على حربهم ، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها ، فإن يخرجوا منها دخلناها ، وإلاّ فلا طاقة لنا بهم .

وقوله تعالى : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ﴾ أي فلمّا نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ، ومتابعة رسول الله ﷺ ، حرّضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة ، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه ، ويقال إنهما يوشع بن نون ، وكالب بن يوفنا قاله ابن عباس وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله . فقالا : ﴿ ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ﴾ أي إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله ، نصركم الله على أعدائكم ، ودخلتم البلد التي كتبها الله لكم ، فلم ينفع ذلك فيهم شيئاً ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون ﴾ **وهذا نكول منهم عن الجهاد** ، ومخالفة لرسولهم ، ﷺ ، وكم من الفارق العظيم بين قوم موسى عليه السلام وصحابة نبينــا محمد ﷺ ، وما أحسن ما أجابوا به رسول الله ﷺ يوم بدر حين استشارهم في قتال النفير الذين جاءوا لحماية العير الذي كان مع أبي سفيان ، فلما فات اقتناص العير ، واقترب منهم النفير وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة ، والبيض واليلب .

فتكلم أبو بكر (رض) فأحسن ثم تكلم من المهاجرين من تكلم ورسول الله ﷺ يقول « أشيروا علي أيها المسلمون » وما يقول ذلك إلاّ ليستعلم ما عند الأنصار ، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذٍ فقال سعد بن معاذ : كأنك تعرّض بنا يا رسول الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنّا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقرّبه عينك، فسر بنا على بركة الله فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ذلك.

وكان ممن أجاب يومئذٍ أيضاً المقداد بن عمرو الكندي (رض) كما روى الإمام أحمد : عن طارق هو ابن شهاب ٨٨ [إن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر : يا رسول الله : انا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ إذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون] وقد رواه أيضاً عن عبدالله بن مسعود (رض) قال ٨٩ : [لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبَهُ أحب إليّ مما عدل به ، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى : ﴿ إذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ أشرق لذلك وسرّه ذلك] وهكذا رواه البخاري في المغازي وفي التفسير .

وقوله تعالى : ﴿ قال رب إني لا أملك إلاّ نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال ، غضب عليهم موسى عليه السلام وقال داعياً عليهم : ﴿ رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ﴾ أي ليس أحد يطيعني منهم فيمتثل أمر الله ويجيب إلى ما دعوت إليه إلاّ أنا وأخي هارون ﴿ فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ قال العوفي عن ابن عباس : يعني أقضِ بيني وبينهم وكذا قال الضحاك : اقض بيننا وبينهم ، وافتح بيننا وبينهم .

وقوله تعالى ﴿ قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ﴾ لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم مدة أربعين سنة فوقعوا في التيه يسيرون دائماً لا يهتدون للخروج منه وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام وإنزال المنّ والسلوى عليهم ، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً تجري لكل شعب عين ، وغير ذلك من المعجزات التي أيّد الله بها موسى بن عمران . وهناك نزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام ثم كانت وفاة هارون عليه السلام ، ثم بعده ثلاث سنوات وفاة موسى الكليم عليه السلام ، وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام ، نبياً خليفةً عن موسى بن عمران ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة ، ويقال : إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع ، وكالب فلما انقضت المدة ، خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام أو بمن بقي منهم وبسائر الجيل الثاني ، فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها ، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر ، فلما تضيّفت الشمس

للغروب وخشي دخول السبت عليهم، قال – يوشع – إنكِ مأمورة وأنا مأمور . اللهم احبسها علي فحبسها الله تعالى حتى فتحها ، وأمر الله يوشع بن نون أن يأمر بني اسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجداً ، وهم يقولون ﴿ حطة ﴾ أي حط عنا ذنوبنا ، فبدّلوا ما أمروا به ، ودخلوا يزحفون على أستاهم وهم يقولون : حبة في شعرة وقد تقدم هذا كله في سورة البقرة . (١)

وقوله تعالى : ﴿ فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ تسليةٌ لموسى عليه السلام عنهم أي لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به فانهم مستحقون ذلك . وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود ، وبيان فضائحهم ، ومخالفتهم لله ولرسوله ، ونكو لهم عن الجهاد ، وضعف نفوسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم ، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان ، وهو يعدهم بالنصر والظفر ، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق هو وجنوده وهم ينظرون لتقَرّبه أعينهم وما بالعهد من قدم ، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم ، فظهرت قبائحهم وفضائحهم هذا وهم في جهلهم يعمهون ، وهم البُغَضَاء إلى الله وأعداؤه ، ويقولون مع ذلك : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقردة ، وألزمهم لعنة ، تصحبهم إلى النار ذات الوقود ، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود . ولله الحمد والفضل .

حزب ١٢

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ آدَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ ۝ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلظَّالِمِينَ ۝ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ

---

(١) وذلك عند الآية /٥٨/ من تفسير سورة البقرة

مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ۝ (٣٠) فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّادِمِينَ ۝ (٣١)

يبيّن الله عاقبة البغي الوخيمة والحسد والظلم في خبر ابنيْ آدم ، وهما قابيل وهابيل ، كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله ، بغياً وحسداً ، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل ، ففاز المقتول هابيل بوضع الآثام والدخول إلى الجنة وخاب القاتل قابيل ، ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين. فقال تعالى: ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ﴾ ، أي اقصص على هؤلاء البغـاء الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم ، وأشباههم خبر ابنيْ آدم ... وقوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ أي على الجليّة ، والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ، ولا وهـم ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان ؛ كقوله تعالى ﴿إن هذا لهو القصص الحق ﴾ وكان خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف : إن الله تعالى شرع لآدم عليه السلام ، أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن قالوا : كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هابيل دميمة ، وأخت قابيل وضيئة ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه ، فأبى آدم ذلك إلاّ أن يقربا قرباناً ، فمن تقبل منه فهي له ، فتَقُبِّلَ من هابيل ولم يُتَقَبَّل من قابيل فكان من أمرهما ما قصّه الله في كتابه .

قال ابن ابي حاتم عن ابن عباس قال : نهي أن تنكح المرأة أخاها توأمها ، وأمر أن ينكحها غيره من أخوتها . وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة ؛ فبينما هم كذلك إذ ولد له أمرأة وضيئة وولد له أخرى قبيحة دميمة ، فقال أخو الدميمة : أنكحني أختك وأنكحك أختي ، فقال: لا ، أنا أحق بأختي ، فقرّبا قرباناً فتُقبلَ من صاحب الكبش ولم يتقبلْ من صاحب الزرع فقتله . إسناده جيد .

* * *

وروى العوفي عن ابن عباس قال: من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل فبينا ابنا آدم قاعدان ، إذ قالا لو قرّبنا قرباناً وكان الرجل اذا قرب قرباناً فرضيه الله أرسل إليه ناراً فتأكله ، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار ، فقرّبا

قرباناً ، وكان أحدهما راعياً وكان الآخر حراثاً ، وإن صاحب الغنم قرّب خير غنمه وأسمنها ، وقرب الآخر بعض زرعه ، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع ، وإن ابنَ آدم قال لأخيه : أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قرباناً فتُقُبِّل منك ورُدَّ عليَّ ؛ فلا والله لا ينظر النّاسُ إليّ وأنت خير مني . فقال : لأقتلنّكَ ، فقال له أخوه : ما ذنبي ؟ إنمّا يتقبل الله من المتقين . رواه ابن جرير . فهذا الأثر يقتضي أن تقريب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارؤ في إمرأة كما تقدم وهو ظاهر القرآن ﴿ إذ قرّبا قرباناً فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر قال لأقتلنّك قال إنما يتقبل الله من المتّقين ﴾ فالسياق أنه إنما غضب عليه وحسده بقبول قربانه دونه . ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرب الشاة هو هابيل وان الذي قرب الطعام هو قابيل وأنه تُقُبِّلَ من هابيل شاتَه ، حتى قال ابن عباس وغيره إنها الكبش الذي فدي به الذبيح وهو مناسب ، والله أعلم .

ومعنى قوله تعالى ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ أي ممن اتَّقى الله في فعله ذلك . روى ابن أبي حاتم عن تميم يعني ابن مالك المقري ، قال : سمعت أبا الدرداء يقول : [لئن استيقن ان الله قد تقبّل لي صلاة واحـــدة أحب إليَّ من الدنيا ومـــا فيها إن الله يقول : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن ميمون بن أبي حمزة قال : [كنت جالساً عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ ، فقال له شقيق بن سلمة : يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل ؟ قال : بلى سمعته يقول : يقول : يُحبس الناس في بقيعٍ واحد فينادي منادٍ : أين المتقون ؟ فيقومون في كنف الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر . قلت : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا العبادة فيمرّون إلى الجنة] وقوله تعالى : ﴿ لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلنّك إني اخاف الله رب العالمين ﴾ ، يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه ، حين توعده أخوه بالقتل عن غير ما ذنب منه إليه : لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله ، فأكون انا وأنتِ سواء في الخطيئة ﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾ من أن اصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب . قال عبدالله بن عمرو : وأيم الله إن كان أشد الرجلين ولكن منعه الورع .

روى الامام أحمد عن بشر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان :

٩٠ . [أشهد ان رسول الله ﷺ قال : « انها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي » قال : أفرأيت أن دخل على بيتي

فبسط يده إلي ليقتلني فقال : « كن كابن آدم »] وكذا رواه الترمذي وحسنه وقد رواه أبو داود عن حسين بن عبد الرحمن الأشجعي أنه سمع سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ في هذا الحديث ، قال : ٩١ [يا رسول الله أرأيت إن دخل بيتي وبسط يده ليقتلني ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ « كن كابن آدم » وتلا : ﴿ لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ﴾] . وقوله تعالى : ﴿ إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ﴾ أي بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل قال مجاهد : ﴿ إني أريد أن تبوء بإثمي ﴾ قال : بقتلك إياي ﴿ وإثمك ﴾ قال بما كان منك قبل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ أي فحسّنت وسوّلت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله ، أي بعد هذه الموعظة والزجر وقوله تعالى : ﴿ فأصبح من الخاسرين ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، وأي خسارة أعظم من هذه ؟ وقد روى الامام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٩٢ [لا تقتل نفسٌ ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها ، لأنه كان أول من سنّ القتل] رواه الجماعة إلا ابو داود .

وقوله تعالى : ﴿ فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين .] قال السدي باسناده إلى الصحابة رضي الله عنهم : لما مات الغلام تركه بالعراء ، ولا يعلم كيف يدفن ؛ فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا ، فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثى عليه ، فلما رآه قال : ﴿ يا ويلتا أعجزت أن اكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فأصبح من النادمين ﴾ قال الحسن البصري : علاه الله بندامة بعد خسران .

وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال : ٩٣ [ما من ذنب أجدر أن يعجّل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم] . وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً

وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۞ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ (٣٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٣٤)

يقول تعالى : من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً ﴿ كتبنا على بني اسرائيل ﴾ أي شرعنا لهم وأعلمناهم : ﴿ أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ أي من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية فكأنما قتل الناس جميعاً ، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ، ومن أحياها ، أي حرّم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ؛ ولهذا قال تعالى :﴿ فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ وروى الأعمش وغيره ، عن ابي صالح عن أبي هريرة قال : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت : جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين فقال : يا أبا هريرة ، أيسرُّكَ أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم ؟ قلت : لا . قال : فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً ، فانصرف مأذوناً لك مأجوراً غير مأزور ، قال فانصرفت ولم أقاتل . وعن مجاهد : من قتل النفس المؤمنة متعمداً جعل الله جزاءه جهنم وغضب عليه ولعنه ، وأعدَّ له عذاباً عظيماً ، يقول : لو قتل الناس جميعاً لم يزد على مثل ذلك العذاب ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ، قال : من لم يقتل احداً فقد حييَّ الناس منه .

قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ﴾ ، أي بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ ثم ان كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ﴾ ، وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها ، كما كانت بنو قريظة والنضير ، وغيرهم من بني قينقاع ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج ، اذا وقعت

بينهم الحروب في الجاهلية ، ثم اذا وضعت الحرب أوزارها ، فدوا من أسروه وودّوا من قتلوه ، وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة .[1]

* * *

وقوله : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ .

المحاربة هي المضادة والمخالفة : وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل ، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر .

هذه الآية وإن كانت نزلت في جماعة من عرينة أو عكل إنما هي عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات ؛ كما روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك : ٩٤ [ان نفراً من عكل ، ثمانية ، قدموا على رسول الله ﷺ ، فبايعوه على الإسلام ، فاستوخموا المدينة ، وسقمت أجسامهم ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك ، فقال : « ألا تخرجون مع راعينا في إبله ، فتصيبوا من أبو الهاو ألبانها » فقالوا : بلى ، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحّوا ، فقتلوا الراعي ، وطردوا الإبل ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فبعث في آثارهم فأدرِكوا فجيء بهم ، فأمر بهم فقطعت ايديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم ، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا] لفظ مسلم وفي لفظهما : من عكل أو عرينة ، وفي لفظ : ٩٥ [وألقوا في الحرة فجعلوا يستسقون ، فلا يسقون] . وعن قتادة : من عكل وعرينة ، ورواه مسلم من طريق سليمان التيمي ، عن أنس قال : ٩٦ [انما سمل النبي ﷺ أعين أولئك، لأنهم سملوا أعين الرعاء][2] قال أنس: فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشاً حتى ماتوا ؛ ونزلت : ﴿انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ... ﴾ الآية وقد رواه أبو داوود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح . وفي رواية ابن أبي حاتم عن أنس : ٩٧ [فارتدوا عن الاسلام وقتلوا الراعي ، واستاقوا الإبل ، وأخافوا السبيل ، وأصابوا الفرج الحرام]

روى ابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن عمر أو عمرو – شك يونس – عن رسول الله بذلك يعني بقصة العرنيين ونزلت فيهم آية المحاربة ، ورواه أبو داود .

---

(١) في الآية رقم /٨٤/ من سورة البقرة . (٢) أي عاقب عقاباً بالمثل .

وقوله تعالى : ﴿ أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : [من شهر السلاح في فئةٍ الإسلام وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار ، ان شاء قتله وان شاء صلبه وان شاء قطع يده ورجله] ـ وإن شـــاء نفاه ـ ومستند هذا القول ان ظاهر أَوْ للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن كقوله تعالى في جزاء الصيد : ﴿ فجزاء مثل مـــا قتل من النَّعَم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبـــة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ﴾ فهذا كله على التخيير ، فكذلك فلتكن هذه الآية . وأما قولـــه تعالى : ﴿أوينفوا من الأرض ﴾ قال عطاء الخراساني : ينفى من جند إلى جند سنين ولا يخرج من دار الإسلام وقال آخرون : المراد بالنفي ههنا بالسجن واختار ابن جرير أن المراد بالنفي ههنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ أي هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم ، خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة ، وهذا يؤيد قول من قال : أنها نزلت في المشركين ، فأما أهل الإسلام ففي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : ٩٨ [أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ألاّ نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا يعضه بعضنا بعضاً ، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له ، ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه وان شاء عفا عنه] رواه وابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب .

وقال ابن جرير : لهم عقوبة في عاجل الدنيا وفي الآخرة لهم عذاب عظيم أي إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا ، وقوله تعالى : ﴿ إلاّ الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم ﴾ أما على قول من قاله : أنها في أهل الشرك فظاهر . وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل ، وهل يسقط قطع اليد أم لا ؟ فيه قولان للعلماء ؛ وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع ، وعليه عمل الصحابة ، كعلي وأبي موسى الأشعري وهو على الكوفة في أمارة عثمان .

قال ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة وكان قد أفسد في الأرض وحارب ، فكلّم رجالاً من قريش منهم الحسن بن علي وابن عباس

وعبدالله بن جعفر ، فكلموا علياً فيه فلم يؤمّنه ، فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره ، ثم أتى علياً فقال : يا أمير المؤمنين أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً فقرأ حتى بلغ : ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ قال : فكتب له أماناً .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۞ (٣٧) ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وهي إذا قرنت بطاعته ، كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات ، وقد قال بعدها : ﴿وابتغوا اليه الوسيلة﴾ قال ابن عباس : أي القربة وقال قتادة : أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه . [١]

---

(١) قلت : لقد بحثت هذه المسألة بحثاً مستفيضاً في كتابي « التوصل إلى حقيقة التوسل » ألخصها فيما يلي :
الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله ، ومن والاه . أما بعد :
فإن هذه قضية شذ فيها الخلف عن السلف وسلكوا فيها طرائق أقل ما يقال فيها : أنها على غير نهج السلف الصالح، ولا تستند إلى أي مستند شرعي ، مدعوم بما جاء في الكتاب الكريم والسنة الصحيحة . ذلك شأنهم في كل ما يختلفون فيه مع السلف. فالخلف يتمسكون بآراء وأهواء، وإن أرادوا التمسك بالقرآن على زعمهم يتأولون الآيات ويحملونها من المعاني ما لا تتحمل ، فيتأولون ويعطلون ما شاءت لهم أهواؤهم واذا أرادوا أن يستشهدوا بحديث، فلا يستشهدون إلا بأحاديث أقوى ما فيها الشديد الضعيف. فضلا عن الموضوع والمكذوب والباطل وما لا أصل له . ولا أدري اذا كان ذلك عن علم منهم أو جهل .
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ۞ وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم » فكأنهم والسلف على طرفي نقيض ، ولن يلتقيا إلا أن يشاء الله وما ذلك على الله بعزيز . ثم أقول وبالله المستعان :
التوسل على نوعين : ١ ــ : توسل مشروع . ٢ : توسل ممنوع .
فالتوسل المشروع : هو ما شرعه الله وبلغه رسوله صلى الله عليه وسلم وهو على ثلاثة أنواع : ١ ــ التوسل بذات الله وصفاته العلى وأسمائه الحسنى ، ٢ ــ التوسل إليه تعالى بأعمال المتوسل الصالحة ، ٣ ــ : التوسل بدعاء المؤمنين لبعضهم ولا فرق إذا كان من أعلى إلى أدنى أو بالعكس . وهذا ما جرى عليه محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته وأهل القرون الخيرة وكل من نهج منهجهم إلى يوم الدين أما التوسل الممنوع: هو ما =

والوسيلة : هي التي يُتوصّل بها إلى تحصيل المقصود . والوسيلة أيضاً علَمٌ على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش . وقد ثبت في صحيح البخاري من طريق محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ : ٩٩ [من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التّامّة ، والصلاة القائمة آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، إلاّ حلت له شفاعتي يومَ القيامة] وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : ١٠٠ [اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ، ثم صلّوا عليّ فأنّه من صلّى عليّ صلاة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فانها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاّ لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن اكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة .]

ـــ لم يشرعه الله تعالى ولا بلغه رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يعرف من فعل الصحابة كالتوسل بذوات المخلوقين إما بمعنى القسم بهم إلى الله ، أو بمعنى جعلهم وسائط بين الله وبين خلقه لقبول الدعاء، أو اتخاذهم زلفى إلى الله تعالى لقضاء حوائجهم . ويدلون على الله بصلاحهم ، بينما هؤلاء الصالحون المتوسل بذواتهم إلى الله تعالى قبضهم الله إليه وهم عنده في منزلة عالية إن شاء الله ومنزلتهم هذه لم ينالوها إلا بأعمالهم الصالحة، وكان أجدر بالمتوسلين، لو أنهم عملوا صالحاً كما عمل المتوسَّل بهم، إذاً لرأوا من أعمالهم الصالحة خير وسيلة إليه تعالى. ولكن الشيطان صدهم عن الطريق السوي، والصراط المستقيم ، فجعلوا ربهم لا يرحم ولا يشفق ولا يغفر ، إلا بتأثير أولئك الذين زعموا فيهم الوسائط ...! بينما الله لا يؤثر عليه أحد ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . فهو اذاً ليس بحاجة لأن يعرفه أحد بخلقه « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » رأوا أن الحكام لا يقضون حاجات الناس إلا إذا توسط لديهم الوسطاء فشبهوا خالقهم بهؤلاء الحكام والعياذ بالله تعالى . وكثيراً ما يوردون في كلامهم هذا الحجج الواهية ، فيقولون : كما أنه ينبغي لمن يدخل على الحكام أن يوسط إليهم أحداً ، ممن هم أعزاء عليهم ، كذلك يجب أن نوسط لله تعالى أحباءه من الأنبياء والأولياء والصالحين ليقضي حاجاتنا . ! وهكذا فقد شبهوا الخالق القادر الذي يعلم ما في السموات والأرض العليم الخبير الفعال لما يريد بالمخلوق العاجز الذليل الذي لا يملك مع الله شيئاً ، والذي له من صفات النقص ما هو مستحيل على الله أن يتصف بمثلها فقد يكون العبد جاهلا أو ظالماً ، أو لئيماً أو محتاجاً لتبادل المنافع مع الذين يتوسطون عنده وسوى ذلك من صفات النقص ... أما سبحانه وتعالى فمنزه عن كل هذه الصفات الدنيا الدنيئة وله سبحانه الصفات العلى والأسماء الحسنى ... فهل بعد هذا الفارق الكبير بين المخلوق والخالق في صفاتهما يجوز أن نشبه حال المتوسط لله كالمتوسط للعبد حاشا فإن الله لا يحتاج إلى وسطاء وهو الغني عن العالمين وحده لا شريك له وهو أقرب إلى عبده من حبل الوريد، والواسطة لا تكون الا للبعيد وقد أخبرنا الله تعالى أنه قريب : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) فلا حاجة للتوسل إليه إلا بما يقربنا إليه من الأعمال الصالحة . وهذا ما يوافق مراد الله من التوسل المشروع الذي تقدم ذكره آنفاً والله الموفق للصواب .

وروى ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال ١٠١ [إن الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة ، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة على خلقه]

وقوله تعالى : ﴿ وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ﴾ أي أمرهم تعالى بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الصراط المستقيم ، ورغبّهم في ذلك بالذي أعدّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح ، والسعادة العظيمة الخالدة الآمنة ، في الغرف العالية في الجنة التي يسكنها ، لا تبلى ثيابُه ، ولا يفنى شبابُه ثم أخبر تعالى بما أعدّ لأعدائه من الكفار من العذاب والنكال فقال : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم ﴾ أي لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً وبمثله ، ليفتدي بذلك من عذاب الله ، ما تقبل الله ذلك منه فلا محيص ولا مناص من العذاب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي موجع ﴿ يريدون ان يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غمٍ أعيدوا فيها ﴾ أي عذابهم دائم مستمر ، لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها . وفي الصحيحين عن أنس بن مالك ، قال رسول الله ﷺ : ١٠٢ [يؤتي بالرجل من أهل النار فيقال له : يا ابن آدم ، كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول : شر مضجع ، فيقال : هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً ؟ قال : فيقول : نعم يا رب فيقول الله تعالى : كذبت ، قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل ، فيؤمر به إلى النار] .

روى الإمام أحمد ومسلم عن يزيد بن صهيب الفقير ، عن جابر بن عبد الله ان رسول الله ﷺ قال يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة قال : فقلت لجابر بن عبدالله يقول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ﴾ قال : اتلُ أول الآية : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به ﴾ الآية ... ألا إنهم الذين كفروا .

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ❁ (٣٨) فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ❁ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ❁ (٤٠) ﴾

يقول الله تعالى حاكماً وآمراً بقطع يد السارق والسارقة . فذهب بعض فقهاء الظاهرية إلى انه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به سواءً كان قليلاً أو كثيراً لعموم هذه الآية : ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً ، بل أخذوا بمجرد السرقة ، واستدلوا متمسكين بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ١٠٣ [لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده] .

وأما الجمهور ، فاعتبروا النصاب في السرقة ، وان كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره ، فمالك اعتبر النصاب ثلاثة دراهم كما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر : ١٠٤ . [أن رسول الله ﷺ قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم] . واعتبر الشافعي النصاب ربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً أوالحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ١٠٥ [تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً] ولمسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ١٠٦ [لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً] قالوا : وحديث ثمن المجن وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا ، لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً ، فهي ثمن ربع دينار ويروى هذا المذهب عن عمر وعثمان وعلي ، وبه يقول عمر بن عبد العزيز ، والليث بن سعد والأوزاعي والشافعي وأسحق بن راهويه في رواية و ابو ثور وداود بن علي الظاهري .

وذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى أن كل واحد من ربع الدينار ، والثلاثة دراهم مردٌ شرعي فمن سرق واحداً منهما أو ما يساويه قُطِع . وروى الإمام أحمد عن عائشة : ان رسول الله ﷺ قال : ١٠٧ [اقطعوا في ربع دينار ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك] وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دارهم ، والدينار اثني عشر درهماً وفي لفظ للنسائي : ١٠٨ [« لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن » قيل لعائشة : ما ثمن المجن ؟ قالت : ربع دينار] .

وأما الامام ابو حنيفة وأصحابه أبو يوسف ومحمد وزفر وكذا سفيان الثوري رحمهم الله،ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ كان ثمنه عشرة دراهم لما روي عن ابن عباس قال : كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم رواه ابن مردويه ثم روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله قال ١٠٩ [« لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجن »] وكان ثمن المجن عشرة دراهم ، فالاحتياط الأخذ بالأكثر لأن الحدود تدرأ بالشبهات .

وقد اجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث ابي هريرة : ١١٠ [يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يدَه] بأجوبة : (أحدها) انه منسوخ بحديث عائشة وفي هذا نظر ، لأنه لا بد من بيان التاريخ (الثاني) أنه مؤوّل ببيضة الحديد وحبل السفن قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه (الثالث) إن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده . ويحتمل أن يكون هذا ، خرج مخرج الاخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية ، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهينة . (١)

وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد ، اشتهر أنه أورد اشكالاً على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ونظم في ذلك شعراً فقال :

يد بخمس مئين عسجد وديـــت ما بالها قطعت في ربـــع دينار
تناقض ما لنا الا السكـــوت لـــه وان نعوذ بمولانا من النار (٢)

فرد عليه القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله تعالى بقوله : لما كانت أمينة ، كانت ثمينة ، ولما خانت هانت . ولهذا قال تعالى : ﴿ جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم ﴾ أي مجازاةُ على صنيعها السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم ، تناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك نكالاً من الله أي تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك . ﴿ والله عزيز ﴾ أي في انتقامه ﴿حكيم ﴾ في أمره ونهيه وشرعه وقدره .

ثم قال تعالى ﴿ فمن تاب مِن بعدظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم ﴾ أي من تاب من بعد سرقته فان الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور .

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو : ١١١ [ان امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ فجاء بها إلى الذين سرقتهم فقالوا : يا رسول الله ، إن هذه المرأة سرقتنا . قال قومها ، فنحن نفديها فقال رسول الله ﷺ « اقطعوا يدها » فقالوا نحن نفديها بخمسمأة

---

(١) قلت : أرجح ما ذهب إليه ابن كثير بقوله : (ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الأخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير) لا سيما وان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقطع في بيضة أو حبل بل قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم ، وأمر بذلك ونهى عما دون ذلك كما جاء في الصحيحين . وكذلك قطع عثمان في أترجة قومت بثلاثة دراهم .

(٢) قلت : وقد رد عليه أحد الشعراء بقوله : (عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها ذل الخيانة ، فافهم حكمة الباري) .

دينار فقال « إقطعوا يدها » فقطعت يدها اليمنى ؛ فقالت المرأة : هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال : « نعم أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك » فانزل الله في سورة المائدة : ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم . ﴾]
وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت ، وحديثها ثابت في الصحيحين .

ثم قال تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ أي هو المالك الحاكم الذي لا معقب لحكمه وهو الفعال لما يريد ﴿ **يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل** شيء قدير ﴾ .

ربع الحزب

۞ يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ ٱلتَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا ٱلتَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ ٱللَّهِ

وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر ، الخارجين عن طاعة الله ورسوله ، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل ﴿ من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴾ أي أظهروا الأيمان بألسنتهم ، وقلوبهم خراب خاوية منه ، وهؤلاء هم المنافقون . ﴿ ومن الذين هادوا ﴾ أعداء الإسلام وأهلـه ، وهؤلاء كلهم ﴿ سمّاعون للكذب ﴾ أي مستجيبون له ﴿ سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ اي يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد ، وقيل : المراد أنهم يتسمعون الكلام وينهونـه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك ﴿ يحرفون الكلـم من بعد مواضعه ﴾ أي يتأوّلونه على غير تأويله ، ويبدلونه من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون . ﴿ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ نزلت في اليهوديين اللذين زنيـا ، وكانوا قد بدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجـم من أحصن منهم ، فحرّفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مئة جلدة والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين . فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم : تعالوا حتى نتحاكم إليه — أي إلى رسول الله ﷺ — فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجةً بينكم وبين الله ويكون نبي من انبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك .

وقد وردت الأحاديث في ذلك فقال مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : ١١٢ . [ان اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ « ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ » فقالوا : نفضحهـم ويجلدون ، قال عبدالله بن سلام كذبتم، إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة ، فأتوا بالتوراة فنشروهـا ، فوضع أحدُهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدهـا ، فقال له عبدالله بن سلام : إرفع يدك فرفع يده ، فإذا آية الرجم ، فقالوا صدق يا محمد فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة .] أخرجاه وهذا لفظ البخاري ورواه مسلم وأبو داود وأحمد

وابن جرير . وليس حكم رسول الله ﷺ بحكم التوراة من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته ، ولكن هذا بوحي خاص من الله عز وجل إليه ـ ﷺ ـ بذلك وسؤآله إياهم عن ذلك ، ليقررهم على ما بأيديهم مما تواطأوا على كتمانه وجحده، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة ؛ فلما اعترفوا به مع علمهم على خلافه ، بأن زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ ، إنما كان عن هوى منهم ، وشهوة لموافقه آرائهم ، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به ولهذا قالوا : ﴿ إن أوتيتم هذا ﴾ أي : الجلد والتحميم ﴿ فخذوه ﴾ أي اقبلوا به ﴿وان لم تُؤْتوه فاحذروا ﴾ أي من قبوله واتباعه . قال الله تعالى : ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم سماعون للكذب ﴾ أي الباطل ﴿ أكـّالون للسحت ﴾ أي الحرام ، وهو الرشوة . كما قاله ابن مسعود وغير واحد . أي ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه ، وأنيّ يستجيب له ، ثم قال تعالى لنبيـــه ـ ﷺ ـ : ﴿ فإن جاءوك ﴾ أي يتحـــاكمون إليك ﴿ فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرِض عنهم فان يضروك شيئاً ﴾ أي فلا عليك أن لا تحكم بينهم لأنهم ،لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباعَ الحق، بل ما يوافق أهواءهم. قال ابن عباس وجماعة من التابعين : هي منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وأنِ أحكم بينهم بما أنزل اللهَ ﴾ ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ﴾ أي بالحق والعدل ، وإن كانوا ظلمةً خارجين عن طريق العدل ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ .

ثم قال تعالى منكراً عليهم في آرائهم الفاسدة ، ومقاصدهم الزائغة ، في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به ابداً ، ثم خرجوا عن حكمه ، وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم،فقال تعالى : ﴿ وكيف يحكـّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، فقال تعالى: ﴿ إنـّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ أي لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها ، ﴿ والربانيون والأحبار ﴾ أي عبـّادهم وعلماؤهم ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ أي بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به ﴿ وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون﴾ أي لا تخافوا منهم وخافوا مني ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ فيه قولان سيأتي بيانهما .

ــ سبب آخر في نزول هذه الآيات ــ

قال ابو جعفر بن جرير عن ابن عباس : إن الآيات التي في المائدة قوله تعالى : ﴿ فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ــ إلى ــ المقسطين ﴾ إنما أنزلتْ في الدية في بني النضير وبني قريظة ، وذلك إن قتلى بني النضير كــان لهم شرف تؤدَّى لهم الدية كاملةً ، وإن قريظة كانوا يؤدى لهم نصف الدية ، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فأنزل الله ذلك فيهم ، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك فجعل الدية في ذلك سواءً . والله أعلم أي ذلك كان .

وقد روى العوفي وعلي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا كما تقدم . وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد ، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله ، والله أعلم . ولهذا قال بعد ذلك : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ﴾ إلى آخرها ، وهذا يقوي أن سبب النزول قضية القصاص ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهم : نزلت في أهل الكتاب ، زاد الحسن البصري وهي علينا واجبة وقال عبد الرزاق بسنده عن ابراهيم [١] قال : نزلت الآيات في بني إسرائيل ، ورضي الله لهذه الأمة بها . رواه ابن جرير .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ قال : من جحد ما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقرَّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق . رواه ابن جرير ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب ، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب وقال الشعبي : للمسلمين . وعن عطاء في قوله تعالى : ﴿ فأولئك هم الكافرون ﴾ قال : كفر دون كفر [٢] . وعن طاووس قال : ليس بكفر ينقل عن الملة . وعن طاووس عن ابن عباس قال : ليس بالكفر الذي تذهبون إليه ورواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

---

(١) لعله النخعي . (٢) قال طاووس وعطاء : كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق .

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِالْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِالسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾ (٤٥)

وقوله تعالى ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ﴾ في نص التوراة : أي تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وكانوا لا يُقيدون القُرظي من النضري، بل يعدلون إلى الدية ؛ كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن ، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ولهذا قال هناك : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم ، وعناداً وعمداً ، وقال ههنا ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه فخالفوا وظلموا وتعدّى بعضهم على بعض .

وقد استدل بهذة الآية كثير من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حُكيَ مقرراً ولم ينسخ ، كما هو المشهور عند الجمهور وقال الحسن البصري : هي عليهم وعلى الناس عامةً ، رواه ابن أبي حاتم . وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة ، بعموم هذه الآية الكريمة ، وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي وغيره : أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم : ١١٣ [أن الرجل يقتل بالمرأة] وفي الحديث الآخر : ١١٤ [المسلمون تتكافأ دماؤهم] وهذا قول جمهور العلماء وقد احتج ابو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذميّ ، وعلى قتل الحر بالعبد وقد خالفه الجمهور فيهما ففي الصحيحين عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ١١٥ [لا يقتل مسلم بكافر] ، أما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة أنهم لم يكونوا يقيدون العبد من الحر ، ولا يقتلون حراً بعبد وجاء في ذلك أحاديث لا تصح [١] وحكى الشافعي الأجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك ، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصّصٍ للآية الكريمة .

---

(١) قلت : من قتل عبده قتلناه ومن جدع أنفه جدعنا أنفه وهكذا جاء في الحديث . راجع تعليقنا ص /١٣٧/ من المجلد الأول من هذا المختصر .

وقوله تعالى : ﴿ والجروح قصاص ﴾ قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح ؛ فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونساؤهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ويستوي فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

﴿ قاعدة مهمة ﴾

الجراح تارة تكون في مفصل ، فيجب فيه القصاص بالإجماع ، كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك ، وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم ، فقال مالك رحمه الله : فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها ، لأنه مخوف خطر . وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يجب القصاص في شيء من العظام إلا في السن بدليل حديث الربيع بنت النضر التي حكم عليها رسول الله ﷺ بالقصاص لما كَسَرَتْ ثنيةَ الجارية لولا أن عفا أهل الجارية وتركوا القصاص والحديث هذا في الصحيحين . وقال الشافعي لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابن عباس وبه يقول عطاء والشعبي والحسن البصري والزهري وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز ، وإليه ذهب سفيان الثوري والليث بن سعد وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد .

ثم قالوا : لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجني عليه ، فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه ، فلا شيء له والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن شعيب عن أبيه عن جده ١١٦[أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته فجاء إلى النبي ﷺ فقال أقدني ؛ فقال « حتى تبرأ » ، ثم جاء إليه فقال : أقدني ، فأقاده فقال يا رسول الله عرجت فقال « قد نهيتك فعصيتني ، فأبعدك الله وبطل عرجك » ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه] تفرد به أحمد .

مسألة : فلو اقتص المجني عليه من الجاني فمات من القصاص ، فلا شيء عليه عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم . وقال أبو حنيفة تجب الدية في مال المقتص . وقال عامر والشعبي وعطاء وطاووس وغيرهم تجب الدية على عاقلة المقتص له . وقال ابن مسعود وابراهيم النخعي والحكم بن عتيبة وعثمان البستّي : يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ويجب الباقي في ماله .

وقوله تعالى : ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ قال ابن عباس : فمن تصدق به

فهو كفارة للجارح وأجر للمجروح على الله عز وجل رواه ابن أبي حاتم . وفي رواية له عن جابر بن عبدالله في قول الله عز وجل: ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ قال للمجروح قال عبدالله بن عمرو : يهدم من ذنوبه بقدر ما تصدق به .

روى ابن مردويه عن الشعبي عن رجل من الأنصار عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ قال : ١١٧ [« هو الذي تكسر سنه ، أو تقطع يده أو يقطع الشيء منه أو يجرح في بدنه فيعفو عن ذلك » قال فيحط عنه قدر خطاياه فإن كان ربع الدية فربع خطاياه ، وان كان الثلث فثلث خطاياه ، وان كانت الدية ، حطت عنه خطاياه كذلك »] روى ابن مردويه عن عدي بن ثابت أن رجلاً أهتم [1] فمه رجل على عهد معاوية رضي الله عنه فأعطي دية ، فأبى إلا أن يقتص ، فأعطي ديتين فأبى ، فأعطي ثلاثاً فأبى ، فحدث رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ١١٨ [من تصدق بدم فما دونه ، فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت] . وقوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ قد تقدم عن طاووس وعطاء أنهما قالا : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ۞ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ ۞ (٤٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وقفينا ﴾ أي اتبعنا على آثار انبياء بني إسرائيل ﴿ بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة ﴾ أي مؤمناً بها حاكماً بما فيها ، ﴿ وآتيناه الأنجيل فيه هدى ونور ﴾ أي هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ، ﴿ ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ﴾ أي متبعاً لها غير مخالف لما فيها إلاَّ في القليل مما بيَّن لبني إسرائيل

(١) أهتم فمه : كسر أسنانه .

بعض ما كانوا يختلفون فيه . كما قال تعالى اخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل : ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ ولهذا كان المشهور من قولي العلماء إن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة وقوله تعالى : ﴿ وهدى وموعظة للمتقين ﴾ أي وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به ، وموعظة أي زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم ، للمتقين ، أي لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه .

وقوله تعالى : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ قرىء ﴿ وليَحكُمَ ﴾ بالنصب على أن اللام لام كي ، أي وآتيناه الإنجيل ليحكم أهلُ ملته به في زمانهم ، وقرىء « ولْيَحكُمْ » بالجزم على أن اللام لام الأمر ، أي ليؤمنوا بجميع ما فيه ، وليقيموا ما أمروا به فيه ، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ ،والأمر باتباعه ، وتصديقه إذا وجد ، كما قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ الآية ولهذا قال ههنا : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طاعة ربهم ، المائلون إلى الباطل ، التاركون للحق ، وهكذا فإن هذه الآية نزلت في النصارى ، وهو ظاهر من السياق .

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ❁ (٤٨) وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ لَفَاسِقُونَ ❁ (٤٩) أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ❁ (٥٠) ﴾

لما ذكر الله تعالى التوراة ومدحها وأمر باتباعها لما كانت سائغة الاتباع ، وذكر الأنجيل ومدحه وأمر أهله بإقامته ، شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم ﷺ فقال تعالى : ﴿ وأنزلنا اليك الكتاب بالحق ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ﴾ أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه ، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقاً عند حامليها من ذوي الأبصار والبصائر الذين انقادوا لأمر الله ، واتبعوا شرائعه . وصدقوا رسله الذين وعدهم الله على ألسنتهم من مجيء محمد عليه الصلاة والسلام إنه لكائن لا محالة ولا بد ، وقد كان والحمد لله . وقوله تعالى : ﴿ ومهيمناً عليه ﴾ قال ابن عباس أي مؤتمناً عليه وعنه رضي الله عنه قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله وقال ابن جريج : القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل وعن ابن عباس ﴿ ومهيمناً ﴾ اي حاكماً على ما قبله من الكتب وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى . جعل الله هذا الكتاب الكريم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره فلهذا جعله شاهداً وأمينا وحاكماً عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة ، فقال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس كافة ، بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم ، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك . قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ مخيراً إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم . فردهم إلى أحكامهم فنزلت : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ أي لا تتبع آراءهم التي اصطلحوا عليها ، ولا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء الجهلة . وقوله تعالى ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً** ﴾ أي سبيلاً وسنة قاله ابن عباس . فإن الشرعة وهي الشريعة أيضاً هي ما يُبتدأ فيه إلى الشيء ، ومنه يقال شرع في كذا أي ابتدأ فيه . أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل . وهذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان . باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد ، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : ١١٩ [نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد] يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله

وضمَّنه كل كتاب أنزله كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي ، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ، ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس ، وخفيفاً فيزاد في الشدة في هذه دون هذه ، فله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . وهذه الشريعة الخاتمة التي بعث بها الرسول الأعظم الخاتم ثم نسخ الله بها جميع ما تقدمها من الشرائع ،وجعلها لأهل الأرض كافة إنسها وجنها عربها وعجمها .

وقوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ أي أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه . أوعزموا عليه من ذلك كله .

وقوله تعالى : ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ وهي طاعة الله والتصديق بكتابه القرآن . ثم قال تعالى﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ أي معادكم أيها الناس إليه تعالى ﴿ فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ فيجزي الصادقين ، ويعذب المكذبين . وقوله تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾ تأكيد لما تقدم ثم قال تعالى : ﴿ واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ أي أحذر اعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور ، فلا تغتر بهم ، فانهم كذبة كفرة خونة .﴿ فان تولوا ﴾ عما تحكم به بينهم من الحق ، وخالفوا شرع الله ﴿ فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾ أي فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم ان يصرفهم عن الهدىلما لهم من الذنوب السالفة ﴿ وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴾ أي خارجون عن طاعة ربهم كما قال تعالى : ﴿ وان تطع اكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾

وقوله تعالى : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون . ﴾ ينكر تعالى على من حكم بغير حكم الله ، فإن حكم الله مشتمل على كل خير ، وناهٍ عن كل شر ، فالعدول إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات ، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم واهوائهم . لذا قال تعالى : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ أي يريدون ، وعن حكم الله يعدلون . ﴿ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به ، وأيقن أن الله أحكم الحاكمين . قال الحسن من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية وروى الحافظ ابو القاسم الطبراني عن ابن عباس

قال : قال رسول الله ﷺ :١٢٠[أبغض الناس إلى الله عز وجل من يبتغي في الإسلام سنة الجاهلية ، وطالب دم امرىء بغير حق ليريق دمه] وروى البخاري باسناده نحوه .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ❁ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ❁ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ❁ (٥٣)﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ، الذين هم أعداء الاسلام وأهله ـ قاتلهم الله ـ ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ، ثم تهدَّد وتوعَّد من يتعاطى ذلك فقال سبحانه : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فترى الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك وريب ونفاق ، يسارعون فيهم ، أي يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين ، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى ، فينفعهم ذلك . عندها قال تعالى : ﴿ فعسى الله أن يأتي بالفتح ﴾ قال السدي : يعني فتح مكة وقال غيره : يعني القضاء والفصل ، ﴿ أو أمر من عنده ﴾ يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى ، ﴿ فيصبحوا ﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿ على ما أسرُّوا في أنفسهم ﴾ من الموالاة ﴿ نادمين ﴾ أي على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئاً ، بل كان عين المفسدة ، فإنهم فضحوا ، وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين لا يعرف من حالهم شيء ، فلما انفضح أمرهم تعجب المؤمنون منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ، ويحلفون على ذلك ويتأولون فبان كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال تعالى : ﴿ ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾ .

قال محمد بن اسحق عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبدالله بن أبي – ابن سلول – وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وكان أحد بني عوف بن الخزرج ، له من حلفهم مثل الذي لعبدالله بن أبي فجعلهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم وقال : يا رسول الله ، أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم ، ففيه – أي في عبادة بن الصامت – وفي عبدالله بن أبي – ابن سلول – نزلت الآيات في المائدة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء – إلى قوله – ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . ﴾ .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ * (٥٦) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة ، أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ، فإن الله سيستبدل به من هو خير لها منه ، وأشد منعة ، وأقوم سبيلاً ، كما قال تعالى : ﴿ وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقال تعالى ههنا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ﴾ أي يرجع عن الحق إلى الباطل ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري ، قال : ١٢١ [لما نزلت – أي هذه الآية – قال رسول الله ﷺ « هم قوم هذا »] [1] ورواه ابن جرير

(١) قلت – : وهذا ليس خاصاً في قوم دون قوم انما هي صفات خيرة طيبة اذا كانت في أي قوم مؤمنين فهم قوم يحبهم الله ويحبونه وقد وصفهم الله تعالى : « اذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين . يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . . . »

بنحوه وقوله تعالى : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه متعززاً على خصمه وعدوه . كما قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وفي صفة رسول الله ﷺ أنه الضحوك القتال ، فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه . وقوله عز وجل : ﴿ يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ أي لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله ، واقامة الحدود ، وقتال أعدائه ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا يردهم عن ذلك راد ، ولا يحيك فيهم لومة لائم .

روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : ١٢٢ [أمرني خليلي ﷺ بسبع : أمرني بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرني أن انظر إلى من هو دوني ، ولا أنظر إلى من هو فوقي وأمرني أن اصل الرحم وان أدبرت ، وأمرني ان لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مُرّاً ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومةَ لائم ، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله . فإنهن من كنز تحت العرش .] روى الإمام أحمد أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ ١٢٣ [ألا لا يمنعن أحدَكم رهبةُ الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده ، فإنه لا يقرب من أجل ، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم) روى أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ ١٢٤ [لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال ، فلا يقول فيه ... فيقال له يوم القيامة ما منعك ان تكون قلت في كذا وكذا ؛ فيقول : مخافة الناس ، فيقول : إياي أحق أن تخاف .] ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ أي من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي واسع الفضل ، عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه . وقوله تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ أي ليس اليهود بأوليائكم بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين وقوله تعالى : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من اقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام ، وهي لله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين . وأما قوله تعالى : ﴿ وهم راكعون ﴾ فقد توهم بعض الناس ان هذه الجملة في موضع الحال من قوله تعالى : ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أي في حال ركوعهم ولو كان هذا كذلك ، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره ، لأنه ممدوح ، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى وحتى أن بعضهم ذكر في هذا اثراً عن علي بن أبي طالب ان هذه الآية نزلت فيه ، وذلك أنه مرّ به سائل في حال ركوعه

فأعطاه خاتمه ولكن لم يصح في ذلك شيء ، إنما تقدم في الأحاديث السابقة أن هذه الآيات كلها ، نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه حين تبرأ من حلف اليهود ، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين ؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز . لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين ، فهو مفلح في الدنيا والآخرة ، ومنصور ، في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ .

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ۞ (٥٨)

وقوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً ﴾**

هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين ، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون : وهي شرائع الأسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير ، يتخذونها استهزاءً ويعتبرونها نوعاً من اللعب في نظرهم الفاسد . (وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم) وقوله تعالى : ﴿ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ﴾ أي لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء والمراد بالكفار المشركون وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ أي اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذوه هزواً ولعباً . كما قال تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلاَّ أن تتقوا منهم تُقاةً ويُحذّركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ﴾ أي وكذلك إذا أذنتم إلى الصلاة ﴿ اتخذوها ﴾ أيضاً ﴿ هزواً ولعباً ذلك بأنهم

قوم لا يعقلون ﴾ معاني عبادة الله وشرائعه ، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي اذا سمع الأذان أدبر وله حصاص أي ضراط حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضي التأذين أقبل فإذا ثوّب للصلاة أدبر ، فإذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه ، فيقول : اذكر كذا أذكر كذا ، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى ، فإذا وجد أحدكم ذلك ، فليسجد سجدتين قبل السلام . متفق عليه وقال الزهري : قد ذكر الله التأذين في كتابه فقال : ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة ... ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

قال أسباط عن السدي في قوله تعالى : ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً » قال : كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي : أشهد أن محمداً رسول الله ، قال : حرق الكذاب ، فدخلت خادمه ليلة من الليالي بنار وهو نائم ، وأهله نيام فسقطت شرارة فأحرقت البيت ، فاحترق هو وأهله ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ❁ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ❁ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ❁ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ❁ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ❁ (٦٣) ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد للذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب : ﴿ هل تنقمون منّا إلا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل ﴾ أي هل لكم علينا من مطعن أو عيب إلاّ هذا...؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمّة فيكون الاستثناء منقطعاً كما في قوله تعالى:

﴿ وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأن أكثركم فاسقون ﴾ معطوف على : ﴿ ... أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ﴾ أي وآمنّا بأن أكثركم فاسقون أي خارجون عن الطريق المستقيم . ثم قال تعالى :

﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ﴾ أي هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات ، المفسرة بقوله تعالى : ﴿ من لعنه الله ﴾ أي أبعده من رحمته ﴿ وغضب عليه ﴾ أي غضباً لا يرضي بعدهُ أبداً ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ كما تقدم بيانه في سورة البقرة كما سيأتي إيضاحه عند سورة الأعراف .(١)

روى سفيان الثوري عن ابن مسعود قال : ١٢٥ [سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير : أهي مما مسخ الله ؟ فقال : « ان الله لم يهلك قوماً – أو قال لم يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً ، وان القردة والخنازير كانت قبل ذلك » .] وقد رواه مسلم وقوله تعالى : ﴿ وعبد الطاغوت ﴾ أي وجعل منهم من عبد الطاغوت ، وقرئت قراآت أخرى يرجع معناها كلها إلى : أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه ، كيف يصدر منكم هذا وانتم قد وجد منكم جميع أنواعِ عبادة الطاغوت ولهذا قال : ﴿ أولئك شرٌ مكاناً ﴾ أي مما تظنون بنا ﴿ وأضل عن سواء السبيل ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة ، كقوله عز وجل : ﴿ أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ﴾ وهذه صفة المنافقين منهم ، أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر ، وقلوبهم منطوية على الكفر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وقد دخلوا ﴾ عندك يا محمد ﴿ بالكفر ﴾ أي مستصحبين الكفر في قلوبهم دونما انتفاع بما قد سمعوا منك من العلم ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر ولهذا قال تعالى : ﴿ وهم قد خرجوا به ﴾ فخصهم به دون غيرهم ، وقوله تعالى : ﴿ والله أعلم بما كانوا يكتمون ﴾ أي عالم بسرائرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم ، وإن أظهر خلاف ذلك فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء . وقوله تعالى : ﴿ وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت ﴾ أي يبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم والمحارم ، والاعتداء على الناس ، وأكلهم السحت ﴿ لبئس ما كانوا يعملون ﴾ أي لبئس العمل كان عملهم ، وبئس الاعتداء اعتداؤهم .

(١) في سورة البقرة في الآية رقم /٦٥/ وفي سورة الاعراف في الآية رقم /١٦٦/ .

وقوله تعالى : ﴿ لولا ينهاهم الربّانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ يعني هلاّ كان ينهاهم الربّانيون والأحبار عن تعاطي ذلــك والربانيون هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم ، والأحبار هم العلماء فقط ﴿ لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ يعني من تركهم ذلك قاله ابن عباس . روى ابن جرير عن ابن عباس، قال : ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية وقال الضحاك : ما في القرآن آية أخوف عندي منها وقال ابن أبي حاتم ، وذكره يونس بن حبيب عن يحيى بن يعمر قال :

خطب علي بن أبي طالب فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال:
ايها الناس انما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار ، فلما تمادوا في المعاصي اخذتهم العقوبات ، فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل ان ينزل بكم مثل الذي نزل بهم ، واعلموا ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب اجلا . وعن المنذر بن جرير عن ابيه قال : قال رسول الله ﷺ :
١٢٦ [ما من قوم يكون بين أظهرهم من بعمل بالمعاصي هم أعز منه وأمنع ، ولم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعذاب] تفرد به احمد ورواه ابو داود عن جرير قال :[سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون أن يغيروا عليه ، فلا يغيرون إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا »]وقد رواه ابن ماجة عن علي بن محمد ،عن وكيع عن إسرائيل ، عن أبي إسحق ، عن عبيد الله بن جرير ، عن أبيه به ؛ قال الحافظ المزي : وهكذا رواه شعبة عن أبي إسحق به .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُم مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّــكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ

جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ ۞ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ۞ (٦٦)

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - بأنهم وصفوه بأنه بخيل ، وأنه فقير وهم أغنياء ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ؛ وعبروا عن البخل بأن قالوا : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ أي بخيلة كقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ﴾ وهذا الذي أراده هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله . وقد قال عكرمة : إنها نزلت في فنحاص اليهودي عليه لعنة الله وهو الذي قال ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ فضربه أبو بكر الصديق (رض)، وقد رد الله تعالى عليهم ما قالوه ، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه.فقال تعالى : ﴿ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ﴾ وهكذا وقع لهم ، فان عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمرٌ عظيم.كما قال تعالى : ﴿ ضربت عليهم الذلة ... ﴾ الآية .. ثم قال تعالى :

﴿ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ أي بل هو الواسعُ الفضلِ الجزيلُ العطاءِ ، الذي ما من شيء إلاّ عنده خزائنه ، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له. كما قال تعالى : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ والآيات في هذا كثيرة . وقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ١٢٧ : [إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحّاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فانه لم يَغِضْ ما في يمينه . قال - وعرشه على الماء وفي يده الأخرى الفيض - أو القبض - يرفع ويخفض . وقال : يقول تعالى : أنفق أنفق عليك] أخرجاه في الصحيحين . وقوله تعالى : ﴿ وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً ﴾ أي فكما يزداد بما أنزل اليك المؤمنون تصديقاً وعملاً وعلماً ، يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك طغياناً وكفراً وتكذيباً. كما قال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وألقينا بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة ﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم ، بل العداوة واقعة بين فرقهم ، لأنهم لا يجتمعون على حقٍّ وقد خالفوك وكذبوك .

وقوله تعالى : ﴿ كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾أي كلما عقدوا أسباباً

يكيدونك بها وكلما برموا أموراً يحاربونك بها ، أبطلها الله وردّ كيدهم عليهم ، وحاق مكرهم السيء بهم .

﴿ ويسعَوْن في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين ﴾ أي من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الأرض فساداً والله لا يحب مَنْ هذه صفتُه . ثم قال جل وعلا : ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا ﴾ أي لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿ لكفـرّنا عنهم سيآتهم ولأ دخلناهم جنات النعيم ﴾ أي لأ زلنا عنهم المحذور وأنلناهم المقصود ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ﴾ قال ابن عباس : هو القرآن ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ أي لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه ، من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير ، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله محمداً ﷺ ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة . ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض . كما قال تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض . ﴾

وقوله تعالى : ﴿ منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾ جعل الله أعلى مقامات أتباع موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة وفوق ذلك رتبة السابقين . كما في قوله عز وجل ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها ﴾ الآية والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الآية كلهم يدخلون الجنة .

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ ۝ (٦٧) ﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة وآمراً له بأبلاغ جميع ما أرسله الله به ، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك ، وقام به أتمّ قيام ، قال : البخاري عند تفسير هذه الآية عن عائشة (رض) قالت ١٢٨ : [من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب وهو يقول عز وجل : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما

أنزل إليك من ربك ﴾] هكذا رواه هاهنا مختصراً وقد أخرجاه في مواضع من صحيحيهما مطولاً .

وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : ١٢٩ : [لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه »] . وفي صحيح البخاري من رواية أبي جحيفة وهب بن عبدالله السوائي قال : قلت لعلي بن أبي طالب (رض)، هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن . فقال : لا والذي فلق الحبَّة وبرأ النسمة إلاَّ فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن ، وما في هذه الصحيفة ، قلت وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر . وثبت في صحيح مسلم عن جابر عن عبدالله ١٣٠ [أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ : « أيها الناس إنكم مسؤولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ » قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع أصبعه الى السماء وينكسها إليهم ويقول : « اللهم هل بلغت ؟ »]

وقوله تعالى : ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ يعني وإن لم تؤدِّ إلى الناس ماأرسلتك به ، فما بلغت رسالته أي وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته .

وقوله تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ أي بلّغ أنت رسالتي ، وأنا حافظك من الناس ، وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم ، فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء ؛ وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يحرس . كما روى الإمام أحمد عن عائشة (رض) كانت تحدث ١٣١ : [أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت : فقلت : ما شأنك يا رسول الله ؟ قال : « ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة » ، قالت : فبينا أنا على ذلك ، إذ سمعت صوت السلاح ؛ فقال « من هذا ؟ » فقال : أنا سعد بن مالك ؛ فقال « ما جاء بك ؟ » قال : جئت لأحرسك يا رسول الله ، قالت : فسمعت غطيط رسول الله ﷺ في نومه] أخرجاه في الصحيحين وروى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت ١٣٢ : [كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ قالت فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال : يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنا الله عز وجل] وهكذا رواه الترمذي ثم قال : هذا حديث غريب ، وهكذا رواه ابن جرير والحاكم في مستدركه وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ورواه ابن مردويه عن **عصمة** بن مالك الخطمي ١٣٣ قال : [كنا نحرس رسول الله ﷺ بالليل حتى نزلت ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ فترك الحرس .]

روى الامام أحمد عن جعدة بن خالد بن الصمة الجشمي (رض) قال ١٣٤ : [... وأُتِيَ النبيُّ ﷺ برجلٍ ، فقيل : هذا أراد أن يقتلك ؛ فقال له النبي ﷺ ﴿ لم تُرَعْ ولو أردت ذلك لم يُسَلِّطْكَ الله عليَّ ﴾]

وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ أي بلغ أنت ، والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ،كما قال تعالى : ﴿ ليس عليك هداهم ولكنَّ الله يهدي من يشاء ﴾ وقال تعالى : ﴿ فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ * (٦٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئُونَ وَٱلنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * (٦٩) ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد ﴿ يا أهل الكتاب لستم على شيء ﴾ أي من الدين حتى تؤمنوا بجميع مـــا بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء وتعملوا بما فيها ، ومما فيهـــا الإيمان بمحمد ﷺ والأمر باتباعه والإيمان بمبعثه ، والاقتداء بشريعته ﴿ وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ أي القرآن العظيم ، قاله مجاهد . وقوله تعالى : ﴿ وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيآناً وكفراً ﴾ تقدم تفسيره [١] ﴿ فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ أي فلا تحزن عليهم ، ولا يهيبنّك ذلك منهم . ثم قال : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ وهم المسلمون ﴿ والذين هادوا ﴾ وهم حملة التوراة ﴿ والصابئون ﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع ؛ والصابئون : طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين قاله مجاهد ، وعنه أنهم من اليهود والنصارى وعن قتادة هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى غير القبلة ويقرأون الزبور وقال ابن وهب أخبرني ابن أبي زياد عن أبيه ، قال:الصابئون : هم قوم مما يلي العراق وهم بكوثى ، أو هم يؤمنون بالنبيين كلهم ، ويصومون كل سنة ثلاثين

(١) راجع الآية رقم /٦٤/ من سورة المائدة .

يوماً ، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات وقيل غير ذلك [١] وأما النصارى فمعروفون وهم حملة الإنجيل . والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر وعملت عملاً صالحاً. ولا يكون ذلك كذلك، حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين ، فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه – من الآخرة وأهوالها – ولا على ما تركوا وراء ظهورهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ تقدم تفسيرها في سورة البقرة [٢]

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١)﴾

يذكر تعالى أنه أخذ العهود على بني اسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله ، فنقضوا تلك العهود واتبعوا أهواءهم. وقدموها على الشرائع فماوافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردوه . ولهذا قال تعالى : ﴿ كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون وحسبوا ألّا تكون فتنة ﴾ أي وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا ، فترتب : وهو أنهم عموا عن الحق وصمّوا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه ﴿ ثم تاب الله عليهم﴾ مماكانوا فيه ، ﴿ ثم عموا وصموا ﴾ بعد ذلك ﴿ كثير منهم والله بصير بما يعملون ﴾ أي مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم .

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

---

(١) و (٢) راجع الآية رقم /٦٢/ من سورة البقرة تجد تفصيلا جيداً في تحقيق حقيقة الصابئة ، للإمام تقي الدين أحمد بن تيمية رضي الله عنه » .

أَنْصَارٍ ۞ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٧٤) مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۞ (٧٥)

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ، ، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله ، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً ؛ هذا وقد كان أول كلمة نطق بها وهو في المهد :﴿ إني عبد الله ﴾ ولم يقل : إني أنا الله ولا ابن الله بل قال : ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ إلى أن قال : ﴿ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوّته ولهذا قال تعالى : ﴿ وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربّي وربّكم إنه من يشرك بالله ﴾ أي فيعبد معه غيره ﴿ فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وفي الصحيح ١٣٥ [أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس : « إن الجنة لا يدخلها إلاّ نفس مسلمة » « وفي لفظ « مؤمنة »] ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني اسرائيل : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنّة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ أي ما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه . وقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ .

قال السدّي وغيره : نزلت في جعلهم المسيح وأمّه إلهين مع الله ؛ فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الإعتبار . قال السدي : وهي كقوله تعالى في آخر السورة : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأميَ إلهين من دون الله قال سبحانك ﴾ وهذا القول هو أظهر الأقوال التي قيلت في تفسير قوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ﴾ ـ والله أعلم ـ قال الله تعالى : ﴿ وما من إله إلاّ إله واحد ﴾ أي ليس متعدداً بل هو وحده لا شريك له ، إلّه جميع الكائنات ثم قال تعالى : ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ﴾

أي من هذا الافتراء والكذب ﴿ ليَمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ أي في الآخرة من الأغلال والنكال ؛ ثم قال تعالى : ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ وهذا من كرمه تعالى ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم ، والافتراء والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه .

وقوله تعالى : ﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ أي أنه عبد من عباد الله كالرسل الذين تقدموه ﴿ وأمه صدّيقة ﴾ أي مؤمنة به مصدقة له ، وهذا أعلى مقاماتها ، فدلّ على أنها ليست نبيّة كما زعم ابن حزم وغيره إلى نبوة سارة أم اسحق ، ونبوة أم موسى ، ونبوة أم عيسى ، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ وهذا معنى النبوة بزعمهم ، ولكن الذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال قال الله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى الإجماع على ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ أي يحتاجان إلى التغذية به ، والى خروجه منهما ، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلٓهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة ، عليهم من الله ما يستحقون إلى يوم القيامة ، ثم قال تعالى : ﴿ انظر كيف نبيّن لهم الآيات ﴾ أي نوضحها ونظهرها ﴿ ثم انظر أنّى يؤفكون ﴾ أي ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون ! ! ! وبأي قولٍ يتمسكون ، وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون .

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ ۞ (٧٧) ﴾

ينكر تعالى على من عَبَدَ غيرَه من الأنداد ومبيناً أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية فقال سبحانه : ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء العابدين وغيرهم ﴿ أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي لا يقدر على رفع ضرٍ عنكم ، ولا إيصال نفعٍ إليكم ﴿ والله هو

السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بكل شيء ، فلِمَ عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه ؟ ثم قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ﴾ أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلآهية ، كما صنعتم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله ، وما ذاك إلاّ لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال ، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ، ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً . وضلّوا عن سواء السبيل ﴾ أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال .

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۞ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ (٨١)

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهرٍ طويل فيما أنزله على داود وعيسى عليهما الصلاة والسلام بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه. وعن ابن عباس : لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان ، ثم بيّن ما لهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم ؛ فقال تعالى : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ أي كان لا ينهي أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم ، ثم ذمهم على ذلك ليُحذّر أن يُرتكب مثل الذي ارتكبوه ، فقال تعالى : ﴿ لبئس ما كانوا يفعلون ﴾

روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ١٣٦ [« إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيراً فإذا كان من الغد

لم يمنعه ما رأى منه ، أن يكون أكيله وخليطه وشريكه وشريبه ، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم ، ﴿ ١٣٧ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : [والذي نفسي بيده لتأمـــرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد المسيء ، ولتأطرُنّه على الحقّ أطراً ، أو ليضربنّ الله قلوب بعضكم على بعض ، أو ليلعنكم كما لعنهم]

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً ، ولنذكر منها ما يناسب المقام :

روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان ، أن النبي ﷺ قال ١٣٨ : [والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم **عقاباً** من عنده ثم لتدعُنَّه فلا يستجيب لكم]

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ ١٣٩ [من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان] رواه مسلم . وروى الإمام أحمد عن عدي بن عميرة (رض) قال : سمعت النبي ﷺ يقول ١٤٠ : [إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكرَ بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة]

وقوله تعالى : ﴿ ترى كثيراً منهم يتولّوْن الذين كفروا ﴾ قال مجاهد : يعني بذلك المنافقين . وقوله تعالى : ﴿ لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ﴾ يعني بذلك موالاتهم للكافرين وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم ، وأسخطت الله عليهم سخطـــاً مستمراً إلى يوم معادهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أن سخط الله عليهم ﴾ وفسر بذلك ما ذمهم به ، ثم أخبر عنهم أنهم ﴿ وفي العذاب هم خالدون ﴾ يعني يوم القيامة .

وقوله تعالى ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ﴾ أي لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما والوا الكافرين وعادوا المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه ﴿ ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾ أي خارجون عن طاعة الله ورسوله مخالفون لما أنزل .



﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ❁ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ ❁ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّالِحِينَ ❁ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ❁ (٨٥) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ ❁ (٨٦) ﴾

نزلت هذه الآيات في وفدٍ بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ ليسمعوا كلامه ويـروا صفاته ، فلما رأوه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه . قال ابن جرير أن هذه الآيات قد نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها على أن النجاشي ملك الحبشة أسلم ولما مات صلّى عليه النبي ﷺ .

فقوله تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ وما ذاك إلا لأن كفر اليهود ، كفر عنادٍ وجحود ، ومباهتة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم . ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء ، حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة ، وسمّوه وسحروه ، وألّبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامـــة .

روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

١٤٠ [ما خلا يهودي بمسلم إلاّ همّ بقتله] وقوله تعالى : ﴿ ولتجدن أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ﴾ أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج

إنجيله ، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة ، وما ذاك إلا لما في قلوبهم ـ اذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ﴾ وفي كتابهم : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » . وليس القتال مشروعاً في ملتهم ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ فقد تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف. فقال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ أي مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿ يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ أي مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به وقد روى النسائي عن عبدالله بن الزبير قال : [نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه .]

روى الطبراني عن ابن عباس في قول الله تعالى ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ﴾ ١٤١ [قال إنهم كانوا كرابين أي فلاحين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن ، آمنوا وفاضت أعينهم فقال رسول الله ﷺ « لعلكم إذا رجعتم الى أرضكم انتقلتم الى دينكم » فقالوا لن ننتقل عن ديننا ، فأنزل الله ذلك من قولهم : ﴿ وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾] وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله ﴾ وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ـ إلى قوله ـ لا نبتغي الجاهلين ﴾ ولهذا قال الله تعالى هاهنا : ﴿ فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿ وذلك جزاء المحسنين ﴾ أي باتباعهم الحق ، وانقيادهم له حيث كان وأين كان ومع من كان . ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال عز من قائل : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أي جحدوا بها وخالفوها ، ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ أي هم أهلها والداخلون فيها .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۞ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۞ (٨٨) ﴾

جاء في الصحيحين عن عائشة (رض) ١٤٢ [إن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ؛ وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « ما بال أقوام يقول أحدهم كذا كذا ، لكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم ،وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ١٤٣ [نزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم .. ﴾ في رهط من أصحاب النبي ﷺ قالوا نقطع مذاكيرنا ، ونترك شهوات الدنيا ، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك ، فقالوا : نعم ؛ فقال النبي ﷺ : « لكني أصوم وأفطر وأصلي وأنام ، وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو مني ، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني »] رواه ابن أبي حاتم .

روى الأعمش عن عمرو بن شرحبيل قال [جاء معقل بن مقرن الى عبدالله بن مسعود فقال إني حرمت فراشي ، فتلا هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم .

وروى الثوري عن مسروق ١٤٤ قال : [كنا عند عبدالله بن مسعود فجيء بضرع فتنحَّى رجل فقال له عبدالله : أدنُ ؛ فقال : إني حرمت أن آكله ، فقال عبدالله : أدنُ فاطعم وكفّر عن يمينك ، وتلا هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيباتِ ما أحل الله لكم ﴾ ورواه الحاكم في مستدركه ثم قال على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

وقد ذهب بعض العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ، ولا كفارة عليه أيضاً ولقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ ولأن الذي حرم اللحم على نفسه كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبي ﷺ بكفارة ، وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين ، كما إذا التزم تركه باليمين ، فكذلك يُؤَاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه ، كما أفتى بذلك ابن عباس . وكما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم ﴾ الآية ... وكذلك هاهنا لما ذكر هذا الحكم عقّبهُ بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدل على

أن هذا منزّل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير ، والله أعلم [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعتدوا ﴾ أي لا تضيقوا على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم كما قاله من قاله من السلف ويحتمل أن يكون المراد ، كما لا تحرموا الحلال ، فلا تعتدوا في تناول الحلال ولا تجاوزوا الحدّ فيه كما قال تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ الآية . فشرع الله العدل بين الغالي فيه والجافي عنه .ولهذا قال تعالى : ﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ﴾ ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم ، واتبعوا طاعته ورضوانه ، واتركوا مخالفته وعصيانه.﴿ الذي أنتم به مؤمنون ﴾ .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ (٨٩)

قد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا [(٢)] ولله الحمد والمنة وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله ، وبلى والله ... وهذا مذهب الشافعي وقيل وقيل وقيل ... والصحيح أنه اليمين من غير قصد ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ أي بما صممتم عليه منها وقصدتموها ، ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين ﴾ يعني محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه . وقوله

(١) قلت : فيما يبدو – والله أعلم – إن ما ذهب إليه بعض العلماء كالشافعي وغيره بعدم إلزام الكفارة على من حرم شيئاً من مأكل أو ملبس أو مشرب أو أي شيء آخر ما عدا النساء ، هو الحق ... لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أمره الله تعالى بأن يحل ما حرم على نفسه من بعض نسائه ويكفر عن ذلك، كما لو أنه حلف يميناً فكفر، وجعل تحريمه كأنه يمين ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر الذين حرموا على أنفسهم بعض المطعم والملبس والمشرب بكفارة ما ... ففهم من هذا ، أن من حرم على نفسه ما حرموا ليس عليه كفارة . لأن الكفارة جاءت بشأن تحريم النساء . (٢) راجع الآية رقم /٢٢٥/ من سورة البقرة .

تعالى : ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ أي في عسرهم ويسرهم ، كالخبز واللحم ، والخبز والسمن ، والخبز واللبن ، والخبز والزيت ، والخبز والخل . أكلةً واحدةً حتى يشبعوا . وقال آخرون : يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر ونحوهما ، فهذا قول عمر وعلي وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم . وقد روى أبو بكر بن مردويه عن ابن عباس قال ١٤٥ : [كفّر رسول الله ﷺ بصاع من تمر وأمر الناس به ، ومن لم يجد فنصف صاع من بر] .

وقوله تعالى : ﴿ أو كسوتهم ﴾ قال الشافعي رحمه الله : لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص ، أو سراويل ، أو إزار ، أو عمامة ، أو مقنعة أجزأه ذلك . وقال : مالك وأحمد لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلي فيه ، إن كان رجلاً أو امرأة كل بحسبه والله أعلم ، وقال ابن عباس عباءة لكل مسكين أو شملة ، وقال مجاهد أدناه ثوب وأعلاه ما شئت .

وقوله تعالى : ﴿ أو تحرير رقبة ﴾ قال الشافعي لا بد أن تكون مؤمنة ، وأخذ تقيدها بالأيمان من كفارة القتل لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب ، ومن حديث معاوية بن الحكم السلمي الذي هو في موطأ مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم ١٤٦ [إنه ذكر أن عليه عتق رقبة ، وجاء معه بجارية سوداء ، فقال لها رسول الله ﷺ : « أين الله ؟ » قالت : في السماء . قال : « من أنا » قالت : رسول الله . قال : « أعتقها فإنها مؤمنة »] الحديث بطوله ... فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين ، أيّها فعل الحانث أجزأ عنه بالإجماع ، وقد بدأ بالأسهل فالأسهل : فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة ، كما أن الكسوة أيسر من العتق ، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى ، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفّر بصيام ثلاثة أيام ، كما قال تعالى : ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ﴾ واختلف العلماء : هل يجب فيها التتابع ، أو يستحب ولا يجب ، ويجزىء التفريق ؟ قولان : أحدهما لا يجب لإطلاق قوله تعالى : ﴿ فصيام ثلاثة أيام ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرّقة كصيام قضاء رمضان ، والثاني الوجوب لانه قد روي عن أبي بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرأونها : ﴿ فصيام ثلاثة أيام متتابعات ﴾ ومحكي ذلك عن ابن مسعود أيضاً ، وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً فلا أقل أن يكون خبراً واحداً أو تفسيراً من الصحابة وهو في حكم المرفوع [1] وقوله تعالى :

---

(١) لا يزال عدم الوجوب أقوى دليلا من الوجوب إلا أن يكون التتابع استحباباً فحسن .

﴿ ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم ﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ قال ابن جرير : معناه لا تتركوها بغير تكفير ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾ أي يوضحها ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۞ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۞ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۞ (٩٣) ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميْسر وهو القمار ، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (رض) أنه قال: الشطرنج من الميْسر رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن علي به.وروي عن راشد بن سعد وضمرة بن حبيب مثله قالا : حتى الكعاب والجوز والبيض التي تلعب بها الصبيان.وقال موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : الميسر هو القمار • وقال الضحاك عن ابن عباس مثله.وقال : كانوا يتقامرون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام ، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة .

روى ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري ، عن النبي ﷺ قال ١٤٧ :[اجتنبوا هذه الكعاب الموسومة التي يزجر بها زجراً ، فإنها من الميسر] حديث غريب ، وكأن المراد بهذا ، هو النرد الذي ورد الحديث به في صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ ١٤٨ : [من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه]

وفي موطأ مالك عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ ١٤٩ : [من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله] روى الأمام أحمد عبد الرحمن سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول ١٥٠ : [مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلي ، مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي] أما الشطرنج ،فقد قال عبدالله بن عمر : إنه شر من النرد . وتقدم عن علي أنه قال : هو من الميسر ونص على تحريمه الأئمة الثلاثة وكرهه الشافعي رحمهم الله . وأما الأنصاب قال ابن عباس وجماعة من التابعين : هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها وأما الأزلام فقالوا أيضاً : هي قداح كانوا يستقسمون بها [1] رواه ابن أبي حاتم .

وقوله تعالى : ﴿ رجس من عمل الشيطان ﴾ أي سخط من عمل الشيطان ، قاله ابن عباس ﴿ فاجتنبوه ﴾ الضمير عائد على الرجس أي اتركوه ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ وهذا ترغيب .

ثم قال تعالى : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمروالميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ وهذا تهديد وترهيب .

﴿ ذكر أحاديث في بيان تحريم الخمر ﴾

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال ١٥١ قال [حرّمت الخمر ثلاث مرات ، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما ، فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ إلى آخر الآية فقال الناس : ما حرما علينا إنما قال : ﴿ فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾

(١) قلت : القداح جمع / قدح / وهو سهم الميسر ، وما يسمى في عهدنا وعصرنا اليوم بـ / اليانصيب / هذا الوباء الوخيم الذي هو القمار بعينه قد تفشى تفشياً ذريعاً في مجتمعنا الذي عم فيه الفساد وقل أن تجد من لا يشتري أوراق اليانصيب هذه فتقع الخسارات العظيمة ومما يؤسف له أن أولي الأمر المفروض فيهم أن ينهوا عنه أفراد الأمة، اذا بهم يشجعونهم على اقتراف هذا المحرم وهذه السجية الرذيلة ، وها نحن أولاء نرى الحكومة تتبنى مشروع اليانصيب ويعود ماله الحرام على مشروع المعرض بدمشق ، ومما يؤسف له أيضاً أن بعض الجمعيات الخيرية تزاول هذه العادة القبيحة وتخصص على زعمها ريعه للأمور الخيرية ، فصدق فيها قول الشاعر :

أمطعمة الأيتام من كسب (...) لك الويل لا تزني ولا تتصدقي

وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوماً من الأيام ، صلّى رجل من المهاجرين ، أمّ أصحابه في المغرب فخلط في قراءته فأنزل الله آيةً أغلظ منها : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مغبق ، ثم أنزلت آية أغلظ منها ﴿يا أيها الذين آمنوا انما الخمروالميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ قالوا: إنتهينا ربنا . وقال الناس : يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله ، وماتوا على سرفهم ، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان ، فأنزل الله تعالى : ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ إلى آخر الآية فقال النبي ﷺ : « لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم »] انفرد به أحمد .

وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ . أيها الناس ١٥٢ [إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة : العنب ، والتمر ، والعسل ، والحنطة والشعير ، والخمر ما خامر العقل .]

وجاء في الصحيحين عن أنس قال ١٥٣ : [كنت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة ، وما شرابهم الا الفضيخ البسر والتمر ، فإذا منادٍ ينادي قال :أخرج فانظر ؛ فإذا منادٍ ينادي ـ ألا ان الخمر قد حرّمت ، فجرت في سكك المدينة . قال فقال أبو طلحة : أخرجْ فأهرقها فهرقتها ، فقالوا أو قال بعضهم : قتل فلان وفلان وهي في بطونهم قال: فأنزل الله ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾] الآية .

روى الإمام أحمد عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قال ١٥٤ : (إن ربي تبارك وتعالى حرم الخمر والكوبة والقنّين ، وإياكم والغبيراء ، فإنها ثلث خمر العـــالم) (١)

روى الامام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ١٥٥ : [لعنت الخمر على عشرة أوجه : لعنت الخمر بعينها ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها]

روى عبدالله بن وهب عن ثابت عن ابن عمر قال إني كنت مع رسول الله ﷺ في

(١) الكوبة بضم الكاف : النرد أو الشطرنج ، والطبل الصغير . القنين : الطنبور ولعبة للروم يتقامرون بها . الغبيراء : وهي شراب من الذره .

المسجد فبينما هو محتبٍ على حبوته ثم قال ١٥٦ : (من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها » فجعلوا يأتونه فيقول أحدهم : عندي راوية ، ويقول الآخر : عندي زق ، أو ما شاء الله أن يكون عنده ، فقال رسول الله ﷺ « أجمعوه ببقيع كذا وكذا » ثم آذنوني ففعلوا ثم آذنوه ، فقام وقمت معه ومشيت عن يمينه وهو متكيء عليّ ، فلحقنا أبو بكر (رض) ، فأخرني رسول الله ﷺ فجعلني عن شماله ، وجعل أبا بكر في مكاني ثم لحقنا عمر بن الخطاب (رض) فأخرني وجعله عن يساره ، فمشى بينهما حتى إذا وقف على الخمر قال للناس « أتعرفون هذه ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله ، هذه الخمر ، قال : « صدقتم » ثم قال : « فإن الله لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها وساقيها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبائعها ، ومشتريها ، وآكل ثمنها » ثم دعا بسكين فقال : « اشحذوها » ففعلوا ، ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرق بها الزقاق قال فقال الناس : في هذه الزقاق منفعة ، فقال : « أجل ولكن إنما أفعل ذلك غضباً لله عز وجل لما فيها من سخطه » فقال عمر : أنا أكفيك يا رسول الله ، قال « لا »] قال ابن وهب وبعضهم يزيد على بعض في قصة الحديث . رواه البيهقي .

روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن جابر بن عبدالله قال ١٥٧ : [كان رجل يحمل الخمر من خيبر إلى المدينة فيبيعها من المسلمين ، فحمل منها بمال فقدم بها المدينة فلقيه رجل من المسلمين فقال يا فلان ، إن الخمر قد حرمت ، فوضعها حيث انتهى على تل ، وسجّى عليها بأكسية ثم أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ، بلغني أن الخمر قد حرمت ؟ قال « أجل » قال : لي أن أردها على من ابتعتها منه ؟ قال : « لا يصلح ردها » قال : لي أن أهديها إلى من يكافئني منها ؟ قال : « لا » قال فإن فيها مالاً ليتامى في حجري . قال : إذا أتانا مال البحرين فأتنا نعوض أيتامك من مالهم ثم نادى بالمدينة فقال رجل : يا رسول الله ، الأوعية ننتفع بها ؟ قال : « فحلوا أوكيتها » فانصبّت حتى استقرت في بطن الوادي] هذا حديث غريب .

روى الامام أحمد عن أنس بن مالك ١٥٨ [أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمراً فقال « أهرقها » قال: أفلا نجعلها خلاً ؟ قال « لا »] ورواه مسلم وأبو داود الترمذي

روى أبو داود عن عبدالله بن عباس عن النبي ﷺ ١٥٩ [« كل مخمر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب مسكراً أبخست صلاته أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه فان عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قيل وما طينة الخبال

يا رسول الله ؟ قال : صديد أهل النار . ومن سقاه صغيراً لا يعرف حلاله من حرامه كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال »] تفرد به أبو داود .

روى مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ١٦٠ : [كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها ، لم يشربهـا في الآخرة] .

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال ١٦١ : [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن] .

قال الأعمش بن عبدالله بن مسعود إن النبي ﷺ قال ١٦٢ : [لما نزلت : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا ...» فقال النبي ﷺ « قيل لي أنت منهم »]

روى عبدالله بن الإمام أحمد : قرأت على أبي بالسند إلى عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ١٦٣ : [إياكم وهاتان الكعبتان الموسومتان اللتان تزجران **زجراً فإنهما** ميسر العجم]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۞ (٩٥) ﴾

قال ابن عباس قوله تعالى : ﴿ ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ﴾

وهو الضعيف من الصيد ، وصغيره يبتلي الله به عباده في إحرامهم حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه ، وقال مقاتل بن حيان أنزلت هذه الآية في صلح وعمرة الحديبية ﴿ ليعلم الله من يخافه بالغيب ﴾ يعني أنه تعالى يختبرهم بالصيد ، يغشاهم في رحالهم يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً ، لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره كما قال تعالى: ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ وقوله تعالى هاهنا : ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك ﴾ يعني بعد هذا الإعلام والإنذار ﴿ فلـه عذاب أليم ﴾ أي لمخالفته أمر الله وشرعه . ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ وهذا تحريم منه تعالى عن تعاطي الصيد في حال الإحرام ، ولا يجوز للمحرم صيد أو قتل أي حيوان إلاّ ما استثناه الشارع الحكيم الذي ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال ١٦٤ : [خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم : الغراب ، والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور]

وروى النسائي عن عائشة عن النبي ﷺ قال ١٦٤ : [خمس يقتلهن المحرم : الحية ، والفأرة ، والحدأة والغراب الأبقع ، والكلب العقور] والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك، لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه . وروى هشيم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ١٦٥ [أنـه سئل عما يقتل المحرم ؟ فقال : « الحية والعقرب، والفويسقة، ويرمي الغرابَ ولايقتله، والكلب العقور ، والحدأة، والسبع العادي»] رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل ، والترمذي وقال : هذا حديث حسن .

قال زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة : الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها ، واستأنس من قال بهذا بما روي ١٦٦ [أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال : « اللهم سلط عليه كلبك بالشام » فأكله السبع بالزرقاء]قالوا فإن قتل المحرم سوى ذلك فداه إلا أن يصول عليه فيقتله ولا فداء عليه .

وقوله تعالى : ﴿ ومن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم ﴾ فالذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه . لدلالة الكتاب على تأثيم العامد، كقوله تعالى : ﴿ ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ وجاءت السنّة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ .

وقوله تعالى : ﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ وقد ذهب الجمهور بالمثلية إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي ، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله ، فقد أوجب القيمـة سواء

كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي قال : وهو مخير إن شاء اشترى به هدياً أو تصدق بثمنه ، أما الذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع : فانهم حكموا في النعامة ببدنة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز ، وذكر قضايا الصحابة وأسانيدها مقرر في كتاب الأحكام ، وإذا لم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه يحمل إلى مكة ، رواه البيهقي .

وقوله تعالى : ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ أي يحكم بالجزاء في المثل ، أو في القيمة في غير المثل عدلان من المسلمين ، واختلف العلماء في القاتل : هل يجوز أن يكون أحد الحكمين ؟ على قولين (أحدهما) : لا ... ، وهو مذهب مالك لأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة (والثاني) نعم لعموم الآية وهو مذهب الشافعي وأحمد .

روى ابن جرير عن طارق قال : أوطأ أربد [1] ظبياً فقتله وهو محرم ، فأتى عمر ليحكم عليه . فقال له عمر : أحكم معي ، فحكما فيه جدياً قد جمع الماء والشجر ، ثم قال عمر ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ وفي هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين ، كما قال الشافعي وأحمد رحمهما الله تعالى ، واختلفوا أيضاً : هل يكتفي بما حكم بمثله الصحابة ، أم يرجع فيه إلى عدلين من المسلمين إن حكم بمثله الصحابة أو لم يحكم فالشافعي وأحمد جعلا أحكام الصحابة المتقدمة شرعاً مقرراً لا يعدل عنه ، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين ؛ وقال مالك أبو حنيفة : بل يجب الحكم في كل فرد فرد سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا ، لقوله تعالى : ﴿ يحكم به ذوا عدل منكـــم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ أي واصلاً إلى الكعبة ، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرق لحمه على مساكين الحرم ، وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة .

وقوله تعالى : ﴿ أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ﴾ أي إذا لم يجد المحرِم مثل ما قتل من النعم ، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال ، أو قلنـــا بالتخيير في هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام كما هو قول مالك وأبي حنيفة ، وأبي يوسف ، ومحمد بن الحسن ، وأحد قولي الشافعي والمشهور عن أحمد رحمهم الله تعالى لظاهر ﴿ أو ﴾ بأنها للتخيير أي بين أن يذبح مثل ما قتل من النعم ، أو يطعم كل مسكين

(١) اربد اسم رجل .

مُدَّيْن وعدد المساكين ستة فان الشارع أمر كعب بن عجرة أن يقسم فرقاً بين ستة ، أو يصوم ثلاثة أيام عن كل صاع يوم ، والفرق ثلاثة آصع ومكان الإطعام في الحرم .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مفسراً هذه الآية ... : إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد حكم عليه فيه ؛ فإن قتل ظبياً أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة ، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، فإن قتل أيلاً أو نحوه ، فعليه بقرة فإن لم يجد أطعم عشرين مسكيناً فإن لم يجد صام عشرين يوماً ، فإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه ، فعليه بدنة من الإبل ، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً ، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير [1] وروى عن ابن عباس الخيار بين الثلاثة . واختار ذلك ابن جرير رحمه الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ أي عقوبة فعله الذي إرتكب فيه المخالفة ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ أي عما كان في الجاهلية لمن أحسن في الاسلام ، واتبع شرع الله ، ولم يرتكب المعصية ، ثم قال تعالى : ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ أي ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام ، وبلوغ الحكم الشرعي إليه. ﴿ فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ﴾ وليس في العود حد على من عاد إنما هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل ولكن يفتدي ويقال له : فينتقم الله منك كما قال عز وجل . وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري أن رجلاً أصاب صيداً فتجوز عنه ، ثم عاد فأصاب صيداً آخر ؛ فنزلت نار من السماء فأحرقته فهو قوله تعالى : ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ وقال جرير في قوله تعالى ﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾ يقول عز ذكره : والله منيع في سلطانه ، لا يقهره قاهر ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع ، لأن الخلق خلقه ، والأمر أمره ، له العزة والمنعة . وإنه ذو معاقبة لمن عصاه .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۞ (٩٦) جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ



(١) قلت : إن من يتأمل في حديث كعب بن عجرة يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يقسم فرقا بين ستة مساكين أو يصوم ثلاثة أيام ، بينما نرى فتوى ابن عباس ان الصيام عدل عدد المساكين وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن عدد أيام الصيام بنصف عدد المساكين ، فلعل عند ابن عباس حديثاً يوافق فتواه وإلا فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدم على كل فتوى .

ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ❁ (٩٧) ٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ❁ (٩٨) مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ❁ (٩٩)

قال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه : صيده ما أخذه منه حياً ﴿ وطعامه ﴾ ما لفظه ميتاً وهكذا روي عن أبي بكر الصديق ، وزيد بن ثابت ، وعبدالله بن عمرو ، وأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهم وجماعة من التابعين . قال ابن جرير : وقد روي في ذلك خبر ، وإن بعضهم يرويه موقوفاً ، قال حدثنا هناد بسنده إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٦٧ [﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم ﴾ قال « طعامه ما لفظه ميتاً »] ثم قال وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبي هريرة ...

وقوله تعالى : ﴿ متاعاً لكم وللسيارة ﴾ أي منفعةً وقوتاً لكم ﴿ وللسيارة ﴾ وهم جمع سيار قال عكرمة : لمن كان بحضرة البحر والسفر وقال غيره : الطري منه لمن يصطاده من حاضرة البحر ، وطعامه ما مات فيه أو اصطيد منه ومُلّح وقد يكون زاداً للمسافرين ، والنائين عن البحر وقد روي نحوه عن ابن عباس ومجاهد والسدي وقد استدل الجمهور على حلّ ميتة البحر بهذه الآية الكريمة ، وبما رواه الإمام مالك ، عن جابر بن عبدالله قال : [بعث رسول الله ﷺ بعثاً قِبَلَ الساحل ، فأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلثمائة وأنا فيهم ، قال : فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش ، فجمع ذلك كله ، فكان مزودَيْ تمر ، قال : فكان يقوّتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني ، فلم يكن يصيبنا إلاّ تمرة تمرة ، فقال : فقد وجدنا فقدها حين فنيت ، قال : ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظرب ، فأكل منه الجيش ثماني عشرة ليلة ، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا ، ثم أمر براحلة فرحلت ومرت تحتهما فلمْ تصبهما .] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله طرق عن جابر .

وجاء فيما جاء من رواية مسلم في صحيحه من رواية أبي الزبير عن جابر ١٦٨ : [... وتزودنا من لحمه وشائق ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له

فقال : « هو رزق أخرجه الله لكم هل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ؟ » قال فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله] .

وروى مالك بن صفوان بن سليم بن سعيد بن سلمة ... عن أبي هريرة يقول ١٦٩ : [سأل رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا ،أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال رسول الله ﷺ « هو الطهور ماؤه الحل ميتته »] رواه الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل وأهل السنن الأربع ، وصححه البخاري والترمذي ، وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم ، وقد روي عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ بنحوه .

وروى الإمام عبدالله الشافعي عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ ١٧٠ :[أحلت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال] ورواه أحمد وابن ماجه والدارقطني ، وله شواهد ، وروي موقوفاً والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ أي في حال إحرامكم ، يحرم عليكم الإصطياد ، ففيه دلالة على تحريم ذلك ، فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً ، أثم وغرم . أو مخطئاً ، غرم وحرم عليه أكله ، لأنه في حقه كالميتة .

أما إباحته لغيره ففيه خلاف ، فمنهم من منع ، وقال آخرون بالإباحة لغير القاتل سواء المحرمون والمحلّون لحديث ١٧١ : [صيد البر لكم حلال وأنتم حرم ما لم تصيّدوه ، أو يُصَدْ لكم] رواه الامام أحمد عن جابر وأبو داود والترمذي والنسائي جميعاً عن قتيبة .

وأما إذا صاد حلال صيداً ، فأهداه الى محرم ، فإن كان صاده من أجله لا يأكله لحديث الصعْب بن جثامة ١٧٢ [إنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء أو بودان فرده عليه ، فلما رأى ما في وجهه قال : « إنّا لم نردّه عليك إلاّ أنّا حُرُم »] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة ؛ قالوا : فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله فردّه لذلك .

فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فإنه يجوز له الأكل منه لحديث ١٧٣ [أبي قتادة حين صاد حمار وحش ، وكان حلالاً لم يحرم ، وكان أصحابه محرمين ، فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال : « هل كان منكم أحد أشار إليها أو أعان في قتلها »

قالوا : لا . قال « فكلوا » وأكل منها رسول الله ﷺ .] وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة .

روى مالك عن عبدالله بن عامر بن ربيعة ، قال رأيت عثمان بن عفان بالعرج وهو محرم في يوم صائف قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان ، ثم أتي بلحم صيد ، فقال لأصحابه كُلُوا ؛ فقالوا : أولا تأكلُ أنت ؟ فقال إني لست كهيئتكم إنما صِيدَ من أجلي .

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ (١٠٠) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۞ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ۞ (١٠٢) ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك ﴾ أي يا أيها الإنسان ﴿ كثرة الخبيث ﴾ يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار ، كما جاء في الحديث ١٧٤ : [ما قل وكفى خير مما كثر وألهى] .

﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾ أي يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة ، وتجنبوا الحرام ودعوه ، واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ وقال تعالى : : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤْكم ﴾ هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء لا فائدة لهم فيها لأنها إن أظهرت لهم ساءتهم ، وشق عليهم سماعها كما في الحديث أن رسول الله ﷺ قال ١٧٥ : [لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر] . قال البخاري عن أنس بن مالك قال ١٧٦ : [خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، وقال فيها : « لو تعلموا ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » قال فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين ، فقال رجل من أبي ؟ قال : « فلان » فنزلت هذه الآية : ﴿ لا تسألوا عن أشياء ... ﴾] رواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي .

روى ابن جرير عن أنس بن مالك قال ١٧٧ : [إن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر فقال : « لا تسألوني اليوم عن شيء إلاّ بينته لكم » فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر ، فجعلتُ لا ألتفتُ يميناً ولا شمالاً إلا وجدت كلاً لافاً رأسه في ثوبه يبكي ، فأنشأ رجل كان يلاحى ، فيدعى إلى غير أبيه ؛ فقال : يا نبي الله ، من أبي ؟ قال « أبوك حذافة » قال : ثم قام عمر – أو قال : فأنشأ عُمر – فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، عائذا بالله – أو قَال : أعوذ بالله من شر الفتن – قال وقال رسول الله ﷺ : لم أرَ في الخير والشر كاليوم قط ، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط »] أخرجاه ورواه معمر عن الزهري ، عن أنس بنحو ذلك ، قال الزهري فقالت أم عبدالله بن حذافة : ما رأيت ولداً أعقَّ منك قط ، أكنت تأمن أن تكون امُّكَ قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية ، فتفضحها على رؤوس النَّاس ؟ فقال : والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته . وظاهر الآية النهي عن السؤال عن أشياء إذا علمها الشخص ساءته ، فالأولى الإعراض عن السؤال عنها وتركها .

وقوله تعالى : ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تُبدَ لكم ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبين لكم ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ ثم قال : ﴿ عفا الله عنها ﴾ أي عما كان منكم قبل ذلك ﴿ والله غفور حليم ﴾ وقد ورد في الحديث ١٧٨ : [أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرّم فحرم من أجل مسألته] ولكن إذا نزل القرآن بها مجملةً فسألتم عن بيانها ، بينت لكم حينئذٍ لاحتياجكم إليها .

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال ١٧٩ : « [ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم .] وفي الحديث الصحيح أيضاً ١٨٠ [إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها] .

ثم قال تعالى : ﴿ قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ أي قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم ، فأجيبوا عنها ، ثم لم يؤمنوا بها ، فأصبحوا بها كافرين ، أي بسببها أي بينت لهم فلم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد بل على وجه الاستهزاء ، والعناد وقال العوفي عن ابن عباس في الآية ١٨١ : [إن رسول الله ﷺ أذّن في الناس فقال : « يا قوم كتب عليكم الحج » فقام رجل من بني أسد

فقال : يا رسول الله ، أفي كل عام ؟ فأغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ؛ فقال « والذي نفسي بيده لو قلت : نعم لو جبت ولو وجبت ما استطعتم ، وإذاً لكفرتم فاتركوني ما تركتكم ، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا ، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه »] فأنزل هذه الآية ، نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت عنه النصارى من المائدة ، فأصبحوا بها كافرين ، فنهى الله عن ذلك وقال : لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ، ولكن انتظروا فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء ، إلاّ وجدتم بيانه . رواه ابن جرير .

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝ (١٠٤) ﴾

روى البخاري عن سعيد بن المسيب قال : ١٨٢ [البحيرة : التي يمنع درُّهـا للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة : كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . قال : وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، كان أول من سيب السوائب » والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ، بل تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ، والحام : فحل الأبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه دعوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل ، فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامي .] وكذا رواه مسلم والنسائي .

فعمرو هذا هو ابن لُحَيْ بن قمعة ، أحد رؤساء خزاعة الذين وُلُّوا البيت بعد جرهم ، وكان أول من غيّر دين إبراهيم الخليل – ﷺ – فأدخل الأصنام إلى الحجاز ، ودعا الرّعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها ، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها ، كما ذكر الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما

ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ إلى آخر الآيات في ذلك .

وروى ابن أبي حاتم عن مالك بن نضلة قال : ١٨٣ [أتيت النبي ﷺ في خلقان من الثياب فقال لي « هل لك من مال ؟ » فقلت : نعم ، قال : « من أي المال ؟ » قال فقلت: من كل المال : من الإبل ، والغنم ، والخيل ، والرقيق ، قال : « فإذا آتاك الله مالاً فكثر عليك ، » ثم قال : « تنتج إبلك وافية آذانها ؟ » قال : قلت نعم ، وهل تنتج الإبل إلا كذلك ؟ قال « فعلك تأخذ الموسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول : هذه بحير ، وتشق آذان طائفة منها وتقول : هذه حرم » قلت : نعم قال : « فلا تفعل ان كل ما آتاك الله لك حل » ؛ ثم قال : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام »] أما البحيرة فهي التي يجدعون آذانها فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها فإذا ماتت اشتركوا فيها .

وأما السائبة فهي التي يسيبون لآلهتهم ويذهبون إلي آلهتهم فيسيبونها ، وأما الوصيلة ، فالشاة تلد ستة بطون ، فإذا ولدت السابع جدعت وقطع قرنها ، فيقولون قد وصلت فلا يذبحونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجاً في الحديث .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب واكثرهم لا يعقلون ﴾ أي لم يشرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة ولكن المشركون افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم فكان وبالاً عليهم .

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه ، وترك ما حرمه ، قالوا : يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك . قال الله تعالى : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ أي لا يفهمون حقاً ولا يعرفونه ولا يهتدون اليه ، فكيف يتبعونهم والحالة هذه ، لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلاً .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ (١٠٥) ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ،

ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس . قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ، يقول تعالى : إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال ، ونهيته عنه من الحرام ، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به ، فقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم ﴾ منصوب على الإغراء ، ﴿ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعُكم فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي فيجازي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وان شراً فشر ، وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذا كان فعل ذلك ممكناً .

وقد روى الإمام أحمد رحمه الله عن قيس قال : ١٨٤ [قام ابو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس اذا رأوا المنكرولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه . » وسمعت أبا بكر يقول : يا أيها الناس إياكم والكذب ، فإن الكذب مجانب الإيمان] وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه ، وغيرهم من طرقٍ كثيرة عن جماعة كثيرة ، عن اسماعيل بن أبي خالد به متصلاً مرفوعاً .

روى أبو عيسى الترمذي عن أبي أمية الشعباني قال : ١٨٥ [أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له ، كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أيّة آية ؟ قلت : قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « بل أئتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، واعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع العوام ، فإن من ورائكم أياماً ، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم . » قال عبدالله ابن المبارك ، : وزاد غير عتبة قيل يا رسول الله : أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟ قال : « بل أجر خمسين منكم »] ثم قال الترمذي حسن غريب صحيح .

قال سعيد بن المسيب : إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فلا يضرك من ضل اذا اهتديت ، رواه بن جرير .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ ٱللهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ ٱلْآثِمِينَ ۞ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَٱسْمَعُوا وَٱللهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ ۞ (١٠٨) ﴾

إشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل أنه منسوخ رواه العوفي عن ابن عباس وغيره وقال آخرون **وهم الاكثرون** بل هذا محكم ، ومن ادعى نسخه فعليه البيان .

فقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدَكم الموتُ حين الوصية اثنان ﴾ هذا هو الخبر لقوله تعالى : ﴿ شهادة بينكم ﴾ أي يشهد الوصية اثنان ﴿ ذوا عدل منكم ﴾ أي من المسلمين قاله الجمهور ، وروي عن ابن عباس وغيره ، وقال آخرون : من أهل الموصي ، روي ذلك عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما . وقوله تعالى : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ أي من غير المسلمين يعني أهل الكتّاب قاله ابن عباس ، وجماعة من التابعين وقيل من غير قبيلة الموصي قاله عكرمة وغيره ، والظاهر القول الأول والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إن أنتم ضربتم في الأرض ﴾ أي سافرتم ﴿ فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين ؛ أن يكون ذلك في سفر ، وأن يكون في وصية رواه ابن جرير عن شريح وروي نحوهُ عن الإمام أحمد وهذه المسألة من

أفراده وخالفة الثلاثة فقالوا : لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين ، وأجازها ابو حنيفة فيما بينهم .

وقد اختلف في قوله تعالى ﴿ شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم ﴾ هل المراد أن يوصي إليهما أو يشهدهما ؟ على قولين ، والأصح انهما يكونان شاهدَيْنِ وهو ظاهر سياق الآية الكريمة فإن لم يكن وُصّيٌ ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان : الوصاية والشهادة كما في قصة تميم الداري وعدي بن بداء كما سيأتي ذكرها إن شاء الله وبه التوفيق .

وقوله تعالى : ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة ﴾ يعني صلاة العصر ، قاله ابن عباس وجماعة من التابعين وقال الزهري : يعني صلاة المسلمين . والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهما ﴿ فيقسمان بالله ﴾ أي فيحلفان به تعالى ﴿ ان ارتبتم ﴾ أي إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلا ، فيحلفان حينئذٍ بالله ﴿ لا نشتري به ﴾ أي بأيماننا ﴿ ثمناً ﴾ أي لا نعتاض عنه بعوض من الدنيا الفانيةً الزائلة ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ أي ولو كان المشهود عليه قريباً لنا لا نحابيه . ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ أضافها إلى الله تشريفاً لها وتعظيماً لأمرها ﴿ إنا إذاً لمن الآثمين ﴾ أي ان فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها كلياً . ثم قال تعالى : ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً ﴾ فان اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا أو غلاّ شيئاً من المال الموصى به إليهما ، ﴿ فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوّليان ﴾ هذه قراءة الجمهور ، فعلى هذه القراءة يكون المعنى بذلك أي متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما ، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة ، وليكونا من أولى من يرث ذلك المال ﴿ فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ﴾ أي لقولنا أنهما خانا ، أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿ وما اعتدينا ﴾ أي فيما قلنا فيهما من الخيانة ، ﴿ إنّا إذاً لمن الظالمين ﴾ أي إن كنا قد كذبنا عليهما ؛ وهذا التحليف للورثة ، والرجوع إلى قولهما والحالة هذه .

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة فقال ابن ابن حاتم عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت ﴾ قال : ١٨٦ (برىء الناس منها غيري وغير عدي بن بداء ، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الاسلام ، فأتيا الشام لتجارتهما ، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارةٍ ، معه جام من فضه يريد به الملك ، وهو أعظم تجارته ،

فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك إلى أهله . قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ، واقتسمناه أنا وعدي ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقدوا الجام ، فسألونا عنه فقلنا : ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره . قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله ، فأخبرتهم الخبر ، ودفعت إليهم خمسمأة درهم ، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها ، فوثبوا عليه ، فأمرهم النبي ﷺ أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه ، فحلف فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينكم – إلى قوله – فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم ، فحلفا ، فنزعت الخمسمأه من عدي بن بداء .] وهكذا رواه الترمذي وابن جرير وقال الترمذي هذا حديث غريب ، وليس إسناده بصحيح . وابو النضر الذي روى عنه محمد بن اسحق هذا الحديث هو عندي : محمد بن السائب الكلبي ، يكنى أبا النضر وقد تركه أهل الحديث وهو صاحب التفسير ؛ سمعت محمد بن إسماعيل يقول : محمد بن السائب الكلبي يكنى أبا النضر ، ثم قال : ولا نعرف لأبي النضر رواية عن ابي صالح مولى أم هانىء وقد روي عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه قال : ١٨٧ [خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء ، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم فلما قدما بتركته ، فقدوا جاماً من فضة مخوصاً بالذهب ، فأحلفهما رسول الله ﷺ ووجدوا الجام بمكة فقيل : اشتريناه من تميم وعدي ، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ، وان الجام لصاحبهم وفيهم نزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ الآية ، وكذا رواه ابو داود ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب ، وهو حديث ابن أبي زائدة ، ومحمد بن أبي القاسم الكوفي ، قيل : أنه صالح الحديث.وقد ذكر هذه القصة مرسلةً غير واحد من التابعين منهم عكرمة ومحمد بن سيرين وقتادة وذكروا ان التحليف كان بعد صلاة العصر رواه ابن جرير وكذا ذكرها مرسلة مجاهد والحسن والضحاك ، وهذا يدل على اشتهار هذه القصة في السلف وعلى صحتها . ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً ما رواه ابو جعفر بن جرير عن الشعبي : ١٨٨ [ان رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا هذه قال : فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب ، قال فقدما الكوفة فأتيا الأشعري يعني أبا موسى الأشعري رضي الله عنه فأخبراه ، وقدما الكوفة بتركته ووصيته فقال الأشعري : هذا أمر لم يكن

بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ فقال : فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ، ولا كذبا ، ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا وإنها لوصية الرجل وتركته . قال : فأمضى شهادتهما] ثم رواه ابن جرير عن عمر بن علي القلاس ، عن أبي داود الطيالسي ، عن شعبة ، عن مغيرة الأزرق ، عن الشعبي ان ابا موسى قضى به ، وهذان اسنادان صحيحان إلى الشعبي عن أبي موسى الأشعري فقوله هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ الظاهر ــ والله أعلم ــ أنه إنما أراد بذلك قصة تميم الداري وعدي بن بداء ، وقد ذكروا أن إسلام تميم الداري رضي الله عنه ، كان سنة تسع من الهجرة ، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام ، والله أعلم .

روى ابن جرير عن ابراهيم وسعيد بن جبير أنهما قالا في هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ... ﴾ الآية قالا : إذا حضر الرجل الوفاة في سفر فليشهد رجلين من المسلمين ، فإن لم يجد رجلين من المسلمين ، فرجلين من أهل الكتاب ، فإذا قدما بتركته فإن صدقهما الورثة قبل قولهما وان اتهموهما حلفا بعد صلاة العصر : بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خنا ولا غيرنا . قال علي بن أبي طلحة في تفسير هذه الآية عن ابن عباس : فإن ارتيب في شهادتهما استحلفا بعد العصر: بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمناً قليلاً ، فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا في شهادتهما قام رجلان من الأولياء فحلفا : بالله أن شهادة الكافرين باطلة وإنا لم نعتد ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً ﴾ يقول : إن اطلع على أن الكافرين كذبا ﴿ فآخران يقومان مقامهما ﴾ أي من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة ، وإنا لم نعتد ، فترد شهادة الكافرين ، وتجوز شهادة الأولياء ؛ وهكذا روى العوفي عن ابن عباس ، رواهما ابن جرير . وهكذا قرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف رضي الله عنهم ، وهو مذهب الإمام أحمد رحمه الله . وقوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى ان يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾ أي شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي . وقوله تعالى ﴿ أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ أي يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله ، والخوف من الفضيحة بين الناس ، إن ردت اليمين على الورثة ، فيحلفون ويستحقون ما يدعون . ولهذا قال تعالى : ﴿ أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ ثم قال : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم ﴿ واسمعوا ﴾ أي وأطيعوا ، ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته .



﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ ❁ (١٠٩) ﴾

هذا إخبار عما يخاطب الله تعالى به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم اليهم ، كما قال تعالى : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ وقول الرسل : ﴿ لا علم لنا ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يقولون للرب عز وجل : لا علم لنا إلاّ علم أنت أعلم به منا رواه ابن جرير ثم اختاره على غيره من الأقوال .

ولا شك أنه قول حسن ، وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله ، أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء ، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا من أجابنا ولكن منهم من كنا انما نطلع على ظاهره لاعلم لنا بباطنه وانت العليم بكل شيء المطلع على كل شيء ، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلاّ علم ، فإنك ﴿ أنت علام الغيوب ﴾

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَىٰ ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ❁ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ❁ (١١١) ﴾

يذكر تعالى ما منّ به على عبده ورسوله عيسى بن مَرْيَمَ عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات فقال عز وجل : ﴿ أذكر نعمتي عليك ﴾ في خلقي إياك من أم بلا ذكر ، وجعلي إياك آيةً ودلالةً على كمال قدرتي على

الأشياء ، ﴿ وعلى والدتك ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة ﴿ إذ أيدتك بروح القدس ﴾ وهو جبريل عليه السلام ، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك ، فأنطقتك في المهد صغيراً ، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب ، واعترفتَ لي بالعبودية ، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوت إلى عبادتي ، ولهذا قال تعالى : ﴿ تكلم الناس في المهد وكهلاً ﴾ أي تدعو الى الله في صغرك وكبرك – أي من مهدك إلى رفعك – وقوله تعالى : ﴿ وإذ علمتك الكتاب والحكمة ﴾ أي الخط والفهم ﴿ والتوراة ﴾ وهي المنزّلة على موسى بن عمران الكليم . وقوله تعالى : ﴿ واذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ﴾ أي تصوّره على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك ﴿ فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ﴾ أي بإذن الله وخلقه ، وقوله تعالى : ﴿ وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني ﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران – عند الآية رقم / ٤٨ ، ٤٩ / – وقوله تعالى : ﴿ وإذ تخرج الموتى بإذني ﴾ أي تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وارادته ومشيئته [١] وقوله تعالى : ﴿ وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلاّ سحر مبين ﴾ أي واذكر نعمتي عليك في كف أذى بني إسرائيل عنك حين جئتهم بالبراهين الساطعة ، والحجج القاطعة ، على نبوتك ورسالتك من الله إليهم فكذبوك ، واتهموك بالسحر وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم ورفعتك إليّ ، وطهرتك من دنسهم وكفيتك شرهم . وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله تعالى بعد رفعه إلى السماء ، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة ، وعبّر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة ، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع اللهُ عليها نبيّه محمداً ﷺ وقوله تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ﴾ وهذا أيضاً من الامتنان عليه عليه الصلاة والسلام ، بأن جعل له أصحاباً وحواريين وانصاراً ، ثم قيل : ان المراد بهذا الوحي وحي إلهام بلاخلاف وقوله تعالى : ﴿ قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ولعل المراد أنه أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله ورسوله ، فاستجابوا لك وانقادوا اليك وتابعوك ، فقالوا : ﴿ آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون ﴾

---

(١) كل ما يفعله عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام من المعجزات الباهرات انما هو باذن الله أي بفعله وقدرته وتأييده وقوته وحده لا شريك له . فكل معجزة هي في الحقيقة لله تعالى انما يجعلها الله ظاهرة على يد من يشاء من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام وله وحده الخلق والأمر .

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَىٰ ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ قَالَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ ۞ (١١٣) قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ۞ (١١٤) قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (١١٥) ﴾

هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة ، فيقال سورة المائدة ، وهي مما أمتن الله به على عبده ورسوله عيسى عليه الصلاة والسلام ، لمّا أجاب دعاءه بنزولها ، فانزل الله آية باهرة وحجة قاطعة ، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورةً في الأنجيل ، ولا يعرفها النصارى إلاّ من المسلمين ، فالله أعلم ؛ فقوله تعالى : ﴿ إذ قال الحواريّون ﴾ وهم أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربُّك ﴾ هذه قراءة كثيرين ؛ وقرأ آخرون : ﴿ هل تستطيعُ ربَّك ﴾ أي هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿ أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾ والمائدة هي الخوان عليه الطعام ، وذكر بعضهم : أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم ، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها ويتقوَّون بها على العبادة ﴿ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ أي فأجابهم المسيح : إتقوا الله ولا تسألوا هذا ، فعساه أن يكون فتنةً لكم ، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين ﴿ قالوا نريد أن نأكلَ منها ﴾ أي نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿ وتطمئن قلوبنا ﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ﴿ ونعلمَ أن قد صَدَقتَنا ﴾ أي ونزداد ايماناً بك وعلماً برسالتك ﴿ ونكونَ عليها من الشاهدين ﴾ أي ونشهد أنها آية من عند الله ، ودلالة وحجة على نبوّتك وصدق ما جئت به . ﴿ قال عيسى بن مريم اللهم ربَّنا أنزل علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا ﴾ قال السدي نتخذ ذلك اليوم الذي

نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا . وقال سلمان الفارسي : أي عظةً لنا ولمن بعدنا ﴿ وآيةً منك ﴾ أي دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء وعلى إجابتك لدعوتي ، فيصدقوني فيما أبلغه عنك ﴿ وارزقنا ﴾ أي من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب ﴿ وأنت خير الرازقين.قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم ﴾ أي فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ، ﴿ فاني اعذبه عذاباً لا أعذبه احداً من العالمين ﴾ أي من عالمي زمانكم كقوله تعالى : ﴿ويوم القيامة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ . وقد روى ابن جرير من طريق عوف الأعرابي عن أبي المغيرة القواس عن عبدالله بن عمرو قال : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون .

روى ابو جعفر بن جرير عن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى أنه قال لبني إسرائيل : هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ، ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم ، فإن أجر العامل على من عمل له ، ففعلوا ثم قالوا : يا معلم الخير ، قلت لنا : إن أجر العامل على من عمل له ، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا ، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً ، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال عيسى : ﴿ اتقوا الله ان كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئنَّ قلوبنا ونعلمَ أن قد صدَقْتَنَا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآيةً منك وارزقنا وانت خير الرازقين * قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ قال : فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات ، وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم . كذا رواه ابن جرير ورواه ابن ابي حاتم عن ابن عباس يحدث فذكر نحوه .

روى ابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر ، عن النبي ﷺ قال : ١٨٩ [نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم ، وأمروا ان لا يخونوا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير [ورويت هناك أخبار أخرى وكلها تدل على أن المائدة نزلت على بني اسرائيل أيام عيسى بن مريم ، إجابة من الله لدعوته ، كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿ قال الله إني منزلها عليكم ﴾ الآية .

وقال قائلون : أنها لم تنزل ، وهناك اسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن أنها لم تنزل ، وقد يتقوّى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى ، وليس هو في كتابهم ، ولو كانت

قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله ، وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ، ولا أقل من آحاد والله أعلم . ولكن الذي عليه الجمهور وهو الذي اختاره ابن جرير قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى : ﴿ إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني اعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ قال ووعد الله ووعيده حق وصدق وهذا القول هو ـ والله أعلم ـ الصواب كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم .

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَىٰ ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ * (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * (١١٨) ﴾

هذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه آلهين من دون الله ﴿ يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي آلهين من دون الله ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد هكذا قاله قتادة وغيره ، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ وقد روي بذلك حديث مرفوع ، رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبدالله مولى عمر بن عبد العزيز ، وكان ثقة ، قال : سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : ١٩٠ [إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأممهم ، ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقر بها ، فيقول ﴿ يا عيسى بن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك ﴾ الآية ؛ ثم يقول ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي آلهين من دون الله ﴾ فينكر أن يكون قال ذلك فيؤتى بالنصارى

فيُسألون فيقولون : نعم هو أمرنا بذلك . قال : فيطول شعر عيسى عليه السلام فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدي الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ، ويرفع لهم الصليب ، وينطلق بهم إلى النار] وهذا حديث غريب عزيز .

وقوله تعالى : ﴿ سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل . كما قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : يُلقَّى عيسى حجته ، ولقاه الله تعالى في قوله سبحانه : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي آلهين من دون الله ﴾ قال أبو هريرة ، عن النبي ﷺ : فلقاه الله : ﴿ سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ إلى آخر الآية وقد رواه الثوري من طاووس بنحوه .

وقوله تعالى : ﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾ أي إن كان صدر منّي هذا فقد علمته يا رب فإنه لا يخفي عليك شيء . فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته ولهذا قال : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به ﴾ بإبلاغه ﴿ أن اعبدوا الله ربّي وربّكم ﴾ أي ما دعوتهم إلاّ إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه ﴿ أن أعبدوا الله ربي وربكم ﴾ أي هذا هو الذي قلت لهم .

وقوله تعالى : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ أي كنت أشهد على أعمالهم حين كنتُ بين أظهرهم ﴿ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ .

روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس ١٩١ : [قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاةً ، عراة ، غرلاً ، ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه يُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم »] ورواه البخاري عند هذه الآية عن المغيرة بن النعمان .

وقوله تعالى : ﴿ إنْ تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾

هذا الكلام يتضمن ردّ المشيئة إلى الله عز وجل ، ويتضمن التبري من النصارى

الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا لله نداً وصاحبةً وولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وهذه الآية لها شأن عظيم ، ونبأ عجيب ، وقد ورد في الحديث : أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها .

روى الإمام أحمد عن أبي ذر (رض) قال ١٩٢ : [صلّى النبيُّ ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ إن تعذّبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فلما أصبح ، قلتُ : يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال « إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي ، فأعطانيها وهي نائلة ان شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً »]

روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ١٩٣ ، [أن النبي ﷺ تلاقول عيسى : ﴿ إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فرفع يديه فقال « اللهم أمتي » وبكى فقال الله : يا جبريل إذهب إلى محمد — وربك أعلم — فاسأله ما يبكيك ، فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله يا جبريل إذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك] .

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (١٢٠) ﴾

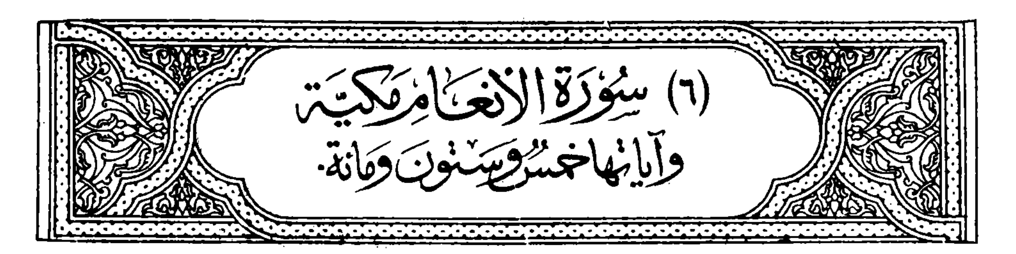
يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام ، فيما أنهاه إليه من التبّري من النصارى الملحدين ، الكاذبين على الله وعلى رسوله ، ومن ردّ المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل ، فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ قال ابن عباس : يوم ينفع الموحدين توحيدهم . ﴿ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ أي ماكثين فيها لا يحولون ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ أي هذا الفوز الكبير الذي لا أعظم منه ، كما قال تعالى : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ وكما قال تعالى :

﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ وقوله تعالى :

﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾ أي هو الخالق للأشياء المالك لها ، المتصرف فيها ، القادر عليها فالجميع ملكه ، وتحت قهره وقدرته ، وفي مشيئته ، فلا نظير له ، ولا وزير ولا عديل ، ولا والد ولا ولد ، ولا صاحبة ولا إله غيره ، ولا رب سواه .

قال ابن وهب عن عبدالله بن عمر قال : آخر سورة أنزلت سورة المائدة .

انتهى والحمد لله اختصـــار تفسير سورة المائدة



إلاّ الآيات ذوات الأرقام : (٢٠) ، (٢٣) ، (٩١) ، (٩٣) ، (١١٤) ، (١٤١) ، (١٥١) ، (١٥٢) ، (١٥٣) فمدنيّة وقد نزلت بعد الحِجْر

قال العوفي عن ابن عباس : أنزلت سورة الأنعام بمكة . وقال الطبراني عن ابن عباس قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة ، وحولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح . روى الحاكم في مستدركه عن جابر قـال١٩٤[لما نزلت سورة الأنعام ، سبح رسول الله ﷺ ثم قال : « لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدالأفق»] ثم قال صحيح على شرط مسلم .

قال ابن مردويه عن أنس بن مالك قال قـال رسول الله ﷺ ١٩٥ [نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والأرض بهم ترتج » ورسول الله يقول « سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم »]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ * (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ * (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ * (٣) ﴾

يمدح الله تعالى نفسه الكريمة ويحمدها على خلق السموات والأرض قراراً لعباده وجعل

الظلمات والنور منفعةً لعباده في ليلهم ونهارهم ، فجمع لفظ الظلمات ووحّد لفظ النور لكونه أشرف . كقوله تعالى : ﴿ عن اليمين والشمائل ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ أي ومع هذا كله كفر به بعض عباده وجعلوا له شريكاً وولداً وصاحبةً ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً . وقوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ يعني أباهم آدم الذي هو أصلهم . وقوله تعالى : ﴿ ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ يعني الموت . ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ يعني الآخرة . ومعنى قوله تعالى : ﴿ عنده ﴾ أي لا يعلمه إلا هو . كقوله تعالى : ﴿ إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ قال السعدي وغيره : يعني تشكّون في أمر الساعة، وقوله تعالى: ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ماتكسبون ﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال،واتفقوا جميعاً على إنكار قول الجهمية الأُوَل القائلين – تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً – بأنّه في كل مكان حيث حملوا الآية على ذلك [١] فالأصح من الأقوال : انه المدعو الله في السموات وفي الأرض أي يعبده ويوحده ويقرُّ له بالألوهية من في السموات ومن في الأرض . ويسمونه الله ويدعونه رغباً ورهباً ، إلاّ من كفر من الجن والإنس . وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ أي هو اله من في السماء واله من في الأرض [٢] وعلى هذا فيكون قوله تعالى : ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ خبراً أو حالاً وقوله تعالى : ﴿ ويعلم ما تكسبون ﴾ أي جميع أعمالكم خيرها وشرها .

---

(١) قلت : ان مذهب الجهمية المنسوب إلى جهم بن صفوان رأس هذه الفرقة الضالة يقول: بأن الله سبحانه في كل مكان ! وهذا قول ظاهر البطلان ، ومتهافت من أول جولة يجولها أمام الحجج القرآنية الدامغة والبراهين السنية البالغة ، التي تقول بأن الله سبحانه عليٌّ على خلقه، على العرش استوى ، وسبحانه وتعالى عما يقول الجهمية علواً كبيراً. ومما يؤسف له أشد الأسف،أنه ما يزال في هذه الأمة من يقول مثل هذا القول... وهم كثيرون مع الأسف « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) مع أن هذه البدعة الخبيثة متسربة الينا من اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة وهي متلقاة عن جهم بن صفوان ، عن الجعد بن درهم عن أبان بن سمعان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا فإن سند هذا المذهب – كما هو ظاهر وواضح – ظلمات بعضها فوق بعض... حتى ينحدر إلى الشيطان الرجيم . نعوذ بالله من الخزي والخسران وسوء المنقلب . **وعلى هذا فيكون القول بأن الله في كل مكان قول باطل بل هو الكفر**... وإنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢) أي معبود من في السماء ومعبود من في الأرض .

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين المكذبين المعاندين ، أنهم كلما أتتهم معجزةٌ وحجة على وحدانية الله ، وصدق رسله الكرام ، يُعرضون ولا يبالون بها . قال الله تعالى : ﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ وهذا تهديد ووعيد على تكذيبهم بالحق بأنه لا بدّ أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ، وليجدنّ غبَّه ، وليذوقنّ وباله . ثم قال تعالى : واعظاً لهم ومحذراً لهم ، أن يصيبهم من العذاب والنكال في الدنيا ، ما حل بأشباههم من القرون السالفة الذين كانوا أشد قوةً منهم وأكثر أموالاً وأولاداً واستعلاءاً ، فقال تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكّناهم في الأرض ما لم نمكّن لكم ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ﴾ أي أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض . أي استدراجاً وإملاءً لهم ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ أي بخطاياهم ﴿ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ أي جيلاً آخر لنختبرهم . فعملوا مثل أعمالهم فأُهلكوا مثلهم ، فحذار من أن يصيبكم ما أصابهم ، فما أنتم بأعزّ على الله منهم ، ورسولكم أكرم على الله من رسولهم ، فأنتم أولى بالعقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا

وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ❁ (٩) وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ❁ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ❁ (١١)

يخبر تعالى عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ، ومباهتتهم ومنازعتهم فيه ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ أي عاينوه ورأوا نزوله ، وباشروا ذلك ﴿لقال الذين كفروا إنْ هذا إلاّ سحر مبين﴾ وهذا كما أخبر تعالى عن مكابرتهم للمحسوسات ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ أي ليكون معه نذيراً ، قال تعالى : ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون﴾ أي لو نزلت الملائكة على ما هم عليه من الكفر لجاءهم من الله العذاب كقوله تعالى : ﴿يوم يرَوْن الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين﴾ وقال تعالى : ﴿ولو جعلناهُ ملكاً لجعلناهُ رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : لو أتاهم ملك ، ما أتاهم إلا في صورة رجل ، لأنهم لا يستطيعون النظر في الملائكة من النور ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ أي لو كان الملك على هيئة رجل لالتبس عليهم الأمر أيضاً كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول الرسالة فمن رحمته تعالى بخلقه ، أنه يرسل إلى كل صنفٍ من الخلائق رسلاً منهم ليدعو بعضهم بعضاً ، وليمكّن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال كما قال تعالى : ﴿إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ولقد استهزىء برسلٍ من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ، ووعدٌ له وللمؤمنين بالنصر في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى : ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي فكروا في أنفسكم ما أحلّ الله بالقرون الماضية ، الذين كذبوا رسله من النكال ، والعقوبة في الدنيا والآخرة ، وكيف نجّى رسُلَه ، وعباده المؤمنين .

قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا



يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهما ، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة ، كما ثبت في الصحيحين ، من طريق الأعمش عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ١٩٦ [إن الله لما خلق الخلق ، كتب كتاباً عنده فوق العرش ان رحمتي تغلب غضبي] وقوله تعالى : ﴿ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده إلى يوم القيامة وهو يوم لا يشك فيه المؤمنون أما الجاحدون فهم في ريبهم منه يترددون . وفي الترمذي ١٩٧[ان لكل نبي حوضاً وارجو أن أكون أكثرهم واردة] وقوله تعالى : ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ أي لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم . ثم قال تعالى : ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ﴾ أي كل دابة في الكون عباده وخلقه ﴿ وهو السميع العليم ﴾ لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسرائرهم ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم وأمر أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطرالسموات والأرض ﴾ أي لا أتخذ وليّاً إلاّ الله لا شريك له خالق السموات والأرض ومبدعهما ﴿ وهو يطعِم ولا يُطعَم ﴾ أي لا يأكل ﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾أي من هذه الأمة ، ﴿ولا تكونن من المشركين . قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ يعني يوم القيامة ﴿ من يُصرف عنه﴾أي العذاب ﴿ يومئذٍفقد رحمه ﴾ أي : فقد رحمه الله﴿ وذلك الفوز المبين ﴾ وإن الفوز حصول الربح ، ونفي الخسارة كقوله تعالى : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ❁(١٧) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ❁(١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ ٱللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا ٱلْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ❁(١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ❁(٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ❁ (٢١) ﴾

يخبر تعالى أنه مالك الضر والنفع ، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، لا معقّب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ وفي الصحيح · أن رسول الله ﷺ كان يقول ١٩٨ [اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد] ولهذا قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ أي وهو الذي خضعت له الرقاب وعنت له الوجوه ودانت له الخلائق ، واستكانت بين يديه وتحت قهره وحكمه ﴿ وهو الحكيم ﴾ في جميع أفعاله ﴿ الخبير ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها ، فلا يعطي ولا يمنع إلا من يستحق ثم قال تعالى : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة ﴾ أي أعظم شهادة ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ أي هو العالم بما جئتكم به ﴿ وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ أي وهو نذير لكل من بلغه فكل من بلغه هذا القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه ، روى عبد الرزاق : عن معمر عن قتادة أن رسول الله ﷺ قال ١٩٩ [بلغوا عن الله ، فمن بلغته آيةٌ من كتاب الله فقد بلغه أمر الله] وقوله تعالى : ﴿ أئنكم لتشهدون ﴾ ايها المشركون ﴿ أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فإن شهدوا فلا تشهد

معهم﴿ قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب انهم يعرفون هذا الذي جئتهم به ، كما يعرفون أبناءهم لأن الرسل كلهم بشروا بمحمد ومبعثه وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته، ولهذا قال بعده : ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ بهذا الذي جاءت وبشرَّت به الأنبياء ثم قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴾ أي لا أظلم ممن تقوّل على الله بأن الله أرسله ، ولم يكن أرسله ، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه ، ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي لا يُفلح المفتري ولا المكذِّب .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ❁(٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ❁(٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ❁(٢٤) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ❁(٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ❁ (٢٦)

يخبر تعالى عن المشركين ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾ يوم القيامة ، فيسألهم عن الأصنام والأنداد، التي كانوا يعبدونها من دونه قائلاً لهم: ﴿ أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنا مشركين ﴾ أي لم تكن حجتهم روى ابن جرير : والصواب ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم ، اعتذاراً عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿ إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشرِكين ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾

كقوله تعالى : ﴿ ثمّ قيلَ لهم أينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلّوا عنا ﴾ الآية

وقوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكِنَّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يَروْا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ أي يجيئون ليستمعوا قراءتك ولا تجزي عنهم شيئاً لأن الله جعل على قلوبهم أكنة أي أغطية لئلاّ يفقهوا القرآن وفي آذانهم صمماً عن السماع النافع لهم ، ومهما يَروْا من الآيات والحجج البيّنات لا يؤمنوا بها ، فلا فهمَ عندهم ولا إنصاف ، كقوله تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك ﴾ أي يحاجّونك ويناظرونك في الحق بالباطل ﴿ يقول الذين كفروا إنْ هذا إلاّ أساطير الأولين ﴾ أي مأخوذ من كتب الأوائل وقوله تعالى : ﴿ وهم ينهون عنه وينأوْن عنه ﴾ أي ينهون الناس عن اتباع الحق ، وتصديق الرسول والانقياد للقرآن ﴿ وينأوْن عنه ﴾ أي ويبعدون عنه ، فيجمعون بين الفعلين القبيحين ، لا ينتفعون ولا يدّعون احداً ينتفع ﴿ وإنْ يهلكون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ﴾ أي وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وباله إلاّ عليهم ، وهم لا يشعرون .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يذكر تعالى حال الكفار ، إذا وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا عظائمها وأهوالها ، فعند ذلك قالوا : ﴿ يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذِّب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين ﴾ أي تمنوا لو رجعوا إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ، ولا يكذبوا بآيات ربهم ، بل يؤمنوا بها ، فكذبهم الله تعالى فقال سبحانه : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ أي بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفونه من الكفر في أنفسهم ، فإنهم

ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبةً ومحبةً في الايمان ، بل خوفاً مما عاينوا من العذاب ، جزاءً على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ أي في طلبهم الرجعة رغبة ومحبةً في الإيمان ثم أخبر انهم لو رُدُّوا لعادوا إلى كفرهم ومخالفتهم وقولهم: إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ثم قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذْ وقفوا على ربّهم ﴾ اي أوقفوا بين يديه قال عز وجل : ﴿ أليس هذا بالحق ﴾ أي أليس هذا المعاد بحق ؟ وليس بباطل كما ظننتم ؟ ﴿ قالوا بلى وربّنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أي بما كنتم تكذّبون به ، فذوقوا اليوم مسَّه

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ۞ (٣١) وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ (٣٢) ﴾

يخبر تعالى عن خسارة من كذّب بلقائه ، وعن خيبته إذا فاجأته الساعة ، وعن ندامته على ما فرّط من العمل ، وما أسلف من قبيح الفعل . ولهذا قال تعالى : ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتةً قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴾ أي على ما فرّطنا في الدنيا من الأعمال المغضبة لله تعالى ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾ أي يحملون .. قال ابن أبي حاتم عن أبي مرزوق: يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره ، كأقبح صورة ، وأنتنه ريحاً ، فيقول من أنت ؟ فيقول أو ما تعرفني ؟ فيقول : لا والله ، إلاّ أن الله قبح وجهك ، وأنتن ريحك ، فيقول : أنا عملك الخبيث هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه ، فطالما ركبتني في الدنيا ، هلمّ أركبك ؛ فهو قوله تعالى : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلاّ لعب ولهوٌ ﴾ أي إنمّا غالبها كذلك ﴿ وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

حزب ١٤

يسلّي الله نبيّه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه : ﴿ قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون ﴾ أي قد علمنا بتكذيبهم لك ، وحزنك وتأسفك عليهم كقوله تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فانّهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ أي لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ولكنهم يعاندون الحق ، ويدفعونه بصدورهم ، كما قال سفيان الثوري عن علي قال : قال ابو جهل للنبي ﷺ : إنّا لا نكذبك ، ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

وروى ابن جرير من طريق أسباط عن السدي : لما كان يوم بدر... فخلا الأخنس بأبي جهل فقال : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ها هنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا ؟ فقال ابو جهل : ويحك والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهبت بنو قصي ، باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ولقد كُذِّبَتْ رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له ، فيمن كذبه من قومه ، وأمرٌ له بالصبر ، كما صبر أولو العزم من الرسل ووعدٌ له بالنصر والظفر بعد التكذيب والأذى . ثم جاءهم النصر في الدنيا كما هو لهم في الآخرة ولهذا قال : ﴿ ولا مبدِّل لكلمات الله ﴾ أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ كتب الله

لأغلبنّ أنا ورسلي إنّ الله قويٌّ عزيز ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ أي من خبرهم كيف نُصِروا وأيِّدوا على من كذبهم ، فلك فيهم أُسوةٌ ، وبهم قدوة .

ثم قال تعالى : ﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم ﴾ أي شقّ عليك إعراضهم عنك ، ﴿ فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء ﴾ قال ابن عباس : النفق السرب فتذهب فيه فتأتيهم بآية ، أو تجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه، فتأتيهم بآية أفضل مما آتيتهم به فافعل. وقوله تعالى: ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ أي لا يؤمن إلاّ من قد سبق بعلم الله تعالى أنه سيختار الإيمان على الكفر فسبق له بذلك من الله السعادة في الذكر الأول ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ أي إنمّا يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه ، كقوله تعالى : ﴿ لينذر من كان حيّاً ويحق القول على الكافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ يعني بذلك الكفار ، لأنهم موتى القلوب فشبههم بأموات الأجساد ، فقال تعالى﴿ والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ وهذا من باب التهكم والإزراء عليهم .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۞ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ ٱللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ (٣٩) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين ، أنهم كانوا يقولون : ﴿ لو لا نُزّل عليه آية من ربه ﴾ أي خارق على مقتضى ما كانوا يريدون ، ومما يتعنتون كقوله تعالى : ﴿ لن نؤمن لك حتّى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ الآيات ﴿ قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن اكثرهم لا يعلمون ﴾ أي إنه تعالى قادر على ذلك ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك انه لو أنزلها ثم لم يؤمنوا ، لعاجلهم بالعقوبة ، كقوله تعالى : ﴿ إنْ نشأْ ننزّلْ عليهم من السماء آيةً فظلّت أعناقهم لها خاضعين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم ﴾ قال قتادة : الطير أمّة ، والأنس أمّة ، والجن

أمة . وقال السدي : أي خلقٌ أمثالكم . وقوله تعالى : ﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾ أي الجميع علمهم عند الله ولا ينسى أحداً من رزقه وتدبيره من أي نوع كان في كتاب عنده مفصح بأسمائها، وأعدادها ومظانّها ، وحاصر لحركاتها ، وسكناتها . وقوله تعالى : ﴿ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ أي تبعث يوم القيامة ، لقوله تعالى : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي ذر ٢٠٠ [أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال : « يا أبا ذر هل تدري فيما تنتطحان ؟ » قال : لا . قال « لكن الله يدري وسيقضي بينهما »]

وقوله تعالى : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات ﴾ أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم ، وعدم فهمهم ، كمثل أصم لا يسمع ، وأبكم لا يتكلم وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق ، أو يخرج مما هو فيه كقوله تعالى: ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾ ولهذا قال : ﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ أي هو المتصرف في خلقه بما يشاء .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝(٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۝(٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝(٤٥) ﴾

يخبر تعالى أنه الفعّال لما يريد ، المتصرّف في خلقه بما يشاء ، وأنه لا معقب لحكمه ، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه ، إلاّ هو وحده لا شريك له ، الذي إذا سئل

يجيب لمن يشاء ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ﴾ أي هذا أو هذا ، ﴿ أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ﴾ أي لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه ، ولهذا قال ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي في اتخاذكم آلهة معه ﴿ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ أي في وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه ، وتنسون أصنامكم ، كقوله : ﴿ فإذا ركبوا الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء ﴾ يعني بالفقر والضيق ، ﴿ والضراء ﴾ وهي الأمراض والآلام ﴿ لعلهم يتضرعون ﴾ أي يدعون الله في ذل وخشية . وقوله تعالى : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ أي فهلا إذ ابتليناهم بذلك دعونا بانكسار ؟ ﴿ ولكن قست قلوبهم ﴾ أي ما رقت ولا خشعت ﴿ وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ أي حسّن الشيطان لهم الشرك والمعاصي ، ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أي أعرضوا عنه وتناسوه ، ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ أي فتحنا عليهم أبواب كلّ الرزق من ما يختارون وهذا استدارج منه تعالى وإملاء لهم عياذاً بالله من مكره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ أي من الأموال والأولاد والأرزاق ، ﴿ أخذناهم بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ فاذاهم مبلسون ﴾ أي آيسونَ من كل خير .

روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال ٢٠١ [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدارج ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ـ إلى قوله ـ فإذا هم مبلسون ﴾] كما قال تعالى : ﴿ فقُطِع دابرُ القوم الذين ظلَموا والحمد لله رب العالمين ﴾

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ٱنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ۞ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّالِمُونَ ۞ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۞ (٤٩) ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ، قل لهؤلاء المكذبين : ﴿ أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ وهذا عبارة عن منع الانتفاع بهما ، ولهذا قال : ﴿ وختم على قلوبكم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ من إلٰه غير الله يأتيكم به ﴾ أي من غير الله يردُّ ذلك إليكم ، إذا سلبَه الله منكم أي لا يقدر على ذلك أحد سواه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُنظر كيف نصرف الآيات ﴾ أي نبينها وفيها الدلالة على أنه لا إله إلا الله ، وما سواه باطل وضلال : ﴿ ثم هم يصدفون ﴾ أي يعرضون عن الحق ، ويُصِدّون الناس عنه . وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتةً ﴾ أي فجأة وأنتم لا تشعرون ؛ ﴿ او جهرة ﴾ أي عياناً ﴿ هل يهلك إلاّ القوم الظالمون ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله . وقوله تعالى : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ أي مبشرين المؤمنين بالخيرات ، ومنذرين الكفار بالنقمات والعقوبات ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن آمن وأصلح ﴾ أي فمن آمن قلبه بما جاءوا به ، وأصلح عمله باتباعه إياهم . ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ مما يستقبلونه ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما فاتهم من الدنيا ، والله وليّهم فيما خلفوه ، وحافظهم فيما تركوه ، ثم قال تعالى: ﴿ والذين كذبوا بآياتنا يَمَسُّهم العذابُ بما كانوا يفسقون ﴾ أي ينالهم العذاب ، بما كفروا بما جاءت به الرسل وخرجوا عن أوامر الله وطاعته وارتكبوا نواهيه ، وانتهكوا محارمه .

﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ ٱللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۞ (٥٠) وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّاكِرِينَ ۞ (٥٣)

وَإِذَا جَاءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ أي لا اتصرف فيها ولا أملكها ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ أي إني لا أعلم من الغيب إلاّ ما علمني الله ، واطلعني عليه ، ﴿ ولا أقول لكم إني ملك ﴾ ولا أدعي اني ملك ، إنما أنا بشر من جملة البشر ، شرفني وأنعم علي ربي بالوحي من لدنه. ولهذا قال : ﴿ إنْ أتبع إلا ما يوحي إلي ﴾ أي لا أتعداه قط ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ أي هل يستوي من اتّبع الحق ومن ضلّ عنه ﴿ افلا تتفكرون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربّهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ أي وأنذر به أي بهذا القرآن يا محمد ﴿ الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ليس لهم ﴾ يومئذٍ ﴿ من دونه ولي ولا شفيع ﴾ أي ولا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي يعملون في هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم الجزيل من ثوابـــه .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ أي لا تبعد هؤلاء عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصّاءك . وقوله تعالى : ﴿ يدعون ربهم ﴾ أي يعبدونه ويسألونه ﴿ بالغداة والعشي ﴾ قال سعيد بن المسيب وغيره : المراد به الصلاة المكتوبة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ أي أتقبّل منكم .

وقوله تعالى : ﴿ يريدون وجهه ﴾ أي يعملون لوجهه الكريم مخلصين في عبادتهم وطاعتهم وقوله تعالى : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ كقول نوح عليه السلام في جواب الذين قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون إنْ حسابهم إلاّ على ربي لو تشعرون ﴾ أي إنما حسابهم على الله عز وجل ليس عليّ من حسابهم من شيء ، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء ، وقوله تعالى ﴿ فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ أي إن فعلت هذا والحالة هذه .

روى سفيان الثوري عن المقدام بن شريح عن أبيه ، قال : **قال سعد ٢٠٢**[نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ منهم ابن مسعود قال: كنا نستبق إلى رسول الله ﷺ ، وندنو منه ونسمع منه ، فقالت قريش : تدني هؤلاء دوننا ، فنزلت : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾] رواه الحاكم في مستدركه من طريق سفيان، وقال : على شرط الشيخين . وأخرجه ابن حبان في صحيحه من طريق المقدام بن شريح به .

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ﴾ أي ابتلينا وامتحنّا بعضهم ببعض ﴿ ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثته ، ضعفاء الناس من الرجال والنساء ، والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل كما قال قوم نوح لنوح ﴿ وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، فقال له : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقال بل ضعفاؤهم ، فقال : هم أتباع الرسل؛ والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ أي ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير ، لو كان ما صاروا إليه خيراً ويدعنا ، وقال في جوابهم حين قالوا : ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ أي أليس هو أعلم بالشاكرين له ، بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم ويهديهم سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم كما قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ وفي الحديث الصحيح : **٢٠٣**[ان الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ، وأعمالكم] . قال ابن جرير عن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ مخبراً أنه جاء نفر من أشراف قريش إلى أبي طالب فقالوا : لو ان ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له قال ، وكانوا – أي هؤلاء المستضعفين – بلالاً وعمار بن ياسر وسالما مولى أبي حذيفة، وصبيحاً مولى أسيد ، ومن الحلفاء ابن مسعود ، والمقداد بن عمرو ، ومسعود وابن القاري ، وواقد بن عبدالله الحنظلي ، وعمرو بن عبد عمرو ، وذو الشمالين ، ومرثد بن أبي مرثد وأبو مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب ، وأشباههم من الحلفاء .
﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ أي فأكرمهم ، برد السلام عليهم

وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ أي أوجبها على نفسه الكريمة ، تفضلاً منه وإحساناً ﴿ إنه من عمل منكم سوءً بجهالة ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ ثم تاب من بعده [1] وأصلح ﴾ أي رجع عما كان عليه من المعاصي واقلع وعزم على أن لا يعود وأصلح العمل في المستقبل ، ﴿ فانه غفور رحيم ﴾ قال رسول الله ﷺ وسيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لقوله تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ ومما يناسب هذه الآية قوله ﷺ لمعاذ بن جبل ٢٠٤ « [اتدري ما حق الله على العباد : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » ثم قال : « أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم »] وقد رواه أحمد .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ (٥٥) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَاصِلِينَ ۝ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّالِمِينَ ۝ (٥٨) وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ (٥٩) ﴾

ربع الحزب

يقول تعالى وكما بيّنا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد ، وذم المجادلة والعناد ، ﴿ وكذلك نفصل الآيات ﴾ أي التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها

(١) قلت : يقتضي أن الجهل ليس عذراً ، فلو أن هذا الجاهل لم يتب من سوئه ، لما كان جهله عذراً عند ربه .

﴿ ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ أي ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل ، وقوله تعالى : ﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قلْ لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين ﴾.(١)

وقوله تعالى : ﴿ قل إني على بيّنة من ربي ﴾ أي على بصيرة من شريعته تعالى التي أوحاها إليَّ ﴿ وكذبتم به ﴾ أي بالحق الّذي جاءني من الله ﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ أي من العذاب ﴿ إن الحكم إلاَّ لله ﴾ في تعجيل ما سألتموه من العذاب أو تأجيله طبق حكمته ولهذا قال تعالى : ﴿ يقصّ الحق وهو خير الفاصلين ﴾ أي وهو خير من فصل القضايا ، وخير الحاكمين بين عباده . وقوله تعالى : ﴿ قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم ﴾ أي لو كان مرجع ذلك إليّ لأوقعت بكم ما تستحقونه ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ فإن قيل فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أنها قالت : لرسول الله ﷺ ٢٠٥ : [يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال : « لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة . إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فاذا أنا بسحابة قد ظللتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردّوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، قال فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردّوا عليك ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ، فقال رسول الله ﷺ « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم ، من يعبد الله لا يشرك به شيئاً »] وهذا لفظ مسلم فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم ، فاستأنى بهم وسأل لهم التأخير لعل الله يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً ، فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين ﴾ فالجواب - والله أعلم - أن هذه الآية دلّت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم ، وأما

(١) يعني نهاني ربي عن أن أعبد ما تعبدون من الأصنام ، وعن المسلك الذي سلكتموه ، في اتباع الأهواء ، كيلا ينتج عن ذلك ... الوقوع في الضلال ، لأن ذلك المسلك بلا دليل ؛ ولو فعلت ذلك ، فانا إذاً ضال ، ولست على هدى من ربي .

الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين ، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً ، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم . وقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾ روى البخاري عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال٢٠٦ : [« مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله » ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾.] ﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾ أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات لا يخفي عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وقوله تعالى : ﴿ وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ﴾ أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات فما ظنك بالحيوانات ، ولا سيما المكلفون منهم جنهم وإنسهم كما قال تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : خلق الله النون وهي الدواة ، وخلق الألواح ، فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق ، أو رزق حلال أو حرام ، أو عمل برٍ أو فجور ، وقرأ هذه الآية : ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ (١)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٦٠) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۞ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَاهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَاسِبِينَ ۞ (٦٢) ﴾

يقول تعالى إنه يتوفّى عباده في منامهم بالليل ، وهذا هو التوفّي الأصغر ، كما قال

(١) قلت : فيه رجل لم يسم .

تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك [١] ورافعك إليّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى ﴾ فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى ، وهكذا ذكر في هذا المقام الوفاتين هاتين فقال : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ أي ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار ، وهذه جملة معترضة دالت على إحاطة علمه تعالى بخلقه ليلاً ونهاراً ، حركةً وسكوناً . كما قال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم يبعثكم فيه ﴾ أي في النهار . وقد روى ابن مردويه بسنده عن الضحاك ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ ٢٠٧ [مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه ويرد إليه ، فإن أذن الله في قبض روحه قبضه وإلا رد إليه] فذلك قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ليُقضىَ أجلٌ مسمّى ﴾ يعني أجل كل واحدٍ من الناس ﴿ ثم إليه مرجعكم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثم ينبئكم ﴾ أي يخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي ويَجزيكم على ذلك خيراً أو شراً وقوله تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده [٢] ﴾ أي وهذا الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿ ويرسل عليكم حفظةً ﴾ أي من الملائكة يحفظون بدن الإنسان ، كقوله تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ وحفظة يحفظون عمله ويحصونه كقوله تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدَكم الموت ﴾ أي احتضر وحان أجله ﴿ توفته رسلنا ﴾ أي ملائكة موكلُّون بذلك ، وإن لملك الموت أعواناً من الملائكة يُخرجون الروح من الجسد فيقبِضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحُلقوم . وقوله تعالى : ﴿ وهم لا يفرطون ﴾ أي في حفظ الروح وإنزالها حيث يشاء الله تعالى ، إن كان من الأبرار ففي عليين وإن كان من الفجار ففي سجّين عياذاً بالله من ذلك وقوله تعالى : ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ يعني الملائكة ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى

(١) متوفيك أي منيمك . وإن الله رفع عيسى إلى السماء وهو نائم .
(٢) قلت : هذه الآية الكريمة تشير إلى فوقية الله تعالى وعلوه على جميع خلقه أي عال على كرسيه وعرشه علواً مطلقاً بائن عن خلقه لا يشبه في حال من الأحوال علو المخلوقين « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وإن ذلك العلو حقيقة لا مجازاً كما أخبر هو عن نفسه وعلى مراده تعالى بلا تكييف ولا تأويل ولا تعطيل ولا تجسيم ولا تشبيه ولا تمثيل ، وكذلك تماماً سائر الصفات العلى .

﴿ ثم رُدّوا ﴾ يعني الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة ، فيحكم فيهم بعد له ، كما قال عز وجل ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يومٍ معلوم ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ ۞ (٦٣) قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ (٦٤) قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ٱنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۞ (٦٥) ﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده ، في انجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر ، أي الحائرين الواقعين في هذه المهامه البرية ، وفي اللجج البحرية ، إذا هاجت الرياح العاصفة ، فحينئذٍ يفردون الدعاء له ، وحده لا شريك له . كقوله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضرُّ في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ الآية ... وقال تعالى هاهنا : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية ﴾ أي جهراً وسراً ﴿ لئن أنجانا ﴾ أي من هذه الضائقة ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ أي بعدها قال الله تعالى : ﴿ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾ أي بعد ذلك تدعون معه حال الرفاهية آلهة أخرى . وقوله تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً ﴾ أي بعد إنجائه إياكم . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ فوقكم أو من تحت أرجلكمُ ، أويلبسكم شيعاً ، ويذيق بعضكم بأس بعض أنظر كيف نصرّف الآيات لعلّهم يفقهون ﴾ قال مجاهد هذا لأمة محمد ﷺ وعفي عنهم ، وهناك أحاديث واردة في ذلك ، نذكر بعضاً منها ، وبالله المستعان ، وعليه التكلان .

روى البخاري رحمه الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ قل هو القادر ــ إلى قوله ــ يفقهون ﴾ عن جابر بن عبدالله قال ٢٠٨ [لما نزلت هذه الآية : ﴿ قل هو القادر

على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال رسول الله ﷺ ﴿أعوذ بوجهك ﴾ ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : « أعوذ بوجهك « ﴿ أو يلبسكم شيعاًويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هذه أهون – أو – أيسر »] وهكذا رواه النسائي عن قتيبة ، وابن حبان في صحيحه ، وأبو بكر بن مردويه .

روى الامام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال٢٠٩: [أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية ، فدخل فصلّى ركعتين ، فصلينا معه ، فناجى ربّه عز وجل طويلاً ، ثم قال : « سألت ربي ثلاثاً : سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتي بالسَّنَة فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها »] انفرد بأخراجه مسلم عن عثمان بن حكيم به .

روى ابن مردويه عن ابن عباس قال ٢١٠: [لما نزلت هذه الآية : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال : فقام النبي ﷺ فتوضأ ثم قال « اللهم لا ترسل على أمتي عذاباً من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ، ولا تلبسهم شيعاً ولا تذق بعضهم بأس بعض » قال فأتاه جبريل فقال : يا محمد ان الله قد أجار أمتك أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم] .

روى ابن مردويه عن ابن عباس ٢١١ [إن رسول الله ﷺ قال : « دعوت ربي عز وجل أن يرفع عن أمتي أربعاً فرفع الله عنهم ثنتين وأبى عليّ أن يرفع عنهم ثنتين ، دعوت ربي أن يرفع الرجم من السماء والغرق من الأرض ، وأن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض، وأبى الله أن يرفع اثنتين القتل والهرج . »]

روى سفيان الثوري بسنده عن أبيّ بن كعب قال : أربع في هذه الأمة ، قد مضت اثنتان وبقيت اثنتان : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال الرجم ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال الخسف . وهذا اختيار ابن جرير ويشهد به بالصحة قوله تعالى : ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾ وفي الحديث ٢١٢ : [ليكونن في هذه الأمة قذف وخسف ومسخ] وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة وستأتي في موضعها إن شاء الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ يعني يجعلكم ملتبسين

شيعاً فرقاً متخالفين وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال ٢١٣ [... وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ..] (١) وقوله تعالى : ﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل . وقوله تعالى : ﴿ انظر كيف نصرف الآيات ﴾ أي نبينها ونوضحها مرةً ونفسرها ؛ ﴿ لعلهم يفقهون ﴾ أي يفهمون ويتدبرون عن الله ، آياته وحججَه وبراهينَه .

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ❁ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ❁ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ❁ (٦٨) وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ❁ (٦٩) ﴾

يقول تعالى: ﴿ وكذَّبَ به ﴾ أي بالقرآن ﴿ قومك ﴾ يعني قريشاً ﴿ وهو الحق ﴾ الذي ما بعده إلا الضلال ﴿ قل لست عليكم بوكيل ﴾ أي لست عليكم بحفيظ ، إنما عليَّ البلاغ وعليكم السمعَ والطاعةَ فمن تبعني سعِدَ ، ومن خالفني شقي ، ولهذا قال : ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما قال تعالى : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد ، ولهذا قال تعالى بعده : ﴿ وسوف تعلمون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ أي بالتكذيب والأستهزاء ؛ ﴿ فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير

---

(١) قلت – : وتمام الحديث : (... قالوا من هم يا رسول الله ؟ قال هم على ما أنا اليوم عليه وأصحابي) فليعد المسلمون إذن ، إلى معرفة ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم وأصحابه رضي الله عنهم، ويسعوا جهدهم إلى التأسي به تماماً، فكرة وعملا وتطبيقاً، حتى يكونوا ناجين في الآخرة وسعداء أعزاء في الدنيا ، فيا ليتهم يفعلون .

ما كانوا فيه من التكذيب ، ﴿ وإمّا ينسينك الشيطان ﴾ والمراد بذلك كل فردٍ من آحاد الأمة ، أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها ، فإن جلس أحد معهم ناسياً ، ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى ﴾ أي بعد التذكر ﴿ مع القوم الظالمين ﴾ ولهذا ورد في الحديث ٢١٤[رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه].

وهذه الآية هي المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم ﴾ الآية... أي إذا جالستموهم فكأنكم قد أقررتموهم ، فتكونون ساويتموهم فيما هم فيه ، وقوله تعالى : ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ إذا برئوا منهم فلم يجلسوا معهم فلا إثم عليهم فيما يخوض غيرهم به وقوله تعالى : ﴿ ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾ أي ولكن تذكيراً للخائضين عما هم فيه من الخوض فيه بآيات الله لعلهم عندما يرون مفارقة المؤمنين لمجالسهم أن لا يعودوا لخوضهم واستهزائهم .

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ أي أعرض عنهم وأمهلهم قليلاً ، فإنهم صائرون إلى عذابٍ عظيم . ولهذا قال تعالى: ﴿ وذكر به ﴾ أي ذكر الناس بالقرآن ، وحذرهم عذاب الله يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ أن تبسل نفس بما كسبت ﴾ أي يسلمها صاحبها للهلكة ، والحبس عن الخير ، وإدراك المطلوب وقوله تعالى : ﴿ ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ﴾ أي لا قريب ، ولا أحد يشفع فيها وكقوله تعالى : ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ

منها ﴾ أي ولو بذلت كل مبذول ، ما قُبِلَ منها ، كقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً » الآية ... وكذا قال هاهنا : ﴿ أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذابٌ أليم بما كانوا يكفرون ﴾

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَاطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝(٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ (٧٢) وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝(٧٣) ﴾

قال السدي : قال المشركون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا ﴾ أي في الكفر ﴿ بعد إذ هدانا الله ﴾ فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض ، يقول مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم ، كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق ، فضلّ الطريق ، فحيرته الشياطين ، واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون ائتنا فإنّا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم ، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ . ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق والطريق هو الإسلام ، رواه ابن جرير . وقال قتادة : ﴿ استهوته الشياطين في الأرض ﴾ أضلّته في الأرض ، يعني استهوته سيرتــه كقوله تعالى : ﴿ تهوي إليهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ حيران ﴾ قال مجاهد : رجل حيران يدعوه أصحابه إلى الطريق ، وذلك مثَلُ من يضل بعد أن هدي . وهكذا فإن المقصود أن هذا الذي استهوته الشياطين في الأرض في حال حيرته وضلاله وجهله وجه المحجة ، وله أصحاب على المحجة سائرون ، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى ، وتقدير الكلام فيأبى عليهم ، ولا يلتفت إليهم ، ولو شاء الله لهداه ولردّه إلى الطريق . ولهذا قال تعالى : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ومن يهد الله

فماله من مضل ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ أي نخلص له العبادة وحده لا شريك له ، ﴿ وأن أقيموا الصلاة واتقوه ﴾ أي وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال ﴿ وهو الذي إليه تحشرون ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أي بالعدل ، فهو خالقهما ومالكهما ، والمدبر لهما ولمن فيهما ، وقوله تعالى : ﴿ ويوم يقول كن فيكون ﴾ يعني يوم القيامة الذي يقول الله كن فيكون ، عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب . وقوله تعالى : ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ أي القرن الذي ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال ٢١٥ : [ان اسرافيل قد التقم الصور ، وحنى جبهته ، ينتظر متى يؤمر فينفخ] رواه مسلم في صحيحه . روى الأمام أحمد عن عبدالله بن عمرو قال ٢١٦ : [قال إعرابي يا رسول الله ما الصور ؟ قال « قرن ينفخ فيه »]

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۞ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ۞ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّالِّينَ ۞ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذَا رَبِّي هٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ (٧٩) ﴾

اختلف في اسم أبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام أهو آزر أم هو تارخ كما ذكره النسابون ، قال ابن جرير والصحيح أن اسم أبيه آزر ثم وفق بين القولين فأجاب بأنه قد يكون له اسمان كما لكثير من الناس ، أو يكون أحدهما لقباً ، وهذا الذي قاله جيد قوي والله أعلم . والمقصود من الآية أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعظ أباه في عبادة

الأصنام وزجره عنها ، ونهاه فلم ينته كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ﴾ أي أتتألّـه لصنم تعبده من دون الله ﴿ إني أراك وقومك ﴾ أي السالكين مسلكك ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي تائهين لا يهتدون أين يسلكون ، بل في حيرة وجهل. كما قال تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً * يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني اهدك صراطاً سوياً * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً * يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً * قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألاّ أكون بدعاء ربّي شقياً ﴾ فكان إبراهيم عليه السلام ، يستغفر لأبيه مدة حياته فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك ، رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدةٍ وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأوّاه حليم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ أي نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما ، على وحدانية الله عز وجل ، في ملكه وخلقه ، وإنه لا اله غيره ولا رب سواه . وقوله تعالى : ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ أي نريه ذلك ليكون عالماً وموقنا وقوله تعالى : ﴿ فلما جنّ عليه الليل ﴾ أي تغشاه وستره ﴿ رأى كوكباً ﴾ أي نجماً ﴿ قال هذا ربي فلما أفل ﴾ أي غاب قال : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ قال قتادة : علم أن ربه دائم لا يزول. ﴿ فلما رأى القمر بازغاً ﴾ أي طالعاً ﴿ قال هذا ربي. فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبرُ ﴾ أي جرماً من النجم والقمر وأكثر إضاءة. ﴿ فلما أفلت ﴾ أي غابت ﴿ قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ أي أخلصت ديني ، وأفردت عبادتي ﴿ للذي فطر السموات والأرض ﴾ أي خلقهما وابتدعهما على غير مثالٍ سابق ﴿ حنيفاً ﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال : ﴿ وما أنا من المشركين ﴾

وقد اختلف المفسرون في هذا المقام : هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبيّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنـــام

الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم ، الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنّما يتوسلون إليه بعبادة الملائكة ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبيّن في هذا المقام ، خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة ، وهي : القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل وأشدهن إضاءةً وأشرفهن عندهم الشمسُ ، ثم القمر ، ثم الزهرة ، فبين أولا صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للآلهية ، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين ، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تملك لنفسها تصرفاً ، بل هي جرم من الأجرام خلقها منيرة ، لما له في ذلك من الحكم العظيمة ، القمر والشمس كذلك وهكذا انتقل من جرم إلى جرم ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة ، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع . ﴿ قال يا قوم إنّي بريء ممّا تشركون ﴾ أي أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن فإن كانت آلهةً فكيدوني بها جميعاً ، ثم لا تنظرون . ﴿ إنّي وجهت وجهيَ للّذي فطر السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ، ومسخرها ومقدرها ومدبرها ، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالقه وربّه ومليكه وإلهه . كما قال تعالى : ﴿ إنَّ ربكم اللهُ الذي خلق السموات والأرضَ في ستّة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ بأمره ألا له الخلقُ والأمرُ تبارك اللهُ رب العالمين ﴾ .

وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشدَه من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ الآيات . وقال تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنةً وإنّه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أنِ اتّبعْ مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كان من المشركين . ﴾

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال ٢١٧ : [كل مولود يولد على الفطرة .] وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد ٢١٨ [أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله إني خلقت عبادي حنفاء »] فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل ، الذي جعله الله أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ، ناظراً في هذا المقام ؟ بل هو أولى النّاس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة ، بعد رسول الله

ﷺ بلا شك ولا ريب ، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه ، فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً ، قولُه تعالى :

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي ٱللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۞ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ (٨١) أَلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ (٨٣) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم ، حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد وناظروه بشبه من القول ، أنه قال : ﴿ أتحا جّوني في الله وقد هدان ﴾ أي تجادلونني في أمر الله ، وأنه لا إله إلا هو ، وقد بصّرني وهداني إلى الحق ، وأنا على بينة منه فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة ؟ وقوله تعالى : ﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلاّ أن يشاء ربّي شيئاً ﴾ أي ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه ، أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً ، وأنا لا أخافها ، فإن كان لها كيدفكيدوني بها وعاجلوني بذلك . وقوله تعالى : ﴿ إلاّ أن يشاءَ ربي شيئاً ﴾ استثناء منقطع أي لا يضر ولا ينفع إلاّ الله عز وجل . ﴿ وسع ربّي كل شيء علماً ﴾ أي أحاط علماً بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ أي فيما بينته لكم أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها ؟ وهذه نظير حجة هود عليه الصلاة والسلام فيما يقول الله تعالى: ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببيّنة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ۞ إنْ نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أُشهدُ الله واشهَدُوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظِرون ۞ إنّي توكلت على الله ربّي وربّكم ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها ﴾ الآية .. وقوله تعالى : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ﴾ أي كيف أَخاف من هذه الأصنام ﴿ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزّلْ به عليكم سُلطاناً ﴾ أي حجةً كقوله تعالى : ﴿ إنْ هي إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل

الله بها من سلطان﴾ وقولـه تعالى : ﴿ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾ أي أيُّ الطائفتين أصوب وأحق بالأمن من عذاب الله أهي التي تعبد من بيده الضر والنفع ، أم التي تعبد ما لا يضر ولا ينفع بلا دليل ؟ ﴿ هنا تولّى الله تعالى بالإجابة فقال سبحانه : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة له لا شريك له هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخـــرة .

روى البخاري عن عبدالله [١] ٢١٩ قال [لما نزلت ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال أصحابه ﷺ : وأيّنا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

روى الإمام أحمد عن عبـــدالله [٢] ٢٢٠ قال : [لما نزلت هذه الآية : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : « انه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿ يا بُنَيّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ إنما هو الشرك »] .

روى الامام أحمد عن جرير بن عبدالله قـــال ٢٢١ : [خرجنا مع رسول الله ﷺ فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا ، فقال رسول الله ﷺ « كأن هـــذا الراكب إياكم يريد » فانتهى إلينا الرجل فسلّم فرددنا عليه فقال له رسول الله ﷺ « من أين أقبلت » قال من أهلي وولدي وعشيرتي ، قال : « فأين تريد » ؟ قـــال أريد رسول الله ﷺ قال : « فقد أصبته » قال يا رسول الله علّمني ما الإيمان قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » قال: قد أقررت قال ثم إن بعيره دخلت يده في جحر جرذان فهوَى بعيره وهوَى الرجل ، فوقع على هامته فمات فقال رسول الله ﷺ « عليّ بالرجل » فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه فقالا : يا رسول الله قبض الرجل ، قال فأعرض عنهما رسول الله ﷺ ثم قال لهما رسول الله ﷺ « أما رأيتما إعراضي عن الرجل » فإني رأيت ملكين يدسان في فيه من ثمار الجنة فعلمت أنه مات جائعاً ! ثم قال رسول الله ﷺ « هذا من الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ الآية .. » ثم قال « دونكم أخاكم » فاحتملناه إلى الماء ، فغسلناه وحنطناه ، وكفنّاه وحملناه إلى القبر ، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال « ألحدوا ولا تشقّوا فإن اللحدَ لنا والشقّ لغيرنا »] .

---

(١) و (٢) : هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وروى ابن مردويه عن عبدالله بن سخبرة قال : قال رسول الله ﷺ ٢٢٢: [من أُعطي فشكرَ ، ومُنعَ فصبرَ . وظلَم فاستغفر ، وظُلِمَ فغفرَ . وسكت ؛ قال فقالوا يا رسول الله ما له ؟ قال : ﴿ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ »]

وقوله تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ أي وجهنا حجته عليهم ؛ يعني بذلك قوله تعالى : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتُمْ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزّلْ به عليكم سلطاناً فأيّ الفريقين أحق بالأمن ﴾وقد صدّقهُ الله وحكى له بالأمن والهداية ، فقال تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يُلبسوا إيمانَهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ ثم قال بعد ذلك كله : ﴿ وتلك حُجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ﴾ قرىء بالإضافة وبلا إضافة . وكلاهما قريب في المعنى . وقوله تعالى : ﴿ إنّ ربّك حكيم عليم ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله ، عليم بمن يهديه ومن يُضلّه

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ۞ (٨٥) وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٨٨) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۞ (٨٩) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ۞ (٩٠) ﴾

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق بعد أن طعن في السن ، وأيس هو وامرأتُه سارة من الولد . فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحق ، فتعجبت

المرأة من ذلك ، وقالت : ﴿ يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد ﴾. فقوله تعالى : ﴿ ووهبنا له أسحق ويعقوب كلاّ هدينا ﴾ هذه بشرى بأن له نسلاّ وعقباً كما قال تعالى : ﴿ وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين ﴾ وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة ، وقال أيضاً سبحانه وتعالى : ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ أي ويولد لهذا المولود في حياتكما ولد ، فتقرّ أعينُكمابه ، كما قرّت بوالده ، فوقعت البشارة به أي بإسحق وبولده يعقوب ، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم عليه السلام ، حين اعتزل قومه ، وتركهم ونزح عنهم ، وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض فعوضه الله عن قومه وعشيرته ، بأولاد صالحين من صلبه على دينه كما قال تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلاّ جعلنا نبياً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ونوحاً هدينا من قبل ﴾ وكل منهما له خصوصية عظيمة . أما نوح عليه السلام ، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلاّ من آمن به ، وهم الذين صحبوه في السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذريته . وأما الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا في ذريته النبّوة والكتاب ﴾ الآية وكما قال تعالى أيضاً : ﴿ وجعلنا في ذريتهما النبـــوّة والكتاب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن ذريته ﴾ أي هدينا من ذريته ﴿ داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاّ فضّلنا على العالمين ﴾ وعود الضمير إلى نوح ، لأنه أقرب المذكورين ، ظاهر لإشكال فيه وهو اختيار ابن جرير ، وعود الضمير إلى ابراهيم ، لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن . لكن يشكل عليه لوط ، فانه لبس من ذرية ابراهيم بل ابن أخيه هاران بن آزر اللهم إلا انه يقال دخل تغليباً في الذرية. كما في قوله تعالى : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾. فإسماعيل عمه أي عم يعقوب دخل في آبائه تغليباً ، وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر دليل على دخول ولد البنات في ذرية الرجل ، لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام ، بأمه مريم عليها السلام ، فإنه لا أب له ، وقد ثبت في صحيح البخاري ، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي : ٢٢٣ [إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين] فسمّاه ابناً فدل على دخوله في الأبناء .

وقوله تعالى : ﴿ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم ، وذوي طبقتهم وأن الهداية والأجتباء شملهم كلهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ذلك هُدى الله يهدي به من يشاء من عباده ﴾ أي إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته لهم ﴿ ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته .

وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ﴾ أي أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ولطفاً منا بالخليقة ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء ﴾ أي فإن يكفر أهل مكة بالكتاب والحكم والنبوة وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم وملّيين وكتابيين ﴿ فقد وكلنا بها قوماً ﴾ أي المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة . ﴿ ليسوا بها بكافرين ﴾ أي لا يجحدون منها شيئاً ، ولا يردّون منها حرفاً واحداً ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه .

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ : ﴿ أولئك ﴾ يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والاخوان ﴿ الذين هدى اللهُ ﴾ أي هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ أي اتبع ، وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ ، فأمته تبع له ، فيما يشرعه ويأمرهم به . وقوله تعالى : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ أي لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم ، هذا القرآن أجراً ، ولا أريد منكم شيئاً ﴿ إنْ هو إلاّ ذكرى للعالمين ﴾ أي يتذكرون به ، فيرشد وامن العمى إلى الهدى ، ومن الغي إلى الرشاد ، ومن الكفر إلى الإيمان .

﴿ وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يقول تعالى وما عظموا الله حقّ تعظيمه حينما كذّبوا رسله إليهم وإنها نزلت في قريش الذين كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ لأنه من البشر ، كما قال تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس ﴾ وقال ها هنا : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذْ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ فقال تعالى : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله في جواب سلبهم العام ، بإثبات قضية جزئية موجبة ، ﴿ من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ وهو التوراة التي قد علمتم وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نوراً وهدى للناس أي ليستضاء بها في كشف المشكلات ، ويهتدى بها من ظُلَم الشبهات ، وقوله تعالى : ﴿ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾ أي تجعلون جملتها قراطيس ، أي قطعاً تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم وتحرّفون منها وتبدلون وتتأوّلون ما شاء لكم هواكم ثم تقولون هذا من عند الله وما هو من عنده الله وقوله تعالى : ﴿ وعُلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ أي ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من خبر ما سبق ، ونبأ ما يأتي ، ما لم تكونوا تعلمون ذلك ، لا أنتم ولا آباؤكم . وقد قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب [١] .

وقوله تعالى : ﴿ قل الله ﴾ قال ابن عباس أي قل الله أنزله . وهذا هو المتعيّن في تفسير هذه الكلمة ، لا ما قاله بعض المتأخرين ، من أن معنى : « قل الله » أي لا يكون خطابك لهم ، إلاّ هذه الكلمة ، كلمة ﴿ الله ﴾ وهذا الذي قاله هذا القائل ، يكون أمراً بكلمةٍ مفردة من غير تركيب ، والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها . [٢] وقوله تعالى : ﴿ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ أي ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون ، حتى يأتيهم من الله اليقين ، فسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين ؟ وقوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذرَ أم القرى ﴾ يعني مكة ﴿ ومن حولها ﴾ من أحياء العرب ومن سائر

---

(١) قيل إن هذه الآية نزلت مرتين ، مرة بمكة والخطاب فيها للمشركين ولعلها قراءة « يجعلونه » بالياء . ومرة في المدينة ولعلها قراءة : « تجعلونه » بالتاء لأنه خطاب لليهود .

(٢) وهذا رد مفحم على من يزعمون أنه يجوز ترداد كلمة (الله.الله.الله) منفردة في أذكارهم البدعية في زمننا الحاضر مستندين في جواز ذلك إلى قوله تعالى : «قل الله» مع ان هذه الجملة من هذه الآية جاءت هداهم الله . جواباً لقوله تعالى : قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) فجاء هنا قوله تعالى جواباً : (قل الله) أي قل الله أنزله . فأي مناسبة في هذه الآية للاستدلال بـ (قل الله) على جواز الذكر باسم الجلالة فقط ؟ دون أن يضاف اليه كلمة أخرى مثلا : الله عظيم ، الله كريم وما أشبه ذلك ... ولكن هذا شأن المبتدعين الذين يحكمون هواهم في كل ما يبتدعون .

طوائف بني آدم، من عرب وعجم كما قال تعالى: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكونَ للعالمين نذيراً﴾ وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ٢٢٤ [أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي» وذكر منهن «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»] ولهذا قال تعالى: ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ أي كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك، الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن ﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أي يقيمون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۞ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۞ (٩٤)﴾

يقول تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي لا أحد أظلم، ممن كذب على الله فجعل له شركاء أو ولداً، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله، ولهذا قال تعالى: ﴿أو قال أوحي إلي ولم يوحَ إليه شيء﴾ قال عكرمة وقتادة: نزلتْ في مسيلمة الكذاب ﴿ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله﴾ أي يعارض ما جاء من عند الله افتراءً، كقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ الآية قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ أي في سكراته وكرباته، ﴿والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾ أي تضربهم الملائكة حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم لأن الكافر إذا احتضر، بشّرتْه الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والجحيم والحميم، وغضب المنتقم الجبار فتعصى روحه وتتفرق في جسده وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة

حتى تخرجَ أرواحُهم من أجسادِهم قائلين لهم : ﴿ أَخرجوا أنفسكم اليومَ تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴾ أي اليومَ تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله .

وقوله تعالى: ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ أي يقال لهم يوم معادهم هذا ، أي كما بدأناكم أعدناكم وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه . وقوله تعالى : ﴿ وتركتم ما خوّلناكم وراءَ ظهوركم ﴾ أي تركتم كل ما اقتنيتموه في الدنيا وراء ظهوركم . وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ٢٢٥ [يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس]وقوله : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ تقريع لهم وتوبيخ على ما اتخذوه في الدنيا من الأنداد والأصنام ظانّين أنّها تنفعهم في معاشهم ومعادهم ، إن كان ثَمّ معاد ، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ويناديهم الرب عزّ وجلّ على رؤوس الخلائق : ﴿ أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم ... ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ ما كان من الأسباب ﴿ وضل عنكم ﴾ أي ترككم ﴿ ما كنتم تزعمون ﴾ من رجاء الأصنام والأنداد كما قال تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) ﴾

يخبر تعالى أنه يشقُّ الحبَّ والنوى في الثرى ، فتنبت الحبوب والثمار على اختلاف ألوانها ، واشكالها وطعومها من النوى . وقوله تعالى ﴿ يُخرج الحيَّ من الميت ومُخرجُ الميت

من الحي ﴾ تفسير لقوله : ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ أي يخرج النبات الحي من الحب والنوى الذي هو كالجماد الميت ، وقيل يخرج الدجاجة من البيضة وبالعكس ، وقيل يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه وكل ذلك جيد . ثم قال تعالى : ﴿ ذلكم الله ﴾ أي فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له ﴿ فأنىّ تؤفكون ﴾ أي كيف تعدلون عن الحق إلى الباطل ، فتعبدون مع الله غيره . وقوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجَعَلَ الليل سكناً ﴾ أي مظلماً لتسكنَ فيه الأشياء كما قال تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ أي يجريان بحساب مقنّن مقدّر ، لا يتغير ولا يضطرب بل لكلٍ منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء ، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار ، طولاً وقصراً ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل ﴾ الآية وقوله تعالى ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ اي الجميع جاء بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالَف ، العليمُ بكل شيء ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلْقَ الليل والنهار ، والشمس والقمر ، يختم الكلام بالعزة والعلم . كما في قوله تعالى : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وكما في غير موضع من القرآن . وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ قال بعض السلف : من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه ، إن الله جعلها زينةً للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويُهتدىَ بها في ظلمات البر والبحر ، وقوله تعالى : ﴿ قد فصّلنا الآيات ﴾ أي قد بينّاها ووضحناها ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي يعقلون ويعرفون الحق ويتجنَّبون الباطل .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝ (٩٨) وَهُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ٱنظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ (٩٩) ﴾

يقول تعالى : ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ يعني آدم عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾ وقوله تعالى : ﴿فمستقرٌ ومستودع﴾ أي مستقر في الأرحام ، ومستودع في الأصلاب . قاله ابن مسعود وابن عباس وطائفة من التابعين وقوله تعالى : ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ أي يفهمون كلام الله ، ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماءً﴾ أي بقدر مباركاً ورزقاً للعباد وإحياءً وغياثاً للخلائق ، رحمةً من الله بخلقه ﴿فأخرجنا به نبات كل شيء﴾ كقوله تعالى : ﴿وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي﴾ ﴿فأخرجنا منه خضراً﴾ أي زرعاً وشجراً أخضر ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر ، ولهذا قال تعالى : ﴿نخرج منه حباً متراكباً﴾ أي يركب بعضه بعضاً كالسنابل ونحوها . ﴿ومن النخل من طلعها قنوان﴾ أي جمع قنوٌ وهي عذوق الرُطَب (دانية) أي قريبة من المتناول أي قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض . وقوله تعالى : ﴿وجنات من أعناب﴾ وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز ، وربّما كانا خيار الثمار في الدنيا . وقوله تعالى : ﴿والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه﴾ في الورق والشكل ، قريب بعضه من بعض ، ومتخالف في الثمار شكلاً وطعماً ، وقوله تعالى : ﴿أنظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه﴾ أي نضجه أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود ، بعد أن كان حطباً ، صار عنباً ورطباً وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى ، من الألوان والأشكال ، والطعوم والروائح ، كقوله تعالى : ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ الآية ولهذا قال ها هنا : ﴿إن في ذلكم﴾ أيها الناس ﴿لآيات﴾ أي دلالات على كمال قدرة الخالق وحكمته ورحمته ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي يصدقون به ويتبعون رسله .

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ۞(١٠٠)﴾

هذا ردٌ على المشركين ، الذين عبدوا مع الله غيرَه ، وأشركوا به في عبادته ، أن عبدوا الجن ، فجعلوهم شركاء له في العبادة ، تعالى الله عن شركهم وكفرهم . فإن قيل : فكيف عبدوا الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب : انهم ما عبدوها إلاّ

عن طاعة الجن وأمرهم إيّاهم بعبادتها . كقوله تعالى : ﴿ إنْ يدعون من دونه إلاَّ إناثاً وإنْ يعبدون إلاّ شيطاناً مريداً ﴾ وتقول الملائكة يوم القيامة : « ﴿ سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ﴾ أي وقد خلقهم ، فهو الخالق وحده لا شريك له ، فكيف يعبدون معه غيره . ومعنى الآية : أنه سبحانه وتعالى هو المنفرد بالخلق وحده فلزم أن يكون منفرداً بالعبادة وحده لا شريك له . وقوله تعالى : ﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ ينبه تعالى على ضلال من ضلّ وزعموا أن لله ولداً كاليهود في عزير ، والنصارى في عيسى ومشركي العرب في الملائكة أنها بنات الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ومعنى ﴿ وخرقوا له بنين وبنات ﴾ أي أختلقوا وأتفكوا وتخرّصوا وكذبوا . وقال ابن جرير : وتأويله : وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياهم . وهو المنفرد سبحانه بخلقهم بغير شريك ولا ظهير ﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ أي جهلاً بالله وبعظمته ، فلا ينبغي أن يكون له سبحانه بنون وبنات ، ولا صاحبة ، ولا أي شريك ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ أي تقدّس وتنزّه عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالّون ، من الأولاد والنظراء والشركاء .

﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٠١)

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أي خالقها على غير مثال سابق ، ومنه سميت البدعة بدعةً لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿ أنّى يكون له ولد ﴾ أي كيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين ، والله تعالى لا يناسبه شيء ولا يشابهه شيء من خلقه لأنه خالق كل شيء ، فلا صاحبة له ولا ولد . ﴿ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ فبيّن تعالى أنه هو الذي خلق كل شيء ، وأنه بكل شيء عليم ؛ فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه وتشابهه ، وهو الذي لا نظير له ، فأنّى يكون له ولدٌ ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۞ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۞ (١٠٣) ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى أنه خالق كل شيء ، ولا ولد له ولا صاحبة قال سبحانه : ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ أي هذا هو ربكم الذي له هذه الصفات وحده ﴿ لا إله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾ أي فاعبدوه وحده لا شريك له ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ أي حفيظ ورقيب ، يدبّر خلقه ويرزقهم ويكلأهم بالليل والنهار . وقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ في الدنيا ولكن تراه في الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ثابتة في الصحاح والمسانيد والسنن وقد ثبت عن عائشة أنها قالت كل من زعم ان محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية فان الله تعالى قال ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ وخالفها ابن عباس ، فعنه : إطلاق الرؤية ، وعنه أنه رآه بفوآده مرتين والمسألة تذكر في أول سورة النجم إن شاء الله [1] والرؤية لله تعالى في الآخرة ثابتة للمؤمنين بخلاف المعتزلة الذين ينكرون الرؤية في الدنيا والآخرة فخالفوا جهلاً منهم ما دلّ عليه الكتاب والسنّة . أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ وجوه يؤمئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ وقال عن الكافرين ﴿ كلا إنهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ قال الإمام الشافعي : فدلّ هذا ، على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى . أمّا السُنَّة فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد ، وأبي هريرة ، وأنس ، وجريج ، وصهيب ، وبلال ، وغيرهم من الصحابة عن النبي ﷺ : ٢٢٦ [إن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات] جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه آمين .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً : ٢٢٧ [ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار ، حجابه النور ـ أو النار ـ لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه .] . ولا منافاة بين اثبات الرؤية ونفي الإدراك . والإدراك المنفي هو معرفة الحقيقة ، فإن هذا لا يعلمه إلا هو ، وإن رآه المؤمنون ؛ كما

---

(١) راجع الآية رقم /١٠١/ من تفسير سورة النجم .

إن من رأى القمرَ فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ، فالله العظيم سبحانه أولى بذلك وله المثل الأعلى والإدراك هو الإحاطة قالوا : ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم والمقصود الرؤية في الآخرة لأن الرؤية في الدنيا غير ممكنة كما قال تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ ربي أرني أنظر إليك قال : لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعِقاً فلما أفاق قال سبحانك تبتُ إليك وأنا أول المؤمنين . ﴾ أما في الآخرة فيتجلّى الله لعباده المؤمنين كما يشاء ، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه ، تعالى وتقدس وتنزه ، فلا تدركه الأبصار . وقوله تعالى : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ أي يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه لأنه خلقها وقوله تعالى: ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ قال ابو العالية: اللطيف لاستخراجها ، الخبير بمكانها والله أعلم. وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان ، فيما وعظ به ابنه : ﴿ يا بُني إنها إن تكُ مثقال حبّةٍ من خردلٍ فتكن في صخرةٍ أو في السموات أو في الأرض يأتِ بها الله إن الله لطيف خبير ﴾

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۞(١٠٤) وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ (١٠٥)

البصائر هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن والسنّة ﴿ فمن أبصر فلنفسه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنّما يضل عليها ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن عمي فعليها ﴾ أي إنما يعود وبالُه عليها . كقوله تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي بحافظ ولا رقيب ، بل إنما أنا مبلغ . وقوله تعالى : ﴿ وكذلك نصرّف الآيات ﴾ أي نبينها في كل موطن بما فيها من التوحيد ، ﴿ وليقولوا درست ﴾ أي دارست يا محمد مَنْ قبلك من أهل الكتاب وقارأتهم ، وتعلمت منهم . هكذا قاله ابن عباس ، ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم . وهذا كقوله تعالى إخباراً عن كذب المشركين وعنادهم : ﴿ وقال الذين كفروا إنْ هذا إلاّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلْماً وزوراً وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ ولنبيّنه لقوم يعلمون ﴾ أي ولنوضّحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه. والباطل فيجتنبونه . كقوله تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هُدًى

وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين ، وأنه يضل به من يشاء ويهدي به من يشاء . واختلف في قراءة « درست » أهي دارست أم درست فقد روى ابن مردويه عن أُبي بن كعب قال : ٢٢٨ [أقرأني رسول الله ﷺ ﴿ وليقولوا درسْتَ ﴾] ورواه الحاكم في مستدركه من حديث وهب بن زمعة ، وقال : يعني بجزم السين ونصب التاء ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

﴿ ٱتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته : ﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك ﴾ أي اقتدِ به ، واعمل به . فهو الحق الذي لا مرية فيه ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أي اصفح ، واحتمل أذاهم حتى يفتح الله عليك بالنصر عليهم ، وإن لله حكمةً بإضلالهم فلو شاء لهداهم ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ [1] أي بل له المشيئة والحكمة ، فيما يشاء ويختاره لا يسأل عما يفعل وهم يسألون [2] وقوله تعالى : ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴾ يحفظ أقوالهم وأعمالهم ﴿ وما أنت عليهم بوكيلٍ ﴾ أي موكلٍ على أرزاقهم وأمورهم ﴿ إنْ عليك إلاّ البلاغ ﴾ كما قال تعالى: ﴿فذكّر إنما أنت مذكّر لست عليهم بمصيطر ﴾وقال : ﴿ إنما عليك البلاغُ وعلينا الحساب ﴾ .

﴿ وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

---

(١) قلت : إنه سبحانه علم منهم أنهم سيختارون الشرك بعد أن يعرض عليهم التوحيد والأيمان ولا يلزم من مشيئة الله إجبارهم على الكفر والشرك ، فقبل أن يشاءوا الكفر علم الله منهم ذلك فقدره عليهم وشاءه لهم ، ثم لما عرض عليهم التوحيد والأيمان في الدنيا شاءوا الشرك والكفر .

(٢) ولا يفعل سبحانه إلا الحق والعدل والخير ، ومنزه عن النقيض لذا فإنه لا يسأل عن الخير لم فعاه ، ولا يسأل عن الشر لأنه لا يفعل شراً وإن كان هو خالقه وكل شيء .

ينهى الله رسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، وإن كان فيه مصلحة ، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم من المصلحة ، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين ، وهو الله لا إله إلا هو كما قال ابن عباس في هذه الآية : قالوا : يا محمد لتنتهينَّ عن سبك آلهتنا ، أو لنهجون ربَّك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿ فيسبّوا الله عدواً بغير علم ﴾ وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ، ومن هذا القبيل ما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ٢٢٩ [« ملعون من سب والديْه » قالوا يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديْه ؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمّهُ فيسب أمّهُ »] أو كما قال ﷺ ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ أي وكما زيّنا لهؤلاء القوم حبَّ أصنامهم ، والمحاماة لها والانتصار ، كذلك زينا لكل أمة أي من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة ، فيما يشاؤه ويختاره ﴿ ثم إلى ربهم مرجعهم ﴾ أي معادهم ومصيرهم . ﴿ فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ أي يجازيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَاتُ عِنْدَ ٱللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝(١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ (١١٠) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم حلفوا أَيمْاناً مؤكّدةً ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ أي معجزة ﴿ ليؤمننَّ بها ﴾ أي ليصدقنها ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ أي قل يا محمد للمشركين الذين يسألونك الآيات كفراً وعناداً لا استهداءً واسترشاداً إنما مرجع هذه الآيات إلى الله تعالى ، إن شاء جاءكم بها أو ترككم ، وهنا نورد حديثاً مرسلاً ولكن له شواهد من وجوه أخر فقد روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال :٢٣٠ [كلم رسولَ الله ﷺ قريشٌ ، فقالوا : يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجرفانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى ، وتخبرنا ان ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدِّقَكَ . فقال رسول الله ﷺ : « أي شيء تحبون أن آتيكم به » قالوا تجعل لنا الصفا ذهباً فقال لهم : فإن فعلتُ تصدقوني » ؟ قالوا : نعم والله لئن

فعلت لنتبعنّك أجمعون ، فقام رسول الله ﷺ يدعو فجاء جبريل عليه السلام ، فقال له : ما شئت ، إن شئت أصبح الصفا ذهباً ، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا ، عند ذلك ليعذبنّهم ، وإن شئت فاتركهم حتّى يتوب تائبهم فقال رسول الله ﷺ « بل يتوب تائبهم » فأنزل الله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ـ إلى قوله تعالى ـ ولكنّ أكثرهم يجهلون ﴾ .]

وقوله تعالى : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ أي وما يدريكم يا أيها المؤمنون الحريصون على إيمان المشركين فلعلّ المعجزات اذا جاءت لا يؤمنون وتفسير (أن) بـ (لعل) ذكر ذلك عن العرب سماعاً : إذهب إلى السوق انك تشتّري لنا شيئاً بمعنى لعلك تشتّري . وكقول عدي بن زيد العبادي :

أعاذل مـا يدريـك أنّ منيـتي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغـد

أي بمعنى ـ لعل منيّتي ـ وقد اختار هذا القول ابن جرير وذكر عليه من شواهـد اشعار العرب والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا بـه أول مرة ﴾ قال ابن عباس : لما جحد المشركون ما أنزل الله ، لم تثبت قلوبهم على شيء وردّت عن كل أمر [1] وقوله تعالى : ﴿ ونذرهم ﴾ أي نتركهم ﴿ في طغيانهم ﴾ أي في ضلالهم ﴿ يعمهون ﴾ أي في كفرهم يتردّدون .

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (١١١)

يقول تعالى : ولو أجبنا هؤلاء الذين أقسموا بالله لئن جاءتهم آية ليؤمنُنّ بها ، فنزّلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل ، كما سألوا فقالوا : ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وكلمهم الموتى ﴾ أي فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿ وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ﴾ أي ولو تعرض عليهم كل أمة بعد أمة ،

(١) قلت : أي ان الله سبحانه قلب أفئدتهم وأبصارهم ولم يجعلها تثبت على شيء وردها عن كل أمر جزاء لهم من نوع عملهم لأنهم لم يؤمنوا لما عرض عليهم الإيمان أول مرة كقوله تعالى : « وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى» .

فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به ﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلاّ أن يشاء الله ﴾ أي إن الهداية إليه لا إليهم ، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الفعال لما يريد . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۞ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ۞ (١١٣) ﴾

يقول تعالى : وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك ، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء ، فلا يحزنك ذلك . كما قال تعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأُوذوا ﴾ وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ : إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلاّ عودي . وقوله تعالى : ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ بدل من ﴿ عدواً ﴾ أي لهم أعداء من شياطين الأنس والجن ، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء قبحهم الله ولعنهم . روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : ٢٣١ [أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد فجلست ، فقال : « يا أبا ذر هل صليتَ ؟ » قلت : لا قال : « قم فصلِّ » قال : فقمت فصلّيت ثم جلست فقال : « يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » قال : قلت يا رسول الله . وللإنس شياطين ؟ قال : « نعم »] . وهكذا فإن للإنس شياطين منهم ، وشيطان كل شيء مارده . ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : ٢٣٢ [الكلب الأسود شيطان] – ومعناه والله أعلم – شيطان في الكلاب ، وقال ابن جريج : قال مجاهد في تفسير هذه الآية : كفار الجن شياطين يوحون إلى شياطين الإنس كفار الإنس ، زخرف القول غروراً .

وقوله تعالى : ﴿ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ أي يُلقي بعضهم إلى بعض القول المزيّنَ المزخرفَ ، وهو المزوقُ الذي يغترُّ سامعه من الجهلة بأمره ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ أي وذلك كله بقدر الله وقضائه ، وإرادته ومشيئته ، أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ أي فدعهم وما يكذبون ودع

أذاهم ، وتوكّل على الله في عداوتهم ، فإن الله تعالى كافيك وناصرُك عليهم . وقوله تعالى : ﴿ ولتصغي إليه ﴾ أي لتميل إليه ﴿ أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة . ﴾ أي قلوبهم وعقولهم وأسماعهم ، ﴿ وليرضوه ﴾ أي يحبوه ويريدوه وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة . ﴿ وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ قال ابن عباس : أي وليكتسبوا ما هم مكتسبون وقال السدي وابن زيد : وليعملوا ما هم عاملون .

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * (١١٥) ﴾

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره ﴿ أفغير الله أبتغي حكماً ﴾ أي بيني وبينكم ﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ أي مبيناً ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ أي من اليهود والنصارى ﴿ يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ أي بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين ﴾ وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي وقوعه ؛ ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٢٣٣ [لا أشكّ ولا أسأل] وقوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ قال قتادة : صدقاً فيما قال وعدلاً فيما حكم ، يقول صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الطلب فكل ما أخبر به فحق لامرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل فإنه لا ينهى إلاّ عن مفسدة . كما قال تعالى : ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ إلى آخر الآية ﴿ لا مبدّل لكلماته ﴾ أي ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ وهو السميع العليم ﴾ السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله .

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۞ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۞ (١١٧) ﴾

يخبر تعالى : عن حال أكثر أهل الأرض ، من بني آدم أنه الضلال (١) كما قال تعالى : ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾ وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وانما هم في ظنون كاذبة ، وحسبان باطل ، ﴿ إنْ يتبعون إلاّ الظن وإنْ هم إلاّ يخرصون ﴾ الخرص الحزر ، ومنه خرص النخل ، وهو حزر ما عليها من التمر ، وذلك كله عن قدر الله ومشيئته ، ﴿ هو أعلم من يضل عن سبيله ﴾ فييسره لذلك ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ فييسرهم لذلك وكل ميسر لما خلق له .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) ۞ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ الَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ۞ (١١٩) ﴾

يبيح الله لعباده المؤمنين من الذبائح ما ذكر عليه اسمه ، ومفهومه منع أكل الذبائح التي لم يذكر اسمه تعالى عليه ، كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات ، وما ذبح لغير الله تعالى ، ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال تعالى : ﴿ وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم ﴾ أي قد بيّن لكم ما حرّم عليكم ووضحه ﴿ إلاّ ما اضطرتم إليه ﴾ أي إلا في حال الاضطرار ، فانه يباح لكم ما وجدتم ، ثم بيّن تعالى جهالة المشركين ، في آرائهم الفاسدة من استحلالهم الميتات ، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى فقال : ﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إنّ ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ أي هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم .

---

(١) قلت : النص جاء عاماً فتخصيصه ببني آدم يحتاج إلى دليل والظاهر ــ والله أعلم ــ أنه داخل في النص الإنس والجن عامة لأن الجن هم أيضاً من في الأرض .

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ (١٢٠)

قال مجاهد : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ أي المعصية في السر والعلانية كقوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الذين يكسبون الإثم سيجزَوْن بما كانوا يقترفون ﴾ أي سواء كان ظاهراً أو خفياً فإن الله سيجزيهم عليه .

روى ابن أبي حاتم عن النواس بن سمعان ، قال ٢٣٤: [سألت رسول الله ﷺ عن الأثم ، فقال : « الإثم ما حاك في صدرك وكرهتَ أن يطلعَ الناسُ عليه »] .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (١٢١)

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلماً ، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى في هذه المسألة ، على ثلاثة أقوال .

[المذهب الاول] مالك وأحمد ؛ فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة ، وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً ، وهو يروي عن ابن عمر وبعض التابعين ورواية عن مالك وأحمد وهو اختيار أبي ثورورواهداودالظاهري واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية وبقوله تعالى في آية الصيد : ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ ثم قد أكد في هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ وإنّه لفسقٌ ﴾ والضمير قيل عائد على الأكل ، وقيل عائد على الذبح لغير الله . وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديثي عدي بن حاتم ، وأبي ثعلبة ٢٣٥ : [إذا أرسلت كلبك المعلّم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك] وحديث رافع بن خديج [ما أنهر الدم . وذكر اسم الله عليه فكلوه] والحديثان في الصحيحين . وحديث ابن مسعود ٢٣٦ [إن رسول الله

ﷺ قال للجن « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه »] رواه مسلم ــ والله أعلم ــ

[المذهب الثاني] الشافعي ؛ إنه لا يشترّط التسمية بل هي مستحبة فإن تركت عمداً أو نسياناً لا يضر . وهذا مذهب الشافعي وجميع أصحابه ورواية عن أحمد ومالك وحمل الشافعي الآية الكريمة : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ على ما ذبح لغير الله ، كقوله تعالى : ﴿ أو فسقا أُهلَّ لغير الله به ﴾ وهذا المسلك قوي . وقد استدل لهذا المذهب بحديث عائشة (رض) [أن ناساً قالوا يا رسول الله ، إن قوماً حديثي عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : سمّوا أنتم وكلوا »] قالوا فلو كان وجود التسمية شرطاً ، لم يرخص لهم إلاَّ مع تحققها ، والله أعلم .

[المذهب الثالث] ان ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر وإن تركها عمداً لم تحل ، هذا هو المشهور من مذهب مالك وأحمد وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه ومحكي عن علي وابن عباس وبعض التابعين وقد نقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتاب الهداية الإجماع على تحريم متروك التسمية عمداً .

وقال الامام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : من حرّم ذبيحة الناسي فقد خرج من قول جميع المحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ في ذلك يعني ما رواه البيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ ٢٣٧ [المسلم يكفيه اسمه إن نسي أن يسمي حين يذبح ، فليذكر اسم الله وليأكله] وهذا الحديث وقفه على ابن عباس أصح من رفعه . نص عليه البيهقي وغيره من الحفاظ . واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس وأبي هريرة وأبي ذر وعقبة بن عامر ، وعبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ ٢٣٨ [إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه] .

وقد أفردت هذه المسألة على حدة ، وذكرت مذاهب الائمة ومأخذهم وأدلتهم ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات والله أعلم .

قال ابن جرير : وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية : هل نسخ من حكمها شيء أم لا ؟ فقال بعضهم : لم ينسخ منها شيء ، وهي محكمة فيما عنيت به وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم ، وروي عن عكرمة والحسن البصري قالا : قال الله تعالى : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسقٌ ﴾ فنسخ واستثنى من ذلك فقال جل وعلا : ﴿ وطعام الذين أوتوا

الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلٌ لهم ﴾ وكذلك روي عن مكحول ، ثم روى ابن جرير : والصواب انه لا تعارض ، بين حل طعام أهل الكتاب ، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليـــه .

وهذا الذي قاله صحيح ، ومن أطلق من السلف النسخ هاهنا فإنما أراد التخصيص ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي زميل قال : كنت قاعداً عند ابن عباس ، ــ وحج المختار بن أبي عبيد ــ فجاءه رجل فقال : يا ابن عباس ، زعم أبو اسحق أنه أوحى إليه الليلة ، فقال ابن عباس : صدق ، فنفرت وقلت يقول ابن عباس صدق ؟ فقال ابن عباس : هما وحيان : وحي الله ووحي الشيطان ، فوحي الله إلى محمد ﷺ ووحي الشيطان إلى أوليائه ، ثم قرأ : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ .

وقال الطبراني عن ابن عباس قال لما نزلت ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً وقولوا له : فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب ، يعني الميتة فهو حرام ؟ فنزلت هذه الآية : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ أي وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش .

روى أبو داود عن ابن عباس في قوله تعالى : « وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » يقولون : ما ذبح الله فلا تأكلوه ، وما ذبحتم أنتم فكلوه فأنزل الله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » ورواه ابن ماجة وابن أبي حاتم عن عمرو بن عبدالله ، عـــن وكيع ، عن اسرائيل به ، هذا اسناد صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقدّمتم عليه غيره ، فهذا هو الشرك كقوله تعالى : ﴿ إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال : ٢٣٩ [يا رسول الله ما عبدوهم ، فقال « بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم »] .

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ● (١٢٢) ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً ، أي في الضلالة هالكاً حائراً فأحياه الله أي أحيا قلبه بالإيمان ، وهداه الله ووفّقه ، لاتباع رسله ﴿ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ أي يهتدي في سلوكه وتصرفه ، والنور هو القرآن أو الاسلام والكل صحيح ﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾ أي الجهالات والضلالة المتنوعة ؛ ﴿ ليس بخارج منها ﴾ أي لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه . كقوله تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وان وجه المناسبة في ضرب المثلين هاهنا بالنور والظلمات ما تقدم في أول السورة : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ وليس المقصود من الآية أحداً معيناً من المؤمنين والكافرين كما قيل ... ولكنها عامة يدخل فيها كل مؤمن وكافر .

وقوله تعالى : ﴿ كذلك زُيّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ حسّنا لهم ضلالتهم قدراً من الله وحكمة بالغة منه تعالى لا إله إلا هو وحده لا شريك له [١] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ●(١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ● (١٢٤) ﴾

---

(١) قلت : حسنها لهم جزاء وفاقا لما اختاروه من الضلال كقوله تعالى : « ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» وحاشاه تعالى أن يحسن لهم الضلال وهم مهتدون .

يقول تعالى : وكما جعلنا في مكة رؤساء ودعاة إلى الكفر يخالفونك يا محمد ويعادونك فإن الرسل قبلك كانوا كذلك مبتلين بمثل هؤلاء ، ولكن العاقبة لرسله ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾ الآية ... أي أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمرناهم . وقوله تعالى : ﴿ أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس سلطنا شرارهم ، فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب[١]

وقوله تعالى : ﴿ وما يمكرون إلاّ بأنفسهم وما يشعرون ﴾ أي وما يعود وبال مكرهم وإضلالهم من أضلوه ، إلا على أنفسهم كما قال تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نُؤتيَ مثل ما أوتي رسل الله ﴾ أي إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا : ﴿ لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله ﴾ أي من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل كقوله جل وعلا : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ أي يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه ، كقوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل كبير مبجل في أعينهم من مكة أو الطائف ، وذلك أنهم كانوا يزدرون بالنبي ﷺ ، بغياً وحسداً وعناداً واستكباراً ، هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه وطهارة بيته ومرباه ومنشئه . حتى أنهم كانوا يسمونه قبل أن يوحى إليه « الأمين » وقد اعترف بذلك رئيس الكفار ـ وقتئذ ـ أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم : وكيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسبٍ، قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ... الحديث. روى الامام أحمد عن واثلة بن الأسقع (رض) أن رسول الله ﷺ قال ٢٤٠ : [ان الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم]. وذكر ابن أبي حاتم عن أبي الحسين قال أبصر رجل ابنَ عباس وهو داخل باب المسجد فلما نظر إليه[٢] راعه فقال : من هذا ؟ قالوا : ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ فقال ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾

(١) قلت : إن الله أمرهم بالطاعة فخالفوا أمره وعصوه فجزاء عصيانهم فتح لهم باباً من المعصية والمكر هو دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف القول والفعل. وفي الحقيقة ما يمكرون الا بأنفسهم لأنهم. بفعلهم هذا يردونها الهلاك بارسال العذاب الشديد عليهم في الدنيا وسيلقون في الآخرة عذاباً أشد جزاء مكرهم وإضلالهم الناس . (٢) أي راعته هيبته

وقوله تعالى : ﴿ سيصيب الذين أجرموا صغارٌ عند الله وعذاب شديد ﴾ هذا وعيد شديد من الله لمن لم يتبع وينقَدْ لرسله فيما جاءوا به ، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله تعالى صغار ، وهو الذلة الدائمة ، وهذا جزاء من نوع العمل ، أي فكما أنهم استكبروا في الدنيا فأعقبهم الله لذلك يوم القيامة ذلاًّ دائماً كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين ذليلين حقيرين . وقوله تعالى : ﴿ وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً ، أوهو التلطف في التحيّل والخديعة ، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاءً وفاقاً كما قال تعالى : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ أي تظهر المستترات والمكنونات والضمائر وجاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ ٢٤١ [ينصب لكل غادر لواء عند أسته يوم القيامة ، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان] والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس ، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل .

﴿ فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٢٥)

يقول تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ أي ييسره له وينشطه ويسهله [١] ، لذلك فهذه علامات على الخير ، كقوله تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره

(١) قلت : لا شك ولا ريب أنه لا راد لإرادة الله تعالى فالذي لا يريده لا يمكن أن يكون قطعاً . والذي يريده لا بد أنه واقع قطعاً . ولا تكون حركة ولا سكنة إلا بإرادته ، وإلا فيكون هناك مريد يغالب إرادة الله ؛ وتنزه الله سبحانه أن يكون في الكون مريد غيره يغالبه . فالذي آمن ما آمن إلا بإرادة الله والذي كفر ما كفر إلا بارادة الله ، ولكن يجب أن لا يفهم من هذا أن هذه الإرادة مجبرة على فعل الخير أو الشر ، بمعنى أنه ليس للعبد أية إرادة فإن فعل خيراً فهو مجبر عليه أو فعل شراً فهو مجبر عليه... لا وألف لا... لأن إرادة الله غير أوامره فإن الله أراد وما أمر ، أراد لأنه لا يمكن أن يكون شيء إلا بإرادته ، وما أمر لأنه لا يأمر بالفحشاء ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولما كان الله تعالى أمر بأوامر ونهى عن نواهي من أجل أن يطاع فإن أطيع فللمطيع الجنة ، وإن عصي فللعاصي النار . وجعل للمكلف عقلاً مميِّزاً للخير من الشر فإن فعل الخير فلأنه مختار بذلك ، ولولا اختياره هذا ما استحق عليه الجنة . وإن فعل الشر فلأنه مختار أيضاً ، ولولا اختياره هذا ما استحق عليه النار . فإن كان مجبراً على فعله ما استحق جنة ولا ناراً . فمن أجل أن يستحق المكلف جزاء عمله جعله الله مخيراً فيما كلفه به ، وكل ما فعله ، خيراً كان أو شراً ، هو بإرادته تعالى لأن الله تعالى يقدر على أن يمنع عبده من فعل الشر ، كما أنه يقدر أن يمنع عبده من فعل الخير ، ولكن لما سبق الوعد =

للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ الآية وكقوله تعالى ﴿ ولكن الله حبَّبَ إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ﴾ وقال ابن عباس (رض) في تفسير هذه الآية ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدرَه للإسلام ﴾ يقول تعالى : يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به وكذا قال أبو مالك وغير واحد .وهو ظاهر ... روى ابن جرير عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ ٢٤٢ قال : [« فمن يردِ الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » قالوا : يا رسول الله وكيف يشرح صدره ؟ قال « يدخل فيه النور فينفسح » قالوا : وهل لذلك علامة يا رسول الله قال « التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل أن ينزل الموت »] ولهذاالحديث طرق مرسلة ومتصلة يشدُّ بعضها بعضاً ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يرد أن يضله يجعل صدرهُ ضيقاً حرجاً ﴾ قال السدي : أي هو الذي لا يتسع لشيء من الهُدَى ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ، ولا ينفذ فيه . وقوله تعالى : ﴿ كأنما يصَّعَّدُ في السماء ﴾ لا يجد فيه مسلكاً إلاّ صعداً ، ذلك من ضيق صدره .

وقوله تعالى : ﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ، ضيقاً حرجاً . كذلك يسلّط الله الشيطانَ عليه وعلى أمثاله ، ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ، ويصده عن سبيل الله .[1]

﴿ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ❁ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ❁ (١٢٧) ﴾

ربع الحزب

= بالجنة إن فعل الخير ، والوعيد بالنار إن فعل الشر ، كان من حكمته تعالى ، أن يكون عبده مخيراً لا مجبراً لأنه اذا كان مخيراً وفعل الخير فهو يستحق الجنة بفعله وعمله واختياره وإن فعل الشر فهو يستحق النار بعمله واختياره وإن كان مجبراً على ذلك فأي نعيم أو عذاب يستحق ... ؟ فلكي لا يكون للناس على الله الحجة جعلهم مخيرين في عمل الخير والشر هذا ضمن دائرة التكليف الذي يحصل بوجود العقل والتمييز لأن على العقل مدار التكليف أما الأمور التي لا يستطيع العقل أن يبدي فيها أو يعيد وخارجة عن نطاق التكليف فالمخلوق مجبر في هذا المضمار وبالله التوفيق .

(١) قلت : وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة هذه كما يلي : أن من رغب مخلصاً فهم حقيقة الإسلام فان الله تعالى يعينه على ذلك بإرادة الهدى له ثم يشرح صدره للإسلام فيؤمن ومن أبى الاستجابة لذلك فإن الله تعالى يضله عنها ويجعل صدره ضيقاً فلا يقبل الدعوة جزاء صدوده عن الاستجابة للدعوة ويسلط عليه الشيطان برجسه ونفثه فيغويه ويصده عن سبيل الله .

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله ، نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق . فقال تعالى : ﴿ وهذا صراط ربك مستقيماً ﴾ منصوب على الحال ، أي هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد مما أوحينا إليك هذا القرآن الذي هو صراط الله المستقيم وحبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ أي وضحناها ﴿لقوم يذّكرون ﴾ أي لمن له وعي يعقل عن الله ورسوله ﴿لهم دار السلام ﴾ وهي الجنة ﴿ عند ربهم ﴾ أي يوم القيامة ، وإنما وصف الله الجنة بدار السلام ، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم ، والمقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم . فكما سلموا من آفات الاعوجاج ، أفضوا الى دار السلام . ﴿ وهو وليّهم ﴾ أي حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ أي جزاءً على أعمالهم الصالحة ، تولاّهم وأثابهم الجنة بمنّه وكرمه .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٢٨)

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتنذرهم به ﴿ يوم يحشرهم جميعاً ﴾ يعني الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ، ويعوذون بهم ويطيعونهم ، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . ﴿ يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ﴾ أي من إغواء الإنس . كقوله تعالى : ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين • وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلّاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾

وقال ابن جريج : كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول : أعوذ بكبير هذا الوادي فذلك استمتاعهم أي استمتاع الإنس بالجن ، في قوله تعالى : ﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ قال الحسن : وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس ، وأما استمتاع الجن

بالإنس فانه كان فيما ذكر ، ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم ، فيقولون قد سدنا الإنس والجن وقوله تعالى :﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ قال السدي : يعني الموت ﴿ قال النار مثواكم ﴾ أي مأواكم ومنزلكم ، أنتم وإياهم وأولياءكم ﴿ خالدين فيها ﴾ فيها مكثاً مخلّداً ﴿ إلاّ ما شاء الله ﴾ (وقد قيل في هذا الاستثناء أقوال كثيرة ، وأصحها : ما رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً : ان الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حتى أنهم يشفعون في أصحاب الكبائر ثم تأتي رحمة الله أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً قط إنما قال يوماً من الدهر لا إله إلا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة ، وغيرهم من الصحابة ولا يبقى بعد ذلك في النار إلاّ من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد عنها وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً.[1]) وقوله تعالى : ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ قال ابن عباس : ان هذه الآية آية لا ينبغي لأحدٍ أن يحكم على الله في خلقه ، ولا ينزلهم جنةً ولا ناراً .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٢٩)

روى الحافظ بن عساكر عن ابن مسعود مرفوعاً ٢٤٣ [من أعان ظالماً سلّطه الله عليه] وهذا حديث غريب . وقال سعيد عن قتادة في تفسير هذه الآية : إنما يولي الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن وليُّ المؤمن أينما كان وحيث كان والكافر ولي الكافر أينما وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي واختاره ابن جرير وقال بعض الشعراء :

وما من يدٍ إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيبلى بأظلم

ومعنى الآية الكريمة : كما ولّينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم

---

(١) قلت : ان الكلام الذي ما بين القوسين هو نقل عما جاء في سورة هود الآية (١٠٧) عند قوله تعالى « خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريده) كما أشار المفسر رحمه الله بقوله (سيأتي تقريرها عند قوله في سورة هود :«خالدين فيها...» فأحببنا إتماماً للفائدة أن نثبت ماجاء من تفسيرها بدلا من أن نحيل القارىء على سورة هود ليراجعها بنفسه وذلك تسهيلا عليه.

من الجن كذلك نفعل بالظالمين فنسلّط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض وننتقم من بعضهم ببعض ، جزاءً على ظلمهم وبغيهم .

﴿ يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ۞ (١٣٠) ﴾

وهذا أيضاً مما يقرِّع الله به كافري الإنس والجن يوم القيامة ، حيث يسألهم وهو أعلم هل بلَّغتْهم الرسل رسالاته ؟ وهذا استفهام تقرير : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أي من جملتكم ، والرسل من الانس فقط ، وليس من الجن رسل ، قاله مجاهد وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف . وقال ابن عباس : الرسل من بني آدم ومن الجن نذر . وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلا واحتج بهذه الآية الكريمة وفيه نظر ، لأنها محتملة وليست بصريحة . وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ يا معشر الجن والأنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا ﴾ أي اقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك ، وأنذرونا لقاءك ، وأن هذا اليوم كائن لا محالة . وقال تعالى : ﴿ وغرّتهم الحياة الدنيا ﴾ أي قد فرطوا في حياتهم الدنيا وهلكوا بتكذيبهم للرسل ، ومخالفتهم للمعجزات ، لما اغترّوا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها . ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ أنهم كانوا كافرين ﴾ أي في الدنيا بما جاءتهم به الرسل عليهم الصلاة والسلام .

﴿ ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ۞ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۞ (١٣٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ أي إنما

أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلاّ يؤآخذ أحد بظلمه، وهو لم تبلغه دعوة ولكن أعذرنا إلى الأمم ، وما عذّبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم . كما قال تعالى : ﴿ وإن من قرية إلاّ خلا فيها نذير ﴾ والآيات في هذا كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ بظلم ﴾ أي ذلك من أجل﴿أنْ لم يكن ربُّك مهلكَ القرى بظلم وأهلها ﴾بالشرك ونحوه وهم﴿غافلون﴾أي لم يكن ليعاجلهم بالعقوبة ، حتى يبعث إليهم رسولاً ينبههم على حجج الله عليهم ، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم ، ولن يؤاخذهم غفلةً ، حتى لا يقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير . وقوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله ، يثيبه الله عليها خيراً كان أو شراً ، قاله ابن جرير .

قلت ويحتمل أن يعود قوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي من كافري الجن والإنس أي ولكل درجة في النار بحسبه ، كقوله تعالى : ﴿ قال لكل ضعف ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ قال ابن جرير أي وكل ذلك من أعمالهم ويثبتها لهم عنده ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ، ومعادهم إليه .

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ۝ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۝ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ ۝ (١٣٥) ﴾

يقول تعالى: ﴿ وربك ﴾ يا محمد ﴿ الغني ﴾ عما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه، ﴿ ذو الرحمة ﴾ أي وهو مع ذلك رحيم بهم. كقوله تعالى: ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن يشأْ يذهبْكم ﴾ إذا خالفتم أمره ﴿ ويستخلفْ من بعدكم ما يشاء ﴾ أي قوماً آخرين يطيعونه ﴿ كما أنشأكم من ذرية قومٍ آخرين ﴾ أي كما أذهب القرون الأولى وأتى بمن بعدها كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بغيرهم، كما قال تعالى : ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولّوا يستبدلْ قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ إنَّ ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي هو قادر على إعادتكم إن صرتم تراباً ولا يعجزه شيء ، روى ابن أبي حاتم في تفسيرها عن أبي سعيد الخدري (رض) ، عن النبي ﷺ أنه قال ٢٤٤ [يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذي نفسي بيده إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين] . وقوله تعالى : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون ﴾ هذا تهديد شديد ووعيد أكيد أي استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هُدَى فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي أتكون لي أولكم ، وقد أنجز الله موعده لرسوله صلوات الله وسلامه عليه وإنه تعالى مكّنه في البلاد وحكّمه في نواصي مخالفيه من العباد وفتح له مكة واستقر أمره على سائر جزيرة العرب واليمن والبحرين وكل ذلك في حياته ، ثم فتحت الأمصار بعد وفاته في أيام خلفائه (رض) عنهم أجمعين ، كما قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ الآية ... وقد فعل ذلك رب العالمين بهذه الأمة المحمدية وله الحمد والمنة أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً [(١)]

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ (١٣٦) ﴾

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً ، وجعلوا لله شركاء وجزءاً من خلقه وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى . ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعلوا

(١) قلت : هذا لما كان المسلمون دولة واحدة تحكم بما أنزل الله ، وكان الحكام يتحرون في كل أحكامهم مرضات الله تعالى في السر والعلن ، لكن لما بدلوا مناهجهم واستبدلوها بأحكام الكفار بدلا من أحكام الله ، رفع الله هيبتهم من قلوب أعدائهم ، فاجترأوا عليهم ، واحتلوا بلادهم ، وأصبحوا أذلاء ليس لهم دولة ، فإن أرادوا عودة ما كانوا عليه في الزمن الأول فعليهم الرجوع إلى الله حتى يبدلهم بعد خوفهم أمناً .

لله مما ذرأ﴾ أي مما خلق ﴿من الحرث﴾ أي من الزروع والثمار ﴿والأنعام نصيباً﴾ أي جزءً وقسماً ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ وقوله تعالى: ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾. قال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية ما ملخصه: إن ما يحصل عند المشركين من زروع أو ثمار جعلوه بين الله والوثن. فيحفظون نصيب الوثن ويحصونه. وإن سقط مما كان لله شيء ردوه الى ما جعلوه للوثن، واذا سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً مما جعلوه لله، جعلوه للوثن، وإذا اختلط ثمرٌ أو زرعٌ فيما ما جعلوه لله وجعلوه للوثن، جعلوه للوثن وقالوا هذا فقير. وان سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن. وكانوا يحرّمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه قربةً إلى الله، فقال الله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي ساء ما يقسمون فانهم أخطأوا أولاً في القسم من أساسه لأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه، ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة، لم يحفظوها بل جاروا فيها كقوله جل وعلا: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ وقال: ﴿تلك إذا قسمةٌ ضيزى﴾

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۞ (١٣٧) ﴾

يقول تعالى وكما زيّنت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار.

وقوله تعالى: ﴿ليُرْدُوهم وليَلْبِسوا عليهم دينهم﴾ أي أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات فيهلكوهم، كقوله تعالى: ﴿وإذا الموْؤودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾ وليلبسوا عليهم دينهم، أن يخلطوا عليهم دينهم. وقوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ أي كل هذا واقع بمشيئته تعالى، وإرادته كوناً [1] والحكمة التّامة في ذلك. وقوله تعالى:

---

(١) قلت: نعم ولو شاء ما فعلوه لأنه سبق أن أنذرهم بأن لا يفعلوا ونهاهم عن ذلك فلا يمكن أن يجبرهم على فعل الشر - مع قدرته على منعهم من عمله وفعله - ولكنه لا يمنعهم لاختبارهم وابتلائهم هل يطيعون أوامره بعدم قتل الأولاد وعدم جعل قسم من قربهم أو أنعامهم لغير الله؟ فإن أطاعوا أوامره دخلوا الجنة، وإن عصوه دخلوا النار. ولذلك لم يشأ أن يمنعهم حتى يكونوا مختارين في فعل الخير أو الشر ليكونوا مستحقين نعيمه أو عذابه بما اختاروا من عمل.

﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ أي فدعهم واجتنبهم وما هم فيه ، فسيحكم الله بينك وبينهم يوم القيامة أو في الدنيا بتسليطك عليهم ، أو بجماع الأمرين .

﴿ وَقَالُوا هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * (١٣٨) ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الحِجْرُ : الحَرَامُ مما حرّموا الوصيلة وتحريم ما حرموا . وقال قتادة : ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر ﴾ تحريم كان عليهم من الشياطين في أموالهم وتغليظ وتشديد ، ولم يكن من الله تعالى . وقال ابن زيد بن أسلم ﴿ حجر ﴾ إنما احتجروها لآلهتهم . وقال السدي ﴿ لا يطعمها إلاّ من نشاء بزعمهم ﴾ يقولون حرام أن يطعم إلاّ من شئنا وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام [١] ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ وهذه هي الأنعام التي حرمت ظهورها وكان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها ، لا إنْ رُكبوا ، ولا إنْ حلُبوا ، ولا إن حـُمـّلوا ، ولا إنْ نـَتجوا ولا إنْ عملتْ شيئاً ﴿ افتراءً عليه ﴾ أي على الله وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه فإنه لم يأذنْ لهم بذلك ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ أي عليه ، ويسندون إليه .

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * (١٣٩) ﴾

---

(١) قلت : البحيرة هي ، التي يمنع درُّها للطواغيت فلا يحلبها الناس . والسائبة : كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل إن وصلت أحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر . والحام : فحل الإبل إذا قضى ضرابه ، دعوه للطواغيت .

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وقالوا ما في بطون هذا الأنعام خالصة لذكورنا ﴾ فهو اللبن ، ﴿ ومحرم على أزواجنا ﴾ ، ويشربه ذكرانهم ، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة ، فهم فيه شركاء فنهى الله عن ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ أي قولهم الكذب في ذلك يعني كقوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب * إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ ﴿ إنه حكيم ﴾ في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿ عليم ﴾ بأعمال عباده من خير وشر ، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء .

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٤٠)

يقول تعالى قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيّقوا عليهم في أموالهم فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، وأما في الآخرة ، فيصيرون إلى أسوإ العذاب بكذبهم على الله وافترائهم كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية عن ابن عباس (رض) قال : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب – المشركين – فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين ﴾ وهكذا رواه البخاري

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٤٢)

يقول تعالى مبيناً أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام ، التي تصرّف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة ، وقسموها وجزؤوها ، فجعلوا منها حراماً وحلالاً ، فقال تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : معروشات مسموكات ــ أي عاليات ــ وقال عطاء عن ابن عباس : معروشات ما عرش من الكرم ، وغير معروشات ما لم يعرش من الكرم وقوله تعالى : ﴿ متشابهاً وغير متشابه ﴾ قال ابن جريج متشابهاً في المنظر ومختلفاً في الطعم .وقوله تعالى : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ أي من رطبه وعنبه وقوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال ابن جرير : قال بعضهم هي الزكاة المفروضة ، وهذا مروي أيضاً عن أنس بن مالك (رض) وابن عباس (رض) .

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله ٢٤٥ : [إن النبي ﷺ أمر من كل جاذ عشرة أوسق من التمر بقنو يعلّق في المسجد للمساكين] وهذا إسناد جيد قوي .

وقال الحسن البصري : هي الصدقة من الحب والثمار . وقال آخرون : وهو حق سوى الزكاة وعن ابن عمر في قوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة رواه ابن مردويه وعن عبدالله بن المبارك عن عبد الملك بن أبي سلمان عن عطاء بن أبي رباح في هذه الآية قال يعطى من حضره يومئذ ما تيسر وليس بالزكاة وكذا قال جماعة من التابعين وغيرهم ، وقال آخرون : هذا شيء ، كان واجباً ثم نسخه الله بالعُشر أو نصف العُشر حكاه ابن جرير عن ابن عباس ومحمد بن حنفية وابراهيم النخعي والحسن والسدي واختاره ابن جرير رحمه الله (قلت) وفي تسمية هذا نسخاً نظر ... لأنه قد كان شيئاً واجباً في الأصل ثم إنه فُصّل بيانه وبيّن مقدار المخرج وكميته ، وقالوا : وكان هذا في السنة الثامنة من الهجرة [١] وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة ﴿ ن ﴾ : ﴿ إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين ولا يستثنون ــ إلى قوله ــ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ قيل في تفسير هذه الآية أقوال شتى ثم اختار ابن جرير قول عطاء : أنه نهى عن الإسراف في كل شيء ، ولا شك أنه

(١) قلت : الراجح والله أعلم أن هذه الآية الكريمة كان حكمها قبل الزكاة ثم لما فرضت الزكاة حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنطة والشعير والتمر والزبيب وفي رواية الذرة ولا بأس أن يعطى من كل ما تنبت الأرض صدقة منه كالقبضة وما يشبه .

صحيح ولكن الظاهر والله أعلم من سياق الآية حيث قال تعالى : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا ﴾ أن يكون عائداً على الأكل أي لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن كقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ وفي صحيح البخاري تعليقاً : ٢٤٦ [كلوا واشربوا والبسوا من غير إسرافٍ ولا مخيلة] وهذا من هذا والله أعلم .

وقوله عز وجل : ﴿ ومن الأنعام حمولةً وفرشاً ﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحمولة ما تركبون ، والفرش ما تأكلون وتحلبون ، شاة لا تحمل تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفراشاً . وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾

وقوله تعالى : ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ أي من الثمار والزروع والأنعام فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أي طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله ، أي من الثمار والزروع افتراءً على الله ﴿ إنه لكم عدو ﴾ كما قال تعالى: ﴿ إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ وقوله تعالى: ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر العداوة ، كقوله تعالى: ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌ بئس للظالمين بَدلاً ﴾ .

ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۞ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّـٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام ، فيما كانوا حرّموا من الأنعام ، وجعلوها أجزاء وانواعاً : بحيرة وسائبة ووصيلةً وحاماً ، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار . فبين تعالى أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً ، وبين أصناف الأنعام : الغنم والماعز ذكوراً وإناثاً والإبل ذكورها واناثها والبقر كذلك . وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها بل كلها مخلوقة لبني آدم ، أكلاً وركوباً وحمولة وحلباً ، وغير ذلك من وجوه المنافع . وقوله تعالى : ﴿ قل آلذكرين حرم أم الأنثيين ﴾ يقول لم أحرّمْ شيئاً من ذلك ﴿ أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ يعني هل يشتمل الرحم إلاّ على ذكر وأنثى ، فلمَ تحرمون بعضاً وتحلّون بعضاً ؟ (١) ﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ (٢) أي كله حلال ، وقوله تعالى : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ﴾ تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله ما لم يحرمه ﴿ فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ﴾ أي لاأحد أظلم منه. ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ وأول من أضل في هذه الآية الكريمة : عمرو بن لحي بن قمعة ، لأنه أول من غيّر دين الأنبياء ، وأول من سيب السوائب ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي ، كما ثبت ذلك في الصحيح ...

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ ١٤٥ ﴾

(١) أي : أم أنه حرم الذي هو في أرحام الأنثيين أي أولادهما ؟ والمراد أنه تعالى ما حرم شيئاً .
(٢) أي أخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه ؟ والمراد أيضاً أنه تعالى ما حرم شيئاً وكل ما تقدم من المعاني التي فيها أسئلة لهم ، إنما هي أسئلة استنكارية فيها معاني الرد عليهم وتوبيخهم على ما زعموه وعلى شدة إفترائهم عليه تعالى ، فما أظلمهم لأنفسهم وأبعدهم عن الهداية .

يأمر تعالى عَبده ورسولَه محمداً ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين حرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله : ﴿ لا أجد فيما أوحي إليّ محرّماً على طاعم يطعمه ﴾ أي آكل يأكله . والمعنى : لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه . فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة ، وفي الأحاديث الواردة ، رافعاً لمفهوم هذه الآية [١] ومن الناس من يسمي هذا الرفع نسخاً والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً لأنه من باب رفع مباح الأصل والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ أي مهراقاً ، قال قتادة : حرم من الدماء ما كان مسفوحاً ، فأما اللحم خالطه الدم فلا بأس به .

روى ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون اشياء ويتركون أشياء تقذراً ، فبعث الله نبيّه وأنزل كتابه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، فما أحلّ فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس ، قال :٢٤٧ (ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت يا رسول الله ماتت فلانة تعني الشاة ، قال « فلم لا أخذتم مسكها » [٣] قالت : نأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ ! فقال لها رسول الله ﷺ « إنما قال الله : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلاّ أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ﴾ وإنكم لا تطعمونه أن تدبغوه فتنتفعوا به . فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته فاتخذت منه قربة حتى تخرّقت عندها] ورواه البخاري والنسائي .

روى سعيد بن منصور عن نميلة الفزاري قال : ٢٤٨ [كنت عند ابن عمر فسأله رجل عن أكل القنفذ فقرأ عليه : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي ... ﴾ الآية فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول ذكر عند النبي ﷺ فقال : « خبيث من الخبائث » فقال ابن عمر : إن كان النبي ﷺ قاله فهو كما قال .] ورواه ابو داود .

وقوله تعالى﴿ أهلّ لغير الله به ﴾أي ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ، ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له وذكر القرطبي عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصري :انه سئل عن امرأة عملت عرساً للعبها فنحرت فيه جزوراً ،فقال: لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم . وعن عائشة : ما يذبحه العجم لأعيادهم فلا تأكلوا منه

(١) قلت : « قوله رافعاً لمفهوم هذه الآية » يعني أن مفهومها مؤداه أنه ليس هناك ما يحرم طعامه إلا ما ورد في هذه الآية ، ولما كانت سورة المائدة نزلت بعد الأنعام وفيها قوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة » إلى آخر الآية أي زيادات على ما حرمت آية الأنعام فهذه الزيادات وما ورد أيضاً من الأحاديث في ذلك يرفع مفهوم آية الأنعام فلا يبقى ما ورد فيها فقط محرماً ، إنما هناك محرمات أخرى وليرجع القارىء الكريم إلى آية المائدة رقم (٣) من هذا المختصر يجد الزيادات المحرمة . (٣) مسكها أي جلدها .

وقوله تعالى : ﴿ فمن اضطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ ﴾ أي فمن اضطُر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية غير متلبس ببغي ولا عدوان ﴿ فإن ربَّك غفور رحيم ﴾ أي غفور له رحيم به ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية .(١)

والغرض من سياق هذه الآية الكريمة ، الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم ، فمن اين حرموه ولم يحرمه الله ، إنما حرم ما أمر الله رسوله ﷺ أن يبلغهم تحريمه من نص هذه الآية ، وما عدا ذلك ، إنما هو عفو مسكوت عنه . كما جاء النهي أيضاً في السُنّة عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع ، وكل ذي مِخْلَبٍ من الطَّيْرِ على المشهور من مذاهب العلماء .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (١٤٦)

قال ابن جرير يقول تعالى وحرّمنا على اليهود كل ذي ظفر . وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنّعام والأوزّ والبط . قال ابن جريج عن مجاهد : كل ذي ظفر ، قال : النعامة والبعير شقاشقاً ، قلت للقاسم بن أبي بزة وحدثته ما شقاشقاً ؟ قال : كل ما لا ينفرج من قوائم البهائم ، قال وما انفرج أكلته ؟ قال انفرجت قوائم البهائم والعصافير قال : فيهود تأكله ، قال ولم تنفرج قائمة البعير ـ خفّه ـ ولا خف النعامة ولا قائمة الوز فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعامة ولا الوز ولا كل شيء لم تنفرج قائمته ، ولا تأكل حمار الوحش .

وقوله تعالى : ﴿ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ قال السدي يعني الثَّرْب(٢) وشحم الكليتين وقوله تعالى : ﴿ إلاّ ما حملت ظهورهما ﴾ أي ما علق بالظهر من الشحوم، والإلية مما حملت ظهورهما قاله السدي وأبو صالح وقوله تعالى : ﴿ أو الحوايا ﴾ الحوايا جمع واحدها حاوياء وحاوية وحويّة وهو ما تحوّى من البطن فاجتمع واستدار وهي بنات اللبن وهي المباعر وتسمى المرابض وفيها الأمعاء قال ومعنى الكلام : ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورهما وما حملت الحوايا ـ أي من الشحم ـ

(١) راجع الآية رقم /١٧٣/ من سورة البقرة . (٢) الشحم الذي على المعدة والأمعاء .

وقوله تعالى : ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ يعني إلا ما اختلط من الشحوم بعظم كالعصعص وكل شيء في القوائم . والجَنْب والرأس والعين فهو حلال . وقوله تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ أي هذا التضييق إنمّا ألزمناهم به مجازاةً لهم على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا .كما قال تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلتْ لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وإنا لصادقون ﴾ أي وإنا لعادلون فيما جازيناهم به . روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال :٢٤٩ [كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد مستقبلاً الحجْر فنظر إلى السماء فضحك فقال : ﴿ لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه ﴾]

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ❁ (١٤٧)

يقول تعالى : فإن كذّبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم ، ﴿ فقل : ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله ﴿ ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين . وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن كما قال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ❁ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ❁ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ❁ (١٥٠)

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى ، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا. فان الله مطلع على ما هم فيه من الشرك . والتحريم لما حرّموه وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ، ويحول بيننا وبين الكفر ، فلم يغيره فدل على أن بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك ولهذا قالوا : ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ كما في قوله تعالى : ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ الآية قال الله تعالى : ﴿كذلك كذّب الذين من قبلهم﴾ أي بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة ، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ، ودمّر عليهم . وأذاقهم أليم انتقامه . ﴿قل هل عندكم من علم﴾ أي بأن الله راضٍ عنكم فيما أنتم فيه ﴿فتخرجوه لنا﴾ أي فتظهروه لنا ﴿إنْ تتبعون إلاّ الظن﴾ أي الوهم والخيال ، والمراد بالظن ها هنا . الاعتقاد الفاسد ﴿وإن أنتم إلاّ تخرصون﴾ أي تكذبون على الله فيما ادّعيتموه . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾ وقال ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ ثم قال : ولو شاء الله ما أشركوا فإنهم قالوا : عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى فأخبرهم الله أنها لا تقربهم . فقوله تعالى : ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾ يقول تعالى لو شئت لجمعتهم على الهدى اجمعين .

وقوله تعالى ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ أي له الحكمة التامة . والحجة البالغة . في هداية من هدي ، وإضلال من ضل . ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره . وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين . ويبغض الكافرين. كما قال تعالى : ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض﴾ وقوله تعالى : ﴿قل هلمَّ شهداءكم﴾ أي احضروا شهداءكم ﴿الذين يشهدون أن الله حرّم هذا﴾ أي هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ أي لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي يشركون ويجعلون له عديلاً .

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾

روى داود الأودي عن ابن مسعود رضي الله عنـه قال :٢٥٠ [من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه ، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربُّكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً – إلى قوله تعالى لعلكم تتقون ﴾]

وروى الحاكم في مستدركه ، من حديث يزيد بن هارون عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٥١[أيكم يبايعني على ثـلاث ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ قلْ تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم ﴾ حتى فرغ من الآيات . فمن وفىّ فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته ، ومن أُخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وان شاء عفا عنه »] ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وانمـا اتفقا على حديث الزهري عن أبي أدريس عن عبـادة : ٢٥٢ [بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ...] الحديث وقد روي سفيان بن حسين كلا الحديثين ، فلا ينبغي أن ينسب إلى الوهم في أحد الحديثين اذا جمع بينهما ، والله أعلم .

أما تفسيرها فيقول تعالى لنبيّه ورسوله محمد ﷺ قل : يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله وحرّموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم ، وكل ذلك فعلوه بآرائهـم وتسويل الشياطين لهم ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ تعالوا ﴾ أي أقبلوا ﴿ أتل ما حرّم ربّكم عليكم ﴾ أي أخبركم بما حرم ربكم عليكم ﴿ ألاّ تشركوا به شيئاً ﴾ وتقديره أوصاكم أن لا تشركوا به شيئاً ولهذا قال تعالى في آخر الآية ﴿ ذلكم وصّاكم به ...﴾

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٢٥٣ [أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة ، قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال وان زنى وان سرق قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر] وفي بعض الروايات أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود ٢٥٤ [من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة .] وروى ابن مردويه من حديث عبادة وأبي الدرداء ٢٥٥ : [ألاّ تشركوا بالله شيئاً وإن قُطعتم أو صُلبتم أو حُرّقتم]

وقوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أي أوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً أي أن تحسنوا إليهم ، والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قال تعالى ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين والآيات في هذا كثيرة .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود (رض) أنه قال ٢٥٦ [سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال «الصلاة على وقتها» قلت ثم أي؟ قال «بر الوالدين»قلت: ثم أيٌّ ؟قال «الجهاد في سبيل الله» ثم قال ابن مسعود حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني.]

وقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد ، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد فقال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ ﴾ أي خشية الفقر ولهذا قال تعالى : ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ أي كل ذلك على الله ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ...﴾ وقد تقدم تفسيرها عند قوله تعالى : « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » [1]

وفي الصحيحين عن ابن مسعود (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٢٥٧ : [لاأحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن] وقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً ، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن . فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٢٥٨ [لا يحل دم امرىءٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة] وقد جاء النهي والزجر والوعيد ، في قتل المعاهد ، وهو : المستأمن من أهل الحرب. فروىٰ البخاري عن عبدالله بن عمرو (رض) عن النبي ﷺ مرفوعاً : ٢٥٩ [من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً] وقوله تعالى : ﴿ ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون ﴾ أي هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون على الله أمره ونهيه .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ (١٥٢) ﴾

---

(١) راجع الآية رقم /١٢٠/ من هذه السورة .

لما نزلت هذه الآية وآية : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴾ انطلق كل من عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله او يفسد فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإنْ تخالطوهم فإخوانكم ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم رواه أبو داود عن ابن عباس ، وقوله تعالى : ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ يعني حتى يحتلم [1] وقوله تعالى﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء كما توعد على تركه في قوله تعالى : ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ۞ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ وقد أهلك الله أمةً كانت تبخس المكيال والميزان وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لا نكلف نفساً إلاّ وسعها ﴾ أي من اجتهد في اداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده ، فلا حرج عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا إعدلوا هوأقرب للتقوى ﴾وقوله تعالى:﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ قال ابن جرير : يقول : وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا . وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه وتعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ وذلك هو الوفاء بعهد الله ﴿ ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون ﴾ أي هذا الذي أكّد عليكم فيه لعلكم تتعظون وتنتهون عمّا كنتم فيه قبل هذا .

وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ (١٥٣)

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله ، ونحو هذا ، قاله مجاهد وغير واحد .

روى الإمام أحمد بن حنبل عن عبدالله بن مسعود (رض) قال .٢٦: [خط رسول

(١) قلت : الاحتلام وحده لا يكفي بل حتى يكون راشداً لأن معنى يبلغ أشده : يعني في جسمه وعقله. والله تعالى أعلم.

الله ﷺ خطاً بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، وخطّ عن يمينه وشماله ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلاّ عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ : ﴿ وإنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ﴾] وكذا رواه الحاكم وقال صحيح ولم يخرّجاه . وروى ابن مردويه عن ابن عمر أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الصراط المستقيم فقال ابن مسعود : تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ﴾ إنّما وحّد سبيله لأن الحق واحد ، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها . كما قال تعالى : ﴿ الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وروى ابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ ٢٦١ [أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ . ثم تلا : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ حتى فرغ من ثلاث آيات ثم «قال : ومن ، وفىَّ بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته ومن أخّره إلى الآخرة كان أمره الى الله ان شاء أخذه وإن شاء عفا عنه] .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى ٱلَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۞ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ (١٥٥) ﴾

إنَّ « ثمَّ » ها هنا لعطف الخبر بعد الخبر لا للترتيب هاهنا كما قال الشاعر :

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ... ثم قد ساد قبل ذلك جدُّه

وهاهنا لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها ، فقال تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة ، كقوله تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً ﴾ وقوله تعالى ﴿ تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً ﴾ أي آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لما يحتاج إليه في شريعته جزاءً على إحسانه في العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله تعالى : ﴿ هل

جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة ﴾ فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه ﴿ لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ، وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾ فيه الدعوةُ الى اتباع القرآن. يرغّب سبحانه عباده في كتابه ويأمرهم بتدبّره والعمل به والدعوة إليه . ووصفه بالبركة ، لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة لأنه حبل الله المتين .

﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ ٱلْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) ❁ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ❁ (١٥٧) ﴾

قال ابن جرير : معناه وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا ﴿ إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ يعني لينقطع عذركم كقوله تعالى : ﴿ ... لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ على طائفتين من قبلنا ﴾ قال ابن عباس وغيره اليهود والنصارى . وقوله تعالى : ﴿ وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ أي وما كنا نفهم ما يقولون لأنهم ليسوا بلساننا ونحن في غفلةٍ وشغل مع ذلك عما هم فيه

وقوله تعالى : ﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنّا أهدى منهم ﴾ أي وقطعنا تعلّلكم أن تقولوا لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أوتوه ﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ أي جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه .

وقوله تعالى: ﴿ فمن أظلم ممن كذّب بآيات الله وصدف عنها ﴾ أي لم ينتفع بما جاء به الرسول ، ولا اتبع ما أرسل به ، ولا ترك غيره بل صدف عن اتباع آيات الله، أي صرف الناس وصدهم عن ذلك . قال السدي : كما قال الله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن

سبيل الله ، زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ ثم قال ﴿ سنَجزي الـّذين يَصدِفون عن آياتِنا سُوءَ العذاب بما كانوا يَصدِفونَ ﴾ أي بسبب كفرهم وصدّهم الناسَ عن الإيمان .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَٰئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ (١٥٨)

يتوعد الله الكافرين به وبرسله ، والصادّين عن سبيله : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ﴾ وذلك كائن يوم القيامة ﴿ أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئاً من أشراط الساعة ، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٢٦٢ [لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها »] فذلك حين ﴿ لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل ﴾ .

وروى ابن جرير عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٢٦٣ [ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً ايمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض] ورواه أحمد ومسلم .

وفي الصحيحين عن أبي ذر جندب بن جنادة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٢٦٤ : [أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت قلت لا أدري قال : « إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة ثم تقوم حتى يقال لها ارجعي فيوشك يا أباذر أن يقال لها ارجعي من حيث جئت] وذلك حين ﴿ لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل ﴾

روى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال ٢٦٥ : [أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى بن مريم وخروج الدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق

وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا »] وهكذا رواه مسلم ، وأهل السنن الأربعة .

روى الثوري عن حذيفة بن اليمان قال٢٦٦ : [سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ما آية طلوع الشمس من مغربها ؟ فقال النبي ﷺ « تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين فينتبه الذين كانوا يصلون فيها فيعملون كما كانوا يعملون قبلها ، والنجوم لا ترى قد غابت من مكانها ثم يرقدون ثم يقومون فيصلون ثم يرقدون ثم يقومون تبطل عليهم جنوبهم حتى يتطاول عليهم الليل فيفزع الناس ولا يصبحون . فبينما هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها ، إذ طلعت من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم »] رواه ابن مردويه وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه – والله أعلم – فقوله تعالى : ﴿ لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ أي إذا أنشأ الكافر ايماناً يومئذ لا يقبل منه. فأما من كان مؤمناً قبل ذلك فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبةً حينئذ لم تقبل منه توبته ، كما دلت عليه الأحاديث الكثيرة المتقدمة وعليه يحمل قوله تعالى : ﴿ أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ أي ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك . وقوله تعالى : ﴿ قل انتظروا إنا منتظرون ﴾ أي تهديد شديد للكافرين ، ووعيد أكيد لمن سوّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها ، لاقتراب الساعة وظهور اشراطها كما قال تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتةً فقد جاء أشراطها فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١٥٩)

إن هذه الآية عامةٌ في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق فمن اختلف فيه ﴿كانوا شيعاً﴾ أي فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برّأ رسوله ﷺ مما هم فيه ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين

ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك﴾ الآية . وفي الحديث٢٦٧ [نحن معاشر الأنبياء، أولاد علاّت ديننا واحد [١]] فهذا هو الصراط المستقيم ، وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له ، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر ، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات ، وآراء وأهواء ، والرسل برآء منها كما قال تعالىٰ : ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ وقوله تعالى : ﴿إنّما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ كقوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾ الآية . ثم بين لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى :

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ● (١٦٠)﴾

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى : ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ [٢] وقد وردت الأحاديث مطابقةً لهذه الآية كما روى الامام أحمد بن حنبل رحمه الله عن ابن عباس (رض) أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى ٢٦٨ [إن ربكم عز وجل رحيم. من همّ بحسنة فلم يعملها ، كتبت له حسنة. فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة . ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة ، أو يمحوها الله عز وجل ولا يهلك على الله إلا هالك] ورواه البخاري ومسلم والنسائي واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام : تارةً يتركها لله فهذه تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى . وهذا عمل ونيةٌ ، ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة كما جاء في بعض الفاظ الصحيح ، فإنما تركها من جرائي أي من أجلي . وتارةً يتركها نسياناً وذهولاً عنها فهذا لا له ولا عليه لأنه لم ينو خيراً ، ولا فعل شراً ، وتارة يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعي في أسبابها ، والتلبس بما يقرب منها ، فهذا بمنزلة فاعلها كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال ٢٦٩ : [إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه »]

---

(١) إن أولاد العلات هم الأخوة من أب واحد وأمهات شتى . (٢) من سورة النحل . الآية /٨٩/

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ ٢٧٠ : [الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام ، وذلك لأن الله تعالى قال : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾] والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً وفيما ذكر كفاية إن شاء الله وبه الثقة .

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يخبر بما أنعم عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿ ديناً قيماً ﴾ أي قائماً ثابتاً ﴿ ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه ﴾ ولا يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملة ابراهيم الحنيفية ، أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها ، لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً . وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال ، ولهذا كان خاتم الأنبياء ، وسيد ولد آدم على الإطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل عليه السلام . وقد روى ابن مردويه عن ابن أبزى عن أبيه قال : [كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال٢٧١ : [« أصبحنا على ملة الاسلام ، وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »]

وقوله تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ، ويذبحون لغير اسمه ، انه مخالف لهم في ذلك ، فإن صلاته لله ، ونسكه على اسمه وحده لا شريك له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ أي أخلص له صلاتك وذبحك لله وحده لا شريك له . والنسك هو الذبح .

وقوله عز وجل : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ قال قتادة : أي من هذه الأمة ، وهو كما قال فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا اله إلاّ أنا فاعبدون ﴾ وهكذا فإنه تعالى أخبر أنه بعث رسله بالإسلام ولكنهم متفاوتون فيه

بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ ، التي لا تنسخ أبد الآبدين ، ولا تزال قائمة منصورة ، وأعلامها منشورة ، إلى قيام الساعة . ولهذا قال النبي ﷺ [نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد] فإن أولاد العلات هم الأخوة من أب واحد وأمهات شتى . فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات ، كما أن أخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباء شتى ، والأخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة . والله أعلـــم .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) ﴾

في هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل ، كما تضمنت التي قبلها ، إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له فيقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ أغير الله أبغي ربًّا ﴾ أي أطلب رباً سواه ﴿ وهو رب كل شيء ﴾ أي لا أتوكل إلاّ عليه ، ولا أنيب إلا إليه لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر ، ومعنى العبادة والتوكل كثيراً ما يـــأتي مقروناً بالآخر في القرآن كقوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾

وقوله تعالى: ﴿ ولا تكسب كل نفس إلاّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي إنّما تجازى كل نفس بأعمالها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد وهذا من عدله تعالى كقوله سبحانه : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ أي كل نفس مرتهنة بعملها السيء ، وكقوله تعالى : ﴿ وإن تدعُ مثلقة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ أي اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه ، فستعرضون ونعرض عليه ،وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا تختلف فيه في الدار الدنيا كقوله تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * (١٦٥) ﴾

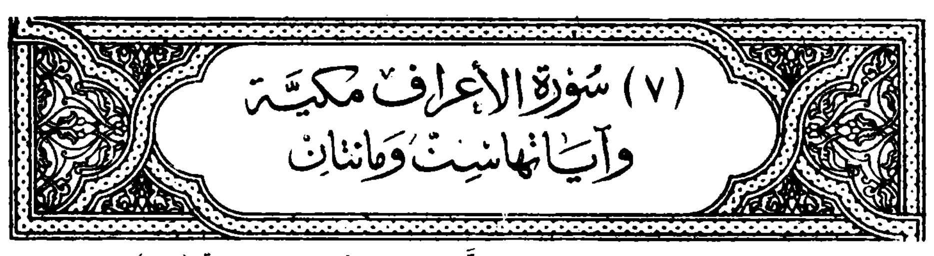
يقول تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ أي جعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل وخلفاً بعد سلف كقوله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك كقوله تعالى : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به . ليختبر الغني في غناه . ويسأله عن شكره . والفقير في فقره ويسأله عن صبره . وفي صحيح مسلم من حديث ابي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٢٧٢ إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . فإن أول فتنة بني اسرائيل كانت في النساء]

وقوله تعالى : ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع ، فيمن عصاه وخالف رسله ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خبر وطلب . وكثيراً ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله تعالى : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم . وإن ربك لشديد العقاب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر . وترك ما عنه نهى وزجر ، وصدقه فيما أخبر انه سميع مجيب الدعاء . وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ٢٧٣ : [جعل الله الرحمة مائة جزء : فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه] آخر اختصار تفسير سورة الأنعام ولله الحمد والمنة .

---

(١) راجع التعليق على قوله تعالى : « اني جاعل في الأرض خليفة » في الآية رقم /٣٠/ من سورة البقرة .



إلاّ من آية ١٦٣ ـ ١٧٠ فمدنيّة . وقد نزلت بعد سورة (ص)

بسم الله الرحمن الرحيم

حزب ١٦

﴿ الٓمٓصٓ * (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * (٣) ﴾

قد تقدم في أول سورة البقرة فيما يتعلق بالحروف المقطعة، وبسطه، واختلاف الناس فيه.
وقوله تعالى : ﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ أي هذا الكتاب أنزل إليك من ربك ، ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ أي لا تتحرّج به في ابلاغه والأنذار به ﴿ فأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ لتنذر به ﴾ أي تنذر به الكافرين ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ ثم قال تعالى مخاطباً العالم أجمع : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ أي اقتفوا آثار النبي الأمي ، الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ أي لا تخرجوا عما جاء به هذا القرآن إلى حكم غيره ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس لو حرصت بمؤمنين ﴾

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ * (٧) ﴾

يقول الله تعالى: ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ بسبب مخالفتهم رسلنا وتكذيبهم، فجوزوا بخزي الدنيا وذل الآخرة. كما قال تعالى: ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الاّ قليلاً وكنّا نحن الوارثين ﴾

وقوله تعالى: ﴿ فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴾ أي فجاءهم العذاب والنقمة، ليلاً أو وقت القيلولة. وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال تعالى: ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾. وقوله تعالى: ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلاّ أن قالوا إنا كنّا ظالمين ﴾ أي اعترفوا بذنوبهم عند مفاجأة العذاب الذي هم حقيقون به كقوله تعالى: ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة – إلى قوله تعالى – خامدين ﴾ قال ابن جرير: في هذه الآية: الدلالة الواضحة، على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ ٢٧٤ [ماهلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم] وقوله ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ كقوله تعالى: ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علاّم الغيوب ﴾ أي فيسأل الله الأمم عما أجابوا الرسل فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل عن ابلاغ رسالاته.

روى ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ ٢٧٥ [كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته، والرجل يسأل عن أهله، والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده،] وقوله تعالى: ﴿ فلنقصّنّ عليهم بعلم ﴾ أي على الرسل والمرسل اليهم، ما وقع بينهم، عالمين بما يسرون وما يعلنون.

ويوضع الكتاب فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿ وما كنا غائبين ﴾ أي إن الله تعالى هو الشهيد على كل شيء. لا يغيب ولا يغفل، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ * (٩) ﴾

يقول تعالى: ﴿ والوزن ﴾ أي للأعمال يوم القيامة ﴿ الحق ﴾ أي لا يظلم تعالى أحداً. كقوله تعالى: ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن

كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ . والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قبل الأعمال ، وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً ، قال البغوي ، يروي نحو هذا عن ابن عباس كما جاء في الصحيح من ٢٧٦ [ان سورتي البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف]وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر ٢٧٧ [... فيأتي المؤمن شابٌ حسن اللون ، طيب الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح] وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق . وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة [1] وقيل يوزن صاحب العمل كما في الحديث في مناقب عبدالله بن مسعود [إن النبي ﷺ قال ٢٧٨ [أتعجبون من دقّة ساقيه ، والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أُحُدٍ] [2] وذلك كلّه صحيح فتارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالُّها ، وتارة يوزن فاعلها . والله تعالى أعلم .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ (١٠)

يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكّن لهم ، من أنه جعل الأرض بما فيها من الخيرات والمكاسب والمنافع أسباباً لمعايشهم ، وأكثرهم مع هذا التفضل منه سبحانه ، قليل الشكر على ذلك . كقوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ وقد قرأ الجميع معايش بلا همز وهو الصواب .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ ﴾ (١١)

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم ، ويبين لهم عداوة عدوّهم إبليس ، وما انطوى عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ويخالفوه فقال تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ﴾ أي لما خلق

(١) إشارة إلى (الرجل الذي له تسع وتسعون سجلا مد البصر ذنوباً ثم يؤتى له بتلك البطاقة وفيها (لا إله الا الله) فيقول يا رب ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ... فيقول تعالى : (إنك لا تظلم : فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فطاشت السجلات وثقلت البطاقة) .

(٢) هذه بشرى لابن مسعود بالجنة .

آدم عليه السلام بيده من طين لازب ، وصوره بشراً سوياً ، ونفخ فيه من روحه ، أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأنِ الله تعالى وجلالهِ ، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلاَّ إبليس لم يكن من الساجدين على أن المراد من قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ﴾ هو آدم وإنما قيل ذلك بالجمع ، لأنه أبو البشر كقوله تعالى : ﴿ وظلّلنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ لبني إسرائيل الذين كانوا بزمن النبي ﷺ ، ومراده تعالى آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام ، ولكن لما كان ذلك منَّةً على الآباء الذين هم أصل ، صار كأنه واقع على الأبناء .

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (١٢)

يقول تعالى : ﴿ ما منعك الاّ تسجد إذ أمرتك ﴾ ما ألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا . وقول إبليس لعنه الله : ﴿ أنا خير منه ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب يعني أنا أفضل منه فكيف تأمرني بالسجود له ؟ ثم بيّن أنه خير منه ، بأنه خلق من النار والنار أشرف من الطين الذي خلق منه آدم فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو خلق آدم بيده ، ونفخه فيه من روحه . فقاس لعنه الله قياساً واحداً وفاسداً ، بدعواه أن النار أشرف من الطين فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبّت ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح ، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة ، ولهذا خان ابليسَ عنصرُه ونفع آدمَ عنصرُه بالرجوع والإنابة والاستكانة والاستسلام لأمر الله تعالى والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة .

وفي صحيح مسلم عن عائشة (رض) قالت : قال رسول الله ﷺ ٢٧٩ [خُلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار . وخلق آدم مما وُصِفَ لكم]

وقال ابن جرير عن الحسن في قوله تعالى : ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ قال : قاس إبليس وهو أول من قاس ، إسناده صحيح وقال أيضاً عن ابن سيرين قال : إن أول من قاس ابليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس إسناد صحيح أيضاً .

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ

إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ ۞ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۞ (١٥)

يخاطب تعالى ابليس : فاهبط من منزلتك التي كنت فيها في الملكوت الأعلى ، لأن التكبر على أوامره تعالى ومخالفتها ، يناقض رفعة المنزلة التي لا تنال إلاّ بإخلاص الطاعة لوجهه الكريم فجزاء ذلك الخروج من الجنة صاغراً ذليلاً حقيراً كِفَاءَ تكبُّرِه .وهكذا فقد عومل بنقيض قصده وكوفىء على مراده بضده . وهذا عين العدل منه سبحانه ، ولما استدرك اللعين سأله تعالى تأجيلَ قبضه إلى يوم القيامة ، فأجابه تعالى إلى ما سأل وهو الحكيم الخبير .

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۞ (١٧)

يخبر تعالى أنه لما أنظر ابليس ، واستوثق بذلك الإنظار ، أخذ في المعاندة والتمرّد فقال : ﴿ فبما أغويتني لأقعدّن لهم صراطك المستقيم ﴾ أي أقسم بإغوائك لي ، لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ، وقيل كما أغويتني لأقعدن لعبادك من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه . والصراط المستقيم هو كل طرق الخير التي تؤدي إلى رضاه تعالى ، من إسلام وهجرة وجهاد وجميع الطاعات التي يرضى عنها سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ أي يأتيهم من كل وجه وجهة ، ليزلّ أقدامهم عن طرق الطاعات ، ويعدّد لهم الغوايات أشكالاً وألواناً ، حتى يوقعهم في المعاصي [١] .

وقيل من بين أيديهم ﴿ وعن أيمانهم ﴾ من حيث يبصرون ﴿ ومن خلفهم وعن شمائلهم ﴾ حيث لا يبصرون واختار ابن جرير : أن المراد جمع طرق الخير والشر ، فالخير يصدهم عنه والشر يحسِّنه لهم . وعن ابن عباس : ولم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل من

(١) قلت : ويبتدع لهم بدعاً ظاهرها الطاعة وباطنها المعصية ، فيعصون ربهم ولا يستغفرون لأنها طاعات في نظرهم كما زينها لهم الشيطان... حتى يموتوا عليها ، والعياذ بالله من شر الشيطان الرجيم .

فوقهم . وقوله تعالى : ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ أي موحدين . وقول إبليس هذا ، إنما هو ظن منه وتوهم . وقد وافق في هذا الواقع . كما قال تعالى : ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنّه فاتبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان إلاّ لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربّك على كل شيء حفيظ ﴾ ولهذا ورد في حديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها . كما روى الحافظ ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً : ٢٨٠ [اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي . وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بك اللهم ان أغتال من تحتي] قال وكيع : من تحتي يعني الخسف .

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ * (١٨) ﴾

أكّد الله تعالى على إبليس اللعنة والإبعاد والنفي عن الملأ الأعلى ، بقوله عز وجل ﴿ أخرج منها مذؤوماً مدحوراً ﴾ أي معيباً متقصياً مطروداً ، لعيناً ممقتاً ، وقوله تعالى : ﴿ لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنم منكم أجمعين ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ قال إذهب فمن تبعك منهم فإنّ جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾

﴿ وَيَا آدَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ * (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَالِدِينَ * (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ * (٢١) ﴾

أباح تعالى لآدم وزوجه حواء الجنّة ، أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدةً وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة ، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿ وقال ﴾ كذباً وافتراءً ﴿ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا مَلَكَيْن ﴾ أي لئلاتكونا ملكين ﴿ أو تكونا من الخالدين ﴾ أي هاهنا ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما ﴿ وقاسمهما ﴾ أي حلف لهم بالله ﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾ فإني من قبلكما هاهنا وأعلم بهذا المكان حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله . وكان بعض أهل العلم يقول : من خدعنا بالله انخدعنا له .

﴿ فَدَلَّـٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ * (٢٣) ﴾

روى سعيد بن أبي عروبة عن أُبَيْ بن كعب (رض) قال : كان آدم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق ، كثير شعر الرأس ، فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة ، بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها ، فانطلق هارباً في الجنة ، فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة فقال لها . أرسليني ، فقالت : إني غير مرسلتك فناداه ربه عز وجل يا آدم أمنّي تفر؟ قال يا رب إني استحيتك . وقوله تعالى : ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ وعن ابن عباس : أي ورق التين يلزقان بعضه إلى بعض بعد أن بدت لهما سوآتهما وقيل أن نوراً كان يحجب عورة كل منهما عن الآخر فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما فطفقا يخصفان ويستتران بورق الجنة .

روى عبد الرزاق عن قتادة قال : قال آدم أي رب أرأيت ان تبتُ واستغفرت قال : إذاً أدخلك الجنة وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة فأعطي كل واحد منهماالذي سأله ..

وقال الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه [١].

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۝ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝ (٢٥)﴾

المراد بالخطاب في ﴿اهبطوا﴾ آدم وحواء وإبليس. وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات والله أعلم بصحتها، ولو كان هناك كبير أمر أو فائدة من ذكر الأماكن لذكرها الله تعالى أو رسوله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ أي قرار وأعمار إلى أجل معلوم سطرت في الكتاب الأول وقال ابن عباس ﴿مستقر﴾ فوق الأرض وتحتها رواه أبو حاتم. وقوله تعالى: ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ كقوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ (٢٦)﴾

يمتّن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات وهي السوآت، والرياش والريش ما يتجمّل به ظاهراً، فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات. روى الإمام أحمد]٢٨١[عن علي (رض)، أنه أتى غلاماً حدثاً فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول حين لبسه: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري به عورتي، فقيل له: هذا شيء سمعتَه من رسول الله ﷺ أو ترويه عن نفسك؟ قال: هذا شيء سمعته من رسول الله

---

(١) قلت: وهذا هو الصحيح وذلك بخلاف من قال أن أسباب مغفرة الله لآدم هي توسله بمحمد صلى الله عليه وسلم وهذا مما لم يصح فيه شيء من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم راجع التعليق ص ٤٥ و ٤٦ من المجلد الأول الآية رقم /٣٧/ من سورة البقرة.

ﷺ يقول عند الكسوة : « الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري به عورتي »]

وقوله تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ اختلف المفسرون في معناه ، فقال عكرمة : يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة ، رواه ابن أبي حاتم وقيل الإيمان ، أو العمل الصالح ، أو السمت الحسن في الوجه وكلها متقاربة .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ (٢٧) ﴾

يحذر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله [١] ، مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام ، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء ، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه وما هذا إلاّ عن عداوة أكيدة . وهذا كقوله تعالى: ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ (٢٩) فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ (٣٠) ﴾

(١) قلت : ان إبليس وقبيله يرون بني آدم في الوقت الذي لا يراهم بنوآدم وهذا مما يوجب على بني آدم شدة الحذر منهم فالذي يراك ولا تراه يكون أشد مكراً بك ويكيد لك من حيث لا تشعر ، وهذا ما يدعو بني آدم أن يلتجئوا إلى الله منه بطاعته سبحانه والأنتهاء عما نهى . عندها : فلا يجعل الله للشيطان على المؤمن الطائع سبيلا .

كان العرب سوى قريش يطوفون بالبيت عرياً . يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون بثياب عصوا الله فيها . أما قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه . ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد . ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً ، طاف عرياناً ، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة ، وأكثر ما كان النساء يطفن عراةً بالليل . وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم . متوهمين أن فعل آبائهم يستند إلى شرع الله فأنكر تعالى عليهم ذلك فقال﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ فقال تعالى رداً عليهم : ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لمن ادعى ذلك ﴿ ان الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ أي ينفي سبحانه وتعالى عنه ذلك ، ويقول ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ أي تسندون إلى الله ما لا تعلمون صحته ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾ أي بالعدل والاستقامة ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالّها . وهي متابعة المرسلين فيما أخبروا به عن ربهم وما جاءوا به من الشرائع ، وبالاخلاص له تعالى في عبادته ، لأنه لا يتقبل العمل حتى يكون موافقاً للشريعة وأن يكون خالصاً من الشرك . فمتى جُمع هذان الركنان يكون العمل مقبولاً .

وقوله تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون – إلى قوله – الضلالة ﴾ اختلف فيهما المفسرون فمن قال : كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخراً واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير ، وأيده بما رواه من حديث سفيان الثوري بسنده إلى ابن عباس قال٢٨٢ : [قام فينا رسول ﷺ بموعظةٍ فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاةً عراةً غرلاً ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين .

وعن مجاهد قال : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ أي يحييكم بعد موتكم . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ قال : ان الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً كما قال تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً قلت : ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري ٢٨٣ : [فوالذي لا آله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة

فيدخل الجنة .]

روى أبو القاسم البغوي عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ ٢٨٤ [إن العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار ، وانه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار ــ وانه من أهل الجنة وانما الأعمال بالخواتيم] هذا قطعه من حديث البخاري .

روى مسلم عن الأعمش بسنده إلى جابر عن النبي ﷺ أنه قال ٢٨٥ : [يبعث كل عبد على ما مات عليه] ووجه الجمع بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال ، وإن كان قد فطر الخلق على معرفته ، وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك ، وجعله في غرائزهم وفطرهم . ومع هذا قدّر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً ــ أي علم منهم من سيختار الشقاوة ، ومن سيختار السعادة ، فقدّر وكتب على كلٍّ ما اختار ــ (٢) ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ وفي الحديث ٢٨٦ [كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها] (١) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ ثم علل ذلك فقال : ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ﴾ الآية ...

ربع الحزب

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿ (٣١) ﴾

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة ، الرجال بالنهار والنساء بالليل . فقال تعالى : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ والزينة اللباس وهو ما يواري السوأة، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند

---

(١) قلت : يعني ليس الأمر جبرياً انما العبد مختار في كل ما هو مكلف به من فعل الطاعات وترك المعاصي فإنه ان كان طائعاً خيّراً فيقي نفسه من النار ، أو يكون عاصياً شريراً يأبق ويفسق عن طاعة مولاه فيردي نفسه ويهلكها ، فالله جعله مختاراً ليكون مستحقاً نعيمه أو عذابه ولا يظلم ربك أحداً .

(٢) ما بين المعترضتين من كلامي توضيحاً لقول المفسر رحمه الله .

الصلاة ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد والطيب والسواك من تمام الزينة .

ومن أفضل اللباس البياض كما روى الامام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ ٢٨٧ [إلبسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم وان خير أكحالكم الإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر ،] هذا حديث جيد الإسناد . ورجاله على شرط مسلم ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ الآية ... روى الإمام أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن رسول الله ﷺ قال ٢٨٨ : [كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده] ورواه النسائي وابن ماجه .

روى الإمام أحمد عن المقدام بن معديكرب الكندي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ٢٨٩ : [ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان فاعلاً لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه .] ورواه النسائي والترمذي وقال حسن صحيح . وقد كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون الوَدَك[1] ما أقاموا في الموسم فقال الله تعالى لهم : ﴿كلوا واشربوا﴾ أي لا تسرفوا في التحريم قال السدي . وقوله تعالى : ﴿ انه لا يحب المسرفين﴾ يقول الله تعالى : ﴿ان الله لا يحب المعتدين﴾ حدَّه في الحلال والحرام ، الغالين فيما أحل بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال ، ولكنه تعالى يحب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم وذلك العدل الذي أمر به .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٢)

يرد الله تعالى على المشركين بقوله تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ، الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم . ﴿ من حرم زينة الله التي أخرج

---

(١) الودك الدسم من اللحم والشحم .

لعباده ﴾ الآية أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا ، وإن أشركهم فيها الكفار حساً في الدنيا ، فهي للمؤمنين خاصة يوم القيامة ، لا يشركهم فيها أحد من الكفار ، فإن الجنة محرّمة على الكافرين . قال أبو قاسم الطبراني عن ابن عباس قال : نزلت في الذين كانوا يطوفون بالبيت عراةً يصفرون ويصفقون فأمروا بالثياب .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ (٣٣) ﴾

روى الإمام أحمد عن عبدالله [1] قال قال رسول الله ﷺ .٢٩[لا أحد أغير من الله فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحبّ إليه المدح من الله] أخرجاه في الصحيحين وقد تقدم الكلام على ما يتعلّق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن ، في سورة الأنعام ، وقوله تعالى : ﴿ والإثم والبغي بغير الحق ﴾ الإثم هو الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه والبغي هو التعدي على الناس بغير الحق . وقوله تعالى : ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك مما لا علم لكم به كقوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۞ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ (٣٥) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ (٣٦) ﴾

---

(١) هو ابن مسعود .

(٢) الآية (١٥١) من سورة الأنعام .

يقول تعالى: ﴿ ولكل أمة أجل ﴾ أي لكل قرن وجيل وقتٌ ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ أي ميقاتهم المقدّر لهم ﴿ لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون ﴾ ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته وبشّرَ وحذّرَ ، فقال تعالى : ﴿ فمن اتقى وأصلح ﴾ أي ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴾ أي كذّبت بها قلوبهم ، واستكبروا عن العمل بها ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي ماكثون فيها أبداً .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ۞ (٣٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، أو كذّب بآياته المنزلة . ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾

قال العوفي عن ابن عباس : ينالهم ما كتب عليهم ، وكتب لمن كذب على الله ان وجهه مسود . وقال مجاهد : ما وعدوا به من خير وشر . وكذا قال قتادة والضحاك واختاره ابن جرير .

وقال محمد بن كعب القرظي : ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ قال : عمله ورزقه وعمره ، وهذا القول قوي في المعنى ، والسياق يدل عليه وهو قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ الآية يخبر تعالى أن الملائكة اذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت ويقولون لهم : أين شركاؤكم في الحياة الدنيا الذين كنتم تدعونهم من دون الله ؟ أدعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه قالوا : ﴿ ضلّوا عنا ﴾ أي ذهبوا عنا فلا نرجوا نفعهم ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ واعترفوا ﴿ أنهم كانوا كافرين. ﴾

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ۞ (٣٩) ﴾

يخبر تعالى عما يقوله لهؤلاء المشركين به ، المفترين عليه ، المكذبين بآياته : ﴿ أدخلوا في أمم ﴾ أي من أمثالكم وعلى صفاتكم ﴿ قد خلت من قبلكم ﴾ أي من الأمم السالفة الكافرة ﴿ من الجن والإنس في النار ﴾ أي مع هؤلاء الأمم . وقوله تعالى : ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ كما قال الله تعالى : ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ﴾ وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً ﴾ أي اجتمعوا فيها كلهم ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ﴾ أي أخراهم دخولاً وهم الأتباع لأولا هم ، وهم المتبوعون . لأنهم أشدهم جرماً ، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة لأنهم هم الذين أضلوهم ، فيقولون :
هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ أي أضعف عليهم العقوبة ، كما قال تعالى : ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ قال لكل ضعف ﴾ أي قد فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه كقوله تعالى : ﴿ وليحملُنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقالت أولاهم لأُخراهم ﴾ أي قال المتبوعون للاتباع : ﴿ فما كان لكم علينا من فضل ﴾ أي قد ضللتم كما ضللنا ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ۞ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۞ (٤١) ﴾

قوله تعالى : ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ قيل المراد لا يرفع لهم عمل صالح ولا دعاء وقيل لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ويؤيده ما رواه ابن جرير : عن البراء بن عازب : ٢٩١[ان رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر وانه يصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها ، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون بابها له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾] الآية هكذا رواه وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من طريق عن المنهال بن عمرو به . وقد قال ابن جريج في قوله تعالى : ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم وهذا فيه جمع بين القولين والله تعالى أعلم . وقوله تعالى : ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير قال ابن مسعود وهو الجمل ابن الناقة أو زوج الناقة وكذا قال الحسن البصري وأبو العالية والضحاك وغيرهم. وروي أنه الجُمّل أي الحبل الغليظ وقوله تعالى: ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أي فرش ﴿ومن فوقهم غواشٍ﴾ أي اللحف قال محمد بن كعب القرظي وغيره ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لله ٱلَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٤٣)

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ، عطف بذكر حال السعداء ، فقال سبحانه : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم ، وعملت جوارحهم الصالحات . ثم نبه الله تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل ، لأنه سبحانه قال : ﴿لا نكلف نفساً إلاّ وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون۔ ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ﴾ أي من حسد

وبغض كما جاء في صحيح البخاري من حديث قتادة بسنده إلى أبي سعيد الخدري **قال** : قال رسول الله ﷺ ٢٩٢ [إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين **الجنة** والنار **فاقتص لهم** مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا] وقوله تعالى : ﴿ تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾

فقد روى النسائي وابن مردويه واللفظ له من حديث أبا بكر بن عباس بسنده إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٢٩٣ [كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول لولا أن الله هداني فيكون له شكراً وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هداني فيكون له حسرة] ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا : ﴿أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم ، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال ٢٩٤ : [واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا ولا أنت يا رسول الله قال « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»] .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ۞ (٤٤) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ۞ (٤٥) ﴾

اذا استقر أهل النار في منازلهم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم . ويقول أهل الجنة لأصحاب النار ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم مـــا وعد ربكم حقاً قالوا نعم ﴾ كما أخبر الله في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار : ﴿ فاطلع فرآه في سواء الجحيم ۞ قال تالله إن كدت لتردين ۞ ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ أي ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال . وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ۞ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ۞ أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا

سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى ٢٩٥ : [يا أبا جهل بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة – وسمى رءوسهم – هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » وقال عمر : يا رسول الله تخاطب قوماً قد جيفوا ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا »] (١)

وقوله تعالى ﴿ فأذن مؤذن بينهم ﴾ أي نادى منادٍ : ﴿ أن لعنة الله على الظالمين ﴾ أي مستقرة عليهم ثم وصفهم بقوله تعالى : ﴿ والذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ﴾ أي يَصُدُّون عَن سبيل الله وشرعه يبغون أن تكون معوجة غير مستقيمة ﴿ وهم بالآخرة كافرون ﴾ أي جاحدون مكذبون فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لايخافون حساباً عليه ولا عقاباً فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۞ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٤٧) ﴾

نصف الحزب

لما ذكر الله تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبّه أن بين الجنة والنار حجاباً وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة . فقوله تعالى : ﴿ وبينهما حجاب ﴾ أي حاجز إنما سمي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس . والأعراف : هم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم . نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله . قال ابن جرير عن يونس بن أبي اسحق قال : قال الشعبي أرسل اليّ عبد الحميد بن عبد الرحمن وعنده أبو الزناد عبدالله بن ذكوان مولى قريش فإذا هما ذكرا من أصحاب الأعراف ذكراً ليس كما ذكرا . فقلت لهما : إن شئتما

(١) قلت : وفي رواية : ... (أحياهم الله له فأسمعهم) وهذا كلام الصحابي الذي روى الحديث وهذا رد على من يزعم أن الأموات يسمعون؛ بينما الواقع أنهم لا يسمعون بدليل قوله تعالى : «وما أنت بمسمع من في القبور » وقوله سبحانه : « انك لا تسمع الموتى » أما هذه الحادثة – حادثة القليب – هو تخصيص للحكم العام ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فالحكم العام أن الأموات لا يسمعون وقد خصص بان الله أحياهم له فأسمعهم .

أنبأتكما بما ذكر حذيفة ، فقالا هات : فقلت إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال : هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم إذهبوا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم .

قال ابن المبارك عن ابن مسعود قال : الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح .

وقال ابن مسعود : ان العبد إذا عمل حسنة ، كتب له بها عشر واذا عمل سيئة ، لم تكتب إلا واحدة . ثم يقول : هلك من غلبت آحاده عشراته .

وقوله تعالى : ﴿يعرفون كلاً بسيماهم﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه . وكذا روى الضحاك عنه وقوله تعالى : ﴿ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ أي فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم ولكن لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون بدخولها قال الحسن : والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها الله بهم .

وقوله تعالى : ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ قال ابن عباس : ان أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ وقال ابن مسعود : لما نظروا إلى أهل النار ورأوا منازلهم تعوذوا بالله من منازلهم وقالوا : ﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۞ (٤٨) أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۞ (٤٩) ﴾

يخبر تعالى عن تقريع أهل الأعراف وهم رجال تكاثفت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة وقصرت بهم سيئاتهم عن النار فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم .

يخبر تعالى عن تقريعهم لأهل النار وهم رجال من صناديد قريش وصناديد المشركين

وقادتهم : ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ كثرتكم ﴿وما كنتم تستكبرون﴾ أي لا تنفعكم كثرتكم واستكباركم من عذاب الله الذي صرتم اليه وما تعانونه من النكال ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة﴾ أي قال الله تعالى لأهل التكبر والأموال ﴿أهؤلاء﴾ أي أهل الأعراف ﴿الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة﴾ فقال الله لأهل الأعراف : ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ أي برغم أنوف الكافرين ، ويقول حذيفة (رض) بعد أن يذكر استشفاع أهل الأعراف بآدم ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليه وعليهم الصلاة والسلام واعتذار الجميع إلا محمد عليه الصلاة والسلام فيقول ٢٩٦ [فيأتوني فأضرب بيدي على صدري ثم أقول : « أنالها »] فيشفع بهم كما جاء في خبر حذيفة ثم يقول عليه الصلاة والسلام : « فآتي بهم الجنة فأستفتح فيفتح لي ولهم فيذهب بهم إلى نهر يقال له نهر الحيوان حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك وحصباؤه الياقوت فيغتسلون منه فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ويبقى في صدورهم شامات بيض يعرفون بها يقال مساكين أهل الجنة »]

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ۞(٥٠) ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِـآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۞ (٥١) ﴾

يخبر تعالى عن ذلّة أهل النار ، وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم ، وأنهم لا يجابون إلى ذلك فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرّمهما على الكافرين﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل أي الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ ٢٩٧ : [أفضل الصدقة الماء . ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا أفيضوا علينا من الماء أومما رزقكم الله] ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهواً ولعباً واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفتها ، عما أمروا به من العمل للآخرة ، وقوله تعالى : ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أي يعاملهم معاملة من نسيهم ، لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى : ﴿في كتاب لا يضل ربي ولا

ينسى ﴾ وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ [1] أي يتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا . وفي الصحيح ٢٩٨ : [إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى فيقول أظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني .]

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۞ (٥٣) ﴾

يخبر تعالى عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء بـه الرسول وإنه كتاب مفصل مبين . كقوله تعالى : ﴿ كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ فصلناه على علم ﴾ للعالمين أي على علمٍ منّا بما فصلناه به كقوله تعالى : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ فقوله تعالى : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾ أي أنه قد أزاح عللهم في الدنيا بأرسال الرسل وإنزال الكتب ، كقوله تعالى : ﴿ وما كنّـا معذّبين حتى نبعثَ رسولاً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ أي ما وُعِدوا به من العذاب والنكال ، والجنة والنار . قال الربيع : لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذ . وقوله تعالى : ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ أي يوم القيامة ﴿ يقول الذين نسوه من قبل ﴾ أي تركوا العمل به ، وتناسوه في الدار الدنيا ﴿ قد جاءت رسلُ ربّنا بالحق فهل لنا من شفعاءَ فيشفعوا لنا ﴾ أي في خلاصنا مما صرنا إليه ، مما نحن فيه . ﴿ أو نُرَدُّ ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿ فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وُقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُردّ ولا نكذب بآيات ربنـا

---

(١) قلت : أي كان من نتيجة نسيانهم الله نسيان عقابه. ثم كانت من جراء ذلك المعصية. فلما عصوا الله عرّضوا أنفسهم في مقابلة ذلك ، إلى عقاب الله فكأنه نسيهم من الخير. أما النسيان الذي يكون بمعنى نسيان المخلوق ، فهذا ما لا يليق به سبحانه « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو رُدوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ كما قال تعالى ﴿ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله ، فلا يشفعون فيهم ، ولا ينصرونهم ، ولا ينقذونهم ، مما هم فيه .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق العالم، سمواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام . كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ؛ والستّة أيام هي الأحد والأثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام ، واختلفوا في هذه الأيام ، هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل . ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس ، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع ومنه سمي السبت وهو القطع .

وأما قوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً أما نحن فنسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ، وغيرهم من أئمة المسلمين ، قديماً وحديثاً ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله تعالى ، فإنّ الله تعالى لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم شيخ البخاري قال : من شبّه الله بخلقه كفرَ ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر . وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ـ فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله . ونفَى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى .

وقوله تعالى: ﴿ يُغشي الليلَ النهار يطلبه حثيثاً ﴾ أي يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكلٌ منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً أي سريعاً لا يتأخر عنه بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه. كقوله تعالى: ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أي لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل هو في أثره بلا واسطة بينهما ولهذا قال تعالى: ﴿ يطابه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ أي الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته. ولهذا قال سبحانه: ﴿ ألاله الخلق والأمر ﴾ أي له الملك والتصرف ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء، وروي مرفوعاً: ٢٩٩ [اللهم لك الملك كله ولك الحمد كله وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشرِّ كلــه].

﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

أرشدَ تبارك وتعالى عبادَه إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم، فقال: ﴿ أدعوا ربكم تضرعاً وخفيةً ﴾ أي تذللاً واستكانة وبصوت خافت وخشوع قلب كقوله تعالى: ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ الآية ... وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله ﷺ: ٣٠٠ [أيها الناس إربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إن الذي تدعون سميع قريب] وقال ابن جرير: ﴿ تضرعاً ﴾ تذللاً واستكانةً لطاعته ﴿ وخفية ﴾ يقول بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهاراً مراآةً. وقال الحسن: إن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿ إذ نادى ربّه نداءً خفياً ﴾ وقال ابن جريج: ويُكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة.

وقوله تعالى: ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ قال ابن عباس لا في الدعاء ولا في غيره. روى أحمد عن مولى لسعد أن سعداً قال؛ ... وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ٣٠١ [إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء وفي لفظ يعتدون في الطّهور والدعاء وقرأ هذه الآية: ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً ... ﴾ الآية وإن بحسبك أن تقول: اللهم اني

أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول أو عمل] ورواه أبو داود . وقوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ ينهي تعالى عن الإفساد في الأرض ، وما أضره بعد الإصلاح ، فإنه إذا كانت الأمور مسددةً ثم وقع الإفساد كان أضرَّ ما يكون على العباد ، فنهى تعالى عن ذلك فأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه . فقال تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ أي خوفاً مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب [1] ثم قال تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ أي إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ، ويتركون زواجره . وقال « قريب » ولم يقل قريبة ، لأنه تعالى ضمّن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله (ولكن القول الأول أصح) والله أعلم .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ٱلْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ❁ (٥٧) وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ❁ (٥٨) ﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، والمتصرف المدبّر ، وأرشد إلى دعائه وحده ، لأنه على كل شيء قدير . نبّه تعالى على أنه الرزاق ، وانه معيد الموتى يوم القيامة . فقال عز من قائل : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ومن

---

(١) قلت : ولكن لا يزال في مجتمعنا الإسلامي من يردد القول المنسوب إلى علي رضي الله عنه وعليٌّ بريء منه وممن يتقوله عن لسانه وهو : « ربي ما عبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنتك ولكني أعبدك لأنك إلٓه تستحق أن تعبد » فهل يعقل أن علياً الراضي المرضي ، يقول مثل هذا القول ! ! ؟ والله تعالى يقول : « وادعوه خوفاً وطمعاً » ؟ حاشا علياً من مثل هذه الأقوال التي اصطنعها قوم أكل الإسلام أكبادهم غيظاً على الاسلام والمسلمين فدسوا مثل هذه الأقوال على المسلمين ونسبوها إلى المخلصين منهم كعلي /رض/ حتى يتلقفها عامتهم وبعض خاصتهم بالقبول ثقة منهم بالمنسوب إليهم وهم برآء منه ... ولكن قيض الله للمسلمين من يفضح أعداء الإسلام ويحبط مؤامراتهم ، وله وحده الحمد والمنة . كما أن هذا القول منسوب أيضاً إلى رابعة العدوية واننا نستبعده عنها أيضاً لأنه لا يوجد مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، يتلفظ بمثل ذلك .

آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ بين يدي رحمته ﴾ أي بين يدَيْ المطر ، كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ﴾ وقولُه تعالى ﴿ حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً ﴾ أي حملت الرياح سحاباً ثقالاً من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة . وقولُه تعالى : ﴿ سقناه إلى بلدٍ ميّت ﴾ أي إلى أرض ميتة ، مجدبة ، كقوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ الآية ولهذا قال تعالى : ﴿ فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى ﴾ أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميماً . يوم القيامة يُنزِل الله سبحانه وتعالى ماءً من السماء فتمطر الأرض أربعين يوماً فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض وهذا المعنى كثير في القرآن ، يضرب الله مثلاً ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال سبحانه : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾ أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً . كقوله عز وجل ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ قال مجاهد وغيره كالسباخ ونحوها وعن ابن عباس، قال : هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * (٦٢) ﴾

لم يلْقَ نبيٌ من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبيٌ قتل ، وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهم السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام . وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك فيها ، ليتذكروا حالهم وعبادتهم ، فيتشبهوا بهم فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور فلما تمادَى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسمّوها بأسماء أولئك الصالحين : ودّاً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا ، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة رسوله

نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ أي من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ﴿ قال الملأ من قومه ﴾ أي الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم : ﴿ إنّا لنراك في ضلال مبين ﴾ أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا ، وهكذا حال الفجار إنما يَرَوْنَ الأبرار في ضلالة .كقوله تعالى : ﴿ وإذا رأوهم قالوا إنَّ هؤلاء لضالّون ﴾ ﴿ قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ﴾ أي ما أنا ضال ولكن أنا رسول من ربّ كل شيء ومليكه ﴿ أبلغكم رسالات ربّي وأنصحُ لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات كما جاء في صحيح مسلم : [٣٠٢ ان رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً : « أيها الناس : انكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون ؟قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : « اللهم اشهد اللهم اشهد »]

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنَ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ ۞ (٦٤) ﴾

يخبر تعالى أن نوحاً قال لقومه : ﴿ أو عجبتم ﴾ أي لا تعجبوا فليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمةً بكم ، ولطفاً وإحساناً إليكم ، لينذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به . ﴿ ولعلكم ترحمون ﴾ قال تعالى : ﴿ فكذبوه ﴾ أي تمادوا في تكذيبه وما آمن معه إلا قليل ﴿ فأنجيناه والذين معه في الفلك ﴾ أي السفينة ﴿ وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ أي عميٌ عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون إليه ، فبيّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله والمؤمنين . كقوله تعالى : ﴿إنا لننصر رسلنا﴾ الآية ... وهذه سُنّة الله في عباده في الدنيا والآخرة إن العاقبة للمتقين ، وقال ابن وهب

عن ابن عباس : أنه نجا مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً .

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ❁ (٦٥) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ❁ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ❁ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ❁ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِن رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً فَٱذْكُرُوا آلَاءَ ٱللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ❁ (٦٩) ﴾

يقول تعالى وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً . وهؤلاء هم عاد الأولى . الذين ذكرهم الله وهم أولاد عادٍ بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر . كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ وذلك لشدة بأسهم وقوتهم ، وكانت مساكنهم باليمن بالأحقاف وهي جبال الرمل . قال محمد بن اسحق عن أبي الطفيل عامر بن واثلة سمعت عليا يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراكٍ وسدْر كثير ... بناحية كذا وكذا ، من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ، والله إنك لنعتَّه نعت رجل قد رآه . قال لا ولكني قد حُدِّثتُ عنه فقال الحضرمي وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ قال فيه قبر هود عليه السلام . رواه ابن جرير وهذا يفيد أن مساكنهم كانت باليمن فان هوداً عليه السلام دفن هناك ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ أي السادة والقادة منهم ﴿ إنا لنراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين ﴾ أي في ضلالة لأنك تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام ﴿ قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ﴾ أي لستُ كما تزعمون إنما جئتكم بالحق من الله الذي خلق كلَّ شيء ﴿ أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴾ والبلاغ والنصح

والأمانة هي الصفات التي يتصف بها الرسل ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ أي لا تعجبوا من إرسال رسول إليكم من أنفسكم لينذركم أيام الله، ولقاءه بل احمدوا الله على ذاكم ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم ممن آمن من قوم نوح، الذي أهلك الله الأرض، أي أهلها لما خالفوه وكذبوه فدعا عليهم دعوته المعروفة التي استجابها الله فأهلك بها كل كافر على الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وزادكم في الخلق بسطةً﴾ أي زاد طولكم على الناس كقوله تعالى في قصة طالوت: ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ وقوله تعالى: ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ أي نعمه ومننه عليكم ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي تنجحون فتدخلون الجنة بمنه وكرمه.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ * (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ ٱللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَٱنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ * (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ * (٧٢)﴾

يخبر تعالى عن تمرّدهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام: ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده﴾ الآية كقول الكفار من قريش: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ وقد ذكر محمد بن اسحق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنم يقال له صمد، وآخر يقال له صمود، وآخر يقال له الهنا. ولهذا قال هود عليه الصلاة والسلام: ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ أي قد وجب عليكم بمقالتكم هذه، من ربكم رجس وهو السخط والغضب ﴿أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ أي اتحاجّوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة

ولا دليلاً ولهذا قال جلّ وعلا : ﴿ ما نزّل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ، ولهذا عقّبه بقوله عز من قائل : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم ، في أماكن أخرَ من القرآن ، بأنه أرسل عليهم الريحَ العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلاّ جعلته كالرميم . كما قال جلّ وعلا في الآية الأخرى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيامٍ حُسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية . فهل ترى لهم من باقية ﴾ لما تمرّدوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية ، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتثلّغ[1] رأسه حتى تُبينَه من بين جثته.ولهذا قال تعالى: ﴿ كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية ﴾ وقال محمد بن اسحق : كانوا يسكنون باليمن ما بين عمان وحضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله وكانوا أصحابَ أوثان يعبدونها من دون الله فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً فأمرهم أن يوحّدوا الله ، ولا يجعلوا معه إلها غيره ، وأن يكفّوا عن ظلم الناس . فأبوا عليه وكذّبوه وقالوا : من أشدُّ منّا قوة ؟ واتّبعه منهم ناس وهم يسيرٌ يكتمون إيمانهم فلما عتتْ عادٌ على الله وكذبوا نبيّه ، وأكثروا في الأرض الفساد ، وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع ، كلمهم هود . فقال: ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعونِ * قالوا يا هود ما جئتنا ببيّنةٍ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إنْ نقول إلاّ اعتراك بعضُ آلهتنا بسوء ﴾ أي بجنون ﴿ قال إني أُشهِدُ اللهَ وأَشهَدُ اني بريءٌ مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظِرون * إنّي توكّلت على اللهِ ربّي وربّكم ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها إنّ ربي على صراط مستقيم ﴾ وكانت الريح التي أتت عليهم هي شبه النار سخرها الله عليهم سبعَ ليال وثمانية أيام حسوماً . والحسوم أي الدائمة فلم تدَعْ من عاد أحداً إلاّ هلك ، واعتزل هود عليه السلام ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم ، إلاّ ما تلين عليهم الجلود وتلذ الأنفس وإنها لتمرُّ على عاد بالظعن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وقد قال الله تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا ونجيناهم من عذابٍ غليظ ﴾ .

---

(١) تثلّغ : إنشدخ أي تكسر .

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ❁ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ❁ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ❁ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ❁ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ❁ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ❁ (٧٨) ﴾

قال علماء التفسير والنسب ، ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح . وهو أخو جَديس بن عاثر ، وكذلك قبيلة طسم كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله وقد مرَّ رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنةَ تسعٍ . روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال ٣٠٣ : [لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر ، عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور ، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : « إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم »]

روى أحمد عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر ٣٠٤ . [لا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين ، إلاّ أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم] وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجـــــه .

وقوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود رسولهم صالحاً ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وهكذا جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قد جاءتكم بيّنة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ﴾ أي قدجاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به. وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم ناقةً عشراءَ تمخض فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق : لئن أجابهم الله إلى سؤآلهم ، وأجابهم الى طلبتهم ليؤمِنُنَّ به وليتبعُنّه فلما أعطوا على ذلك عهودهم ، ومواثيقهم ، قام صالح عليه السلام ، ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفـــاء وبراء ، يتحرك جنينها بين جنبيها ، كما سألوا . فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤآب بن عمرو بن لبيد ، والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعر بن جلهس ، وكان لجندع بن عمر ابن عم يقال له شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن حراس . وكان من أشراف ثمود ، وأفاضلها فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم . وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوماً ، وتدعه لهم يوماً ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها ، فيملأوون ما شاءوا من أوعيتهم ، وأوانيهم كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾ وقال تعالى : ﴿ هذه ناقة لها شرب ولكم شربُ يوم معلوم ﴾ وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ، تردُ من فج ، وتصدر من غيره ليسعها ، لأنها كانت تتصلّع من الماء ، وكانت على ما ذكر خلَقاً هائلاً ، ومنظراً رائعاً ، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه الصلاة والسلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم . فيقال انهم اتفقوا كلهم على قتلها ، قال قتادة : بلغني إن الذي قتلها طافَ عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء ، في خدورهن ، وعلى الصبيان . قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى : ﴿ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربُّهم بذنبهم فسواها ﴾ فأسند ذلك على

مجموع القبيلة ، فدلَّ على رضى جميعهم بذلك ، والله أعلم . فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة ، وبلغ الخبر صالحاً عليه الصلاة والسلام فجاءهم وهم مجتمعون ، فلما رأى الناقة بكى وقال : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ الآية ...

* * *

وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء ، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيِّتنّه وأهله ثم لنقولن لوليّه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ﴾ الآية ... فلما عزموا على ذلك وتواطأوا عليه وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله ، فأرسل الله سبحانه وتعالى وله العزة ولرسوله عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم ، وأصبح ثمود يوم الخميس هو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام ، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ، ووجوههم محمرة ، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة ، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه ، عياذاً بالله من ذلك ، لا يدرون ما يفعل بهم ، ولا كيف يأتيهم العذاب ، وما أشرقت الشمس إلاّ وجاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة شديدة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس ، في ساعة واحدة . ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أي صرعى لا أرواح فيهم . ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير لا ذكر ولا أنثى . قالوا إلاّ جارية كانت مقعدةً واسمها كلبة ابنة السلق ، ويقال لها الذريعة ، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها ، فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت .

ويقال أن رجلاً يقال له أبو رغال كان لما وقعت الواقعة والنقمة بقومه مقيماً إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء ، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله ، والله أعلم .

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٧٩)

لما أهلكهم الله تعالى بمخالفتهم إياه وتمردهم عليه ، قال لهم صالح بعد هلاكهم ﴿ لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ﴾ أي فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً . ولهذا قال : ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ وذلك كما ثبت في الصحيحين ٣٠٥ : [أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً ، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر فجعل يقول : « يا أبا جهل بن هشام ، يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » فقال له عمر : يا رسول الله ما تكلم من أقوام قد جيفوا ، فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون [1] »] وفي السيرة أنه عليه الصلاة والسلام قال لهم ٣٠٦ : [بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم] وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه كما تقدم ...

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ ٱلنِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ۞ (٨١) ﴾

يقول تعالى ﴿ و ﴾ ولقد أرسلنا ﴿ لوطاً ﴾ أو تقديره ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ لوطاً إذ قال لقومه ﴾ ولوط هو ابن هاران بن آزر وهو أبو إبراهيم عليهما السلام ، وكان قد آمن مع ابراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام [2] فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى ، يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر الذي كانوا يرتكبونه ، وهو المحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث . ولهذا قال لهم لوط عليه السلام :

---

(١) راجع التعليق على الحديث رقم ١٠٢/

(٢) الظاهر أنه التحق به بعد هجرته إلى بلاد كنعان ولأن ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال لسارة لما أرسلها إلى الجبار – كما طلب – قال لها : اني قلت للجبار : أنت أختي فلا تكذبيني ... فأنت أختي في الله... فليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك (ويريد أرض الشام) والله أعلم فلو أن لوطاً كان معهما لما قال ذلك ... ولأشرك لوطاً معهما في وجودهما في الأرض والله تعالى أعلم .

﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء ﴾ أي عدلتم عن النساء ، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال ، وهذا إسراف منكم وجهل لأنه وضع الشيء في غير محله ، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى : ﴿ هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ﴾ فأرشدهم إلى نسائهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ أي لقد علمت أنه لا أربَ لنا في النساء ، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك ووصل الحال بهم – كما قال المفسرون – إن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض ، كذلك نساؤهم قد استغنى بعضهن ببعض أيضاً .

﴿ وَمَا كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝ (٨٢) ﴾

أي ما أجابوا لوطاً إلا أن همّوا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم ، فأخرجه الله تعالى سالماً وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين ، وقوله تعالى : ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ قال قتادة : عابوهم بغير عيب ، وقال مجاهد : إنهم أناس يتطهّرون من الأدبار رجالاً ونساءً .

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝ (٨٤) ﴾

يقول تعالى فأنجينا لوطاً وأهله ، أي لم يؤمن أحد به سوى أهل بيته فقط . كما قال تعالى : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ إلا امرأته فإنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه ، وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أُمر لوط عليه السلام ليسري بأهله أُمر أن لا يُعلمها ولا يخرجها من البلد ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ إلاّ امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي الباقين وقيل من الهالكين وهو تفسير باللازم ، وقوله تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ مفسر بقوله تعالى ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ أي انظر

يا محمد كيف كان عاقبة من يجترىء على معاصي الله عز وجل ويكذب رسله .

اختلف في كيفية مجازاة من يعمل بعمل قوم لوط والصحيح ما يفهم من قوله ٣٠٧ [من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به] .

أما إتيان النساء في الأدبار ، فهو اللوطية الصغرى ، وهو حرام بإجماع العلماء، وفي ذلك أحاديث كثيرة ، عن النبي ﷺ وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة [1]

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ (٨٥) ﴾

« مدين » تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز . قال الله تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمةً من الناس يسقون ﴾ وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره ان شاء الله تعالى وبه الثقة ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وهذه دعوة الرسل كلهم قد جاءتكم بيّنة من ربكم على صدق ما جئتكم به ثم وعظهم بأن يوفوا الكيل والميزان ، ولا يخونوا الناس في أموالهم على وجه البخس ، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً . كما قال تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ إلى قولــه تعالى ﴿ لرب العالمين ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد . نسأل الله العافية منه ، ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب الذي يقال له خطيب الأنبياء لفصاحته .

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَٱذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ

(١) راجع الآية رقم (٢٢٢) من سورة البقرة والأحاديث رقم ٣٢٣ ــ ٣٢٦ .

آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ❁ (٨٧)

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله تعالى : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ أي تتوعدون الناس بالقتل ، إن لم يعطوكم أموالهم ﴿ وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ﴾ أي وتودون أن تكون سبيل الله عوجاء مائلة ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾ أي كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أي من الأمم الخالية وما حل بهم من النكال باجترائهم على المعاصي والكفر . وقوله تعالى : ﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ﴾ أي قد اختلفتم علي ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ﴾ أي يفصل بيننا وبينكم ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ ومن هذا الخير أنه سيجعل العاقبة للمتقين والدمار على الكافرين .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ❁ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ❁ (٨٩)

حزب ١٧ – جزء ٩

يخبر تعالى عن تهديد الكفار لشعيب عليه السلام ، ولمن معه من المؤمنين بالنفي ، أو العودة إلى دينهم ، وقوله تعالى : ﴿ أو لو كنا كارهين ﴾ أي قال شعيب : ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه فإذا عدنا إلى دينكم ﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾ أي من الشرك وهذا تنفير عن اتباعهم ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن

يشاءَ الله ربّنا ﴾ وهذا رد إلى الله مستقيم ، فإنه يعلم كل شيء وإليه يعود المراد ، والمشيئة[1] ﴿ على الله توكلنا ﴾ في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ أي انصرنا عليهم ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾ بالعدل فتنصرنا على أعدائك وأعدائنا ، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ۞ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۞ (٩١) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ ٱلْخَاسِرِينَ ۞ (٩٢) ﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمرّدهم على الحق ، ولهذا أقسموا وقالوا : ﴿ لئن اتّبعتم شعيباً إنكم اذاً لخاسرون ﴾ فلهذا عقّبه بقوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ وذلك كما توعّدوا شعيباً وأصحابه بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود فقال تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ .

والمناسبة هنا ــ والله أعلم ــ أنهم لما تهكّموا به في قولهم : ﴿ أصلاتك تأمرك ﴾ الآية فجاءت الصيحة فأسكتتهم وقوله تعالى : ﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا اجلاء الرسول وصحبه منها . ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم : ﴿ الذينَ كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ۞ (٩٣) ﴾

أي فتولّى عنهم شعيب عليه السلام بعدما أصابهم العذاب ، وقال لهم موبخاً : ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ﴾ أي قد أديت الرسالة فلا آسف على ما

---

(١) قلت : ولكن لا يمكن أن يضل الله قوماً بعد إذ هداهم إلا اذا استحبوا هم الضلالة على الهدى ، أو أن قلوبهم تغيرت فيجازيهم على ذلك من نوع عملهم فيضلهم جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد .

أصابكم ﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ﴾

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

يخبر تعالى عمّا اختبر به الأمم الماضية ، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء،والبأساء ما يصيبهم في أبدانهم من الأمراض ، والضراء ما يصيبهم من الفقر والحاجة لعلهم يضَّرّعون ، فقد ابتلاهم سبحانه بالشدة ليرجعوا إليه ويتوبوا ، فلم يفعلوا ،فابتلاهم بالرخاء ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم بد لنا مكان السيئة الحسنة ﴾ ليشكروه سبحانه على ذلك فما فعلوا . وقوله تعالى : ﴿ حتى عفَوْا ﴾ أي كثروا مالاً وولداً . يقال عفا الشيء إذا كثر ﴿ وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتةً وهم لا يشعرون ﴾ أي قد مسّنا من البأساء ثم الرخاء ما مسّ آباءنا من قبل ، دون أن ينتبهوا لأمر الله فيهم ، ولااستشعروا ابتلاءه لهم في الحالين ، وهذا بخلاف المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ، ويصبرون على الضراء ، كما ثبت في الصحيحين ٣٠٨ : [عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له ، إن اصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له] فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله من الضراء والسراء ولهذا جاء في الحديث ٣٠٩ : [لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم ربطه أهلُه ولا فيم أرسلوه] أو كما قال ﷺ ولهذا عقب هذه الصفة بقوله جل وعلا : ﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ أي أخذناهم بالعقوبة فجأة كما في الحديث ٣١٠ : [موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر]

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ ❁ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ❁ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ❁ (٩٩)

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل فقوله تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴾ أي لو صدقت قلوبهم بما جاءت به الرسل ، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرّمات ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ أي قطر السماء ونبات الأرض . قال تعالى : ﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم ، ثم قال تعالى محذراً من مخالفة أوامره ، والتجرؤ على زواجره ﴿ أفأ من أهل القرى ﴾ أي الكافرة ، ﴿ أن يأتيَهم بأسُنا ﴾ أي عذابنا ﴿ بياتاً ﴾ أي ليلاً ﴿ وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيَهم بأسُنا ضحىً وهم يلعبون ﴾ أي حال شغلهم وغفلتهم. ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ ولهذا قال الحسن البصري : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن .

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ❁ (١٠٠)

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ : يقول تعالى أو لم يتبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم ، وعتوا على ربهم . ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴾ يقول تعالى : لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿ ونطبع على قلوبهم ﴾ يقول سبحانه ونختم على قلوبهم ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ موعظة ولا تذكيراً . وذلك كما قال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ أي هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً ؟ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه **وحصول نعمه لأوليائه** .

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

لما قصَّ تعالى على نبيّه ﷺ خبرَ قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه للكافرين، وإنجائه للمؤمنين. وانه تعالى أعذر اليهم بأن بيّن لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قال تعالى: ﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ أي نقص عليك يا محمد من أخبارها ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات ﴾ أي الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به. كما قال تعالى: ﴿ وما كنّا معذبين حتى نبعثَ رسولاً ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل ﴾ الباء سببية أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل، بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم [(١)]. حكاه ابن عطية رحمه الله وهو متّجه حسن. ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم ﴾ أي لأكثر الأمم الماضية ﴿ من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ أي ولقد وجدنا أكثرها فاسقين، خارجين عن الطاعة والامتثال، والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، وإنه لا آله الا هو، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك. وجاءت الرسل الكرام جميعاً بالنهي عن ذلك، كما جاء في صحيح مسلم بقول الله تعالى ٣١١ : [اني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم.] وفي الصحيحين ٣١٢ : [كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه] الحديث.

---

(١) قلت: لما عرض عليهم الحق أول مرة ولم يؤمنوا به، جازاهم الله تعالى بالطبع على قلوبهم فلم يدعهم يؤمنون، مجازاة لهم على كفرهم بالمرة الأولى وذلك جزاء من نوع العمل فكان جزاء وفاقاً.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۞ (١٠٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ أي بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين ﴿ موسى بآياتنا ﴾ أي بحجتنا ودلائلنا البيّنة ﴿ الى فرعون ﴾ وهو ملك مصر في زمن موسى ﴿ وملئه ﴾ أي قومه ﴿ فظلموا بها ﴾ أي جحدوا وكفروا بها ظلماً وعناداً ، ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أي انظر يا محمد كيف فعلنا بهم ، وأغرقناهم عن آخرهم ، بمرأى من موسى وقومه ، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه ، وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ (١٠٦) ﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون ، وإلجامه إياه بالحجة ، وإظهاره الآيات البينات بحضور فرعون وقومه . فقال تعالى : ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين ۞ حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾ أي واجب عليَّ وحقٌ أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿ قد جئتكم ببيّنة من ربكم ﴾ أي بحجة قاطعة من الله ، دليلاً على صدقي فيما جئتكم به ﴿ فأرسل معي بني اسرائيل ﴾ أي أطلقهم من أسرك وقهرك ، ودعهم وعبادة ربهم وربك ، فإنهم من سلالة نبيّ كريم ، إسرائيل وهو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم خليل الرحمن ﴿ قال إن كنتَ جئت بآية فأتِ بها إن كنت من الصادقين ﴾ أي لست بمصدّقك ولا بمعطيك فيما طلبت ، فإن كنت صادقاً فهات حجتك فأظهرها لنراها ونؤمن بها .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ۞ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ۞ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۞ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۞ (١١٠) ﴾

الثعبان هو الذكر من الحيات فقوله تعالى : ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ قال السدي الثعبان هو الذكر من الحيات فاتحة فاها واضعةً لحيها الأسفل في الأرض، والأعلى على سور القصر ، ثم توجهتْ نحو فرعون لتأخذه فلما رآها ذعر منها ووثب ، وأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك ، وصاح يا موسى خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني اسرائيل ، فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا . وروي عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا . وقوله تعالى : ﴿ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ أي أخرج يده من درعه تتلألأ من غير برص ولا مرض ، كما قال تعالى : ﴿ وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ الآية ... قال ابن عباس أي من غير برص ثم أعادها إلى كمّه فعادت إلى لونها الأول . وقوله تعالى : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ أي قال الجمهور من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعه ، واستقر على سرير مملكته ، بعد ذلك قال للملأ حوله : ﴿ إنّ هذا لساحر عليم ﴾ فوافقوا وقالوا مقالته وتشاوروا كيف يخمدون كلمته ، ويطفئون نوره ، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره ، فيكون سبباً لظهوره عليهم ، وإخراجهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى : ﴿ ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ واتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ۞ (١١٢) ﴾

قال ابن عباس ﴿ أرجه ﴾ أخّرْه ﴿ وأرسل ﴾ أي ابعث ﴿ في المدائن ﴾ أي الأقاليم ومدن ملكك ﴿ حاشرين ﴾ أي من يحشر السحرة من سائر البلاد ويجمعهم ، وقد كان السحر في زمانهم غالباً ، كثيراً ظاهراً ، وظنوا ان ما جاء به موسى عليه السلام من

قبيل ما تشعبذه سحرتهم ، فلهذا جمعوهم ، ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات فواعدوه .كما قال تعالى : ﴿ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فتولّى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ وقال تعالى هاهنا :

﴿ وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ * (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * (١١٤) ﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام ، إن غلبوا موسى ليثيبنّهم وليعطينّهم عطاءً جزيلاً فوعدهم بما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده فلما توثقوا من فرعون لعنه الله .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ *(١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * (١١٦) ﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم : ﴿ إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين﴾ أي قبلك فقال لهم موسى عليه السلام : ألقوا أنتم أولا ، حتى يرى الناس صنيعهم ، ويتأملوه ، فإذا فرغوا من بهرجهم جاءهم الحق الجلي بعد التطلب له ، والانتظار منهم لمجيئه فيكون أوقع في النفوس وهكذا كان . ولهذا قال تعالى : ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ أي خيّلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه حقيقة . كما قال تعالى: ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقفْ ما صنعوا إنّ ما صنعوا كيدَ ساحرٍ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾

﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ ، فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً وذلك من سحرهم الذي اختطفوا به بصر موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس ولهذا قال تعالى : ﴿ وجاءوا بسحر عظيم ﴾

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

أوحى الله إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام بأن يلقي عصاه ﴿ فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ أي تأكل ما يوهمون أنه حق وهو باطل. قال ابن عباس فجعلت لا تمرّ بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس هذا بسحر فخروا سجداً وقالوا : ﴿ آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عما توعّد به فرعون لعنه الله السحرةَ ، لما آمنوا بموسى عليه السلام ، وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله تعالى : ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾ أي إن غلبته لكم في يومكم هذا ، إنما كان عن تشاورٍ منكم ورضا لذلك. كقوله في الآية الأخرى : ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ وهو يعلم وكل عاقل يعلم ، أن هذا القولَ باطلٌ . لأن موسى لا يعرف أحداً من السحرة ولا رآه ، ولا اجتمع به . وفرعون يعلم ذلك . وإنّما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته

وجهلتهم كما قال تعالى : ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ فإن قوماً صدقوه في قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم . وقوله تعالى : ﴿ لتخرجوا منها أهلها ﴾ لتخرجوا منها الرؤساء والأكابر وتكون الدولة والتصرف له ولكم ﴿ فسوف تعلمون ﴾ ما سأصنع بكم ثم فسر هذا الوعيد بقوله : ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ يعني يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿ في جذوع النخل ﴾ أي على الجذوع .

قال ابن عباس : وكان أول من صلب واول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون.وقول السحرة : ﴿ إنَّا إلى ربنا منقلبون ﴾ أي قد تحققنا انا اليه راجعون ، وعذابه أشد من عذابك فلنصبر اليوم على عذابك . لنتخلص من عذاب الله . ولهذا قالوا : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفّنا مسلمين ﴾ أي عُمّنا بالصبر على دينك وتوفنا متابعين لنبيك موسى عليه السلام ، وقالوا لفرعون ﴿ فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العُلى ﴾ فكانوا أول النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء بررة .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ * (١٢٩) ﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وقومه ، وما أضمروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغيضة ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون ﴾ أي لفرعون ﴿ أتذر موسى وقومه ﴾ أي تدعهم ليفسدوا رعيّتك ويدْعوهم إلى عبادة ربهم دونك ؟ ولهذا قالوا : ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ قال السدي : وآلهته فيما زعم ابن عباس كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم

أن يعبدوها . فلذلك أخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار. والمعنى : أتذره وقومه يفسدون رعيتك وقد ترك عبادتك وعبادة آلهتك . فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله : سنقتل أبناءهم ، ونستحيي نساءهم ، وكان قد نكل بهم ذلك قبل ولادة موسى عليه السلام خوفاً من وجوده فكان المقدّر خلاف ما رامه فرعون ، وهكذا عومل في صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بني اسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد : أعزهم الله وأذلّه ، وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده . ولما صمم فرعون على إساءته لبني إسرائيل ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾ ووعدهم بأن الدار ستصير لهم في قوله تعالى : ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ أي قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر وما سيصيرون إليه في ثاني حال : ﴿ عسى ربّكم أن يُهلك عدوكم ﴾ وهذا : تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * (١٣١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون ﴾ أي امتحناهم ﴿ بالسنين ﴾ وهي سنيّ الجوع بسبب قلة الزروع ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ أي كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ، ﴿ لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ أي من الخصب والرزق ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي هذا لنا بما نستحقه ﴿ وإن تصبْهم سيئة ﴾ أي جدب وقحط ﴿ يطيّروا بموسى ومن معه ﴾ أي هذا بسببهم وما جاءوا به ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ أي مصائبهم عند الله ومن قبله تعالى ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ

آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ۞ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ۞ (١٣٥)

هذا إخبار من الله عز وجل ، عن تمرد قوم فرعون ، وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل ــ في قولهم : ﴿ مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾ يقولون : أيّ آية جئتنا بها ، ودلالة وحجة أقمتها ، رددناها . فلا نقبلها منك ، ولا نؤمن بك ، ولا بما جئت به . قال الله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ قال ابن عباس كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار ﴿ والجراد ﴾ وأما الجراد فمعروف مشهور ومأكول لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال سألت عبدالله بن أبي أوفى عن الجراد فقال : ٣١٣ [غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد] وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال ٣١٤ [أحلت لنا ميتتان ودمان الحوت والجراد والكبد والطحال] وروى ابن ماجه عن أنس وجابر عن رسول الله ﷺ ٣١٥ : [أنه كان إذا دعا على الجراد قال : « اللهم أهلك كباره واقتل صغاره وأفسد بيضه واقطع دابره وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا انك سميع الدعاء » فقال له جابر : يا رسول الله أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال : « إنما هو نثرة حوت في البحر . »] وهكذا فإن الجراد جند الله أرسله الله على فرعون وقومه ، حتى انه كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم ، وأكل الشجر والثمر والزروع .

﴿ والقمل ﴾ وقد أرسل الله عليهم القمل وقال ابن اسحق بن يسار رحمه الله من حديث له ... فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار ﴿ والضفادع ﴾ ثم أرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجدوا فيه الضفادع قد غلبت عليه حتى ان الرجل إذا هم أن يتكلم وثب الضفدع في فيه ﴿ والدم ﴾ ثم ارسل الله عليهم الدم فصارت

مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً[1] ﴿ آيات مفصلات ﴾ أي كل هذه الآيات الظاهرات أرسلها الله عليهم، ليؤمنوا فما آمنوا. وكلما أتتهم آية يُهرَعون إلى موسى قائلين: أدع لنا ربك أن يكشف عنا فنؤمنَ لك، ونرسلَ معك بني اسرائيل فيدعو موسى ربَّه فيكشف الله عنهم ما هم فيه ولكن لا يَفُونَ له بشيء، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. وهكذا فقد ظلّوا على كفرهم وعنادهم، فحقّت عليهم النقمة من الله سبحانه، فانتقم منهم فأغرقهم، وأورث المؤمنين من بعدهم الأرضَ المقدسة، بما صبروا ودمر الكافرين.

﴿ فَٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ * (١٣٧) ﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمرّدوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة، واحدة بعد واحدة انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم. وهو البحر الذي فرقه موسى فجاوزه وبنو اسرائيل معه.

ثم ورده فرعونُ، وجنوده على أثرهم. فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله. وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل مشارقَ الأرض ومغاربَها. كما قال تعالى: ﴿ ونريد أن نمنَّ على الذين استضعِفوا في الأرض ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين * ونمكّن لهم في الأرض ونُريَ فرعون وهامان وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾

وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ يعني الشام. وقوله تعالى: ﴿ وتمّت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ﴾ قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى: ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكّن لهم في الأرض ونُريَ فرعون وهامان

(١) أي دماً خالصاً.

وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ أي وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ﴿ يعرشون ﴾ يبنون ..

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ❁ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ❁ (١٣٩) ﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلةُ بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر ، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ... ﴿ فأتوا ﴾ أي فمرّوا ﴿ على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴾ قال بعض المفسرين كانوا من الكنعانيين . قال ابن جرير : وكانوا يعبدون أصناماً على صورة البقر فلهذا أثار ذلك شبهةً لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك ، فقالوا : ﴿ يا موسى اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾ أي تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزّه عنه من الشريك والمثيل ﴿ إنّ هؤلاء متبّرٌ ما هم فيه ﴾ أي هالك ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ وروى الامام أبو جعفر بن جرير في تفسير هذه[1] الآية ٣١٦ [ــ ان المسلمين ــ خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين قال وكان للكفار سِدرةٌ يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط . قال فمررنا بسدرة خضراء ، عظيمة . قال : فقلنا يا رسول الله : إجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذاتُ انواط فقال : « قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى : إجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة قال : ﴿ إنكم قوم تجهلون . إنّ هؤلاء متبرّ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾]

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ❁ (١٤٠)

(١) عن أبي واقد الليثي .

وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ❁ (١٤١)

يذكّرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسْر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا اليه من العزة، والاشتفاء من عدوهم، والنظر اليه حال ذله وغرقه ودماره. (١)

وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ❁ (١٤٢)

يقول تعالى ممتناً على بني اسرائيل، بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى انه واعد موسى ثلاثين ليلةً. قال المفسرون فصامها موسى عليه السلام وطواها. فلمّا تمّ الميقات استاك بلحاء شجرة (٢). فأمره تعالى أن يكمل بعشر أربعين، وأكثر المفسرين على ان الثلاثين هي ذو القعدة والعشر عشر ذي الحجة روى عن ابن عباس وغيره فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام، وفيه اكمل الله لمحمد ﷺ الدين كما قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾ فلمّا تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور، استخلف اخاه هارون على بني إسرائيل، ووصّاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا من قبيل التذكير وإلاّ فهارون عليه السلام نبيٌ شريف كريم على الله، له وجاهةٌ وجلالة صلى الله على نبينا، وعليه وعلى سائر الأنبياء وسلّم.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ

(١) وقد تقدم تفسيرها في سورة البقرة الآية رقم (٤٩) في المجلد الأول من هذا المختصر.

(٢) أي بقشر شجرة.

إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ❁ (١٤٣)

يخبر تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام، انه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال : ﴿رب أرني أنظر اليك قال لن تراني﴾ وقد أشكل حرف ﴿لن﴾ ها هنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة، وهذا اضعف الأقوال والصحيح أنها لنفي الرؤية في الدنيا فقط وهناك الأدلة القاطعة بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [1] وفي الكتب المتقدمة، أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام « يا موسى إنه لا يراني حي إلاّ مات ولا يابس إلا تدهده » ولهذا قال تعالى : ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً﴾ روى ابن جرير عن أنس قال : ٣١٧ [قرأ رسول الله ﷺ : ﴿فلما تجلىّ ربّه للجبل جعله دكاً﴾ قال ووضع الإبهام قريباً من طرف خنصره قال : فساخ الجبل قال حميد لثابت يقول هكذا ؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال : يقوله رسول الله ﷺ ويقوله أنس، وأنا أكتمه ؟] وهكذا رواه الامام أحمد والترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلاّ من حديث حماد . وهكذا رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ورواه أبو محمد الحسن بن محمد بن علي الخلال . وقال هذا اسناد صحيح لا علة فيه ﴿جعله دكاً﴾ أي تراباً ﴿وخر موسى صعقاً﴾ قال مغشيّاً عليه وقيل ميتاً . والصحيح الأول لقوله تعالى : ﴿فلما أفاق﴾ والإفاقة لا تكون إلاّ عن غشي . ﴿قال سبحانك﴾ تنزيهاً وتعظيماً واجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات . وقوله تعالى : ﴿تبت إليك﴾ أي تبت إليك من سؤالك الرؤية ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ قال ابن عباس أي أول المؤمنين من بني اسرائيل . وقال ابو العالية : قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول أنا أول من آمن بك بأنه لا يراك احد من خلقك إلى يوم القيامة .

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي

(١) أنظر سورة القيامة الآية رقم /٢٣/

فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ ❁ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَاسِقِينَ ❁ (١٤٥)

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنّه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه ، ولا شك أن محمداً ﷺ سيّد ولد آدم من الأولين والآخرين ولهذا اختصّه الله تعالى بأن جعله خاتم النبيين والمرسلين كلهم ؛ وبعده في الشرف والفضل إبراهيم عليه السلام ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السلام ولهذا قال الله تعالى له : ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ أي من الكلام والمناجاة ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ أي على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به . ثم اخبر تعالى : انه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة ، وتفصيلاً لكل شيء . وان الله تعالى كتب له فيها مواعظ واحكاماً ، مفصلة مبينة للحلال والحرام ، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فخذها بقوة ﴾ أي بعزم على الطاعة ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ أي بأشد ما أمر قومه ، وقوله تعالى : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ أي سترون عاقبة من خالف أمري ، وخرج عن طاعتي ، كيف يصير إلى الهلاك والدمار .

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ❁ (١٤٦) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ❁ (١٤٧)

يقول تعالى : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي ، قلوب المتكبرين عن طاعتي ،

ويتكبرون على الناس بغير حق ، أي كما استكبروا بغير حق ، أذلهّم الله بالجهل . كما قال تعالى : ﴿ ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقال بعض السلف لا ينال العلم حييٌ ولا مستكبر . وقوله تعالى : ﴿ وإن يروا كل آيةٍ لا يؤمنوا بها ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقّتْ عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آيةٍ حتى يرَوُا العذاب الأليم ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ﴾ أي وإن ظهر لهم طريق النجاة لا يسلكوها ، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً ؛ ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ أي بسبب ما كذّبت بها قلوبهم ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ أي لا يعملون بما فيها . وقوله تعالى : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ﴾ أي من فعل منهم ذلك واستمر إلى الممات عليه حبط عمله . وقوله تعالى : ﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي إنمّا نجازيهم بحسب اعمالهِم التي أسلفوها إن خيراً فخير وان شراً فشر وكما تدين تدان .

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ❁(١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ❁(١٤٩) ﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضلّ من بني اسرائيل ، في عبادتهم العجل ، الذي اتخذه لهم السامريُّ ، من حُليّهم ، فشكّل لهم منه عجلاً ، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من اثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلاً له خوار . والخوار صوت البقر ، وحصل ذلك بعد ذهاب موسى للميقات ، فأعلمه الله تعالى بذلك ، وهو على الطور . كما قال تعالى : ﴿ قال فإنّا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامريُّ ﴾ ويقال إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتتنوا به [1] ، وقالوا هذا إلهكم وإله موسى . قال الله تعالى : ﴿ أفلا يرون ألاّ يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل ،

(١) ذكر أن حلقات (الرقص) التي يقيمها أهل الطرق في زمننا الحاضر ، ويسمونها (حلق الذكر) – وجلّ ذكر الله عنها – مأخوذة من رقصات بني اسرائيل حول العجل !!! فتأمل !!!

وذهولهم عن خالق السموات والارض . فعبدوا معه عجلاً جسداً له خوار ، لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ، ولكن عمى الجهل غطى على بصائرهم . روى أحمد عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ ٣١٨ [حبك الشيء يعمي ويصم] .

وقوله تعالى : ﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ أي ندموا على ما فعلوا ﴿ ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ أي من الهالكين . وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل .

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ (١٥٠) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ (١٥١) ﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى غضبان أشد الغضب ﴿ قال بئسما خلفتموني من بعدي ﴾ أي بئس ما صنعتم في غيابي ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ أي ان الله هو الذي قدّر غيابي وتأخري ﴿ وألقى الالواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه ﴾ أي القى الالواح غضباً على قومه ، وفي غضبته هذه دلالة على ما جاء في الحديث ٣١٩ [ليس الخبر كالمعاينة] واخذ برأس أخيه يجره إليه خوفاً من أن يكون قد قصّر في نهيهم كما قال في الآية الاخرى : ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمري ۝ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ۝ إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي ﴾ وقال ها هنا : ﴿ ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تُشمِتْ بي الاعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ أي لا تسقني مساقهم ولا تخلطني معهم . وإنما قال : ابن أمَّ ليكون أرقَّ وأنجعَ عنده وإلاّ فهو شقيقه لأبيه وأمه فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام ، ﴿ قال رب اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال

قال رسول الله ﷺ : ٣٢٠ . [يرحم الله موسى ليس المعاين كالمُخبَرِ أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلقِ الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح .]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ۞ (١٥٢) وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۞(١٥٣) ﴾

الغضب الذي نالهم من الله تعالى ، هو أنه لم يقبل توبتهم حتّى قتل بعضهم بعضاً . كما تقدم في سورة البقرة [١] واما الذلة ، فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا ، وقوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ أي نعاقب بذلك كل مفتر بدعة ، فإن ذل البدعة ، ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفيه ، ثم نبّه تعالى عباده وارشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان ، حتّى الكفر والشرك والنفاق ولهذا عقب هذه القصة بقوله تعالى: ﴿ والذين عملوا السيئآت ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها ﴾ أي تلك الفعلة ﴿ لغفور رحيم ﴾

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَىٰ ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۞(١٥٤) ﴾

يقول تعالى : ﴿ولما سكت﴾ أي سكن ﴿عن موسى الغضب﴾ أي غضبه على قومه ﴿أخذ الالواح﴾ أي التي القاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل،غيرة لله وغضباً له ﴿وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ يقول كثير من المفسرين أنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك ، ولهذا قال بعض السلف فوجد فيها هدى ورحمة ، وأما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين القاها وهي من جوهر الجنة فقد اخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها ﴿هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾

---

(١) راجع الآية /٥٤/ من سورة البقرة عند قوله تعالى : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ... »

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَافِرِينَ ۞ (١٥٥) وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ (١٥٦)﴾

كان الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يختار من قومه سبعين رجلاً. فاختارهم من أخير بني اسرائيل وقال لهم : انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم من عبادة العجل وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّته له ربه، وكان لا يأتيه إلاّ بإذن منه تعالى، فلما فعلوا ما أمرهم به وخرجوا للقاء ربهم قالوا لموسى عليه السلام : أطلب لنا نسمع كلامَ ربنا ، فقال : أفعلُ ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشّى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم : أدنوا فدنوا حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه إفعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا : ﴿لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً فأخذتهم الصاعقة﴾ أي فماتوا جميعا ،
فقام موسى يناشد ربّه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : ﴿رب لو شئتَ اهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلاّ فتنتك تُضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾
فقوله تعالى حكايةً عن موسى : ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا﴾ أي أتهلك هؤلاء بما فعل السفهاء منا من عبادة العجل قال ابن عباس وقتادة وابن جرير : إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولانهوهم . ويتوجه هذا القول بقول موسى · ﴿اتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ وقوله : ﴿إن هي إلاّ فتنتك﴾ أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من علماء السلف والخلف ، ولا معنى له غير ذلك

يقول : إن الأمر إلاّ أمرُك ، وإن الحكم إلا حكمك ، لك الخلق والأمر ، وقولـه : ﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ الغفر هو السّتر وترك المؤآخذة بالذنب والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها ان لا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿وانت خير الغافرين﴾ أي لا يغفر الذنب إلا أنت ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ فالذي تقدم من الدعاء هو لدفع المحذور ... أي ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ لتحصيل المقصود أي أوجب لنا واثبت لنا فيهما حسنة وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة [١] ﴿إنّا هدنا اليك﴾ أي تبنا ورجعنا وأنبنا اليك [٢] . وقوله تعالى : ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾ أي أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد ولي الحكمة والعدل في كل ذلك سبحانه وتعالى لا إله إلا هو . وقوله تعالى : ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ أي عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى اخباراً عن حملة العرش ومن حوله انهم يقولون : ﴿ربنا وسعت كل شيءٍ رحمةً وعلماً﴾ روى الامام احمد عن سلمان عن النبي ﷺ قال ٣٢١ [إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخرّ تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة [وأخرجه مسلم . وقوله تعالى : ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآية يعني فسأوجبها أي فسأوجب حصول رحمتي منّةً مني وإحساناً إليهم وقوله تعالى : ﴿للذين يتقون﴾ أي يتقون الشرك والعظائم من الذنوب وقوله تعالى: ﴿ويؤتون الزكاة﴾ قيل زكاة النفوس ، وقيل الاموال ، ويحتمل ان تكون عامةً لهما فإن الآية مكية ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ أي يصدقون .

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ (١٥٧)﴾

---

(١) راجع تفسيرها في سورة البقرة عند الآية /٢٠١/ .
(٢) ثم أحياهم الله بدليل قوله تعالى : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون البقرة آية /٥٦/ .

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والأنجيل﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الانبياء ، بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته ولم تــزل صفاته موجودةً في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم . كما روى الإمام أحمد عن أبي صخر العقيلي قال حدثني رجل من الأعراب قال ٣٢٢ [جلبت حلوبةً إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت من بيعي قلت : لألقيَّن هذا الرجل فلأسمعن منه قال فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعتهم حتى أتوا على رجلٍ من اليهود ناشراً التوراة يقرأها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها فقال رسول الله ﷺ : « انشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي » فقال برأسه هكذا ، أي : لا . فقال ابنه : أي والذي انزل التوراة إنّا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وإني أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أنك رسول الله فقال : « أقيموا اليهودي عن أخيكم » ثم تولىّ كفنه والصلاة عليه] هذا حديث قوي له شاهد في الصحيح عن أنس .

وقال ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبدالله بن عمرو فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال أجل والله انه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن : ﴿يا أيها النبي إنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وحرزاً للأميين انت عبدي ورسولي اسمك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله الا الله ويفتح به قلوباً غلفاً وآذاناً صماً وأعيناً عمياً ، قال عطاء : ثم لقيت كعبــاً فسألته عن ذلك فما اختلف حرفاً إلا ان كعباً قال بلغته : قال : قلوباً غلوفياً وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً . وقد رواه البخاري في صحيحه وزاد قوله ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح

هذه صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبدالله بن مسعود : إذا سمعت الله يقول : ﴿يا ايها الذين آمنوا﴾ فأرعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه . وقوله تعالى : ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ، ويحرم عليهم الخبائث : كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى . قال بعض العلماء فكل ما أحل الله فهو طيب نافع في البدن والدين وكل

ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين [1] وقوله تعالى : ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ أي انه جاءبالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٣٢٣ [بعثت بالحنيفية السمحة] وقوله ﷺ لأميريه معاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن ٣٢٤ [بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا] وعن أبي برزة الأسلمي **قال** قال عليه الصلاة والسلام ٣٢٥ [ان الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أوتعمل [وقال ﷺ : ٣٢٦ [رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه] ولهذا قال : ٣٢٧ [ارشد الله هذه الامة أن يقولوا : ﴿ ربنا لا تؤآخذنا إن نسينا أو اخطأنا ربناولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ وثبت في صحيح مسلم ٣٢٨ [ان الله تعالى قال بعد كل سؤآل من هذه: قدْ فعلت قدْ فعلت] وقوله تعالى : ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه﴾ أي عظموه ووقروه . وقوله تعالى : ﴿ واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴾ أي القرآن والسنة ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ في الدنيا والآخرة .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٥٨)

يقول الله لنبيه ورسوله محمد ﷺ : ﴿قل﴾ يا محمد ﴿ يا أيها الناس﴾ وهذا خطاب عام للأحمر والأسود والأبيض والعربي والعجمي ﴿ إني رسول الله اليكم جميعاً ﴾ وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وانه مبعوث إلى الناس كافة كما قال الله تعالى : ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ وقال تعالى : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ والآيات في هذا كثيرة والأحاديث أكثر من أن تحصر ؛ وهو أمر معلوم من دين الاسلام ضرورةً انه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم .

(١) قلت : ومن ذلك الدخان ويشمل التمبغ والتنباك والقات والمضغة فهو خبيث الرائحة والطعم، ومضر ضرراً بالغاً بالجسم. وقد قرر الاطباء أن أكثر من ٦٠٪ من إصابات السرطان بالرئة والشفة والحنجرة، متأتٍ من شرب الدخان ! ! ! فهل يتوقف أحد في تحريمه ؟ هذا عدا عن أنه مضر ، وفيه سموم ، يكفي قليل منها لقتل بعض الحيوانات فوراً .

روى الامام احمد عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده ٣٢٩ [ان رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى اذا صلى انصرف اليهم فقال لهم : « لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامةً وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملىء مني رعباً، وأحلّت لي الغنائم أكلها وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها ، وجعلت لي الارض مسجداً وطهوراً أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت وكان مَن قبلي يعظمون ذلك انما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم ، والخامسة هي ما هي قيل لي سل فان كل نبي قد سأل فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن لا إله الا الله »] إسناد جيد قوي ولم يخرجوه. روى مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ٣٣٠ [والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأُمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلاَّ دخل النار] روى الامـــام أحمد عن أبي موسى رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ٣٣١ [من سمع بي من امتي يهودي او نصراني فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة] وقوله تعالى : ﴿الذي له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحي ويميت﴾ صفة لله تعالى في قول رسول الله ﷺ أي الذي ارسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الاحياء والإماتة وله الحكم ، وقوله تعالى : ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ اخبرهم انه رسول الله اليهم وهو الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة فانه منعوت بذلك في كتبهم ولهذا قال النبي الأمي . وقوله تعالى : ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي يصدق قولَه عملُه وهو يؤمن بما أنزل اليه من ربه ﴿واتبعوه﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي إلى الصراط المستقيم .

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ۝ (١٥٩)

يخبر تعالى عن طائفة من بني اسرائيل يتبعون الحق ويعدلون به كما قال تعالى : ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب﴾ وكما قال تعالى : ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ۝ واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ۝ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ الآية ويقال أن بني اسرائيل لما قَتَلوا أنبياءَهم وكفروا، وكانوا اثنيْ عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله عز وجل أن يفرق بينهم وبينهم . = فهؤلاء ظلوا على الحق وهـــم

يحكمون به بالعدل ، وهناك بعض أخبارٍ عنهم أي عن هذه الفئة المؤمنة لم تثبت بنقل صحيح عن الثقات فلذلك نضرب صفحاً عن ذكرها =(١)

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ إِذِ ٱسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِب بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ (١٦١) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ۝ (١٦٢) ﴾

تقدَّم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا السياق مكي فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب لأن الله تعالى يقصُّ على رسوله ﷺ ما فعل بهم ، أما في سورة البقرة وهي مدنية فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً اليهم وأخبرهم بقوله تعالى : ﴿فانبجستْ منه اثنتا عشرةَ عيناً﴾ وهو أول الانفجار ، وأخبر هناك بما آل اليه الحال آخراً وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار هناك والانبجاس هنا والله أعلم .

﴿ وَٱسْأَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝ (١٦٣) ﴾

هذا بسط لقوله تعالى: ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ﴾ الآية يقول تعالى لنبيّه صلوات الله وسلامه عليه : ﴿واسألهم﴾ أي واسأل عن هؤلاء اليهود الذين

(١) ما بين المساويين من كلام المختصر لا من كلام المفسر رحمه الله وغفر له .

بحضرتك عن قصة اصحابهم الذين خالفوا امر الله ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واحتيالهم في المخالفة . وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم ، وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطيء بحر القلزم وقوله تعال : ﴿إذ يعدون في السبت﴾ أي يعتدون فيه ويخالفون امر الله ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً﴾ أي ظاهرة على الماء من كل مكان وقوله تعالى : ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم في اليوم المحرم عليهم واخفائه عنهم في اليـــوم الحلال ﴿كذلك نبلوهم﴾ نختبرهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ يقول بخروجهم عن طاعة الله ، واحتيالهم على انتهاك محارم الله بما تعاطوه من الأسباب التي معناها في الباطن تعاطي الحرام وقد روى الفقيه ابن بطة رحمه الله عن ابي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٣٣٢ [لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل] وهذا إسناد جيد فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه وباقي رجاله مشهورون ثقات

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۞ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۞ (١٦٦) ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق ، فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه في سورة البقرة . وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنهَ، ولكنها قالت للمنكرة ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ قالت لهم المنكرة : ﴿معذرة إلى ربكم﴾ أي فيما أخذ علينا من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ولعلهم يتقون﴾ أي يتوبون (*) اليه تعالى . وقوله تعالى : ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿ بعذاب بئيس﴾ فنصَّ على

(*) راجع الآية رقم /٦٦/ من سورة البقرة – المجلد الأول .

نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين لأن الجزاء من جنس العمل فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الناجين أم الهالكين على قولين [١] وقوله تعالى: ﴿ وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا وقوله تعالى : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ أي مسخوا قردةً حقيقةً ، و ﴿ خاسئين ﴾ أي ذليلين حقيرين مهانين .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٦٧)

﴿ تأذَّن ﴾ تفعّلٌ من الأذان أي أعلَمَ ، قاله مجاهد وقال غيره:أمَرَ ، وفي قوة الكلام مايفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا اتبعت باللام في قوله تعالى : ﴿ ليبعثنّ عليهم ﴾ أي على اليهود ﴿ إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ أي بسبب عصيانهم أوامر الله واحتيالهم عليها. ويقال إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج ثلاث عشرة سنة وكان أول من ضرب الخراج ، ثم قهر اليونان والكلدان وغيرهم ومن النصارى ثم من المسلمين يؤدون أي اليهود لهم الجزية والخراج ثم يكون آخر أمرهم ان يكونوا انصاراً للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى عليه الصلاة والسلام آخر الزمان . وقوله تعالى: ﴿ إن ربك لسريع العقاب ﴾ لمن عصاه ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن تاب، لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف .

---

(١) قلت : بل نحن مع الذين قالوا بهلاك الساكتين كما هلك الظالمون لأنهم استحقوا ذلك بسكوتهم وعدم نصحهم. فلعل سكوتهم كان سبباً لتمادي الظالمين بظلمهم،– إذ عدم التناهي عن المنكر له عقاب عند الله. قال تعالى: «لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون»ولا شك أن السكوت عن فعل الظالم هو ظلم بحد ذاته ، واشتراك مع الظالم بظلمه، وإن كانوا لا يتقصدون ذلك وإن الرسول صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نأخذ على يد الظالم ونأطره على الحق أطراً وإذا لم نفعل فإن الله تعالى يعاجلنا بعقاب منه ، جزاء إهمالنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لذلك فإننا نرجح أن الذين لم ينهوا عاقبهم الله بعقاب لا نعلمه جزماً ما هو ... فقد يكون عقاباً خاصاً يتلاءم مع جرمهم وقد يكون مسخاً مع الذين ظلموا واعتدوا والله تعالى أعلم.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ ٱلصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ ٱلْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ (١٦٩) وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَابِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۞ (١٧٠) ﴾

يذكر تعالى أن فرقهم في الأرض طوائف وفرقاً ﴿منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾ أي فيهم الصالح وغير ذلك ، كقول الجن ﴿وأنا منا الصالحون ومنّا دون ذلك كنا طرائق قددا ﴾ ﴿وبلوناهم ﴾أي اختبرناهم ﴿بالحسنات والسيئآت﴾ أي بالرخاء والشدة والرغبة والرهبة والعافية والبلاء ﴿لعلهم يرجعون﴾ ثم قال تعالى : ﴿فخلف من بعدهم خلْفٌ ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي خلف من بعدهم جيل فيهم الصالح والطالح ، خلْفٌ آخر لا خير فيهم ورثوا دراسة التوراة ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي يعتاضون عن بَذْلِ الحق ونشره ، بعَرَض الحياةِ الدنيا ويُسوّفون أنفسَهم ويعِدُونها بالتوبة ، وكلما لاح لهم مثل الأولَ وقعوا فيه ، ولهذا قال : ﴿ وإن يأتِهم عرَض مثله يأخذوه﴾ يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه ويعترفون لله ، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه ، وقال قتادة في الآية : أي والله لَخَلْفُ سُوء﴿ورثوا الكتاب﴾ بعد أنبيائهم ورسلهم ، أورثهم الله وعهد إليهم ، وقال الله تعالى في آية أُخرى : ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة﴾ الآية ، وكلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالاً كان أو حراماً ، ثم يستغفرون الله ويتمنون على الله الأماني وغرة يغترون بها . قال الله تعالى : ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الا الحق﴾ قال ابن عباس فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها ، وقوله تعالى : ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ أي أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي ، عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والاجتراء على محارمي .

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى : ﴿والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب﴾ أي اعتصموا به واقتدوا بأوامره وتركوا زواجره ، ﴿ وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾



﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ (١٧١) ﴾

قوله تعالى : ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ أي رفعناه قاله ابن عباس ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾ أي رفعته الملائكة فوق رؤوسهم لما أبوا أن يأخذوا أحكام التوراة جميعها وقالوا لموسى عليه السلام : أنشر علينا ما فيها فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها ، قال اقبلوها بما فيها فراجعوه مراراً حتى يروا ما فيها،فأوحى الله للجبل فانقلع فارتفع في السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى:ألا ترون ما يقول ربي عز وجل لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل.فخرّ كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمني إلى الجبل،خوفاً من أن يسقط عليه • فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر يقولون هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۝ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ (١٧٤) ﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله تعالى ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ وفي الصحيحين

عن أبي هريرة (رض) قال قال رسول الله ﷺ ٣٣٣ [« كل مولود يولد على الفطرة »]

— وفي رواية -« على هذه الملة » فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »] وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ ٣٣٤ : [يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم] روى الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله عن الأسود بن سريع من بني سعد (رض) ٣٣٥ قال [غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال « ما بال أقوام يتناولون الذرية » فقال رجل يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين فقال « إن خياركم أبناء المشركين إلا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها »]

وقد ورد أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال . وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم : روى الإمام أحمد عن أنس ابن مالك (رض) عن النبي ﷺ قال ٣٣٦ [يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به قال فيقول نعم فيقول قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلاّ أن تشرك بي]

روى الترمذي عند تفسيره هذه الآية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٣٣٧ [لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ...]

ومما تقدم من الأحاديث دليل على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه ، أما إشهادهم على أنفسهم بأنه ربهم انما المراد به . انما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم من حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي [1] ولهذا قال تعالى : ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ ولم يقل من آدم ﴿من ظهورهم﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ذريتهم﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ قال تعالى : ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وأشهدهم على أنفسهم

(١) رقم /٣٣٣/ و /٣٣٤ من هذه الصفحة .

ألست بربكم قالوا بلى ﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالاً وقالاً والشهادة تارة تكون بالقول ، كقوله تعالى : ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ وتارة تكون حالاً كقوله تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك وكذا قوله تعالى :﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾وعلى هذا فإن قولهم في قوله تعالى : ﴿ بلى شهدنا ﴾ كان شهادة حال وقال : وجعل الله هذه الشهادة حجةً عليهم في الإشراك ، ودلَّ على أن الفطرة التي فطروا عليها ، هي الإقرار بالتوحيد ولهذا قال تعالى : ﴿ أن تقولوا ﴾ اي لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿ إنّا كنّا عن هذا ﴾ أي التوحيد ﴿غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذريةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون . *[1] وكذلك نفصّل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾[2]

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ * (١٧٧) ﴾

روى عبد الرزاق عن عبدالله بن مسعود (رض) في قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ الآية قال هو رجل من بني اسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء ورواه كذلك غير واحد عن منصور به وقيل صيفى بن الراهب وقيل إنه رجل من أهل البلقاء وكان يعلم الإسم الأعظم ، وقيل انه من أهل اليمن يقال له بلعم آتاه الله آياته فتركها ، وقالت ثقيف هو أمية بن أبي الصلت روى ذلك عن ابن عمرو وكأنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه فإنه كان لديه علم كثير من الشرائع المتقدمة وأدرك

(١) قلت : أي لئلا يحتجوا بأن الشرك من فعل آبائهم وأنهم بريئون من فعلهم فقد أخذ تعالى على كل منهم الإقرار والشهادة بأنه تعالى ربهم فكل فعل يخالف هذا الإقرار مسؤولون عنه بعد البلاغ .

(٢) قلت : أي إلى ما أقروا به من التوحيد فيرجعون عن شركهم إلى التوحيد .

رسول الله ﷺ فلم يتبعه رغم أنه اجتمع به ووالى المشركين عليه ، ورثى أهل بدر من المشركين وهو ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه فان له أشعاراً ربانية وحكماً وفصاحة ولكنه لم يشرح صدره للإسلام! والمشهور أن الذي نزلت فيه هذه الآية انما هو رجل من المتقدمين في زمن بني اسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف (قلت) [١] هو بلعام بن باعوراء ويتصل نسبه بلوط بن هاران بن آزر قال ابن عساكر : وهو الذي كان يعرف الاسم الأعظم فانسلخ من دينه وله ذكر في القرآن . وقيل كان قد أوتي النبوة فانسلخ منها وهذا مستحيل . [٢]

روى محمد بن اسحق بن يسار عن سالم أبي النضر أنه حدّث : أن موسى عليه السلام لما نزل بأرض بني كنعان من أرض الشام أتى قومُ بلعام إليه فقالوا له : هذا موسى بن عمران في بني اسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني اسرائيل ، وإنّا قومُك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة ، فاخرج فادعُ الله عليهم ، قال ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون ، كيف أذهب أدعو عليهم ، وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟ فلم يزالوا به حتى فتنوه فافتتن فسار متوجهاً الى الجبل الذي يطلُّ على عسكر بني اسرائيل ، وهو جبل حسبان حتى إذا أشرف على رأس حسبان وعلى عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ، ولا يدعو عليهم بشرٍ إلا صرف الله لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلاّ صرف لسانه إلى بني اسرائيل ، فقال له قومه : أتدري يا بلعام ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا قال فهذا ما لا أملك ، هذا شيء ، قد غلب الله عليه ثم قال لهم : قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة . ولم يبق الا المكر والحيلة فسأمكر لكمْ وأحتال : جمّلوا النساء وأعطوهن السِّلع ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعنها فيه . ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفيتموهم ، ففعلوا فلما دخلت النساء المعسكر مرت امرأة من الكنعانيين برجل عظيم من بني اسرائيل فلما رآها أعجبته ، فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال : إني أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقربها ؟ قال:أجل هي حرام عليك ، قال فوالله لا أطيعك في هذا ، فدخل بها قبته فوقع عليها . وأرسل الله عز وجل الطاعون في بني إسرائيل ، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى غائباً ، فجاء ... والطاعون يجوس فيهم ، فأُخبرَ الخبرَ

(١) يعني ابن كثير رحمه الله .

(٢) نعم مستحيل ... كيف يعطيه الله النبوة ، ويعلم انه سينسلخ منها لا سيما والله يقول : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » بل ويعلم ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة من قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام كما ورد ذلك في صحيح مسلم ... ؟

فأخذ حربته ، وكانت من حديد كلها ، ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء ، وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورُفع الطاعون ، فبلغ عدد الهالكين سبعين ألفاً ، ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ـــ إلى قوله ـــ لعلّهُم يتفكرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ أي صار مثل الكلب في ضلاله واستمراره فيه هذا من حيث أن الكلب من عادته أن يلهث ، إنْ زجرته أو تركته . وكذلك بلعام لم يعد ينتفع بالدعاء إلى الإيمان أو عدم الدعاء ، ففي الحالتين لا ينتفع بالموعظة ولا بالدعوة الى الايمان أو بعدمهما وذلك كما قال تعالى : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فاقصص القصص لعلهم ﴾ أي لعل بني اسرائيل والعالمين ، ﴿ يتفكرون ﴾ أي بما آل إليه بلعام وما جرى له مـــن إضلال الله إياه ، وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم ، الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب ، في غير طاعة ربه ، بل دعابه على حزب الرحمن وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الزمان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ أي لعل مشركي قريش الذين بلغهم نبأ بلعام بالقرآن ، يحذرون ويعتبرون بما وقع به ، فإنهم أي مشركو العرب واليهود المعاصرون لهم يعرفون محمداً ﷺ كما يعرفون أبناءهم . فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤآزرته .

وإن من ينصرف عن الإيمان به ﷺ ، منهم ، وخالف ما في التوراه من صفته ، وكتمها أحلّ الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي ساء مثلاً مَثلُ القوم الذين كذبوا بآيات الله ، فشبهوا بالكلاب الذين لا همَّ لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج من حوزة العلم والهدى ، وأقبل على شهوة نفسه ، واتبع هواه صار شبيها بالكلب وبئس المثل مثله . وقوله تعالى : ﴿ وأنفسَهم كانوا يظلمون ﴾ أي ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى ، والركون إلى دار البلى ، وموافقة الهوى .

﴿ مَنْ يَهْدِ ٱللهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ۞ (١٧٨) ﴾

يقول تعالى من هداه الله فإنه لا مضلّ له، ومن أضلّه فقد خاب وخسر وضل لا محالة. فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود ٣٣٨ [إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئآت أعمالنا من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له ...] الحديث بتمامه رواه أحمد وأهل السنن وغيرهم.

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ ۞ (١٧٩) ﴾

يقول تعالى: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ أي خلقنا لها ﴿ كثيراً من الجن والإنس ﴾ أي هيأناهم وبعمل أهلها يعملون. فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون (١)، قبل كونهم فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة. كما ورد ذلك في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال ٣٣٩: [إن الله قدَّرَ مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء] ومسألة القدر كبيرة وليس هذا موضع بسطها. وقوله تعالى: ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ أي لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿صمٌ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ ولم يكونوا صماً ولا بكماً ولا عمياً إلا عن الهدى كقوله تعالى ﴿إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ وقولُه تعالى: ﴿أولئك كالأنعام﴾ أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق، ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها، إلا في الذي يقيتُها في ظاهر الحياة الدنيا، تسمع صوت

---

(١) أي علم سبحانه ما سيختارون من العمل فكتب ذلك عنده في كتاب الله لايتبدل ولا يتغير وهو أم الكتاب.

راعيها ولا تفقه ما يقول ولهذا قال في هؤلاء ﴿بل هم أضل﴾ من الدواب لأنهـا قد تستجيب لراعيها إذا دعاهاوإن لم تفقه كلامه ، فتفعل ما خلقت له إما بطبعها وإمـا بتسخيرها بخلاف الكافر ، فانه إنّمـا خلق ليعبد الله ويوحده ، فكفر بالله وأشرك به تعالى . ولهذا من أطاع الله من البشر ، كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده ، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتمّ منه . ولهذا قال تعالى : ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَٰٓئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (١٨٠)﴾

عن أبي هريرة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٣٤٠ : [إن لله تسعا وتسعين اسماًمائة الا واحداً من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر] أخرجاه في الصحيحين ورواه البخاري وأخرجه الترمذي عن شعيب فذكر بسنده مثله وزاد بعد قوله : يحب الوتر ٣٤١ : [هو الله الذي لا آله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار ، المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيمالودود المجيدالباعث الشهيدالحق الوكيلالقوي المتين الولي الحميدالمحصي المبدىء المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي ، البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور] ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة ، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء الا في هذا الحديث ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق صفوان به .

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد عن عبدالله ابن مسعود (رض) عن رسول الله ﷺ أنه قال ٣٤٢ : [ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم اني عبدك ابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ماض في حكمك

عدل فيَّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك سميتَ به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلاّ اذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرجاً» فقيل يا رسول الله: افلا نتعلمها؟ فقال «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها»]

وقوله تعالى: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ قال قتادة: يشركون في أسمائه وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد والميل.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾

أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

يقول تعالى ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ وقد جاءت الآثار أن المراد بهذه الأمة هي هذه الأمة المحمدية ﴿وبه يعدلون﴾ يعملون ويقضون. وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال قال رسول الله ﷺ ٣٤٣: [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة» وفي رواية «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»] وقوله تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ ومعناه يفتح لهم أبواب الرزق، ووجوه المعاش، في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء. كما قال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وأملي

لهم ﴾ أي أطول لهم ما هم فيه ، ﴿ إنّ كيدي متين ﴾ أي قوي شديد . وقوله تعالى : ﴿ أو لم يتفكروا ﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿ ما بصاحبهم ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ من جنّة ﴾ أي ليس به جنون بل هو رسول الله حقاً دعا إلى حق ﴿ إنْ هو إلا نذير مبين ﴾ أي ظاهر لكل عاقل واعٍ وقال قتادة بن دعامة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشاً فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً : يا بني فلان وفلان فحذرهم بأس الله ووقائع الله فقال قائلهم : إن صاحبكم لمجنون بات يصوت حتى الصباح فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شي ﴾ أي أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وفيما خلق فيه ، فيتدبروا ويعتبروا به ويعلموا ان ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله ويطيعوه ويوحّدوه ، ويحذروا اقتراب آجالهم فيهلكوا وهم على كفرهم فيصيروا إلى عذاب الله الأليم .

وقوله تعالى : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ اي فبأي ترهيب بعد تحذير رسول الله وتخويفه الذي أتاهم به من عند الله عز وجل يصدقون ؛ إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاء بهم النبي ﷺ وقوله تعالى : ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون . ﴾ أي فمن يضلل الله تعالى بعد تبليغه وانذاره جزاء إعراضه فإنه لا يهديه أحد مهما كان شأنه .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ١٨٧ ﴾

يقول تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾ نزلت في قريش يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها ، وتكذيباً بوقوعها ووجودها . كما قال تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أيان مرساها ﴾ أي متى محطّها وقيامها ﴿ قل إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو ﴾ أي إنّ علمها عند الله ، وهو الذي يعلم متى تقوم على التحديد ، ولا يعلمها سواه أحد ، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾ أي ثقل علم وقتها على أهلهما ، وخفيت

فلا يعلم قيامها أحد منهم ، ﴿ لا تأتيكم إلاّ بغتة ﴾ أي إلاّ فجأة والناس كل في عمله ومتجره ومختلف شأنه وقال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة يبلغ به قال : ٣٤٤ [تقوم الساعة والرجل يحلب لقحته ، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم الساعة ...] وقوله تعالى : ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ كأنك عالم بها وقد أخفى الله علمها على خلقه ولهذا قال تعالى : ﴿ قل إنما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ ولهذا أجاب رسولُ الله ﷺ جبريلَ عليه السلام لما سأله عن الساعة : ٣٤٥ [... ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ...] أي لست أعلم بها منك ، ولا أحد أعلم بها من أحد ، ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ الآية ... فهذا النبيّ الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة ونبي التوبة ، ونبي الملحمة والعاقب والمقفي والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه ، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما : ٣٤٦ [بعثت أنا والساعة كهاتين » وقرن بين أصبعيه السبابة والتي تليها] ومع هذا كله قد أمره الله أن يردّ علمَ وقت الساعة إليه تعالى ، إذا سئل عنها فقال سبحانه : ﴿ قل إنما علمُها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ (١٨٨) ﴾

أمره الله تعالى أن يُفوّض الأمورَ إليه ، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطّلاع له على شيء من ذلك ، إلا بما أطلعه الله عليه ، كما قال تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾ الآية ... وقوله تعالى ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾ أي لو كنت أعلم الغيب ، لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربحَ فيه فلا أبيع شيئاً إلاّ ربحت فيه ،ولا يصيبني الفقر . قاله ابن عباس وقال ابن جرير وآخرون : معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ولوقت الغلاءَ من الرخص . وقوله تعالى : ﴿ وما مسني السوء ﴾ أي لاجتنبت الشر قبل أن يقع لم

أخبر أنه إنما هو نذير وبشير ، أي نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات . كما قال تعالى ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُدّاً ﴾ .

﴿ هوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ ۞ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (١٩٠) ﴾

ينبّه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام ، وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً . ﴾ قال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها . ﴾ أي ليألفها ويسكن بها كقوله تعالى ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ فلا إلفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه ﴿ فلما تغشّاها ﴾ أي وطئها ﴿ حملت حملاً خفيفاً ﴾ وذلك أن الحمل لا تجد المرأة له ألماً إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة .

وقوله تعالى : ﴿ فمرّت به ﴾ ثم قال مجاهد : استمرّت بحمله ﴿ فلما أثقلت ﴾ أي صارت ذات ثقل بحملها ﴿ دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً ﴾ أي بشراً سويا واشفقا ان يكون بهيمةً وقال الحسن البصري : لئن أتيتنا غلاماً ﴿ لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون ﴾ ذكر المفسرون ههنا آثاراً واحاديث هي — والله أعلم — عن أهل الكتاب تدور كلها حول أن اللذيْن جعلا له شركاءهما آدم وحواء ... !! ويذكر هنا أحد هذه الأحاديث كما رواه ابن ابي حاتم عن أبيْ بن كعب قال : لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها اطيعيني ويسلم لك ولدك ؟

سمّيه عبد الحارث ، فلم تفعل فولدت فمات ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل ، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال: ان تطيعيني يسلمْ والا فانه يكون بهيمةً ، فهيّبهما فأطاعا .
وأما نحن نقول ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، (١) وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ قاله الحسن البصري ونحن نؤيده . ثم قال فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين ، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله تعالى: ﴿ ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ الآية ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زُيّنت بها السماء ليست هي التي يرمي بها وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ولهذا نظائر في القرآن والله أعلم .

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ۞ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ۞ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ۞ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ۞ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ۞ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۞ (١٩٨) ﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من مخلوقاته ، وهي لا تملك من الأمر شيئاً ضراً أو نفعاً ، بصراً أو سمعاً ، ولا تنتصر لعابديها فهي جماد لا روح فيها ولا حركة ، وعابدوها أكمل منها سمعاً وبصراً وبطشاً . ولهذا قال ﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ﴾ اتشركون به ما لا يخلق شيئاً بل هم مخلوقون لغيرهم كما قال الخليل

(١) قلت : ونحن نؤيد هذا القول لأن آدم نبي معصوم ، ويستحيل أن يشرك بالله أحداً .

عليه السلام ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ الآية ثم قال تعالى : ﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ﴾ أي لعابديهم ﴿ ولا أنفسهم ينصرون ﴾ يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء . كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله عز وجل : ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ وكما صنع معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما وكانا شابين قد اسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ، ليعتبر قومهما بذلك ، فكان لعمرو بن الجموح صنم يعبده ويطيبه فكانا يجيئان ليلاً فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة ، فيجيء عمرو فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له : انتصر ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضاً حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ، ودلياه في حبل في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك ، فعلم ان ما كان عليه من الدين باطل ، ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل في أحد شهيداً رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه .

وقوله تعالى : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ﴾ الآية يعني كما قال ابراهيم لأبيه : ﴿ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ ثم ذكر أنها عبيد مثل عابديها أي مخلوقات مثلهم . وقوله تعالى : ﴿ قل ادعوا شركاءكم ﴾ الآية ... أي استنصروا بها عليّ فلا تؤخروني طرفة عين ، وأجهدوا جهدكم ﴿ إن وليّي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين ﴾ أي الله حسبي وكافيني وعليه متكلي ، وهو نصيري وملتجئي ، ووليّي ووليُّ كل صالح في الدنيا والآخرة . وقوله تعالى: ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ الآية ... أي والذين تعبدون من دون الله ﴿ لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ إنمّا قال سبحانه ﴿ ينظرون اليك ﴾ أي يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد لا تبصر لأنها أوثان مصنوعة من حجر او خشب أو غير ذلك قال السدي المراد بهذا المشركون ، والأول أولى [ــ قلت أنا نسيب ــ ولعل الصواب في بيان مراد الله تعالى هو أنه سبحانه عنى في تعبيره عن الأصنام بضمير العاقل بقوله : ﴿ وتراهم ينظرون اليك ﴾ يريد من عناهم المشركون بشخص أصنامهم ، وهم أولئك الصالحون الذين صور المشركون هذه الأصنام على صورتهم وسموها بأسمائهم ، وعندما يخاطبونها إنما يعنون بخطابهم لها أولئك الصالحين الذين

اتخذوهم وسائط بينهم وبين الله تعالى ، وما كانوا أبداً يعنون بخطابهم تلك الأحجار والأخشاب لذاتها فهم يعلمون أنهم صنعوها بأيديهم فهي لا تسمع ولا تبصر انما يخاطبونها كما لو كان أصحابها حاضرين وظنوا أنهم يقربونهم إلى الله زلفى فلذلك عبر عنهم تعالى بضمير العاقل من أول الآية من قوله تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه — إلى قوله — وهم لا يبصرون ﴾ اه نسيب] والله تعالى أعلم .

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٠٠)

روى ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً حدثنا يونس حدثنا سفيان هو ابن عيينة عن أبيّ قال : ٣٤٧ [كما أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ خذ العفو وأمرْ بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ قال رسول الله ﷺ : ما هذا يا جبريل ؟ قال : إن الله أمرك ان تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك »] ورواه ابن مردويه عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة مرفوعاً . وقال البخاري : قوله تعالى : ﴿ خذ العفو ... ﴾ الآية العرف المعروف ، ثم روى عن ابن عباس رضي الله عنهما وذكر خبراً عن عمر أن أحد الداخلين عليه أغضبه فقال له الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين ان الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وان هذا من الجاهلين ، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل انفرد بإخراجه البخاري وقول البخاري : العرف المعروف ، نص عليه عروة بن الزبير والسدي وقتادة وابن جرير وغير واحد . قال ابن جرير : وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف ، ويدخل في ذلك جميع الطاعات ، وبالإعراض عن الجاهلين . وذلك وان كان أمراً لنبيه ﷺ ، فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله ، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته ، وهو للمسلمين حرب وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ خذ العفو ... ﴾ الآية قال : هذه أخلاق أمر الله بها نبيّه ﷺ ودّله عليها ، وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه في بيتين فيهما جناس ، فقال :

خذ العفو وامر بعرفٍ كما * أمرتَ وأعرض عن الجاهلين
ولِنْ في الكلام لكل الأنام * فمستحسن من ذوي الجاه لين

ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به سبحانه من شيطان الجن فإنه لا يكفّه عنك الإحسان وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك .

قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾ وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ، ويحملك على مجازاته ﴿ فاستعذ بالله ﴾ يقول فاستجر بالله من نزغه ، وأصل النزغ : الفساد . إما بالغضب أو بغيره ﴿ إنّه سميع عليم ﴾ سميع لجهل الجاهل عليك ، والاستعاذة به من نزغه ، ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شيء ، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه . والعياذ : الالتجاء ، والاستناد ، والاستجارة من الشر ، وأما الملاذ ففي طلب الخير ، كما قال الحسن بن هانىء في شعره :

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً انت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير بما أغنى عن اعادته ها هنا (١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۞(٢٠١) وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۞(٢٠٢) ﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر وتركوا ما عنه زجر أنهم ﴿إذا مسهم﴾ أي أصابهم طيف وقرأ الآخرون طائف. وهما قراءتان مشهورتان فقيل بمعنى واحد او بينهما فرق ومنهم من فسره بالغضب ، ومنهم بالصرع ، ومنهم بالهم بالذنب أو بإصابته (٢) وقوله تعالى : ﴿ تذكروا ﴾ أي عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيده ، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا اليه من قريب ﴿فإذا هم مبصرون﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا عليه . وقوله تعالى : ﴿ واخوانهم يمدونهم ﴾ أي واخوان الشياطين من الأنس كقوله تعالى : ﴿ ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ﴾ وهم اتباعهم والمستمعون لهم ﴿ يمدونهم في الغي ﴾ أي تساعدهم الشياطين على المعاصي وتحسنها لهم فيمدونهم بالجهل والسفه ﴿ ثم لا يقصرون ﴾ أي أن الشياطين يمدّون أولياءهم من الإنس ، ولا

(١) راجع المجلد الأول عند تفسير الاستعاذة من هذا المختصر .
(٢) وأنا أرجح الهم بالذنب .

تسأم من إمدادهم في الشر. لأن ذلك طبيعة لهم وسجية ﴿ لا يُقصِرون ﴾ أي لا تفتّر فيه ولا تبطل عنه .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٠٣)

قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿ قالوا لولا اجتبيتها ﴾ أي لولا تلقيتها من الله وقال مرة أخرى : لولا أحدثتها فأنشأتها ومعنى قوله تعالى : ﴿ وإذا لم تأتهم بآية ﴾ أي معجزة يقولون لرسول الله ﷺ ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها قال الله تعالى له ﴿ قل إنما اتبع ما يوحَى اليّ من ربي ﴾ أي أنالا أتقدم اليه تعالى في شيء وإنما اتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إليّ . فإن بعثت آية قبلتها وان منعها لم أسأله ابتداءً إياها ، إلا أن يأذن لي في ذلك ، فانه حكيم عليم . ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات ، وأصدق الحجج . والبينات ، فقال ﴿ هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢٠٤)

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أمر سبحانه بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً ، لا كما كان يعتمده كفار قريش في قولهم : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة . كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٤٨ [إنما جعل الإمام ليؤتم به فاذا كبر فكبروا ، واذا قرأ فانصتوا ...] وكذا رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة ايضاً .

روى ابن جرير عن بشير بن جابر قال : صلى ابن مسعود ، فسمع ناساً يقرأون مع الامام ، فلما انصرف قال : أما آن لكم أن تفهموا ، أما آن لكم أن تعقلوا ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ كما أمركم الله .

وقد روى الامام احمد وأهل السنن من حديث الزهري عن أبي أكتمة الليثي عن ابي هريرة ٣٤٩ [ان رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : « هل

قرأ أحد منكم معي آنفاً ؟ » قال رجل : نعم يا رسول الله ، قال : « إني أقول مالي أنازع القرآن » قال فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ] وقال الترمذي هذا حديث حسن ، وصححه أبو حاتم الرازي .

وهناك اقوال أخر : فقد قيل بعدم القراءة وراء الامام لا في الصلاة الجهرية ولا السرية وروى ذلك عن جابر موقوفاً ، وهو أصح من المروي عنه مرفوعاً .

وقيل : تقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام ، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم . وعن ابن عباس أن الانصات في الصلاة المفروضة . وعن مجاهد أنه في الصلاة والخطبة يوم الجمعة ، وقد اختار ابن جرير أن يكون الإنصات يوم الاضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة . والمراد من ذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة كما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الامام ، وحال الخطبة . وقال الحسن : إذا جلست إلى القرآن فأنصت له .

روى الامام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٣٥٠ [من استمع إلى آيةٍ من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة] . تفرد به أحمد رحمه الله تعالى .

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ﴾

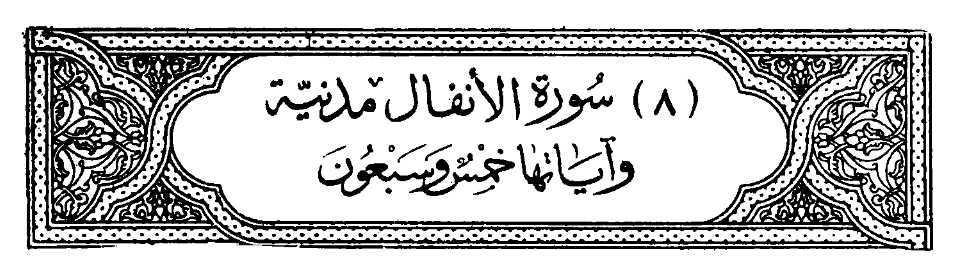
سجدة

يأمر تعالى بالذكر أول النهار وآخره كثيراً . وقوله تعالى : ﴿ تضرعاً وخيفة ﴾ أي اذكر ربك في نفسك رغبةً ورهبةً ، وبالقول لا جهراً . ولهذا قال تعالى : ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر ، لا يكون نداءً ، وجهراً بليغاً ، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : ٣٥١ [أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فأنزل الله عز وجل : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعانِ ﴾] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : ٣٥٢ [رفع الناس أصواتهم

بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ : « يا أيها الناس إربَعُوا على أنفسكم [1] فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »] وهكذا فقد أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن لا يجهر بالقرآن لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم ، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار . وكذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿ ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾ فالمراد الحض على الذكر وكثرته بالغدو والآصال لئلا يكون من الغافلين . ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال : ﴿ ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ﴾ الآية ... وانما ذكرهم بهذا ليقتدي بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ، ولهذا شرع لنا السجود ها هنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل وقوله تعالى : ﴿ وله يسجدون ﴾ وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع . وقد ورد في حديث رواه ابن ماجه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ ٣٥٣ [انه عدها في سجدات القرآن] .

آخر اختصار تفسير سورة الأعراف ولله الحمد والمنة .

(١) أي ارفقوا بأنفسكم .



(إلا من الآية ٣٠ – ٣٦ فمكية نزلت بعد البقرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴿١﴾ ﴾

روى البخاري : عن ابن عباس : الأنفال : المغانم . وعن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال قال : نزلت في بدر . أما ما علقه عن ابن عباس فكذلك رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال : الأنفال الغنائم ، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء وقد فسر ابن عباس باسناد صحيح أن النفل هو ما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل ، والله أعلم .

قال ابن مسعود ومسروق : لا نفلَ يوم الزحف ، إنما النفل قبل التقاء الصفوف وقال عبد الله بن المبارك وغيره عن عطاء بن ابي رباح في الآية : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ قال يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال ، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء . وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال ، وقال ابن جرير : وقال آخرون هي أنفال السرايا وهو ما ينفله الامام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش . واختاره ابن جرير ؛ ويشهد لذلك ما ورد فى سبب نزول الآية ، وهو ما رواه الامام أحمد عن سعد بن مالك قال : ٣٥٤ [قلت يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين ، فهب لي هذا السيف ، فقال : « إن هذا السيف لا لك ولا لي ، ضعه » قال فوضعته ثم رجعت فقلت عسى أن

يعطي لهذا السيف من لا يبلي بلائي . قال : واذا رجل يدعوني من ورائي قال : قلت قد أنزل الله في شيئاً ؟ قال : « كنتَ سألتني السيف وليس هو لي وإنه قد وهب لي ، فهو لك » قال : وأنزل الله هذه الآية : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾] ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن أبي بكر بن عياش به وقال الترمذي حسن صحيح .

﴿ سبب آخر في نزول الآية ﴾

روى أحمد عن أبي أمامة قال : ٣٥٥ [سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا اصحابَ بدر ، نزلت حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين .]

وروى أبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه واللفظ له وابن حبان والحاكم من طرق عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : ٣٥٦ [لما كان يوم بدر ، قال رسول الله ﷺ : « من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا » فتسارع في ذلك شبان القوم ، وبقي الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم ، فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا فإنا كنا رداءً لكم لو انكشفتم لفئتم إلينا ، فتنازعوا فأنزل الله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال – إلى قوله – واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾]

وقال ابو عبيد الله القاسم بن سلام في (كتاب الأموال الشرعية) ... أما الأنفال فهي المغانم ، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب . فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ يقول الله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها على ما ذكرناه من حديث سعد ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى .

والأنفال أصلها جماع الغنائم . إلاّ أنّ الخمس منها ، مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب ، وجرت به السنّة ، والنفل الذي أحلّه الله للمؤمنين من أموال عدوهم ، وهو شيء خصهم الله به تطولاً منه عليهم ، بعد أن كانت الغنائم محرمة على الأمم قبلهم ، فنفلها الله تعالى هذه الأمة ، فهذا أصل النفل . وشاهد هذا في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٣٥٧ [أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ، فذكر الحديث إلى أن قال وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي] وذكر تمام الحديث .

وفي النفل الذي ينفله الامام سنن أربع لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى .

١ ً ـ : النفل لا خمس فيه وذلك السلب ٢ ً ـ : النفل الذي يكون من الغنيمة بعد اخراج الخمس ، وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب ، فتأتي بالغنائم ، فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس ٣ ً ـ : في النفل من الخمس نفسه ، وهو أن تحاز الغنيمة كلها ، ثم تخمَّس . فإذا صار الخمس في يدي الإمام ، نفل منه على قدر ما يرى . ٤ ً ـ : النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء ، وهو أن يعطي الإدلاء ورعاة الماشية والسواق لها . وفيما تقدم من كلامه ـ أي كلام أبي عبيد ـ وهو قوله : أن غنائم بدر لم تخمس ، فيه نظر . ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفَيْه اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بياناً شافياً ولله الحمد والمنة

وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ أي : اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ، ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا ، فما آتاكم الله من الهدى والعلم ، خير مما تختصمون بسببه . ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ أي في قسمه بينكم على ما أراد الله ، فإنه إنمّا يقسمه كما أمره الله تعالى من العدل والإنصاف . ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝(٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝(٣) أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝(٤)﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه . ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون عليه ولا يصلّون إذا غابوا ، ولا يؤدّون زكاة أموالهم ﴿ إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ أي فزعت وخافت ، فأدوا فرائضه وفعلوا الأوامر وتركوا الزواجر ، وهذه صفة المؤمن الحق . وقوله تعالى : ﴿ واذا تليت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً ﴾ أي تصديقاً . وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان ، وتفاضله في القلوب . كقوله تعالى : ﴿ ... فأما الذين

آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ وهذا مذهب جمهور الأمة بل قد حُكيَ الإجماعُ عليه وقوله تعالى : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلاّ منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له ولا معقّب لحكمه ، وهو سريع الحساب ولهذا قال سعيد بن جبير : التوكل على الله جماعُ الإيمان .

وقوله تعالى : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقنا هم ينفقون ﴾ إقامة الصلاة : هي المحافظة على مواقيتها ، ووضوئها ، وتمام أركانها من الركوع والسجود ، وتلاوة القرآن فيها والاطمئنان في الأركان ، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ . والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة ، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب ، وليُعلم أن هذه الأموال إنّما هي عواري ، وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها . وقوله تعالى : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ قال عمرو بن مرة : إنما أُنزل القرآن بلسان العرب ، كقولك فلان سيد حقاً وفي القوم سادة وفلان تاجر حقاً وفي القوم تجار ، وفلان شاعر حقاً وفي القوم شعراء وقوله تعالى : ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ أي منازل ومقامات ودرجات في الجنات ﴿ ومغفرة ﴾ أي يغفر لهم السيئات ، ويشكر لهم الحسنات ، وجاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٣٥٨ [« إن أهل عليين ليراهم مَن أسفلَ منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء » قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم فقال : « بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »]

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) ﴾

يقول تعالى : كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها ، فانتزعها الله منكم وجعلها

إلى قسمه تعالى ، وقسم رسوله ﷺ . فقسمها على العدل والتسوية ، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم . وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة ، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم ، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدّره لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد ، رشداً وهدى ، ونصراً وفتحاً . وقد خرج رسول الله ﷺ مع المؤمنين إلى بدر للقاء المشركين الذين نفروا من مكة لحماية العير ، الذي فيه تجارة قريشٍ القادمة من الشام ، برئاسة أبي سفيان الذي أخبر بخروج رسول الله ﷺ في طلبه . فبعثَ أبو سفيان ضمضم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة ؛ فنهضوا في قريب من ألف مقنّع ، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر فنجا وجاء النفير فوردوا ماء بدر وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد ، لما يريد الله من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم ، والتفرقة بين الحق والباطل . فلما بلغ رسول الله ﷺ خروج النفير ، أوحى الله اليه ، يعده إحدى الطائفتين : إما العير وإما النفير . ورغب كثير من المسلمين إلى العير لأنه كسب بلا قتال . كما قال تعالى : ﴿وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقَّ الحقَّ بكلماتِه ويقطعَ دابرَ الكافرين﴾ وأمر رسول الله ﷺ الناس أن يتهيأوا للقتال وأمرهم بالشوكة فكره ذلك أهل الإيمان فأنزل الله تعالى : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ وقال السدي : ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين﴾ أي بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلاّ ما أمرك الله به ومعنى قوله تعالى : ﴿وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ أي يحبون أن الطائفة التي لا منعة لها ولا قتال تكون لهم وهي العير ﴿ويريد الله ان يُحقّ الحقّ بكلماته﴾ أي هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم ، وينصركم عليهم ، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ، ويجعله غالباً على الأديان . وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره ، وان كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم .

وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه وكان عددهم ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً حتى بلغ وادياً يقال له ذفران فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال : فأحسن . ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمر فقال : يا رسول الله إمض لما أمرك الله به فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿إذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون﴾ ولكن

اذهب انت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ يعني مدينة الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه • فقال له رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له بخير . ثم قال رسول الله ﷺ « أشيروا علي أيها الناس » وانما بريد الانصار وذلك أنهم كانوا عدد الناس ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يا رسول الله إنّا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا . وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته ، إلاّ ممن دهمه بالمدينة من عدوّه . وان ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال رسول الله ذلك ، قال له سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : « أجل » فقال فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرك الله فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما يتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعد ثم قال : « سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم »

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلٰئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ (٩) وَمَا جَعَلَهُ ٱللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ (١٠) ﴾

روى الامام أحمد عن عمر بن الخطاب (رض) قال : ٣٥٩ [لما كان يوم بدر نظر النبي إلى أصحابه وهم ثلثمائة ونيف ، ونظر إلى المشركين ، فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : « اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام فلا تعبد في الارض أبداً » قال فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدُّكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ فلما كان يومئذ التقوا ، فهزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً ...]

روى البخاري عن ابن مسعود يقول : ٣٦٠ (شهدت من المقداد بن الاسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به ، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : « اذهب انت وربك فقاتلا » ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره يعني قوله .) وروى البخاري ايضاً عن ابن عباس قال : ٣٦١ (قال النبي ﷺ يوم بدر : « اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك ، فخرج وهو يقول ﴿ سيهزم الجمع ويولّون الدبر ﴾) وقوله تعالى : ﴿ أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ أي نجدة لكم ومدداً . وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : وأمد الله نبيّه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمأة من الملائكة مجنبةً وميكائيل في خمسمائة مجنبة .

وروى مسلم عن ابن عباس قال : ٣٦٢ [بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه اذ سمع ضربةً بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً . قال فنظر إليه فإذا قد حطم وشق وجهه كضربة السوط فاخْضرَ ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال : « صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة »] وروى البخاري : (باب شهود الملائكة بدراً) عن رفاعة عن رافع الزرقي وكان من أهل بدر قال : ٣٦٣ [جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدّون أهل بدر فيكم ؟ قال : « من أفضل المسلمين ــ أو كلمة نحوها ــ قال وكذلك من شهد بدراً من الملائكة .] وفي الصحيحين ٣٦٤ [أن رسول الله ﷺ قال لعمر ــ لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة : « إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله قد اطّلع على أهل بدر فقال إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »] وقوله تعالى : ﴿ وما جعله الله إلاّ بشرى ﴾ الآية ... أي ما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه اياكم بهم إلاّ بشرى ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ وإلاّ فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ولتطمئن به قلوبكم ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ أي بدون ذلك كما قال تعالى ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ أي بعقابهم كما عاقب الأمم السالفة بالقوارع التي تعم الأمم المكذبة ﴿ ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ . وقتل المؤمنين للكافرين ، أشد إهانةً للكافرين ، وأشفى لصدور المؤمنين ؛ كما قال تعالى : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الله عزيز ﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة ﴿ حكيم ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم واهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۞ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ الَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۞ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۞(١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ۞(١٤) ﴾

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من القائه النعاس عليهم أماناً أمَّنهم به من خوفهم الحاصل من كثرة عدوّهم وقلة عَددهم ، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى : ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾ قال أبو طلحة : كنت ممن أصابه النعاس يوم أحُد ، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه ، ولقد نظرت إليهم يميدون تحت الحَجَف [1] وعن علي (رض) قال : ٣٦٥ [ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، إلاّ رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح .] وفي الصحيح ٣٦٦ [أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق (رض) وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سِنَةٌ من النوم ثم استيقظ متبسماً فقال : « أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع » ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ويولّون الدبر ﴾] وقوله تعالى : ﴿ وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملةٌ دعصةٌ [2] وأصاب المسلمين ضعفٌ شديد ، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين ، فأمطر

(١) الحجف جمع حجفة : الترس من جلد بلا خشب .
(٢) الدعصة : كثيب الرمل المجتمع .

الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتَطهَّروا وأذهب الله عنهم رجس الشيطان [١] وكما ثبَّت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم وثبت الله عليه الأقدام . كذلك فإنّه عزّ وجل ، ثبَّت الأقدام . بالصبر على مجالدة الأعداء ، وهو شجاعة الباطن ، ويثبّتهم فلا ينهزمون وهو شجاعة الظاهر ، والمعروف أن رسول الله ﷺ ، لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال يا رسول الله هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلكه الله فليس لك ان تجاوزه ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة فقال : « بل منزل نزلته للحرب والمكيدة » فقال يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغوّر ما وراءه من القلُب [٢] ونستقي الحياض فيكون لنا ماءٌ وليس لهم ماء . فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك .

وقوله تعالى : ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ أي قاتلوا معهم وكثّروا سوادهم . حتى قيل أن الملك كان يأتي الرجل من اصحاب النبي ﷺ فيقول : سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك ، فتقوى أنفسهم . حكاه ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ أي الخوف والذلة والصغار في قلوب الذين خالفوا أمري وكذبوا رسولي ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ أي اضربوا الهـام ففلّقوها ، واحتزوا الرقاب فقطعوها ، وقطعوا الأطراف منهم وهي الأيدي والأرجل منهم [٣] وقال الربيع بن أنس : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم ، بضربٍ فوق الأعناق . وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أي خالفوهما فساروا في شق ، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق آخر ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ أي هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه . ﴿ ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾ أي ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا ، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة .

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ

---

(١) أي وسوسته .

(٢) القلب : الآبار .

(٣) فيما يبدو لي ـ والله أعلم ـ ان المقصود من قوله تعالى «واضربوا منهم كل بنان» أي شلوّا أصابع اليد حتى لا تقوى اليد على حمل السيف ولا تستطيعه فيبقى المشركون هكذا بلا عدة وتحيق بهم الهزيمة .

الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ﴾ أي دنوتم إليهم ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ أي تفروا وتتركوا أصحابكم ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال ﴾ أي يفر مكيدة لخصمه يوهمه أنه فر فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله ، فلا بأس عليه ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ أي فر من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين ، يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك ، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة .

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر (رض) قال : ٣٦٧ [كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ ، فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص . فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا لو دخلنا المدينة ، ثم بتنا ، ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كان لنا توبة .. وإلا ذهبنا . فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : « من القوم ؟ » فقلنا نحن الفرارون فقال « لا بل أنتم العكارون أي ــ الكرارون ــ أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين » قال فأتيناه حتى قبلنا يده] وهكذا رواه ابو داود والترمذي وابن ماجه من طريق يزيد بن أبي زياد وقال الترمذي حسن لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زياد به وزاد ابن أبي حاتم في آخره ، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ وقال عبد الملك بن عمير عن عمر : أيها الناس لا تغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر وأنا فئة لكل مسلم . وقال ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال ... إنما انزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها . والفرار من الزحف بلا سبب من الكبائر ، لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٦٨ [« اجتنبوا السبع الموبقات » قيل يا رسول الله وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس ، التي حرم الله الا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »] ولهذا قال تعالى : ﴿ فقد باء ﴾ أي رجع ﴿ بغضب من الله ومأواه ﴾ أي مصيره يوم القيامة ﴿ جهنم وبئس المصير ﴾ .

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراماً على الصحابة . لأنه ــ أي الجهاد ــ

كان فرض عين عليهم ، وقيل على الأنصار خاصةً ، لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، وقيل المراد أهل بدر خاصة ، يروى هذا عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي نضرة ، ونافع مولى ابن عمر وجماعة من التابعين وغيرهم ، وحجتهم في هذا انه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها إلا عصابتهم ، تلك كما قال النبي ﷺ : ٣٦٩ [اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض]

وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار حراماً على غير أهل بدر ، وإن كان سبب نزول الآية فيهم ، كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم ، من أن الفرار من الزحف ، من الموبقات . كما هو مذهب الجماهير والله أعلم .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ❁(١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ❁(١٨) ﴾

يبيّن تعالى أنّه خالق أفعال العباد ، وأنه سبحانه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير ، لأنه هو الذي وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ أي ليس بحولكم ولا قوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم ، أي بل هو الذي أظفركم عليهم .كما قال تعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً ، في شأن القبضة التي قبضها من التراب ، وحصب بها وجوه الكافرين يوم بدر ، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته . فرماهم بها وقال ٣٧٠ : [شاهت الوجوه] ثم أمر أصحابه أن يَصدُقوا الحملة إثرها ، ففعلوا . فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلاّ ناله منها ما شغله عن حاله ولهذا قال تعالى: ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ٣٧١ : [رفع رسول الله ﷺ يديه ، يعني يوم بدر ، فقال : [يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً « فقال له جبريل خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضةً من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلاّ أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين .]

وقد روي في هذه القصة عن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة إنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر ، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضاً .

وروى محمد بن اسحق عن عروة بن الزبير في قوله تعالى : ﴿ وليُبلِيَ المؤمنين منه بلاءً حَسَناً ﴾ أي ليعرّفَ المؤمنين نعمتَه عليهم من إظهارهم على عدوهم ، مع كثرة عدوّهم وقلة عددهم . وليعلمهم أيضاً أنّ النصر لا بكثرة العدد بل منه سبحانه وتعالى وحده لا شريك له . ليعرفوا بذلك حقَّه ويشكروا بذلك نعمتَه ، وقوله تعالى : ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ أي سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلبَ . وقوله تعالى : ﴿ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر ، أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار ، ولله الحمد والمنة .

﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٩)

يقول تعالى للكفار ﴿ إن تستفتحوا ﴾ أي تستنصروا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم ، فقد قال أبو جهل يوم بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم ، وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة ، وكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ الى آخر الآية . وقوله تعالى : ﴿ وإن تنتهوا ﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر بالله ، والتكذيب لرسوله ﷺ ، ﴿ فهو خير لكم ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، وقوله تعالى : ﴿ وإن تعودوا نعد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ أي وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة ، نعد لكم بمثل وقعة بدر ﴿ ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ﴾ أي ولو جمعتم الجموع ما عسى أن تجمعوا ، فإن من كان الله معه فلا غالب له . ﴿ وأن اللهَ مع المؤمنين ﴾ وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢٣)

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ . ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تولوا عنه ﴾ أي تتركوا طاعته ، وامتثال أوامره، وترك زواجره ﴿ وأنتم تسمعون ﴾ أي بعدما علمتم ما دعاكم إليه ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ قيل المراد المشركون وقيل المنافقون فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك (قلت) ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا لأن كلاً منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح ، ثم أخبر تعالى أن هذا النوع من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال عز من قائل : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم ﴾ أي عن سماع الحق ﴿ البكم ﴾ عن فهمه ولهذا قال سبحانه ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ فهؤلاء شر البرية لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له ، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا ، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله عز وجل ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم ولا قصد لهم صحيح فقال تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ أي لأفهمهم وتقدير الكلام ﴿ و ﴾ لكن لا خير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه ﴿ لو أسمعهم ﴾ أي أفهمهم ﴿ لتولوا ﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿ وهم معرضون ﴾ عنه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٢٤)

روى البخاري ﴿ استجيبوا ﴾ أجيبوا ﴿ لما يحييكم ﴾ لما يصلحكم ثم روى بسنده إلى أبي

سعيد بن المعلى (رض) قال ٣٧٢ : [كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيته فقال : « ما منعك أن تأتيني ؟ » ألم يقل الله : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » « ثم قال : « لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج » فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له] وقال معاذ عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنه بهذا سمع وقال ٣٧٣ [« الحمد لله رب العالمين » هي السبع المثاني] . هذا لفظه بحروفه وقد تقدم الكلام عنه بذكر طرقه في أول تفسير الفاتحة .

وقوله تعالى : « لما يحييكم » قالوا : للحق ، وقالوا هو هذا القرآن فيه النجاةوالبقاء والحياة ، وقالوا : في الاسلام احياؤهم بعد موتهم بالكفر وقالوا : أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل والضعف والقهر وكله قريب وصحيح .

وقوله تعالى : ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان . روى الامام أحمد عن أنس بن مالك (رض) قال ٣٧٤ : [كان النبي ﷺ يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قال فقلنا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينـــا ؟ قال : « نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها »] ورواه الترمذي وقال حسن . روى الامام أحمد عن عائشة قالت ٣٧٥ : [دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالت : فقلت : يا رسول الله انك تكثر أن تدعوَ بهذا الدعاء فقال « ان قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله فإذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه » [1]] روى الامام أحمد عن ابن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ٣٧٦ : [« ان قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يُصرفها كيف شاء » ثم قال رسول الله ﷺ « اللّهم مصرّف القلوب صرّفْ قلوبنا إلى طاعتك »] انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري فرواه مع النسائي من حديث حيوة بن شريح المصري به .

﴿ وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۞(٢٥) ﴾

---

(١) قلت : وهذا يوضحه قوله تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » وذلك جزاء وفاقاً « وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » .

يحذر تعالى عباده المؤمنين اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع فترفع ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين أن لا يُقروا المنكر بين ظهرانيهم ، فيعمهم الله بالعذاب . وهذا تفسير حسن جداً . ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ هي أيضاً لكم . يعني نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ وفي غيرهم . والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم ، وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح . ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن . ومن أخص ما يذكر هاهنا ما رواه الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : ٣٧٧ [والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليوشكَنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتَدْعُنُّه فلا يستجيب لكم .] وقال عنه أيضاً : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً ،واني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات ، لتأمرن بالمعروف ولتَنْهوُنّ عن المنكر ولتحاضُنّ على الخير أو ليسحتكم الله جميعاً بعذاب ، أو ليؤمِرنّ عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم . روى الامام أحمد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ وقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول ٣٧٨ : [« إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده » فقلت يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون قال « بلى » قالت فكيف يَصْنَعُ أولئك قال « يصيبهم ما أصاب النّاس ، ثم يَصيرون إلى مغفرةٍ من الله ورضوانٍ »]

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢٦)

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه ، إذ كانوا قليلين فكثرهم ومستضعفين وخائفين فقواهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، واستشكرهم فأطاعوه في جميع أوامره ، هكذا كانوا بمكة قليلين مستضعفين مستخفين ، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر البلاد ، فلم يزل ذلك شأنهم حتى أذن الله لهم بالهجرة إلى المدينة فآواهم اليها ، وقيض لهم أهلها ، آووا ونصروا يوم بدر وغيره ، وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله ورسوله ﷺ . قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله

تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ﴾ قال : كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاه عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعراه جلوداً ، وأبينه ضلالاً ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات منهم ردي في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالاسلام فمكّن به البلاد ، ووسع به الرزق ، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه فإنّ ربكم منعم يحب الشكر ، وأهلُ الشكر في مزيد من الله تعالى .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ (٢٨) ﴾

اختلف المفسرون في أسباب نزول هذه الآية . فمنهم من قال : ٣٧٩ [أنزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقه . أي : أنه الذبح . ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله ، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه ، وانطلق إلى مسجد المدينة ، فربط نفسه في سارية منه ، فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد ، حتى أنزل الله توبته على رسوله فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه ، وأرادوا أن يحلوه من السارية . فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده ، فحلّه ، فقال : يا رسول الله إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقةً فقال : « يجزيك الثلث أن تصدّق به »] رواه عبد الرزاق عن قتادة والزهري . روى ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال نزلت في قتل عثمان !!! وقال أيضاً نزلت في رجل من المنافقين أخبر أبا سفيان أن محمداً يريدكم فخذوا حذركم ، ... وهذا حديث في سنده وسياقه نظر !!! وقيل نزلت في حاطب بن أبي بلتعه لما كتب الى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح فأطلع الله رسوله على ذلك ، فبعث في أثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطباً فأقر بما صنع ... كما هو معلوم من هذه القصة ... (قلت) والصحيح : ان الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء . والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار

اللازمة والمتعدية ، وقوله تعالى : ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الأمانة : الأعمال التي ائتمن عليها العباد ، يعني الفريضة . يقول : لا تخونوا لا تنقضوها . وقال في رواية : لا تخونوا الله والرسول بترك سنته ، وارتكاب معصيته وقال السدي : إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم .

وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ أي اختبار وامتحان منه لكم إذا أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه ؟ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وان اللهَ عنده أجر عظيم ﴾ أي ثوابه وعطاؤه وجنّاتُه خيرٌ لكم من الأموال والأولاد ، فإنه قد يوجد منهم عدو ، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً ، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة . وهكذا فإن حب الله ورسوله ﷺ مقدم على الأموال والأولاد . وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ ٣٨. : [ثلاث من كنَّ فيه ، وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلاّ لله ، ومن كان أن يلقى في النار ، أحبَّ إليه من أن يرجِعَ الى الكفر ، بعد إذ أنقَذَهُ الله منهُ .]

﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٢٩)

قال ابن اسحق : ﴿ فرقاناً ﴾ أي فصلاً بين الحق والباطل ، وهذا التفسير عام شامل فهو يستلزم المخرج والنجاة والنصر . فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره ، وفّق لمعرفة الحق من الباطل . فكان ذلك سبب نصره ونجاته ، ولنيل الثواب الجزيل . كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . ﴾

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ ﴾ (٣٠)

قوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ لما ضاقت قريش ذرعاً بدعوة رسول الله ﷺ . فتآمروا عليه واجتمعوا بدار الندوة وائتمروا به ، فمنهم من أشار بأن يحبسوه ﷺ في وثاق ، ثم يتربصوا به ريب المنون ، حتى يهلك . وكان إبليس - كما يقال - دخل معهم متمثلاً هيئة شيخ نجدي[١] وناصحاً لهم . فلما سمع إبليس رأيَ من أشار بالوثاق ، صرخ عدو الله وقال ما هذالكم برأي . ومنهم من أشار بالإخراج فإذا خرج تستريحون منه فأبى إبليس هذا الرأي ، إلى أن قام أبو جهل لعنه الله وأشار بأن يأخذوا من كل قبيلة غلاماً شاباً ، وسيطاً نهداً ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها . فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقْوُونَ على حرب قريش كلها ، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه . فقال إبليس - الشيخ النجدي - هذا والله الرأي ، القول ما قال الفتى ، لا أرى غيره . فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له ، فأتى جبريل النبي ﷺ . فأمره أن لا يبيت تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك بالخروج . وأنزل الله بعد قدومه المدينة ، الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده : ﴿ واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ فكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة . للذي اجتمعوا عليه من الرأي وعن ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ إلى أن أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب ، فأمره أن يبيت على فراشه ، ويتسجَّى ببرد له أخضر ففعل ، ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه ، وخرج ومعه حفنة من تراب فجعل يذرها على رؤوسهم وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ : ﴿ يس والقرآن الحكيم - الى قوله - فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك ﴾ ... وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار . وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه رسول الله ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا علياً ردَّ الله تعالى مكرهم . فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال لا أدري ، فاقتفوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار (ولكن الله أعماهم)[٢] فمكث فيه ﷺ ثلاث ليال .

(١) كان أهل نجد - منذ ذلك الزمان - قد اشتهروا بالنصح ، وحكمة الرأي . فتمثل الشيطان بزيهم ليوهم قريشاً أنه ينصحهم ، فيطمئنوا لرأيه .

(٢) ما بين القوسين من كلامي ... أما رواية ابن عباس ففيها قصة نسج العنكبوت ... ولم تصح عنه .

وروى محمد بن اسحق عن عروة بن الزبير في قوله ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ أي فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۞ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ (٣٣)﴾

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وعنادهم ، ودعواهم الباطل عند سماع آياته ، إذا تتلى عليهم أنهم يقولون : ﴿ قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ وهذا منهم قول بلا فعل ، وإلاَّ فقد تـُحُدّوا غير ما مرة ، أن يأتوا بسورة من مثله ، فلا يجدون الى ذلك سبيلاً . إنما هو الغرور يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم . وقد قيل أن قائل ذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله كما نص على ذلك سعيد بن جبير ، والسدي وابن جريج وغيرهم . فإنه لعنه الله بعد أن عاد من فارس وتعلم أخبار ملوكهم ، وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن . فإذا قام جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول بالله أينا أحسن قصصاً أنا أو محمد ؟ ولما وقع أسيراً يوم بدر ، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبراً [١] بين يديه ففُعل ذلك ولله الحمد وكان الذي أسره المقداد بن الأسود (رض) وفي النضر نزلت [٢] هذه الآية : ﴿ وإذاتتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلاَّ أساطير الأولين ﴾ ومعنى أساطير الأولين ، وهو جمع أسطورة ، أي كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس ، وهذا هو الكذب البحت . وقوله تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ هـــذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هوالحق من عندك فاهدنا له ، ووفقنا لاتباعه ، ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب ، وتقديم العقوبة .

(١) قتله صبراً أي حبسه على القتل حتى يقتل . (٢) وكذا قال ابن عباس وابن جبير والسدي ومجاهد وعطاء .

وقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ان الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم (١) وروي عن أبي موسى الأشعري وقتادة وأبي العلاء النحوي المقري نحواً من هذا.

وروى الترمذي عن ابن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ٣٨١ [أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: ﴿وما كان ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ فإذا مضيتُ تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة »] ويشهد لهذا ما رواه الامام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه عن ابن سعيد أن رسول الله ﷺ قال: ٣٨٢ [إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الرب: وعزّتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني] ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ (٣٥)﴾

يخبر تعالى أنهم أي الكفار أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع بهم لبركة مُقام الرسول ﷺ بين أظهرهم، ولهذا لمّا خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسر سراتهم، وأرشدهم إلى الاستغفار من الذنوب المتلبسين بها من الشرك والفساد. وقال قتادة والسدي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا واختاره ابن جرير فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين المؤمنين المستغفرين، لوقع بهم البأس الذي لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، ولما خرج المستضعفون من مكة إلى المدينة، أنزل الله قوله تعالى: ﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم

---

(١) ولهذا لم يعذب الله كفار مكة لما كان رسول الله (ص) والمؤمنون المستخفون فيهم، ولما هاجروا عذبهم ببدر.

يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ﴾ فأذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم ، أي فكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون المؤمنين الذين هم بمكة عن المسجد الحرام والصلاة فيه والطواف بالبيت وهم أهله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وما كانوا أولياءَه إنْ أولياؤه إلاّ المتقون ﴾ أي إن المشركين ليسوا أهل المسجد الحرام وإنما أهل بيته هم النبي ﷺ وأصحابه . كما قال تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون ۞ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلاّ الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجدِ الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾

روى الحافظ ابن مردويه عن أنس بن مالك (رض) قال ٣٨٣ : [سئل رسول الله ﷺ : من أولياؤك ؟ قال : « كل تقي » وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾] ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام ، وما كانوا يعاملونه به فقال : عز من قائل : ﴿ وما كان صلاتُهم عند البيت إلاّ مكاءً وتصدية ﴾ قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق ، والمكاء الصفير ، والتصدية التصفيق . وقال عكرمة : كانوا يطوفون بالبيت على الشمال . قال مجاهد : وانما كانوا يصنعون ذلك ، ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته وقوله عز وجل : ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ وهو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي . واختاره ابن جرير ولم يحكِ غيرُه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۞ (٣٦) لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۞ (٣٧) ﴾

نزلت هذه الآية في كفار قريش ، الذين أصيب آباؤهم وأبناؤهم واخوانهم ببدر ،

كعبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير التي نجا بها أبو سفيان من المسلمين إلى مكة قبيل وقعة بدر تجارة، فقالوا يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا، ففيهم أنزل الله عز وجل: ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم - إلى قوله - هم الخاسرون ﴾ وهذا مروي عن ابن عباس وبعض التابعين.

وعلى كل تقدير فهي عامة وإن سبب نزولها خاصاً فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك. ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرةً لا تجديهم شيئاً، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون. ولهذا قال عز وجل: ﴿ فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرةً ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون. ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ أي يميز أهل السعادة من أهل الشقاء في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ وكقوله تعالى: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ فمعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه ﴾ أي يجمعه متراكماً متراكباً ﴿ فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَٱعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَى وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝ (٤٠) ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا ﴾ أي عمّاهم فيه من الكفر والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة. ﴿ يغفرْ لهم ما قد سلف ﴾ من كفرهم

وخطاياهم كما جاء في الصحيح عن ابن مسعود (رض) : أن رسول الله ﷺ قال : ٣٨٤ [من أحسن في الإسلام لم يؤآخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر] وفي الصحيح أنه ﷺ قال ٣٨٥ : [الإسلام يجبُّ ما قبله ، والتوبة تجب ما كان قبلها] وقوله تعالى : ﴿ وإن يعودوا ﴾ أي يستمروا على ما هم عليه ﴿ فقد مضت سنَّةُ الأوّلين ﴾ أي قد مضت سنّتنا في الأولين ، أنهم إذا كذّبوا واستمروا على ذلك نعاجلهم بالعذاب والعقوبة . كما فعل بقريش يوم بدر وغيرها من الأمم ﴿ وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ روى البخاري عن سعيد بن جبير قال ٣٨٦ : [خرج علينا أو إلينا ابن عمر (رض) فقال : كيف ترى في قتال الفتنة ؟ فقال وهل تدري ما الفتنة ؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين ، وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم على الملك .] وروى أيضاً عن نافع عن ابن عمر أن رجلاً جاء فقال : ٣٨٧ [... فإن الله تعالى يقول : ﴿ وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة ﴾ قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذْ كان الإسلام قليلاً ، وكان الرجل يفتن في دينه إما أن يقتلوه ، وإما أن يوثقوه حتّى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ...]

قال أبو عوانة عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : قال ذو البطين يعني أسامة بن زيد لا أقاتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً فقال سعد بن مالك : وأنا والله لا أقاتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً فقال رجل : ألم يقل الله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ فقالا : قد قاتلنا حتّى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله [1] رواه ابن مردويه . وقال ابن عباس : يعني لا يكون شرك و كذا قال جمع من التابعين . وثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال ٣٨٨ : [أمرت أن أقاتل الناس ، حتّى يقولوا لا إله الا الله . فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل] .

وقوله تعالى : ﴿ فإن انتهوا ﴾ أي بسبب قتالكم لهم عما هم فيه من الكفر ، فكفوا عنهم ، وإن لم تعلموا بواطنهم ، ﴿ فإن الله بما يعملون بصير ﴾ كقوله تعالى ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ وكما جاء في الصحيح ٣٨٩ : [إن رسول الله ﷺ قال لأسامة ، لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال لا إله الا الله فضربه فقتله ،

---

(١) قلت : تبين من الأحاديث المتقدمة أن القتال إنما كان دفاعاً عن التوحيد ليكون خالصاً لله وحده لا شريك له ويخلع ما دون الله من الأنداد فخرج بذلك قتال أهل القبلة . أما إذا عاد الأمر كما كان من اضطهاد المسلمين فيصار إلى قتال من اضطهدهم حتّى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة : « أقتلته بعدما قال لا إله الا الله ؟ وكيف تصنع بلا إله الا الله يوم القيامة ؟ » فقال يا رسول الله إنما قالها تعوذاً قال : « هلاّ شققت عن قلبه ؟» وجعل يقول ويكرر عليه من لك بلا إله الا الله يوم القيامة قال أسامة حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلاّ يومئذ] وقوله تعالى : ﴿ وإن تولّوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ أي وإن استمروا على خلافكُم ومحاربتكم فاعلموا أن الله مولاكم ، سيدكم وناصركم على أعدائكم ، فنعم المولى ونعم النصير .

الجزء ١٠

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤١)

خصّ الله تعالى هذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة بإحلال الغنائم . والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار ، [١] بإيجاف الخيل والركاب ، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك ، كالأموال التي يصالحون عليها ، أو يتوفّون عنها ، ولا وارث لهم ، والجزية والخراج ونحو ذلك ، وهذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف . ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة ، وبالعكس أيضاً . فمن يفرّق بين معنى الفيء والغنيمة يقول : تلك آية الحشر : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى ﴾ نزلت في أموال الفيء ، وهذه أي : ﴿ واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ... ﴾ نزلت في الغنائم . ومن يجعل أمر الغنائم والفيء راجعاً الى رأي الإمام ، يقول : لا منافاة بين آية الحشر ، وبين آية التخميس ، إذا رآه الإمام والله تعالى أعلم . فقوله تعالى : ﴿ واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط ، قال الله تعالى : ﴿ ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأن لله خمسه وللرسول ﴾ فقد اختلف المفسرون ههنا وأصح ما ورد هو ما قاله ابن عباس (رض) : [٣٩٠ كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا ، خمّس الغنيمة ، فضرب ذلك الخمس في

(١) الإيجاف : تسيير الخيل يوم الزحف على العدو .

خمسة ثم قرأ : ﴿ واعلموا ان ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ﴾ فان لله خمسه مفتاح كلام ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحداً] وهكذا قال إبراهيم النخعي والحسن بن محمد بن الحنفية والحسن البصري وغيرهم: أن سهم الله ورسوله واحد ويؤيد هذا ما رواه البيهقي بإسناد صحيح عن رجل ــ من الصحابة ــ قال ٣٩١ : [أتيت النبي ﷺ ، وهو بوادي القرى ، وهو يعرض فرساً ، فقلت يا رسول الله ، ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : « لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش » قلت فما أحد أولى به من أحد ؟ ــ قال: « لا ولا السهم تستخرجه من جيبك ليس أنت أحق به من أخيك المسلم »]

روى عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح قال: خمس الله والرسول واحد يحمل منه ويصنع فيه ما شاء ، يعني النبي ﷺ وهذا أعم وأشمل وهو أنه يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ، ويرده في أمته كيف شاء . ويشهد له ما رواه الإمام أحمد عن المقداد بن معد يكرب الكندي ، أنه جلس مع عبادة بن الصامت وأبي الدرداء ، والحارث بن معاوية الكندي (رض) ، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ ، فقال أبو الدرداء لعبادة : يا عبادة: كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس فقال عبادة : ٣٩٢ [إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم ، فلما سلّم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنملتيه فقال : إن هذه من غنائمكم وإنه ليس لي فيها إلاّ نصيبي معكم الخمس، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط ، وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغلوّا فإن الغلول عار ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد ولا تبالوا في الله لومة لائم ، وأقيموا حدود الله في السفر والحضر ، وجاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، عظيم ينجي الله به من الهم والغم] . هذا حديث حسن عظيم ولم أره في شيء من الكتب الستة ، من هذا الوجه . ولكن روى الإمام أحمد أيضاً وأبو داود والنسائي عن عبدالله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ نحوه ، في قصة الخمس والنهي عن الغلول ، إلى قوله : « والخمس مردود عليكم » . رواه أبو داود والنسائي عن عمر بن عنبسة وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه ، عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك كما نص عليه محمد بن سيرين وعامر الشعبي وتبعهما على ذلك أكثر العلماء ، وقد تنفّل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر ، وصفية من الصفي . وروى أبو داود بأسناده والنسائي عن يزيد بن عبدالله قال ٣٩٣ : [كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها فإذا فيها

« من محمد رسول الله ﷺ إلى بني زهير بن أقيش إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وأديتم الخمس من المغنم وسهم النبي ﷺ وسهم الصفى ، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله »] فقلنا من كتب لك هذا ؟ فقال : رسول الله ﷺ

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوته – أي أن للرسول أن يصطفي لنفسه ما يشاء من الخمس وهو من خصائصه عليه الصلاة والسلام – وقال آخرون : إن الخمس يتصرف فيه الامام بالمصلحة للمسلمين ، كما يتصرف في مال الفيء ، وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله : وهذا قول مالك وأكثر السلف وهو أصح الأقوال . وقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس ، ماذا يصنع به من بعده ، فقال قائلون : يكون لمن يلي الأمر من بعده . روى هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة وجماعة ، وجاء فيه حديث مرفوع وقال آخرون : يصرف في مصالح المسلمين ، وآخرون : بل هو مردود على بقية الأصناف من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل اختاره ابن جرير ، وقال آخرون : بل سهم النبي ﷺ ، وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل ، وقيل إن الخمس جميعه لذوي القربى . وقد اجتمع الرأي على أن يجعلوا هذين السهمين أي سهم النبي وذوي القربى في الخيل والعدة في سبيل الله فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر (رض) . قال الأعمش عن إبراهيم : كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع [١] والسلاح فقلت لإبراهيم ما كان علي يقول فيه ؟ قال : كان أشدهم فيه [٢] وأمّا سهم ذوي القربى ، فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني عبد المطلب .

وقوله تعالى : ﴿ واليتامى ﴾ أي أيتام المسلمين الفقراء ﴿ والمساكين ﴾ هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد مسكنتهم ﴿ وابن السبيل ﴾ هو المسافر أو المريد للسفر الى مسافة تقصر فيها الصلاة ، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك ، وسيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات من سورة براءة إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان . [٣]

وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا ﴾ أي امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس من الغنائم ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وما أنزل على رسوله . ولهذا

---

(١) الكراع : اسم يجمع الخيل والسلاح .
(٢) وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله .
(٣) راجع تفسير الآية رقم /٦٠/ من سورة التوبة .

جاء في الصحيحين من حديث عبدالله بن عباس في حديث وفد عبد القيس أن رسول الله ﷺ قال لهم : ٣٩٤ [وآمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع ، آمركم : بالإيمان بالله ثم قال هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم ...] الحديث بطوله فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان . وقال مقاتل بن حبان : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ أي في القسمة [1] وقوله تعالى : ﴿ يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾ يوم الفرقان هو يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل. وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ وذلك في سبع عشرة مضت من رمضان وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير وكان ذلك يوم الجمعة وهو قول الجمهور والله تعالى أعلم .

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤٢)

يخبر تعالى عن يوم الفرقان ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا ﴾ أي إذا أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة الى المدينة ﴿ وهم ﴾ أي المشركون نزول ﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿ والركب ﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ، ﴿ أسفل منكم ﴾ أي مما يلي سيف البحر ﴿ ولو تواعدتم ﴾ أي أنتم والمشركون إلى مكان ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ قال محمد بن اسحق عن عبدالله بن الزبير عن أبيه في هذه الآية ، قال : ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ، ثم بلغكم كثرة عددهم ، وقلة عددكم ، ما لقيتموهم . ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله من غير ملأ منكم ، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه . وفي حديث كعب بن مالك قال : إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولما نجا أبو سفيان بعيره

(١) أي قسمة الغنائم من أن الخمس لله ولرسوله وأربعة الأخماس للمجاهدين وذلك نزل يوم الفرقان أي يوم بدر وتقسيم الخمس لله ورسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

بعث إلى قريش فقال : إن الله قد نجّى عيركم وأموالكم ورجالكم ، فارجعوا ؛ فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نأتي بدراً — وكانت بدر سُوقاً من أسواق العرب — فنقيم بها ثلاثاً فنطعم بها الطعام وننحر بها الجزر ، ونسقي بها الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً ٣٩٥ [1] [قال وبعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر علي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر ، فأصابوا سقاةً لقريش غلاماً لبني سعيد بن العاص ، وغلاماً لبني الحجاج فأتوا بهما رسول الله ﷺ فقال لهما « أخبراني عن قريش » قالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى فقال لهما رسول الله ﷺ « كم القوم » قالا كثير قال « ما عدّتُهم ؟ » قالا ما ندري قال : « كم ينحرون كل يوم ؟ » قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً قال رسول الله ﷺ « القوم ما بين التسعمأة إلى الألف » ثم قال لهما « فمن فيهم من أشراف قريش ؟ » قالا : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدي بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ودّ ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : « هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها »] رواه محمد بن اسحق عن عروه بن الزبير قال ابن اسحق : وارتحلت قريش حين أصبحت . فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ فقال ٣٩٦ [اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذّب رسولك اللهم أحِنْهُمُ الغداة]

وقوله تعالى : ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيّ عن بينة ﴾ قال محمد بن اسحق : أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة ، ويؤمن من آمن على مثل ذلك وهذا تفسير جيد وقوله تعالى : ﴿ وإن الله لسميع ﴾ أي لدعائكم وتضرعكم واستعانتكم به ﴿ عليم ﴾ بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم .

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

(١) وأطاع بنو زهرة الأخنس بن شريق بالعودة فلم يشهدوها ، ولا بنو عدي .

قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلاً ، وأخبر عليه الصلاة والسلام بذلك أصحابه فكان تثبيتاً لهم وقوله تعالى ﴿ ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ﴾ أي لجبنتم عنهم ، واختلفتم فيما بينكم ﴿ ولكن الله سلّم ﴾ أي من ذلك بأن أراكهم قليلاً ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما في الضمائر كقوله تعالى ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم ، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين . فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم . قال أبو اسحق السبيعي عن عبدالله بن مسعود (رض) قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدرحتّى قلت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائه، حتّى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنّا ألفاً ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ ويقللكم في أعينهم ﴾ قال ابن أبي حاتم عن عكرمة قال حضّض بعضهم على بعض ، إسناد صحيح وقوله تعالى : ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي أغرى كلاً من الفريقين بالآخر ، وقلّله في عينه ليطمع فيه عند المواجهة ، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين ، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه كما قال تعالى : ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين فإن كلاً منها حق وصدق ولله الحمد والمنة .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ ۝ (٤٦) ﴾

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء ،وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن أبي أوفى ٣٩٧ [أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتّى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قام النبي ﷺ وقال : « اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ،

أهزمهم وانصرنا عليهم »] وروى عبد الرزاق عن عبدالله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ ٣٩٨ : [لا تتمنَّوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله ، فإن صخبوا وصاحوا ، فعليكم بالصمت] وفي الحديث الآخر المرفوع ٣٩٩ : [يقول الله تعالى إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قِرنه] أي لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعانتي .

وهكذا فقد أمر الله تعالى : بالثبات عند قتال الأعداء ، والصبر على مبارزتهم ، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا وأن يذكروا الله تعالى في تلك الحال ولا ينسوه ، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ، ويسألوه النصر على أعدائهم وأن يطيعوا الله ورسوله في كل الأمور ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم ﴿وتذهب ريحكم﴾ أي قوتكم وحدتكم، وماكنتم فيه من الإقبال ﴿واصبروا ان الله مع الصابرين﴾. وقد كان للصحابة (رض) في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به وامتثال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد ممن بعدهم . فإنهم ببركة الرسول ﷺ الحاصلة لهم بطاعته فيما أمرهم ونهاهم فتحوا الدنيا ، وظهر دينهم على سائر الأديان مع قلة عددهم ، فامتدت ممالكهم في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهاب .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴾

بعدما أمر الله المؤمنين بالأخلاص في القتال في سبيله ، وكثرة ذكره ، نهاهم

عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم مضادّين للحق ﴿ ورئاء الناس ﴾ أي مفاخرة وتكبراً ، كما قال أبو جهل لما قيل له : إن العير قد نجا فارجعوا ؛ فقال لا والله لا نرجع ، حتى نرد ماء بدر ، وننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتتحدث العرب بمكاننا فيها أبداً ، فانعكس ذلك عليه أجمع ولهذا قال تعالى : ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ أي عالم بما فرطوا فجازاهم عليه شر الجزاء . وقوله تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴾ الآية ... حسّن لهم لعنه الله ما جاءوا له وما هموا به ، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، ونفى عنهم الخشية من عدوهم بني بكر فقال إني جار لكم وذلك أن تبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، سيد بني مدلج ، وكلُّ ذلك منه كما قال تعالى عنه : ﴿ يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : ٤٠٠ : [جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته ، في صورة رجل من بني مدلج ، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما اصطفَّ الناس ، أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولّوا مدبرين وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولّى مدبراً وشيعته فقال الرجل [1] : يا سراقة أتزعم أنك لنا جار ؟ فقال إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين رأى الملائكة] وهكذا ﴿ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له ، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شرَّ مسلم وتبرأ منهم عند ذلك ، قال قتادة . (قلت) يعني بعادته لمن أطاعه . كقوله تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين » وأقبل أبو جهل يحضّض أصحابَه ، ويقول لا يهولنّكم خذلان سراقة إياكم ، فإنه كان على موعد مع محمد وأصحابه . ثم قال : واللات والعزى ، لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه في الحبال ، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً .

وقوله تعالى : ﴿ إذْ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرَّ هؤلاء دينهم ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية : لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين ، وقلل المشركين في أعين المسلمين ، فقال المشركون غرّ

---

(١) هو الحارث بن هشام .

هؤلاء دينهم ، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم . فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ومن يتوكّل على الله﴾ أي يعتمد على جنابه ﴿فان الله عزيز﴾ أي لا يضام مَن التجأ إليه. فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿حكيم﴾ في أفعاله لا يضعها إلاّ في مواضعها ، فينصر من يستحق النصر . ويخذل من هو أهل لذلك .

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ❁ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ❁ (٥١)﴾

يقول تعالى : ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار ، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً إذ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ويقولون ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ وذلك يوم بدر ، وهذه الآية وإن كان سببها وقعة بدر ولكنها عامة في حق كل كافر ، كقوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾ أي باسطو أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم . إذ استصعبت أنفسهم ، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرجَ قهراً . وذلك إذا بشّروهم بالعذاب والغضب من الله تعالى ؛ كما في حديث البراء أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة يقول : أُخرجي أيتها النفسُ الخبيثةُ إلى سموم وحميم ، وظل من يحموم . فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود من الصوف المبلول فتخرج معها العروق والعصب ولهذا أخبر تعالى : أن الملائكة تقول لهم ذوقوا عذاب الحريق . وقوله تعالى : ﴿ذلك بما قدمتْ أيديكُم﴾ أي هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا جازاكم الله بها هذا الجزاء ﴿وأن الله ليس بظلاّم للعبيد﴾ أي لا يظلم أحداً من خلقه ، بل هو الحكَم العدل الذي لا يجور . تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغني الحميد . ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن مسلم رحمه الله من رواية أبي ذر (رض) ، عن رسول الله ﷺ ٤٠١ [أنَ الله تعالى يقول : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد اللهَ ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلاّ نفسه »] ، ولهذا قال تعالى :

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ﴾

يقول تعالى ان هؤلاء المشركين المكذبين بما أرسلتَ به يا محمد فعلوا كما فعل الأمم المكذبة قبلهم . ففعلنا بهم كما فعلنا بأمثالهم من الأمم المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم ، الكافرين بآيات الله ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ أي بسببها أهلكهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ إن الله قوي شديد العقاب ﴾ أي لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) ﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله ، وقسطه في حكمه ، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا اراد الله بقوم سوءً فلا مردّ له وما لهم من دونه من والٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ أي كما صنع بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته ، أهلكهم بسبب ذنوبهم وسلبَهُمْ تلك النعم التي أسداها إليهم ، من جناتٍ وعيون وزروع وكنوز ، ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين .

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) ﴾

أخبر تعالى : إن شر ما يدبُّ على وجه الارض ، هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون

الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه . وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه ﴿ وهم لا يتقون ﴾ أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام . ﴿ فإما تثقفنّهم في الحرب ﴾ أي تظفر بهم في حرب ﴿ فشرِّدْ بهم من خلفهم ﴾ أي غلّظ عقوبتهم . وأثخنهم قتلاً . ليخاف من سواهم من الأعداء . من العرب وغيرهم . ويصيروا لهم عبرة ﴿ لعلّهم يذّكّرون ﴾ يقول لعلّهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك .

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ۞ (٥٨) ﴾

يقول تعالى لنبيّه ﷺ : ﴿ وإما تخافنّ من قوم ﴾ قد عاهدتهم ﴿ خيانة ﴾ أي نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق ، ﴿ فانبذ إليهم ﴾ أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم . أيضاً وتستوي أنت وهم في ذلك أي أنت تعلم أنهم حرب عليك ، وهم يعلمون أنك حرب عليهم ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ أي حتى ولو في حق الكفار لا يحبّها أيضاً . روى الإمام أحمد عن سليم بن عامر قال : ٤٠٢ [كان معاوية يسير في أرض الروم وكان بينه وبينهم أمد . فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم . فاذا شيخٌ على دابة يقول : الله اكبر . الله اكبر ، وفاءً لا غدراً إن رسول الله ﷺ قال : « ... ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلّنّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها ، أو ينبذ اليهم على سواء » قال فبلغ ذلك معاوية . فرجع ، فإذا بالشيخ عمرو بن عنبسة (رض) .] وهذا الحديث رواه ابو داود الطيالسي عن شعبة ، وأخرجه ابو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه من طرق عن شعبة به ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۞ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۞ (٦٠) ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ولا يحسبن (١) ﴾ يا محمد ﴿ الذين كفروا سبقوا ﴾ أي فاتونا، فلا نقدر عليهم... بل هم تحت قهر قدرتنا. وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ أي يظنون. ثم أمر تعالى بأعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان فقال: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم ﴾ أي مهما أمكنكم ﴿ من قوة ومن رباط الخيل ﴾ روى الامام مسلم عن عقبة ابن عامر قال: ٤٠٣ [سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ألا إن القوة الرمي الا أن القوة الرمي »] رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه ثلاثتهم عن عبدالله بن وهب. وروى الامام أحمد وأهل السنن عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ: ٤٠٤ [ارموا واركبوا وإن ترموا خير من ان تركبوا] روى الامام مالك عن أبي هريرة (رض) ان رسول الله ﷺ قال: ٤٠٥ [« الخيل لثلاثة: لرجل أجر. ولرجل ستر. وعلى رجل وزر. فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج او روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة. كانت له حسنات ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهي على ذلك وزر » وسئل رسول الله ﷺ عن الحُمر (٢) فقال « ما أنزل الله علي فيها شيئاً الا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾] وفي صحيح البخاري عن عروة بن أبي الجعد البارقي، ان رسول الله ﷺ قال: ٤٠٦ [الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم] وقوله تعالى: ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ أي تخوفون به الكفار اعداء الله واعداءكم ﴿ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هم المنافقون. ويشهد له قوله تعالى: ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وانتم لا تظلمون ﴾ أي مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يوفّى إليكم على التمام والكمال. ولهذا جاء في الحديث الذي رواه ابو داود: ٤٠٧ [ان الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف] كما تقدم في قوله تعالى.

---

(١) مشى المفسر على قراءة « ولا تحسبن » بالتاء.
(٢) الحمير.

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبةٍ أنبتت سبعَ سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۞ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ (٦٣) ﴾

يقول تعالى : إذا خفت من قوم خيانة ، فانبذ اليهم عهدهم على سواء ، فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم ﴿وان جنحوا﴾ أي مالوا ﴿للسلم﴾ أي المسالمة ﴿فاجنح لها﴾ أي فمِلْ إليها واقبل منهم ذلك ، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين ، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر وقوله تعالى : ﴿وتوكل على الله﴾ أي صالحهم وتوكل على الله ، فإنه كافيك وناصرك ، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ، ليتقوّوا ويستعدوا ﴿ فإن حسبك الله ﴾ أي كافيك وحده ، ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار فقال جل وعلا : ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم ﴾ أي جمعها على الإيمان بك ، وعلى طاعتك ومناصرتك فقد كان بين الأنصار حروب كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾ وفي الصحيحين ٤٠٨ [ان رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار ، في شأن غنائم حنين ، قال لهم : « يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي » كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنّ .] ولهذا قال تعالى : ﴿ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ أي عزيز الجناب ، فلا يخيّب رجاء من توكل عليه ، حكيم في أفعاله وأحكامه . قال الحافظ ابو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمهُ الله عن سلمان الفارسي ان رسول الله ﷺ قال٤٠٩ : ان المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ

بيده ، تحاتت عنهما ذنوبهما كما تحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحار .]

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٦٤) يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۞ (٦٥) ٱلْآنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ ۞ (٦٦) ﴾

يحرض الله نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ، ويخبرهم أنه تعالى كافيهم وناصرهم على عدوهم وان كثر عَدده وعُدده . ولو قل عدد المؤمنين . قال ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله تعالى : ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ قال : حسبك الله وحسب من شهد معك ولهذا قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال ﴾ أي حثهم عليه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال . عند صفهم ومواجهة العدو كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم : ٤١٠ [قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ...]

ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين وآمراً : ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾ كل واحد بعشرة ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة قال عبدالله بن المبارك عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ شق ذلك على المسلمين ، حين فرض الله عليهم ان لا يفر واحد من عشرة ثم جاء التخفيف ، فقال عز وجل : ﴿الآن خفف الله عنكم–إلى قوله – يغلبوا مئتين﴾ قال خفف الله عنهم من العدة ، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم . وروى البخاري عن ابن عباس ، قال : لما نزلت هذه الآية ثقل على المسلمين وأعظموا ان يقاتل عشرون مائتين، ومائة الفاً. فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً ﴾ الآية فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم ،

لم يسغ لهم أن يفروا من عدوهم ، واذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم ، وجاز لهم ان يتحوزوا عنهم .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٦٩) ﴾

روى الأعمش عن عبدالله [1] قال ٤١١ : [لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ « ما تقولون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر يا رسول الله : كذبوك وأخرجوك ، فقدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبدالله بن رواحة : يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب ، فاضرم الوادي عليهم ناراً ، ثم ألقهم فيه ، قال فسكت رسول الله ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً ثم قام فدخل ؛ فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبدالله بن رواحة .

ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وان مثلك يا أبا بكر كمثل ابراهيم عليه السلام قال : ﴿فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وان مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام، السلام ، قال : ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام : ﴿قال رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم الا بفداء أو ضربة عنق » قال ابن مسعود قلت يا رسول الله إلاّ سهيل بن بيضاء ، فإنه يذكر الاسلام ، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع على حجارة من السماء مني في ذلك اليوم

(١) ابن مسعود .

حتى قال رسول الله ﷺ : « الا سهيل بن بيضاء » فأنزل الله عز وجل : « ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » إلى آخر الآية .] رواه الامام أحمد والترمذي والحاكم في مستدركه وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

وقوله تعالى : ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني في أم الكتاب الأول ، ان الغنائم والأسارى حلال لكم ﴿لمسّكم فيما أخذتم﴾ من الأسارى ﴿عذاب عظيم﴾ قال الله تعالى : ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين عن جابر بن عبدالله (رض) الحديث الذي فيه قوله عليه الصلاة والسلام ٤١٢ [... وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ...] فعند ذلك اخذوا من الأسارى الفداءَ . وقد روى الإمام أبو داود في سننه عن ابن عباس ٤١٣ [ان رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة] وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء ، ان الامام مخير فيهم ، ان شاء قتل كما فعل ببني قريظة ، وإن شاء فادى كما فعل بأسرى بدر ، أو بمن أُسِرَ من المسلمين ، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها ، اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع حيث ردَّهما وأخذ مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وان شاء استرق من أسر . هذا مذهب الشافعي وطائفة من العلماء وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة ، مقرر في موضعه من كتب الفقه .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ ٱلْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ❁ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ❁ (٧١) ﴾

روى محمد عن عبدالله بن عباس (رض) ان رسول الله ﷺ قال يوم بدر ٤١٤ [إني قد عرفت أن أناساً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحداً منهم فلا يقتله ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه انما خرج مستكرَهاً » فقال أبو حذيفة بن عتبة : أنقتل آباءنا وأبناءنا واخواننا وعشائرنا ونترك العباس والله لئن لقيته لألجمنّهُ بالسيف فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب « يا أبا حفص ــ قال عمر والله إنه لأول يوم

كنَّاني فيه رسول الله ﷺ أبا حفص – أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ – بالسيف ؟» فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فوالله لقد نافق ، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفاً الا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيداً (رض) وبه عن ابن عبـــاس قال ٤١٥ : [لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والأسارى محبوسون بالوثاق ، بات رسول الله ﷺ ساهراً أول الليل ، فقال له أصحابه يا رسول الله مالك لا تنام؟ وقد أسر العباسَ رجلٌ من الأنصار فقال رسول الله ﷺ « سمعت أنين عمي العباس في وثاقه» فأطلقوه فسكت فنام رسول الله ﷺ]

روى يونس بن بكير عن الزهري عن جماعة سماهم قالوا : ٤١٦[بعثت قريش الى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم ففدى كل قوم أسيرهم ...وقال العباس يا رسول الله قد كنت مسلماً فقال رسول الله ﷺ « الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتدِ نفسَك وابنَ أخيك نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب وعقيلَ بنَ أبي طالب بن عبد المطلب ، وحليفَك عتبةَ بن عمر أخي بن الحارث بن فهر » قال ما ذاك عندي يا رسول الله . قال : « فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل ؟ فقلتَ لها إن أصبت في سفري هذا ، فهذا المال الذي دفنتيه لبَنيّ الفضلِ وعبدِ الله وقثم » قال والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله ، إنّ هذا الشيء ما علمه أحد غيري وغيرأم الفضل فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي فقال رسول الله ﷺ « لا ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك » ففدى نفسَه وابنَيْ أخويهِ وحليفَه ، فأنزل الله عز وجل فيه : ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾قال العباس فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .]

روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن أنس بن مالك قال ٤١٧ [أتى رسولُ الله ﷺ بمالٍ من البحرين فقال : انثروه في مسجدي قال وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة ، جاء فجلس إليه فما كان يرى أحداً الا أعطاه إذ جاءه العباس فقال يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي ، وفاديت عقيلاً فقال له رسول الله ﷺ « خذ » فحثا في ثوبه ثم ذهب يقلّه فلم يستطع فقال مُرْبعضَهم يرفعه إليّ قال : « لا » قال فارفعه أنت عليّ قال : « لا » فنثر منه ثم احتمله على كاهله

ثم انطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عنه ، عجباً من حرصه ، فما قام رسول الله ﷺ وثَمّ منها درهم .] وقد رواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم .

وقوله تعالى : ﴿وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل﴾ أيْ وان يريدوا خيانتك فيما أظهروا لك من الأقوال فقد خانوا الله من قبل بدر بالكفر به ﴿فأمكن منهم﴾ أي أي بالأسارى يوم بدر ﴿والله عليم حكيم﴾ عليم بفعله حكيم فيه . وتفسير هذه الآية على العموم أي أنها عامة في العباس وغيره هو أشمل وأظهر والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِنْ وَلَايَتِهِم مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * (٧٢) ﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم الى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله واقامة دينه وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك . وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك ، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء : ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد . ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث . ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس . روى الامام أحمد عن جرير بن عبدالله البجلي (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٤١٨ : [المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة] تفرد به أحمد .

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار ، في غير ما آية في كتابه المبين : ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً

وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ الآية ...

وأحسن ما قيل في قوله تعالى : ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾أي لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم ، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين ، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، بل أقاموا في بواديهم فهؤلاء ليس لهم في المغانم من نصيب ، ولا في خمسها إلاّ ما حضروا فيه القتال .

كما روى الامام أحمد عن يزيد بن الحصيب الأسلمي (رض) ٤١٩ : [... أدعهم إلى الاسلام فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ثم ادعهم الى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأعلمهم إن فعلوا ذلك ان لهم ما للمهاجرين ، وان عليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا واختاروا دارهم ، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، ويجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم] انفرد به مسلم وعنده زيادات أخر .

وقوله تعالى : ﴿ وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر ﴾ أي الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدولهم فانصروهم ، فانه واجب عليكم نصرهم ، لأنهم اخوانكم في الدين إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ، بينكم وبينهم ميثاق أي مهادنة إلى مدة ، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم ، وهذا مروي عن ابن عباس (رض) .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (٧٣)

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار ، وفي الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ ٤٢٠ [لا يرث

المسلم الكافر ولا الكافر المسلم] وفي المسند من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٢١ [لا يتوارث أهل ملتين شتى] وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال ﷺ ٤٢٢ : [« أنا بريءٌ من كل مسلم بين ظهراني المشركين » ثم قال : « لا يتراآى ناراهما »] ومعنى قوله تعالى : ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ أي ان لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة وانه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب - إن كانت - وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف دائم مستمر أبداً لا ينقطع ولا ينقضي ، ثم ذكر متبعيهم على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال تعالى : ﴿والسابقون الأولون﴾ الآية ...

وقال تعالى : ﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾ الآية ... وفي الحديث المتفق عليه ٤٢٣ [المرء مع من أحب] وفي الحديث الآخر ٤٢٤ : [من أحبَّ قوماً فهومنهم . وفي رواية : حشر معهم]

وأما قوله تعالى : ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ تشمل جميع القرابات فهي أي هذه الآية كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والأخاء اللذَيْن كانوا يتوارثون بهما ،أولاً .

وعليه فانها تشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص ، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة أقواهـا حديث ٤٢٥ [ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث] قالوا فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمّى ، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً والله أعلم .

آخر اختصار تفسير سورة الأنفال ولله الحمد والمنة وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل .



الا الآيتين الأخيرتين فمكيتان نزلت بعد : المائدة

نصف الحزب

﴿ بَرَآءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَافِرِينَ ﴿ (٢) ﴾

هذه السورة الكريمة ، من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، كما روى البخاري عن البراء قال ٤٢٦ : [آخر آية نزلت : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ وآخر سورة نزلت : « براءة » وانما لم يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان (رض) وأرضاه]

وروى الترمذي عن ابن عباس — ملخصاً — ٤٢٧ [أنه سأل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن عدم الفصل بين سورة الأنفال وسورة التوبة بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال عثمان ... كانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر : « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتها في السبع الطوال]

وروى نحوه الإمام أحمد أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من طريق آخر وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وأول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهمّ بالحج . ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك ، ويطوفون بالبيت عراةً فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق (رض) أميراً على الحج تلك السنة ليقيم للناس

مناسكهم ويُعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا وأن ينادى في الناس : « براءة من الله ورسوله » فلما قفل اتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له ...

* * *

وقوله تعالى : ﴿براءة من الله ورسوله﴾ أي تبرؤٌ من الله ورسوله ﴿الى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر فأما من كان عهده مؤقت فأجله الى مدته مهما كان. لقوله تعالى: ﴿فأتموا إليهم عهدهم الى مدتهم﴾ الآية ولما سيأتي من الحديث ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله .

قال أبو معشر المدني : حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : ٤٢٨ [بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع ، وبعث علياً بن أبي طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس ، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة ، أجّلهم عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر وقرأها عليهم في منازلهم وقال : لا يحجنّ بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان] قال ابن أبي نجيح عن مجاهد فآذنوا أصحاب العهد بأن يؤمَّنوا أربعة أشهر فهي الأشهر المتواليات عشرون من ذي الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ثم لا عهد لهم ، وآذن الناس كلهم بالقتال الا أن يُؤمِنوا . وهكذا روى عن السدي وقتادة .

﴿ وَأَذَانٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * (٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وأذان ﴾ أي وإعلام ﴿ من الله ورسوله ﴾ وتقدم وإنذار الى الناس

﴿يوم الحج الأكبر﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعاً ﴿ان الله بريء من المشركين ورسولُه﴾ أي ورسوله بريء منهم أيضاً ثم دعاهم إلى التوبة اليه فقال عز من قائل : ﴿فإن تبتم﴾ أي مما أنتم فيه من الشرك ﴿فهو خير لكم وان توليتم﴾ أي استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ بل أنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ أي في الدنيا بالخزي والنكال ، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال .

روى البخاري عن أبي هريرة قال ٤٢٩ : [بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألاّ يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ، ويوم الحج الأكبر يوم النحر ، وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر ، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك] هذا اللفظ للبخاري في كتاب الجهاد .

روى الإمام أحمد عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال ٤٣٠ [كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بـ (براءة) فقال ما كنتم تُنادون ؟ قال : كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر [1] فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال كنت أنادي حتى صحل صوتي .] روى ابن جرير عن علي (رض) ٤٣١ : [بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع : أن لا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فهو الى مدته. ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة .]

أما يوم الحج الأكبر فهو يوم النحر كما روى الإمام ابو جعفر الطبري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ٤٣٢ [وقف رسول الله ﷺ عند الجمرات في حجة الوداع فقال : « هذا يوم الحج الأكبر »] .

وقال روى شعبة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : ٤٣٣ [قام فينا رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرمة فقال : « أتدرون اي يوم يومكم هذا » قالوا: يوم النحر قال : « صدقتم يوم الحج الأكبر »] .

(١) قلت : هذا لمن كان عهده أقل من أربعة أشهر أو له عهد مطلق غير موقت. أما من كان له عهد موقت لأكثر من أربعة أشهر ولمدة معينة فعهده إلى مدته كما هو واضح من الحديث الذي بعده عن علي رضي الله عنه .

روى ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : ٤٣٤ [لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له وأخذ الناس بخطامه أو زمامه فقال : ﴿أي يوم هذا﴾ قال فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه فقال: أليس هذا يوم الحج الأكبر»] (١) وهذا اسناد صحيح وأصله مخرج في الصحيح .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ (٤) ﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت ، فأجله كما تقدم أربعة اشهر يسيح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء ، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها ، وقد تقدمت الأحاديث : ... ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته ؛ وذلك بشرط ان لا ينقض المعاهد عهده إلى مدته ، ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك فقال تعالى : ﴿ ان الله يحب المتقين ﴾ أي الموفين بعهدهم .

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ (٥) ﴾

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ها هنا ما هي ؟ فمن قال أنها هي المذكورة بقوله تعالى : ﴿ منها أربعة حرم ... ﴾ (٢) وفيه نظر ... والذي يظهر من السياق وما

(١) قلت : يعتقد العامة أن كل حج يصادف يوم الجمعة (أعني يوم عرفة) يكون الحج حجاً أكبر . وهذا خطأ ... إنما الحج الأكبر : هو يوم النحر . فيكون في كل عام حج أكبر ، لأن يوم النحر يأتي كل عام إلى يوم القيامة .

(٢) وهي الآية رقم /٣٦/ من هذه السورة الكريمة

ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله تعالى: ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ ثم قال سبحانه: ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم ﴾ أي اذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم لأن عودَ العهد على مذكور، أولىَ من مقدر. ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية قادمة من هذه السورة الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ أي من الأرض وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله تعالى: ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ وقوله جل ثناؤه: ﴿ وخذوهم ﴾ أي وأسروهم إن شئتم قتلاً، أو شئتم أسراً. وقوله تعالى: ﴿ واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصَد ﴾ أي اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، وضيقوا عليهم مسالكهم فتضطروهم إلى القتل أو الاسلام. ولهذا قال جل وعلا: ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفورٌ رحيم ﴾ ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال ما نعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها. وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: ٤٣٥ [أمرتُ ان اقاتل الناس حتى يَشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة] الحديث. فقوله تعالى: ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ قال انس: توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم انها نَسخت كلَّ عهدٍ بين النبي ﷺ وبين أحَدٍ من المشركين، وكلَّ عقد وكل مدة (١) وقد اختلف المفسرون في آية السيف هذه فقال الضحاك والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى ﴿فإما منّاً بعد وإمّا فداءً﴾ وقال قتادة بالعكس.

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۞ (٦) ﴾

يقول تعالى لنبيّه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وإنْ أحد من المشركين ﴾ الذين أمرتك بقتالهم وأحللتُ لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿ استجارك ﴾ أي استأمنك فأجبه إلى

(١) إلا من كان عهدهم إلى مدة مؤقتة فعهدهم إلى مدتهم إذا لم ينقضوا عهدهم.

طلبته حتى يسمع كلام الله. أي القرآن تقرأه عليه. وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله تعالى ﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده.

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة. كما جاء يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش كعروة بن مسعود وغيره من المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، فكان ذلك وامثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم. والغرض ان من قدم من دار الحرب إلى دار الاسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه.

لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكّن من الإقامة في دار الإسلام سنة. ويجوز ان يمكّن من إقامة أربعة أشهر. وهناك من زاد على أربعة ونقص عن سنة.

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ (٧) ﴾

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين، وتأجيله إياهم اربعة أشهر ثم بعد ذلك السيف المرهف اين ثقفوا فقال تعالى ﴿ كيف يكون للمشركين عهد ﴾ أي أمان ويتركون وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿ الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ﴾ يعني يوم الحديبية ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ أي مهما تمسكوا بعهدكم لهم وما عاهدتموهم عليه من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿ فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون. استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد وما لأوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكّنه من نواصيهم ولله الحمد والمنه، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسمّوا الطلقاء. وكانوا

قريباً من ألفين ، ومن استمر على كفره وفرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث يشاء ومنهم صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما ، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله .

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * (٨) ﴾

يحرض تعالى المؤمنين على معاداتهم والتبري منهم ويبين أنهم لا يستأهلون أن يكون لهم عهد : لشركهم به تعالى ، وكفرهم برسول الله ﷺ ، ولو انتصروا عليكم لا يراعوا فيكم قرابةً ولا عهداً ولا حِلفاً فالمشرك الذي ما راعى الله في توحيده كيف يراعي في المؤمنين عهداً أو قرابة أو ذمةً ، وان عاهدوكم بأفواههم فإن قلوبهم تأبى ذلك .

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * (١١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ اشتروا بآياتِ الله ثمناً قليلاً ﴾ أي إن المشركين اعتاضوا عن اتّباع آيات الله بما التهَوْا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿ فصدّوا عن سبيله ﴾ أي منعوا المؤمنين من اتّباع الحق . ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذِمّة ﴾ أي لا قرابةً ولا عهداً ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصّل الآيات لقوم يعلمون ﴾ قال أنس: وتوبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

« فإن فعلوا ذلك ﴿ فإخوانكم في الدين ﴾ أي لهم ما لنا وعليهم ما علينا ويتوب الله على من تاب » [١] .

---

(١) ما بين القوسين الصغيرين ليس من كلام المفسر رحمه الله إنما هو من كلامي .

﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * (١٢) ﴾

يقول تعالى وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم أي عهودهم ومواثيقهم ﴿ وطعنوا في دينكم ﴾ أي عابوه وانتقصوه ، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو من طعن في دين الاسلام أو ذكره بنقص ولهذا قال عز من قال : ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون ﴾ أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . والآية عامة وان كان سبب نزولها أئمة كفار قريش فهي عامة لهم ولغيرهم .

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * (١٥) ﴾

وهذا أيضاً تحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين همّوا بإخراج الرسول من مكة ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وهم بدأوكم أول مرة ﴾ أي نقضوا العهد الذي أبرموه يوم الحديبية وقاتلوا مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان ولله الحمد والمنة .

وقوله تعالى : ﴿ أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ أي لا تخشوهم واخشون فأنا أهل أن يخشى العبادُ من سطوتي وعقوبتي ، ثم عزم الله على المؤمنين وحرضهم على قتال المشركين بياناً لحكمته من مشروعيته الجهاد مع قدرته على اهلاك الأعداء بأمر

منه تعالى ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ ويذهب غيظ قلوبهم﴾ عليهم ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾أي من عباده ﴿ والله عليم﴾ بما يصلح لهم ويصلحهم ، ﴿ حكيم ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ (١٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿ أم حسبتم ﴾ أيها المؤمنون ان تهملوا فلا نختبركم بما يميز أهل العزم الصادق من الكاذب. ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً ﴾ أي بطانة ودخيلة بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله كما قال تعالى : ﴿ الم * أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ واختبار المؤمنين هنا حصل بمشروعية الجهاد لهم وفيه الاختبار لعبيده من يطيعه فيه ممن يعصيه ، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه ، لا إله الا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه .

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَآتَى الزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۞ (١٨) ﴾

يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله تعالى ان يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه

وحده لا شريك له وهناك من قرأ : مسجد الله فأراد به المسجد الحرام اشرف مساجد الأرض وقوله تعالى : ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ اي لو سألت النصراني واليهودي والصابىء كلاّ عن دينه لأجابك بأنه كذلك، مقراً على نفسه بالكفر ﴿ أولئك حبطت أعمالهم ﴾ أي بشركهم ﴿ وفي النار هم خالدون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ومالهم ألاّ يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه أن أولياؤه الا المتقون ولكن اكثرهم لا يعلمون ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ فشهد تعالى بالايمان لعمار المساجد ، كما روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ، ان رسول الله ﷺ قال : ٤٣٦ : [إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله تعالى : ﴿ انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾] ورواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في مستدركه . وروى الحافظ ابو بكر البزار عن ثابت بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٣٧[إنما عمّار المساجد هم أهــل الله] وقوله تعالى: ﴿ واقام الصلاة ﴾ التي هي أكبر عبادات البدن ، ﴿ وآتي الزكاة ﴾ وهي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق . وقوله تعالى : ﴿ ولم يخشَ إلا الله ﴾ اي لم يخشَ سواه ﴿ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ كل عسى في القرآن فهي واجبة ، قال ابن اسحق : وعسى من الله حق .



﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ ٱللهِ وَٱللهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ❁ (١٩) ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ ٱللهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ ❁ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ❁ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ ٱللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ❁ (٢٢) ﴾

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : ان المشركين قالوا : عمارة البيت وسقاية الحاج خير ممن آمن وجاهد ، فأعرضوا عن القرآن والنبي ﷺ ، ففضل الله الايمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ، ولم يكن ينفعهم عند الله

مع الشرك به ، قال الله تعالى : ﴿ لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ يعني الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم الله ظالمين بشركهم ، فلن تغني عنهم العمارة شيئاً .

روى الوليد بن مسلم عن النعمان بن بشير الأنصاري قال : ٤٣٨ [كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من اصحابه ، فقال رجل منهم : ما أبالي ان لا أعمل لله عملاً بعد الاسلام إلا أن اسقي الحاج ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ولكن اذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه قال ففعل فأنزل عز وجل : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ـ إلى قوله ـ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾] رواه مسلم في صحيحه وابو داود وهذا لفظه ، وابن مردويه وابن أبي حاتم في تفاسيرهم وابن حبان في صحيحه .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ۞(٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ ۞ (٢٤) ﴾

أمر تعالى بمقاطعة الكفار وان كانوا آباء وأبناء ، ونهى عن موالاتهم إن اختاروا الكفر على الإيمان وهدّدهم على ذلك كقوله تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ الآية . وروى الحافظ البيهقي عن عبدالله بن شوذب ان الآية المتقدمة نزلت في أبي عبيدة بن الجراح لما حاول ابوه الجراح ان يقتله بينما ابو عبيدة يحيد عنه فلما اكثر

الجراح قتله ابنه ابو عبيده وذلك يوم بدر فأنزل الله فيه : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ﴾ ثم توعّد الله من آثر أهله وقرابته على الله ورسوله بقوله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ﴾ اي اكتسبتموها ﴿ وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها . أي إن كانت هذه الأشياء ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا ﴾ أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

روى الإمام أحمد عن زهرة بن معبد عن جده قال : ٤٣٩ [كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي فقال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه » فقال عمر فأنت الآن والله أحب إليَّ من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ « الآن يا عمر »] انفرد به البخاري . وثبت في الصحيح عنه ﷺ انه قال : ٤٤٠ [والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ اليه من والده وولده والناس أجمعين] روى الامام أحمد وابو داود واللفظ له عن ابن عمر قال : ٤٤١ [سمعت رسول الله ﷺ يقول : اذا تبايعتم بالعينة ، واخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم] .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۞ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ ۞ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ (٢٧) ﴾

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم ، واحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسول الله ﷺ وان ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره ، لا بعددهم

وعُددِهم ونبههم على ان النصر من عنده تعالى سواء قلّ الجمع أو كثر فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً . فولّوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلاً ، ليعلمهم ان النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وان قل الجمع ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة .

وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، وأن اميرهم مالك ابن عوف النضري ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر ، وأوزاع من بني هلال وهم قليل ، وناس من بني عمر وبن عامر ، وعون بن عامر ، وقد اقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم ، وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح ، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين ، فسار بهم إلى العدو فالتقوا بوادٍ بين مكة والطائف يقال له « حنين » فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح ، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن ؛ فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلاّ بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال ، واصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم ، فعند ذلك ولّى المسلمون مدبرين كما قال عز وجل ، وثبت رسول الله ﷺ ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء ، يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن ، وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوّه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ، ويقول : ٤٤٢ [أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب] ويقول قبلها : ٤٤٣ [إليّ عباد الله إلي أنا رسول الله .] وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون فمنهم ابو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعلي والفضل بن العباس ، وأبو سفيان بن الحارث وايمن بن أم أيمن ، واسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم ثم أمر ﷺ عمّه العباس ، وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته : ٤٤٤ [يا أصحاب الشجرة] يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على ان لا يفرّوا عنه فجعل ينادي بهم : [يا أصحاب الشجرة ،] ويقول تارةً : ٤٤٥ [يا أصحاب سورة البقرة] فجعلوا يقولون : يا لبيك يا لبيك ، وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ ، حتى أن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ،

ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ ، فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم عليه الصلاة والسلام أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضةً من تراب بعدما دعا ربه واستنصره ، وقال : ٤٤٦ [اللهم أنجز لي ما وعدتني] ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلاّ أصابه منهـا في عينيه وفمه مـا شغله عن القتال ، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلاّ والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ .

* وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلاً قال له : ٤٤٧ [يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر إن هوازن كانوا قوماً رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ، فانهزم الناس ؛ فلقد رأيت رسول الله ﷺ ، وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »] .

قلت : وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة ، إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغي ، وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلةٍ وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر أو كر او هرب ، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم ، وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، وما هذا كله إلاّ ثقةً بالله وتوكلاً عليه وعلماً منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم انزل الله سكينته على رسوله ﴾ أي طمأنينة وثبات على رسوله ﴿ وعلى المؤمنين ﴾ الذين معه ﴿ وانزل جنوداً لم تروها ﴾ وهم الملائكة . كما روى الامام أبو جعفر بن جرير عن عبد الرحمن مولى ابن برثن حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال : ٤٤٨ [لمـا التقينا نحن واصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة ، قال : لما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ . قال فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا : شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا ، فكانت إياها]

* وعن شيبة بن عثمان قـال : ٤٤٩ [خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، والله ما أخرجني اسلام ولا معرفة به ، ولكنني أبيت ان تظهر هوازن على قريش فقلت وانا واقفاً معه : يا رسول الله إني أرى خيلاً بلقا فقال : [يا شيبة إنه لا يراها إلاّ كافر] فضرب بيده على صدري ثم قال : « اللهم اهد شيبة » ثم ضربها ثانيةً ثم

قال : « اللهم اهد شيبة » ثم ضربَـها الثالثة ثم قال : اللّهم إهد شيبة. قال : فوالله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتّى ما كان أحد من خلق الله أحبَّ إليَّ منه ...] وذكر تمام الحديث في التقاء الناس ، وانهزام المسلمين ، ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتّى هزم الله المشركين .

* وقال سعيد بن السائب بن يسار عن أبيه قال سمعت يزيد بن عامر السوائي ، وكان شهد حنينا مع المشركين ثم اسلم بعد ؛ فكنا نسأله عن الرعب الذي القى الله في قلوب المشركين يوم حنين فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطست فيطن فيقول : كنا نجد في اجوافنا مثل هذا . وله شاهد من حديث الفهري يزيد ابن أسيد فالله أعلم .

وفي صحيح مسلم عن ابي هريرة أن رسول الله (ص قـال : ٤٥٠ [نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم] ولهذا قال تعالى ﴿ ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا ولحقوا برسول الله ﷺ ، وقد قارب مكة عند الجعرانة ، ذلك بعد الوقعة بقريب عشرين يوماً فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم ، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة ، فرد سبيهم ، وقسم الأموال بين الغانمين ، ونفل أناساً من الطلقاء ، لكي يتألف قلوبهم على الاسلام فأعطاهم مائة مائة من الإبل ، وكان من جملة من أعطي مائة ، مالك ابن عوف النضري ، واستعمله على قومه كما كان أميراً من قبل عليهم ، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها : *

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمد
أوفىَ وأعطىَ للجزيل إذا اجتدىَ ... ومتى يَشَأْ يخبرك عما في غد [1]
واذا الكتيبة عرّدت أنيابها ... بالسمهري وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله ... وسط المباءة خادر في مرصد

(*) بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما أحلمك ، ما أكرمك وما أبعد نظرك ، نعم النبي والرسول أنت ، ونعم القائد أنت ، ونعم الأب الحاني الرفيق ، ونعم الأسوة الحسنة انت ، عليك أفضل صلاة وأتم تسليم .

(١) قلت : لا ... بل متى يشاء الله ، يخبر نبيه عما في غد ، ولا يستطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أي رسول غيره ان يخبر عما في غد أو عن أي غيب من عند نفسه إلا بعد ما يخبره الله تعالى .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ (٢٨) قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ۞ (٢٩) ﴾

أمر الله عباده المؤمنين ، الطاهرين ديناً وذاتاً ، بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً ، عن المسجد الحرام ، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية وذلك سنة تسع ؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة ابي بكر رضي الله عنهما عامئذ ، وأمره أن ينادي في المشركين ألاّ يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً . وقال الإمام الأوزاعي : كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ان امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجدالمسلمين وأتبع نهيه قوله تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ قال ابن إسحق ،وذلك أن الناس قالوا : لتقطعن عنا الأسواق ، ولتهلكن التجارة ، وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق فأنزل الله تعالى : ﴿ وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ وروى ابن عباس وجماعة من التابعين في قوله تعالى : ﴿ إن شاء – إلى قوله – وهم صاغرون ﴾ أي هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية وقوله تعالى : ﴿ إن الله عليم ﴾ أي بما يصلح لكم ﴿ حكيم ﴾ أي بما يأمر به وينهي عنه لكماله في أفعاله وأقواله ، العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى . ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة .

وقوله تعالى :﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخرولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ هذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس

في دين الله أفواجاً ، واستقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك سنة تسع لأنهم كفروا بمحمد ﷺ فلم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به ، وانما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه ، لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه فلما جاء كفروا به ولهذا تجهز الرسول ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك فاجتمع نحو من ثلاثين ألفاً وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك عام جدب ، وقيظ وحر فخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام عشرين يوماً ، ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك ، لضيق الحال،وضعف الناس كما سيأتي بيانه بعد إن شاء تعالى . وهذه الآية استدل بها من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب ، أو من أشبههم كالمجوس كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر ، وهذا مذهب الشافعي ، وأحمد في المشهور عنه ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم كتابيّين أو مشركين ، ولا تؤخذ من العرب إلاّ من أهل الكتاب منهم وقال الإمام مالك : بل يجوز ان تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك وقوله تعالى : ﴿حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون﴾ أي إن لم يُسلموا،عليهم أن يدفعوا الجزية عن قهر لهم وغلبة،وهم ذليلون حقيرون مهانون.فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولارفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال : ٤٥١ [لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه] .

ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم ، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام :

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا ، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذراربنا وأموالنا واهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ان لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ولا نحيي منها ما كان خططاً للمسلمين وان لا نمنع كنائسنا أن ينزلها

أحد من المسلمين في ليل ولا نهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً.ولا نكتم غشاً للمسلمين،ولا نعلم أولادنا القرآن،ولا نظهر شركاً ، ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام إن ارادوه ، وأن نوقر المسلمين ، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن ارادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شيء ، من ملابسهم في قلنسوة ، ولا عمامة ، ولا نعلين ، ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم ، ولا نركب السروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمور ، وأن نجز مقاديم رؤوسنا وأن نلزم زينا حيثما كنا وان نشد الزنانير على أوساطنا وان لا نظهر الصليب على كنائسنا وان لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلاّ ضرباً خفيفاً ، وان لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج سعانين ولا بعوثاً ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وان نرشد المسلمين ولا نطّلع عليهم في منازلهم.) قال فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه (ولا نضرب أحداً من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق .)

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * (٣٠) ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهاً وَاحِداً لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * (٣١) ﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في العزير أنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر حيث جعلوه ابن الله أو هو الله بعينه أو هو ثالث ثلاثة . ولهذا كذّب الله سبحانه الطائفتين فقال سبحانه : ﴿ ذلك قولهم

بأفواههم ﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلافهم ﴿ يضاهئون ﴾ أي يشابهون ﴿ قول الذين كفروا من قبل ﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هولاء ﴿ قاتلهم الله ﴾ قال ابن عباس لعنهم الله ﴿ أني يؤفكون ﴾ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل ؟ وقوله تعالى : ﴿ إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه : ٤٥٢ [أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت اخته وجماعة من قومه. ثم منَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله ﷺ. فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيء ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة ،وهو يقرأ هذه الآية ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ قال : فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إيّاهم » وقال رسول الله ﷺ : يا عدي ما تقول ؟ أيضرك أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً اكبر من الله؟ ما يضرك... أيضرك أن يقال لا إله الا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه الى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال : « إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون »] وقوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ أي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتّبع وما حكم به نفذ ﴿ لا إله الا هو سبحانه عما يشركون ﴾ أي تنزّه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا ربّ سواه .

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَىٰ ٱللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ ۝ (٣٢) هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝ (٣٣) ﴾

يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿ أن يطفئوا نور الله ﴾ أي الذي بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق . بمجرد افترائهم ، فمثلهم كمن يريد ان يطفىء نورَ الشمس أو القمر بنفخه وهذا لا سبيل إليه ؛ فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر . ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما أرادوه: ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ومنه سمي الليل كافراً

لانه يستّر الأشياء ثم قال تعالى : ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ فالهدى هو ماجاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع . ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة .

﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي على سائر الاديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٤٥٣ [إن الله زوَى لي الأرض مشارقَها ومغاربَها وسيبلغ ملكُ أمتي ما زُوي لي منها]روى الإمام أحمد عن تميم الداري (رض) قال : ٤٥٤ [سمعت رسول الله ﷺ : « ليبلغن هذا الامر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزاً ويذل ذليلاً ، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر»] فكان تميم الداري يقول قد عرفت ذلك أهل بيتي لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية . **(الحزب العشرون)**



﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ * (٣٥) ﴾

الأحبار هم علماء اليهود ، كما قال تعالى : ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ والرهبان عبّاد النصارى ، والقسيسون علماؤهم كما قال تعالى﴿ بأن منهم قسيسين ورهبانا﴾ والمقصود التحذير من علماء السوء وعبّاد الضلال . كما قال سفيان بن عينية : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى . وفي الحديث الصحيح : ٤٥٥ [« لتركبن سَنَن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة » قالوا : اليهود والنصارى قال : « فمن ؟ » وفي رواية . فارس والروم قال : « فمن الناسُ إلاّ هؤلاء ؟ »] والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم ولهذا قال تعالى : ﴿ ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ وذلك أنهم كانوا يأكلون الدنيا بالدين، ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خَرج وهدايا وضرائب

تجيء إليهم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوّة وسلبهم إياها ، وعوضهم الذل والصغار وباءوا بغضب من الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي ومع أكلهم الحرام ، يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسونه بالباطل ، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير ، وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة الى النار ويوم القيامة لا ينصرون .

وقوله تعالى : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ الآية ... هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العبّاد وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس .

وأما الكنز : فعن ابن عمر هو المال الذي لا تؤدي زكاته . وروى الثوري عن ابن عمر قال : ما أدي زكاته فليس بكنز وان كان تحت سبع أرضين وقال عمر بن الخطاب نحوه ... وقد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منهما احاديث كثيرة ، منها : قال عبد الرزاق عن علي (رض) في قوله تعالى : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ قال النبي ﷺ : ٤٥٦ [« تباً للذهب تباً للفضة » يقولها ثلاثاً قال فشق ذلك على اصحاب رسول الله ﷺ وقالوا فأي مالٍ نتخذ ؟ فقال عمر (رض) أنا أعلم لكم ذلك، فقال : يا رسول الله إن أصحابك قد شقّ عليهم وقالوا . فأي المال نتخذ ؟ قال : « لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة تعين أحدكم على دينه »]

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ٤٥٧ [لما نزلت هذه الآية : ﴿والـــذين يكنزون الذهب والفضة﴾ الآية ... كبر ذلك على المسلمين وقالوا : ما يستطيع أحد منا يدع لولده مالاً يبقى بعده فقال عمر : أنا أفرج عنكم. فانطلق عمر ، واتبعه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية . فقال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » قال فكبّر عمر ثم قال له النبي ﷺ « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سَرّتْهُ ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته »] ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه وابن مردويه من حديث يحي بن يعلى به وقـــال الحاكم صحيح على شرطهما ولم يخرجاه .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ أي يقال لهم هذا الكلام تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً. كما في قوله تعالى : ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك انت العزيز الكريم ﴾ أي هذا بذاك وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم . ولهذا يقال : من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضاء الله عنهم، عُذّبوا به. وإن هذه الأموال لما كانت أعز الاشياء على أربابها، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة ، فيحمي عليها في نار جهنم وناهيك بحرّها فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .

* وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٤٥٨ [ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين الف سنة حتى يقضي بين العباد ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار] روى الامام أبو جعفر بن جرير عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول : ٤٥٩ [من ترك بعده كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول : ويلك ما أنت فيقول : أنا كنزك الذي تركته بعدك[1] ولا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ، ثم يتبعها سائر جسده] رواه ابن حبان في صحيحه وأصل هذا الحديث في الصحيحين .

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٦)

روى الامام أحمد عن أبي بكرة عن النبي ﷺ خطب في حجته فقال ٤٦٠ : [« ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان» ثم قال «أي يوم هذا»؟ قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيُسمّيه بغير اسمه قال : « أليس يوم النحر ؟ » قلنا بلى ثم قال : « أيّ شهر هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه قال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا : بلى ثم

(١) قلت : ان هذا الحديث محمول على من لم يدفع زكاة ماله فيكون ماله كما ذكر الحديث ...

قال : « أي بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيُسمّيه بغير اسمه قال : « أليست البلدة ؟ » قلنا بلى قال : « فإن دماءكم وأموالكم – وأحسبه قال – وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . وستلقون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لا ترجعوا بعدي ضُلاّلاً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا هل بلغت ؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه »]ورواه البخاري ومسلم

وقوله ﷺ في الحديث « إن الزمان استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض » تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه ، وتثبيت للأمر على ما جعله الله ، وتثبيت في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا نسيء ولا تبديل كما قال في تحريم مكة : ٤٦١ [ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة] وهكذا قال ها هنا « ان الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والارض » أي الامر اليوم شرعاً كما ابتدع الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والارض . من غير تقديم ولا تأخير ولا نسيء ولا تبديل كما يفعله العرب ، فكان حج النبي ﷺ في ذي الحجة ، وان العرب بفعل النسيء الذي كانوا يفعلونه كانوا يحجّون أحياناً بل في أكثر الأحيان في غير ذي الحجة .

فصل : وقد ذكر الشيخ علم الدين السخاوي في جزء جمعه ، سمّاه : [المشهور في أسماء الأيام والشهور] أسماء الاشهر القمرية : المحرّم ... الخ واشتقاق تسميتها بذلك مما لا طائل تحت ذكره مفصلاً كما ذكر كذلك أيام الاسبوع ابتداءً من الاحد ... الخ ومما يجب الإشارة إليه ان أسماء الأيام عند العرب العاربة العرباء المتقدمة غير الاسماء المعروفة فقال : وكانت العرب تسمي الأيام : أول ، ثم أهون ثم جبار ثم دبار ثم مُؤنس ثم العُروبة ثم شيَار .

قال الشاعر من العرب العرباء المتقدمين :

أرجّي أن أعيش وإن يومي	بأول أو بأهون أو جبارُ
أو التالي دبار فإن أفته	فمؤنس أو عروبة أو شيار

وقوله تعالى : ﴿ منها أربعة حرم ﴾ فهذا مما كانت العرب ايضاً تحرّمه وهو الذي كان عليهم جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لها : البسل كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقاً وتشديداً . وأما قوله ﷺ « ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه

الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من ان رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال أي هو رمضان اليوم فبيّن ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ، ثلاثه سرد وواحد فرد ، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة ، فحرّم قبل أشهر الحج شهراً وهو ذو القعدة ، لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك وحرم بعده شهراً آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى الجزيرة فيزوره ثم يعود إلى وطنه آمناً وقوله تعالى : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أوامر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول ، قال تعالى : ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ أي في هذه الأشهر المحرمة لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها ، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف لقوله : ﴿ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ وكذلك الأشهر الحرم تغلظ فيها الآثام فلا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً كما فعل أهل الشرك بالنسيء الذي كانوا يفعلونه فإنه من ذلك ، أي هو تحليل الحرام وتحريم الحلال وهو زيادة في الكفر .

وقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ أي جميعاً ﴿ كما يقاتلونكم كافة ﴾ أي جميعهم ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين أحدهما وهو الأشهر انه منسوخ لأنه تعالى قال ها هنا ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ وأمر بقتال المشركين ، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً ولو كان محرماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيّده بانسلاخها ، ولأن الرسول ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين انه خرج إلى هوازن في شوال واستفاء أموالهم لجأوا إلى الطائف فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوماً ، وانصرف ولم يفتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام والقول الآخر انه غير منسوخ وان ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام وانه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ﴾ ويحتمل أنه تعالى أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام اذا كانت البداءة من المشركين كما قال تعالى : ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ الآية ... وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام فإنه من تتمة قتال هوازن ، وأحلافها من ثقيف فانهم هم الذين ابتدأوا القتال وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال. فعندها قصدهم رسول الله ﷺ .

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَالِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ (٣٧)

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حرم الله ، وتحريمهم ما أحل الله ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال اعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة ، تحليل المحرم فأخّروه إلى صفر ، فيُحلون الشهر الحرام ويحرّمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة . وكان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل رجل يقال له القلمس وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدي بن عامر ويتصل نسبه بمالك بن كنانة بن خزيمة إلى معد بن عدنان ثم خلفه من بعده أبناؤه وأحفاده في ذلك،إلى أن كان آخرهم أبو ثمامة جنادة بن عوف ،كان يوافي الموسم في كل عام فينادي ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب ألا وإن صفر العام الأول ، العام حلال فيُحله للناس ، فيحرّم صفراً عاماً ويحرّم المحرّم عاماً فذلك قوله تعالى ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر ﴾ أي يتركون المحرّم عاماً ، وعاماً يحرّمونه ﴿ ليواطئوا عدة ما حرم الله ﴾ يعني الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام .

وقيل أنهم كانوا يسمّون ذا الحجة المحرّم والمحرّم صفر وصفر ربيع وهكذا إلى أن يكون ذو القعدة هو ذا الحجة فيحجّون في الحقيقة بذي القعدة وهم يسمونه ذا الحجة ويقال انه وافق حجة ابي بكر في ذي القعدة قاله مجاهد وفيه نظر .. وكيف تصح حجة ابي بكر وقد وقعت في ذي القعدة وأنى هذا ... ؟ وقد قال الله تعالى : ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾ الآية وإنما نودي به في حجة أبي بكر فلو لم تكن في ذي الحجة لما قال تعالى ﴿ يوم الحج الأكبر ﴾ ولا يلزم من فعلهم النسيء هذا الذي ذكره من دوران السنة عليهم وحجّهم في كل شهر عامين فإن النسيء حاصل بدون هذا فإنهم لما كانوا يحلّون شهر المحرم عاماً يحرمون عوضه صفراً وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه وبعده صفر وربيع وربيع إلى آخرها ﴿ فيحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * (٣٩) ﴾

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر ، وحمارة القيظ فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله ﴾ أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿ اثاقلتم إلى الارض ﴾ أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار . ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ أي مالكم فعلتم هكذا رضا منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة ؟ ثم زهّد تبارك وتعالى في الدنيا ورغّب في الآخرة فقال سبحانه : ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل ﴾ كما روى الامام أحمد عن المستورد أخي بني فهد قال : قال رسول الله ﷺ :

٤٦٢ [ما الدنيا في الآخرة إلاّ كما يجعل أحدكم اصبعه هذه في اليم فلينظر بما ترجع ؟ وأشار بالسبابة] إنفرد بإخراجه مسلم فالدنيا ما مضى منها ، وما بقي منها عند الله قليل . ثم توعّد تعالى من ترك الجهاد فقال عز من قائل : ﴿ إلاّ تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ قال ابن عباس : استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتثاقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿ ويستبدل قوماً غيركم ﴾ أي لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى : ﴿ وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقولـه تعالى : ﴿ ولا تضروه شيئاً ﴾ أي ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد ، وتثاقلكم عنه ﴿ والله على على كل شيء قدير ﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم .

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * (٤٠) ﴾

يقول تعالى : ﴿ إلا تنصروه ﴾ أي تنصروا رسول الله ﷺ فإن الله ناصره ومؤيده كما تولّى تأييده ﴿ إذْ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ﴾ أي عام الهجرة لما همّ المشركون بقتله فخرج منهم هارباً صُحْبَةَ صدّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجأ إلى الغار غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب عنهما من الذين خرجوا في آثارهما. فجزع أبو بكر أن يطلع عليهما أحد ، فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى ، فجعل النبي ﷺ يسكنه ، ويقول : «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» كما روى الامام أحمد عن أنس أن ابا بكر حدثه قال : ٤٦٣ [قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار لو أن احدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال : فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما »] أخرجاه في الصحيحين ولهذا قال تعالى : ﴿ فأنزل الله سكينته عليه ﴾ اي تثبيته وتأييده ونصرته أي على رسول الله ﷺ (١) ﴿ وأيّده بجنودٍ لم تَرَوْها ﴾ أي الملائكة ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ﴾ قال ابن عباس يعني كلمة الذين كفروا : الشرك . وكلمة الله : هي لا إله إلا الله . وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : ٤٦٤ [سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حميةً ويقاتل رياءً أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: « من قاتل لتكونَ كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »] وقوله تعالى : ﴿ والله عزيز ﴾ أي في انتقامه وانتصاره يمنع من لاذ ببابه ﴿ حكيم ﴾ في اقواله وافعاله .

﴿ ٱنفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ (٤١) ﴾

قال سفيان الثوري عن مسلم بن صبيح : هذه الآية : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ أول ما نزل من سورة براءة .

روى علي بن زيد عن أنس عن أبي طلحة قال : كهولاً وشباناً ، ما سمع الله عذر أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل . وفي رواية : قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ فقال : أرى ربّنا استَنْفَرَنا شيوخاً وشباناً جهزوني يا بُنيَّ ، فقال بنوه يرحمكَ الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع ابي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ؛ فنحن

(١) أي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أبي بكر بالتبعية .

نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها . وهكذا روي عن ابن عباس وعكرمة وابي صالح والحسن البصري وسهيل بن عطية ومقاتل بن حيان والشعبي وزيد بن اسلم أنهم قالوا في تفسير هذه الآية : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ كهولاً وشباناً ، وقال مجاهد شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين وقال الحسن البصري أيضاً في العسر واليسر وهكذا كله من مقتضيات العموم في الآية وهذا اختيار ابن جرير .

وقد روي عن ابن عباس ومحمد بن كعب وعطاء الخراساني وغيرهم ، أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ (١) وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله وقال السدي : لما نزلت آية : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ اشتدّ على الناس فنسخها الله تعالى فقال جلّ وعلا : ﴿ ليس على الضعفاء ، ولا على المرضَى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ ... ثم رغب الله تعالى في النفقة في سبيله وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسول الله ﷺ فقال سبحانه : ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة ، لأنكم تغرمون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة كما قال النبي ﷺ : ٤٦٥ [تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة] .

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ (٤٢) ﴾

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك ، وقعدوا بعد ما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك.فقال تعالى : ﴿ لو كان عرَضاً قريباً ﴾ أي غنيمة قريبة ﴿ وسفراً قاصداً ﴾ أي قريباً ﴿ لا تبعوك ﴾ أي لكانوا جاءوا

---

(١) قلت هذه والله أعلم متعلقة بالنفير لطلب العلم والتفقه في الدين، لامن أجل الجهادفحسب وأرجح ما ذهب اليه السدي بأن آية « ليس على الضعفاء ... » هي الناسخة والمستثنية للضعفاء والمرضى من الجهاد فقد عذرهم الله وخفف عنهم ما كان عليهم في قوله تعالى . «خفافاً وثقالا» .

معك ﴿ ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ أي المسافة إلى الشام ﴿ وسيحلفون بالله ﴾ أي لكم اذا رجعتم اليهم ﴿ لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ أي لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم قال الله تعالى : ﴿ يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون ﴾ (١)

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ٱلْكَاذِبِينَ ۞ (٤٣) لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۞ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۞ (٤٥) ﴾

قال ابن أبي حاتم عن عون قال : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة فقال عزّ من قائل : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ وقال قتادة : عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال تعالى : ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ الآية وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس قالوا : استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ حتى يتبيّن لك الذين صدقوا ﴾ أي في إبداء الأعذار ﴿ وتعلم الكاذبين ﴾ يقول تعالى هلاّ تركتهم لمّا استأذنوك فلم تأذن لهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب فإنهم قد كانوا مصرّين على القعود عن الغزو ، أذنت أم لم تأذن لهم فيه . ولهذا أخبر تعالى : ﴿ لا يستأذنك ﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربةً ، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿ والله عليم بالمتقين إنما يستأذنك ﴾ أي في القعود ممن لا عذر له : ﴿ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي لا يرجون ثوابه سبحانه في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿ وارتابت قلوبهم ﴾ أي شكّت في صحة ما جئتهم به ﴿ فهم في ريبهم يترددون ﴾ أي يتحيّرون وليست لهم قدم ثابتة في شيء . فهم قوم حيارى هلكة ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً

(١) قلت : أي يهلكون أنفسهم بجرم الحلف بالله كذباً وهم يعلمون ، والعياذ بالله تعالى .

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ ۞ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ (٤٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾ أي معك الى الغزو ﴿ لأعدُّوا له عدة ﴾ أي لكانوا تأهبّوا له ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ أي أبغضَ ان يخرجوا معك قدراً [١] ﴿ فثبطهم ﴾ أي أخرهم ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ أي قدّر أيضاً قعودهم عن الجهاد - ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال عز من قائل : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خبالاً ﴾ أي لأنهم جبناء مخذولون ﴿ ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ﴾ أي لأسرعوا المشي إليكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿ وفيكم سمّاعون لهم ﴾ أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وان كانوا لا يعلمون حالهم ، فيؤدي ذلك الى وقوع فساد كبير بين المؤمنين ، فثبطهم الله لعلمه بهم أنهم لو خرجوا معكم لأفسدوا عليكم من كان معكم من اتباعهم وهؤلاء هم السمّاعون لهم أي من جماعتهم . قال محمد بن اسحق كان الذين استأذنوا فيما بلغني من ذوي الشرف منهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول والجد بن قيس فلو ان مثل هذين خرجوا مع جيش الرسول لأفسدوا من كان في جيش الرسول من جماعتهم الذين يحبونهم ويطيعونهم لشرفهم فيهم ، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال جل وعلا : ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ فأخبر أنه عليم بهم وما سيكون منهم قبل ان يخلق السموات والارض ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا. ومع هذا ما خرجوا كما قال تعالى : ﴿ ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ .

﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ۞ (٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن

(١) قلت : أي سبق بعلمه أنهم كفار منافقون فأبغض خروجهم معك وقدر عدمه قدراً فأخرهم

لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ❁ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ❁ (٥١)

يحرّض الله نبيَّه ﷺ على المنافقين : ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور ﴾ لقد أعملوا أفكارهم في الكيد لك ولأصحابك ، وإخماد دينك ، وذلك أول مَقْدَم النبيّ ﷺ المدينة ، رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله ببدر وأعلى كلمته قال عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه : هذا أمر قد توجّه ، فدخلوا في الإسلام ظاهراً ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم. ولهذا قال تعالى : ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ ثم يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ﴿ ائذن لي ﴾ في القعود ﴿ ولا تفتنّي ﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم . قال الله تعالى : ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ أي سقطوا في الفتنة بقولهم هذا . كما روى محمد بن اسحق قال راوياً عن الزهري ويزيد بن رومان وعبدالله ابن أبي بكر وعاصم وقتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة : ٤٦٦ [هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني واني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وقال أذنت لك ففي الجد بن قيس نزلت هذه : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي ﴾ الآية أي إنما كان يخشى نساء بني الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم .] وهكذا روى عن ابن عباس وغيره أنها نزلت في الجد بن قيس وهو من أشراف بني سلمة وسيدهم . وقوله تعالى : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب ، وكان بنو سلمة ملّوا سيادة الجد بن قيس عليهم لبخله فسوّد رسول الله ﷺ بشر بن البراء بن معرور كما ثبت ذلك في الصحيح . وقوله تعالى : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ﴾ فإنه تعالى يُعلم رسوله ﷺ بعداوة هؤلاء له لأن أيّ حسنة تصيب الرسول وأصحابه يسوءهم ﴿ وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ﴾ أي

احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿ ويتولّوا وهم فرحون ﴾ فأرشد الله تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال سبحانه : ﴿ قل ﴾ أي لهم : ﴿ لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا ﴾ أي نحن تحت مشيئته وقدره ﴿ هو مولانا ﴾ أي سيدنا وملجأنا ﴿ وعلى الله فليتوكّل المؤمنون ﴾ أي عليه متوكّلون وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ۞ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ ۞ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ۞ (٥٤) ﴾

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ هل تربّصون بنا ﴾ أي تنتظرون بنا ﴿ إلاّ إحدى الحسنيين ﴾ شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس وغيره ﴿ ونحن نتربّص بكم ﴾ أي ننتظر بكم ﴿ أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾ يعني هذا أو هذا أي بسبيٍ أو بقتل. ﴿ فتربّصوا إنّا معكم متربّصون ﴾ وقوله تعالى: ﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرها ﴾ أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿ لن يتقبّل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾ ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنه لا يتقبّل منهم ﴿ لأنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ أي والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿ ولا يأتون الصلاة إلاّ وهم كسالى ﴾ أي ليس لهم قدم صحيح ولا هِمّة في العمل ﴿ ولا ينفقون ﴾ نفقة ﴿ إلاّ وهم كارهون ﴾ وقد أخبر الصّادق المصدوق ﷺ : ٤٦٧ [إن الله لا يملّ حتى تملّوا وإن الله طيّب لا يقبل إلاّ طيّباً .] فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً لأنه إنما يتقبل من المتّقين .

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ۞ (٥٥) ﴾

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۞ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۞ (٥٧) ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فلا تعجبْك أموالهم ولا أولادهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ أيحسَبون أن ما نمدهم به من مالٍ وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليعذبَهم بها في الحياة الدنيا ﴾ قال قتادة : هذا من المقدم والمؤخر ، وتقديره : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبَهم بها في الآخرة ولكن الحسن البصري قال: أي يعذبهم بدفع زكاتها والنفقة منها في سبيل الله ، وقد اختاره ابن جرير وهو القول القوي الحسن ؛ وقوله تعالى : ﴿ وتزهق انفسهم وهم كافرون ﴾ أي ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك آنكى لهم وأشد لعذابهم . عياذاً بالله من هذا الاستدراج لهم فيما هم فيه ثم يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفَرَقهم ، أنهم : ﴿ يحلفون بالله أنهم لمنكم ﴾ يميناً مؤكدة ﴿ وما هم منكم ﴾ أي في حقيقة الأمر ﴿ ولكنهم قوم يفرَقون ﴾ أي فهو الذي حملهم على الحلف ﴿ لو يجدون ملجأً ﴾ أي حصناً يتحصنون ﴿ أو مغارات ﴾ وهي التي في الجبال ﴿ أو مدخلاً ﴾ وهو السرب في الأرض والنفق ﴿ لولّوا إليه وهم يجمحون ﴾ أي يسرعون في ذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ، ولكن للضرورة أحكام ولهذا لا يزالون في همٍ وحزَن وغم لأن الاسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورِفعة فلهذا كلما سُر المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ولهذا قال تعالى : ﴿ لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مدخلاً لولّوا إليه وهم يجمحون ﴾ .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۞ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۞ (٥٩) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ومنهم ﴾ أي ومن المنافقين ﴿ من يلمزك ﴾ أي يعيب عليك ﴿ في قَسْمِ ﴾ ﴿ الصدقات ﴾ إذا فرقتها ، ويتهمك في ذلك وهم المتهمون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين ولكن لحظ أنفسهم ، ولهذا ﴿ فإن أعطوا منها رضوا ﴾ أي من الزكاة ﴿ وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ أي يغضبون لأنفسهم وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ أي ومنهم من يطعن عليك في الصدقات ، وذكر لنا : ٤٦٨ [ان رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة فقال : يا محمد والله لئن كان الله أمرك ان تعدل ما عدلت ، فقال نبي الله ﷺ : « ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي » ؟ ثم قال نبي الله ﷺ « إحـذروا هذا واشباهه فإن في أمتي أشباه هذا يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم اذا خرجوا فاقتلوهم »]

وذكر لنا ان نبي الله ﷺ كان يقول : ٤٦٩ [والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه إنما أنا خازن] .

ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ فتضمنت هذه الآية الشريفة أدباً عظيماً ، وسراً شريفاً حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله ، والتوكل على الله وحده وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ وكذلك الرغبة الى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره وترك زواجره وتصديق أخباره والأقتفاء بآثاره .

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ (٦٠) ﴾

نصف الحزب

ذكر الله تعالى اعتراض المنافقين الجهلة ، على النبي ﷺ ، ولمزهم إياه في قسم الصدقات ، بيَّن تعالى أنه هو الذي قسَّمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه ، ولم يكِلْ قسمها لأحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين كما رواه الامام ابو داود عن زياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه قال : ٤٧٠ [أتيت النبي ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال : أعطني من

الصدقة فقال له : « ان الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك »] وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها . والأصح والله أعلم أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقين وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وابو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران وهو قول عامة أهل العلم ، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعابها .

ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية ، فأما الفقراء ، فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٧١ [لا تحل الصدقة لغني ، ولا لذي مرة سويّ] رواه أحمد وأبو داود والترمذي ولأحمد ايضاً والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة مثله .

وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار : ٤٧٢ [أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلّب فيهما البصر فرآهما جَلْدين فقال : « إن شئتما اعطيتكما ولاحظّ فيها لغنيّ ، ولا لقويّ مكتسب »]رواه أحمد وابو داود والنسائي بإسناد جيد قوي .

وأما المساكين ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٤٧٣ [ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان. قالوا فما المسكين يا رسول الله؟ قال : « الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يُفطن له فيُتَصدّق عليه ولا يسأل الناسَ شيئاً »]

وأما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك . ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء الرسول ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت في صحيح مسلم (عن عبد المطلب عن ربيعة بن الحارث ، أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال ٤٧٤ : [« ان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس »]

وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام : منهم من يُعطى ليُسلِمَ ، كما أعطى النبيُّ ﷺ لصفوان ابن أمية كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن أمية قال : ٤٧٥ [أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين ، وإنه لأبغض الناس إلي ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي] ورواه مسلم والترمذي . ومنهم من يعطى ليَحْسُنَ إسلامُه ويُثَبِّتَ قلبُه ، كما أعطى يوم

حنين ايضاً جماعة من صناديد الطلقاء واشرافهم مائة من الإبل وقال : ٤٧٦ : [إني لأعطي الرجل ، وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم] وفي الصحيحين عن أبي سعيد : ٤٧٧ [أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بذهيبة في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس ، وعيينة بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير وقال : « أتألفهم »] . وهل تعطى المؤلفة قلوبهم على الإسلام بعد النبي ﷺ فيه خلاف فروي عن عمر وعامر والشعبي وجماعة : أنهم لا يعطون بعده لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ، ومكّن لهم البلاد ، وأذلّ لهم رقاب العباد ، (وهذا القول أقوى – والله اعلم – من القول بإعطائهم في حالة عز الإسلام واهله)(١) .

وأما الرقاب فروي عن بعض التابعين انهم المكاتبون ، وقال ابن عباس وغيره لا بأس من أن تعتق الرقبة من الزكاة ، والإعطاء للعتق أعم من الإعطاء للمكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً . وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة احاديث كثيرة ، وان الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها حتى الفرج بالفرج ، وما ذاك إلا لأن الجزاء من نوع العمل ﴿وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ .

وفي المسند عن البراء بن عازب قال : ٤٧٨ [جاء رجل فقال يا رسول الله دلني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار ؟ فقال : « اعتق النسمة وفك الرقبة » فقال يا رسول الله أو ليسا واحداً ؟ قال : « لا ، عتق النسمة ان تفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها »].

واما الغارمون فهم اقسام ، فمنهم : من تحمّل حمالة ، أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله ، أو غرم في أداء دينه ، أو في معصية ثم تاب ، فهؤلاء يدفع إليهم . والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي . قال : ٤٧٩ [تحملت حمالةً فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها ، فقال « أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها » قال : ثم قال : « يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة ، فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش – أو قال سداداً من عيش – ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجى من قرابة قومه فيقولون : لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش – أو قال سداداً من عيش – فما سواهن من المسألة سحت يأكلها صاحبها سحتاً »] رواه مسلم .

(١) ما بين القوسين من كلامي . واذا عادت أسباب تألف القلوب يعاد الإعطاء .

وأما في سبيل الله فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان . وعند الإمام أحمد والحسن وإسحق : والحج من سبيل الله للحديث ...[١]

وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره ، فيعطي من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال ، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء ، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه .

والدليل على ذلك الآية ... وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٨٠ [« لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة : العامل عليها أو رجل اشتراها بماله ، أو غارم ، أو غازٍ في سبيل الله ، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغني »] وقوله تعالى : ﴿ فريضة من الله ﴾ أي حكماً مقدراً ، بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿ والله عليم ﴾ أي بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده ﴿ حكيم ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به لا إله الا هو ولا رب سواه .

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ (٦١) ﴾

يقول تعالى ، ومن المنافقين قوم يؤذون رسولَ الله ﷺ بالكلام فيه ، ويقولون : ﴿ هو أُذُن ﴾ أي من قال له شيئاً صدقه فينا ، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا . قال الله تعالى : ﴿ قل أُذُن خير لكم ﴾ أي هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ أي ويصدق المؤمنين ﴿ ورحمةٌ للذين آمنوا منكم ﴾ أي وهو حجة على الكافرين ولهذا قال : ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » .

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۝ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ۝ (٦٣) ﴾

---

(١) قلت : ولكن لم يذكر الحديث الذي يدل على أن الحج من سبيل الله .

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ الآية قال : ٤٨١ [ذكر لنا ان رجلاً من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا واشرافنا وان كان ما يقول محمد حقاً ، لهم شر من الحمير . قال : فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت أشرُّ من الحمار . قال فسعى بها الرجال إلى النبي ﷺ فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : « ما حملك على الذي قلت » ؟ فجعل يلتعن ويحلف باللهما قال ذلك وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ،] فانزل الله الآية . وقوله تعالى: ﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله ﴾ الآية، أي لم يعلموا أنّ من شاقَّ الله وحاربه وخالفه ، وكان في حدٍّ والله ورسوله في حدٍ ﴿ فان له نار جهنم خالداً فيها ﴾ أي مهاناً معذباً و ﴿ ذلك الخزي العظيم ﴾ أي الذل والشقاء الكبير .

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ۞ (٦٤) ﴾

قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا ؛ فردَّ عليهم الله بقوله تعالى : ﴿ قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ أي إن الله تعالى سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم ولهذا قال تعالى : كانت تسمّى هذه السورة (الفاضحة) .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۞ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۞ (٦٦) ﴾

قال ابن اسحق : ٤٨٢ [وقد كان جماعة من المنافقين ، منهم وديعة بن ثابت اخو بني أمية بن زيد بن عمروَ بن عوف ، ورجل من اشجع حليف لبني سلمة يقال له : مخشي بن حمير ، يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم

لبعض : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال ... إرجافاً وترهيباً للمؤمنين ، فقال مخشي بن حمير : والله لوددت أن أقاضي على ان يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وإننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه . وقال رسول الله فيما بلغني لعمار بن ياسر : « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا فإن انكروا فقل بلى قلتم كذا وكذا » فانطلق اليهم عمار فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت ورسول الله واقف على راحلته فجعل يقول وهو آخذ بحقبها [1] : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فقال مخشي بن حمير : يا رسول الله : قعد بي اسمي واسم أبي ؛ فكان الذي عفي عنه في هذه الآية مخشي بن حمير فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم مكانه فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر] وقوله تعالى : ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به ، ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة ﴾ أي لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم ﴿ بأنهم كانوا مجرمين ﴾ أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة .

﴿ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ ۝ (٦٧) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝ (٦٨) ﴾

يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، كان هؤلاء : ﴿ يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ﴾ أي عن الانفاق في سبيل الله ﴿ نسوا الله ﴾ أي نسوا

---

(١) الحقب : الحزام الذي يلي حقو البعير . والحقو : الخصر : والمعنى أنه أخذ بالحزام الذي يلي خصر ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ذكر الله ﴿ فنسيهم ﴾ أي عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى : ﴿ فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ ﴿ ان المنافقين هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة . وقوله تعالى : ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ﴾ أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها مخلدين هم والكفار ﴿ هي حسبهم ﴾ أي كفايتهم في العذاب ﴿ ولعنهم الله ﴾ أي طردهم وأبعدهم ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ . - أي خالد لا ينتهي -

﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۞ (٦٩) ﴾

يقول تعالى : أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة ، كما أصاب من قبلهم ، وقوله تعالى : ﴿ بخلاقهم ﴾ قال الحسن : بدينهم . وقوله تعالى : ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ أي في الكذب والباطل ﴿ أولئك حبطت أعمالهم ﴾ أي بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿ في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. قال ابن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ الآية ... قال : ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ هؤلاء بنو اسرائيل شبهنا بهم لا أعلم الا أنه قال : ٤٨٣ [والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه] .

روى ابن جريج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٨٤ [والذي نفسي بيده لتتبعن سَنَنَ الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع وباعاً بباع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه] قالوا : ومن هم يا رسول الله ، أهلُ الكتاب ؟ قال : فمن ؟] وهكذا رواه ابو معشر عن ابي سعيد المقبري عن ابي هريرة عن النبي ﷺ فذكره وزاد : قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم القرآن : ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ الآية ...

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۞ (٧٠) ﴾

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ﴾ أي ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿ قوم نوح ﴾ وما أصاب مكذبيه من الغرق ﴿ وعاد ﴾ كيف اهلكوا بالريح لما كذّبوا هوداً عليه السلام ﴿ وثمود ﴾ كيف اخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً[1] وعقروا الناقة ﴿ وقوم إبراهيم ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات، وأهلك مِلكَهم نمروذَ بنَ كنعان بنِ كوش الكنعاني لعنه الله ﴿ وأصحاب مدين ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيفَ اصابتهم الرجفة ، وعذاب يوم الظلة ﴿ والمؤتفكات ﴾ قوم لوط عليه السلام وكانوا يسكنون سدوم . والغرض أنه تعالى أهلكهم جميعاً بتكذيبهم رسلهم عليهم الصلاة والسلام : ﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل القاطعات ﴿فما كان الله ليظلمَهم﴾ أي بإهلاكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجةَ بإرسال الرسل وإزاحةِ العِلَلِ ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار .

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ (٧١) ﴾

لما ذكر الله تعالى صفاتِ المنافقين الذميمةَ عطف بذكر صفاتِ المؤمنين المحمودة ، فقال سبحانه : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون كما جاء في الصحيح : ٤٨٥ [مثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثلِ الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوتداعى له سائرالجسد بالحمى والسهر.] وقوله تعالى: ﴿ يأمرون بالمعروف

(١) عليه الصلاة والسلام .

وينهون عن المنكر ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ أي يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ أي سيرحم الله من اتّصف بهذه الصفات ﴿ إن الله عزيز ﴾ أي يعز من أطاعه ﴿ حكيم ﴾ في قسمته هذه الصفات لكل من المؤمنين وللمنافقين، فإن الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ (٧٢) ﴾

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿ جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ومساكن طيبةً ﴾ أي حسنة البناء طيبة القرار كما جاء في الصحيحين من حديث أبي عمران الجوني بالسند إلى أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٨٦ [جنتان ، من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين ان ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنةّ عدن .]

وفي الصحيحين : ٤٨٧ [ان أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة كما ترون الكوكب في السماء] ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان يقال له الوسيلة لقربه من العرش وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة . وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، انه سمع رسول الله ﷺ يقول : ٤٨٨ [إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ فإنه من صلىّ عليّ صلاة واحدة صلىّ الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لي الله الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله . وأرجوا أن أكون هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة .]

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة (رض) قال : ٤٨٩ [قلنا يا رسول حدثنا عن الجنة ما بناؤها قال : ﴿ لبنة ذهب ولبنة فضة وملاطها المسك ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران . من يدخلها ينعم لا يبأس ، ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفني شبابه ﴾] وقوله تعالى : ﴿ ورضوان من الله اكبر ﴾ أي رضا الله عنهم أكبر

وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم كما روى الإمام مالك رحمه الله عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٤٩٠ [ان الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك ؟ فيقولون يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخَط عليكم بعده أبداً] أخرجاه من حديث مالك .

﴿ يا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۞ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ ۞ (٧٤) ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، كما أمره بخفض جناحه للمؤمنين ، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة وقال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ جاهد الكفار والمنافقين واغلُظ عليهم ﴾ الآية ... قال بيده فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه . وقوله تعالى : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم ﴾ روى الاموي بالسند إلى كعب بن مالك قال : لما قدم رسول الله ﷺ اخذني قومي فقالوا : انك امرؤ شاعر فإن شئت ان تعتذر إلى رسول الله ﷺ ببعض العلة ثم يكون ذنباً تستغفر الله منه ، وذكر الحديث بطوله إلى أن قال : وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن ، منهم ممن كان مع النبي ﷺ الجلاّس بن سويد بن الصامت ، وكان على أمّ عمير بن سعد ، وكان عمير في حجره ، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجلاس : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير ؟ فسمعها عمير بن سعد فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليّ ، وأحسنهم عندي بلاءً وأعزهم علي أن يصلَه شيء يكرهُه ، ولقد قلتَ مقالةً

لئن ذكرتها لتفضحني ولئن كتمتها لتهلكني ، ولإحداهما أهون عليّ من الأخرى ؛ فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب عليّ ، فأنزل الله عز وجل فيه : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم ﴾ إلى آخر الآية فوقفه رسول الله ﷺ عليها ، فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع . هكذا جاء هذا مدرجاً في الحديث متصلاً به وكأنه – والله أعلم – من كلام ابن اسحق نفسه لا من كلام كعب بن مالك . وقوله تعالى : ﴿ وهمُّوا بما لم ينالوا ﴾ روى الحافظ ابو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال :

٤٩١ [كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به ، وعمار يسوق الناقة ، أو أنا اسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنّا بالعقبة فإذا أنا بإثنى عشر راكباً قد اعترضوه فيها قال فانتهرهم رسول الله ﷺ ، وصرخ بهم فولوا مدبرين ، فقال لنا رسول الله ﷺ « هل عرفتم القوم ؟ » قلنا لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب قال : « هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا ؟ » قلنا لا قال : « أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها » قلنا يا رسول الله أفلا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كلّ قوم برأس صاحبهم ؟ قال : « لا ، أكره أن تتحدث العرب بينها ان محمداً قاتل بقوم حتى اذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم – ثم قال – اللهم ارمهم بالدبيلة » قلنا يا رسول الله وما الدبيلة ؟ قال : « شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك . »] قال الضحاك ففيهم نزلت هذه الآية : ﴿ وهمُّوا بما لم ينالوا ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وما نقموا إلاّ أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ أي وما للرسول عندهم من ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سعادته ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به . ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال جل وعلا : ﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم وان يتولّوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ﴾ أي وان يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا أي بالقتل والهم والغم ، والآخرة أي بالعذاب والنكال والهوان والصَّغار ﴿ وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يُحصّل لهم خيراً ، ولا يدفع عنهم شراً .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ

مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ۞ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۞ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا ٱللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۞ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ ٱللهَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ ۞ (٧٨)

يقول تعالى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقنّ من ماله وليكوننّ من الصالحين ، فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادّعَى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياذاً بالله من ذلك ، وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ها هنا وابن أبي حاتم من حديث معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري ما ملخصه : ان ثعلبة طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو الله له ان يغنيه ووعد أنه ليعطي كل ذي حق حقه أي من الزكاة فدعا له الرسول ﷺ وأمره أن يتحد غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت بغنمه المدينة وتلهى بغنمه عن الصلوات ولما نزلت فرائض الصدقة حاول ثعلبة ان لا يؤديها وقال ما هذه إلاّ جزية فطولب بها مراراً ولم يعطها إلى ان نزلت في حقة الآية : ﴿ ومنهم من عاهد الله ... ﴾ إلى آخر الآية فهرع ثعلبة بعدها لاعطاء الزكاة لرسول الله ﷺ فلم يأخذها منه عليه الصلاة والسلام لأن الله منعه ان يقبل منه صدقته فقبض رسول الله ﷺ ولم يأخذها منه وكذلك امتنع عن ذلك كل من الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان وكلهم قال لم يقبلها منك رسول الله فكيف اقبلها منك إلى ان هلك ثعلبة في خلافة عثمان .[1] وقوله تعالى : ﴿ بما أخلفوا الله ما وعدوه ... ﴾ الآية أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم . كما في الصحيحين عن رسول الله ﷺ انه قال : ٤٩٢ [آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب وإذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان .] وقوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ﴾ الآية أي أنه أعلم بضمائرهم وأعلم بهم من أنفسهم لأنه علام الغيوب أي يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى ويعلم ما ظهر وما بطن .

---

(١) قلت : هذه القصة عن ثعلبة لم تثبت صحتها وفيها علي بن يزيد شديد الضعف والله أعلم .

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٧٩) ﴾

وهذا أيضاً من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الاحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم ، إن جاء أحد بمال جزيل قالوا هذا مُراءٍ وإن جاء بشيء يسير قالوا ان الله لغنيّ عن صدقة هذا ؛ كما روى البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : ٤٩٣ [لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مرائي وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغنيّ عن صدقة هذا . فنزلت ﴿ الذين يلمزون المطوّعين ﴾] الآية . وقد رواه مسلم أيضاً في صحيحه من حديث شعبة به .

روى الامام أحمد عن أبي السليل قال : ٤٩٤ [وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال حدثني أبي أو عمّي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول : «من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة» ؟ قال فحللت من عمامتي لوثاً أو لوثين (١) وأنا اريد أن اتصدق بهما فأدركني ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي ، فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلاً أشد منه سواداً ولا أصغر منه ولا أذم ، ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقةً أحسن منها فقال يا رسول الله أصدقة ؟ قال : « نعم » قال : دونك هذه الناقة ، قال فلمزه رجل فقال : هذا يتصدق بهذه فوالله لهي خير منه قال فسمعها رسول الله ﷺ فقال : « كذبت بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ثم قال « ويل لأصحاب المئين من الإبل » ثلاثا قالوا : إلاّ من يا رسول الله ؟ قال : « إلاّ من قال بالمال هكذا وهكذا » وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله. ثم قال : « قد افلح المزهد المجهد » ثلاثاً] المزهد في العيش المجهد في العبادة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال : ٤٩٥ [جاء عبد الرحمن ابن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاء رجل من الأنصار بصاعٍ من طعام فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياءً ، وقالوا ان الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع] وفي رواية عن العوفي عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف جاء بمائة أوقية ذهباً وقوله تعالى : ﴿ فيسخرون منهم سخر الله منهم ﴾ هذا من باب

(١) اللوث ما يعصب على العمامة .

المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين لأن الجزاء من نوع العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً لأن الجزاء من جنس العمل .

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۞ (٨٠) ﴾

يخبر تعالى نبيّه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه لو استغفر لهم سبعين مرةً فلن يغفر الله لهم ، وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم لأن العرب تذكر السبعين للمبالغة في كلامها لا التحديد ، وقيل بل لها مفهوم كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : ٤٩٦ [لما نزلت هذه الآية أسمع ربي قد رخص لي فيهم فوالله لاستغفرنّ لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله ان يغفر لهم] فقال الله من شدة غضبه عليهم : ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾ الآية وقال الشعبي : ٤٩٧ ﴿لما ثقل عبدالله بن أبي انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال إن أبي قد احتضر فأحب ان تشهده وتصلي عليه فقال له النبي ﷺ : ﴿ما اسمك﴾ ؟ قال : الحباب بن عبدالله قال ﴿بل انت عبدالله بن عبدالله إن الحباب اسم شيطان﴾ فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلى عليه فقيل له : أتصلي عليه ؟ فقال : « ان الله قال : ﴿ان تستغفر لهم سبعين مرة﴾ ولأستغفرن لهم سبعين ، وسبعين وسبعين »] وكذا روي عن عروة بن الزبير ومجاهد وقتادة بن دعامة ورواه ابن جرير بأسانيده .

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۞ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ (٨٢) ﴾

يذم الله تعالى المنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿ وكرهوا ان يجاهدوا ﴾ معه ﴿ بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا ﴾ أي بعضهم لبعض ﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار فلهذا قالوا : ﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ نار جهنم ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿ أشدُّ حراً ﴾ مما فررتم منه من الحر بل ﴿ أشد حراً ﴾ من النار كما روى الإمام مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٤٩٨ [« نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية فقال : « فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً »] أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به . وقال الاعمش عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ ٤٩٩ [إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار جهنم يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ، لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه وانه أهونهم عذاباً] أخرجاه في الصحيحين من حديث الاعمش . وقال تعالى في وصف بعض عذاب جهنم : ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾ وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ﴾ أي لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله في الحر ليتقوا به من حر جهنم الذي هو اضعافاً مضاعفة عن هذا الحر .

ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا : ﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾ الآيـــة ... روى الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥٠٠ [يا أيها الناس أبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون ، فلو أن سفناً أزجيت فيها لجرت] ورواه ابن ماجه .

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَٱسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَالِفِينَ ۞ (٨٣) ﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ ﴿ فإن رجعك الله ﴾ أي ردك الله من غزوتك هذه ﴿ إلى طائفة منهم ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً [1] ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ أي معك إلى غزوة أخرى ﴿ فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ أي تعزيراً لهم وعقوبة ثم علل ذلك بقوله سبحانه : ﴿ انكم رضيتم بالقعود أول مرة ﴾ فإن جزاء السيئة السيئةُ بعدها ، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها كقوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ قال ابن عباس : أي مع الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة .

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ۞ (٨٤) ﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين وان لا يصلي على أحد منهم إذا مات وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا على ذلك وهذا حكم عام من عرف نفاقه وإن كان سبب نزول الآية في عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين كما روى البخاري عن ابن عمر قال : ٥٠١ [لما توفي عبدالله بن أبي جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ، تصليّ عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ « إنما خيرني الله فقال : ﴿ إستغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرةً فلن يغفر الله لهم ﴾ وسأزيده على السبعين » قال : إنّه منافق . قال فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آيـة : ﴿ ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾] وكذا رواه مسلم والإمام أحمد .

روى الامام أحمد عن جابر قال : ٥٠٢ [لما مات عبدالله بن أبي أتى ابنُه النبيَّ ﷺ فقال يا رسول الله إنك إن لم تأته لم نزلْ نعيَّر بهذا ، فأتاه النبيُّ ﷺ فوجده قد أدخل في حفرته فقال « أفلا قبل أن تدخلوه » فأخرج من حفرته وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه] ورواه النسائي ، روى البخاري عن جابر بن عبدالله قال :

(١) راجع الصفحة /٣٥٥/ عند تفسير الآية رقم ٧٤ وقوله تعالى : « وهموا بما لم ينالوا » . من هذا المجلد

٥٠٣ [أتى النبي ﷺ عبد الله بن عبدالله بن أبي بعد ما أدخل في قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه] والله أعلم .

وقال قتاده : ٥٠٤ [أرسل عبدالله بن أبي إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ « أهلكك حب يهود » قال يا رسول الله إنما ارسلت اليك لتستغفر لي ، ولم ارسل اليك لتؤنبني ، ثم سأله عبدالله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره فأنزل الله عز وجل ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ﴾ الآية ...] وقد ذكر بعض السلف إنه إنما كساه قميصه لأن عبدالله بن أبي لما قدم العباس طلب له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبدالله بن أبي لأنه كان ضخماً طويلاً ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له فالله أعلم . ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره كما روى الإمام أحمد عن قتادة قال : ٥٠٥ [كان رسول الله ﷺ إذا دعي إلى جنازة سأل عنها ، فإن اثني عليها خيراً قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك قال لأهلها « شأنكم بها » ولم يصل عليها]

ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم ، كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك ، وفي فعله الأجر الجزيل كما ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : ٥٠٦ [« من شهد الجنازة حتى يصلي عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان » قيل وما القيراطان ؟ قال : « أصغرهما مثل أحد » وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فروى أبو داود عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : ٥٠٧ (كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل »] انفرد باخراجه ابو داود رحمه الله .

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ۞ (٨٥) ﴾

تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ولله الحمد والمنّة [١]

---

(١) سبق أن فسرت هذه الآية الكريمة فراجع الآية رقم /٥٥/ من سورة التوبة .

﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ۞ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۞ (٨٧) ﴾

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة، واستأذنوا الرسول في القعود وقالوا: ﴿ ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ ورضوا لأنفسهم بعار القعود مع النساء وهن الخوالف بعد خروج الجيش، وهكذا فإنهم إذا دُعوا للجهاد كانوا جبناءَ وإذا أمِنُوا كانوا أكثر الناس كلاماً وتشدّقاً كما قال تعالى عنهم ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدورُ أعينهم كالذي يغشَى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكُم بألسنة حدادٍ ﴾ أي علت ألسنتهم بالكلام الحاد، القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة، فإذاأنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وطبع على قلوبهم ﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿فهم لا يفقهون ﴾أي لا يفهمون ما فيه صلاحهم فيفعلوه،ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه .

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ (٨٩) ﴾

لما ذكر تعالى ذنبَ المنافقين، وبيّن ثناءَه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم، فقال جلّ وعلا ﴿ لكنِ الرسولُ والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ... ﴾ إلى آخر

الآيتين من بيان حالهم ومآلهم ، وقوله تعالى : ﴿ وأولئك لهم الخيرات ﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس ، والدرجات العُلى .

﴿ وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٩٠) ﴾

ثم بيّن حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون اليه ويُبيِّنون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة . عن ابن عباس أنه كان يقرأ : ﴿ وجاء المُعْذِرُون ﴾ بالتخفيف ويقول هم أهل العذر ، وكذا روي عن مجاهد ، وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية لأنه قال تعالى بعد هذا : ﴿ وقعد الذين كذبوا اللهَ ورسوله ﴾ أي وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال جل وعلا : ﴿ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم . ﴾

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ (٩١) وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ۞ (٩٢) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٩٣) ﴾

جزء ١١

ثم بيّنَ تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال ، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه ، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد ومنه العمى والعرج ونحوهما ، ولهذا بدأ به ومنها ما هو عارض بسبب مرض عنَّ له في

بدنه شغَلَهُ عن الخروج في سبيل الله. أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرج اذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس ولم يثبّطوهم وهم محسنون في حالهم هذا . ولهذا قال تعالى: ﴿ ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ﴾

روى ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال : ٥٠٨ [كنت أُكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب « براءة » فإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت : ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ الآية ...] وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : وذلك ٥٠٩ [إن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبدالله بن مغفل بن مقرن المزني فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال لهم: ﴿ والله لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ فتولّوا وهم يبكون، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً . فلمّا رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال تعالى ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ الآية] .

وفي الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: ٥١٠ [«إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتم سيراً إلاّ وهم معكم » قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « نعم حبسهم العذر »]

ثم ردّ تعالى الملامة على الذين يستأذنونك في القعود وهم أغنياء ، وأنّبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال ﴿ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴾ .

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ ۞ (٩٦) ﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم اذا رجعوا إلى المدينة سيعتذرون اليكم ﴿ قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم ﴾ أي لن نصدقكم ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ أي قد أعلمنا الله أحوالكم ، ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ اي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ويجزيكم عليها . ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عن تأنيبهم ، فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم إنهم رجس ، اشارة إلى نجاسة بواطنهم واعتقادهم ، ومأواهم في آخرتهم جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون من الآثام والخطايا ، وأخبر تعالى أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿ فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله ورسوله فإن الفسق هو الخروج ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها .

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ (٩٧) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞(٩٨)وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ ٱللهِ وَصَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٩٩) ﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ، ومنافقين ، ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر ، أي أحرى أن لا يعلموا حدود الله كما قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان ، وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني ، وان يدك لتريبني ، فقال زيد : ما يريبك من يدي .. إنها الشمال ؟ فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال ؟ فقال زيد بن صوحان : صدق الله ﴿ ... واجدر أن لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ ويروى عنه ﷺ انه قال : ٥١١ [من سكن البادية جفا] رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن سفيان الثوري به وحسنه الترمذي ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً وإنما كانت البعثة من

أهل القرى الذين هم ألطف اخلاقاً من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ .

روى مسلم عن عائشة قالت : ٥١٢ [قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبّلون صبيانكم ؟ قالوا نعم ، قالوا لكنا والله ما نُقبّل ، فقال رسول الله ﷺ « وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة(1) ؟ »] وقوله تعالى : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بمن يستحق ان يُعلِمه الإيمان والعلم ، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق .

وقوله تعالى : ﴿ من يتخذ ما ينفق ﴾ أي في سبيل الله ﴿ مغرماً ﴾ أي غرامة وخسارة ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ أي يرتقب بكم المصائب ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أي هي منعكسة عليهم ﴿ والله سميع عليم ﴾ أي سميع لدعاء عباده عليم بما يستحقونه . وقوله تعالى : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب يتقربون إلى الله بما ينفقون ويبتغون أن يدعو الرسول لهم ﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ أي حاصل لهم ذلك ، ولهـذا ﴿ سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم ﴾ .

﴿ وَٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞(١٠٠) ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، ورضاهم عنه بما أعدلهم في الجنات و النعيم المقيم . روى محمد بن كعب القرظي : ٥١٣ [مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ الآية ... فأخذ عمر بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ قال : أبي بن كعب ، فقال : لا تفارقني حتى أذهب بك إليه ، فلما جاءه ، قال عمر : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم قال وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : لقد كنت أرى أنّا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا فقال أبي : تصديق هذه الآية في أول

(1) وفي البخاري : (أو أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة) .

سورة الجمعة : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾ وفي سورة الحشر : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ وفي الأنفال : ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم ﴾] رواه ابن جرير فيا ويل من أبغضهم أو سبّهم - كلهم أو بعضهم - ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ، وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه ، فكل من يبغضهم أو يسبهم فإن عقولهم معكوسة ، وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء ممن وصفهم القرآن العظيم بالآية : ﴿ والسابقون الأولون ... ﴾ فيسبون من رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ، ويسبُّون من سبَّه اللهُ ورسوله ، ويوالون من يوالي الله ورسوله ويعادون من يعادي الله ورسوله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، ويقتدون ولا يبتدون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون .

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٠١)

يخبر تعالى رسوله ﷺ أن من حول المدينة وفي أهل المدينة نفسها منافقين ﴿ مردوا على النفاق ﴾ أي استمروا عليه ، وقوله تعالى : ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ من هنا يتبين أنه ﷺ لا يعلم جميع من عنده من أهل النفاق إنما يعرف بعضهم ولا يعرف البعض الآخر ، وقد كان يعرف قسماً منهم توسُّماً كما قال تعالى : ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً وإن كان يراه صباحاً ومساءً . وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وهمُّوا بما لم ينالوا ﴾ أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً ، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم والله أعلم . وروى ابن عساكر في ترجمة أبي عمر البيروتي عن أبي الدرداء : ٥١٤ [أن رجلاً يقال له حرملة أتى النبيَّ ﷺ فقال : الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه ، والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلاً فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اجعل له لساناً ذاكراً ،

وقلباً شاكراً ، وارزقه حبي وحب من يحبني ، وصيِّرْ أمره إلى خير » فقال يا رسول الله انه كان لي أصحاب من المنافقين ، وكنت رأساً فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ قال : « من أتانا استغفر نا له ، ومن أصرَّ فالله أولى به ، ولا تخرقنَّ على أحد ستراً »] وكذا رواه أبو أحمد الحاكم . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ سنعذّبهم مرتين ﴾ يعني القتل والسبي. وقال في رواية الجوع وعذاب القبر وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال ٥١٥ : قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال : أخرج يا فلان فإنك منافق ، واخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج من المسجد ناساً منهم فضحهم قال ابن عباس فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد والعذاب الثاني عذاب القبر وكذا قال الثوري عن السدي عن أبي مالك نحو هذا . ﴿ ثم يردّون إلى عذاب عظيم ﴾ أي عذاب الآخرة وهو الخلود في النار والعياذ بالله تعالى .

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٠٢)

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الجهاد تكذيباً وشكاً، بيَّن حال المذنبين المتأخرين عن الجهاد كسلاً مع إيمانهم بالحق ، فقال جل وعلا : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أي أقروا بها فيما بينهم وبين الله، ولهم أعمال أُخَرُ صالحةٌ، خلطوها بتلك، فهم تحت عفو الله وغفرانه . وهذه الآية عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوّثين . ﴿ وآخرون ﴾ قال ابن عباس نزلت في أبي لبابة وجماعة من اصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فلما رجع عليه الصلاة والسلام ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وحلفوا ان لا يحلّهم إلاَّ رسول الله ﷺ فلما أنزل الله هذه الآية أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم . روى البخاري عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ لنا : ٥١٦ [أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهيا بي إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقّانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطر كأقبح ما أنت راءٍ قالا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة ، قالا لي هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح ، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم .] هكذا رواه البخاري مختصراً في تفسير هذه الآية .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ (١٠٤) ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها ، وهذا عام في كل من يخلط عملاً صالحاً بآخر سيء ولو كانت الآية نزلت بالذين تخلفوا عن الجهاد كسلاً وهم مؤمنون واعترفوا بذنوبهم فكل من كان بعدهم مثلهم فحكمهم واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وصل عليهم ﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم في صحيحه عن عبدالله بن أبي أوفى قال : ٥١٧ [كان النبي ﷺ إذا أُتي بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال : « اللهم صل على آلِ أبي أوفىَ »] وقوله تعالى : ﴿ إن صلاتك سكن لهم ﴾ قال ابن عباس : رحمة لهم وقوله تعالى : ﴿ والله سميع عليم ﴾ اي سميع لدعائك عليم بمن يستحقه منك . روى الإمام أحمد عن ابن حذيفة ، ان صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجل وولَدَه وولَدَ ولدِه .

وقوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقاتِ ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما تحط الذنوب وتمحقها ، وأخبر تعالى ان كلّ من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدق بصدَقة من كسب حلالٍ ، فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه ، فيربيها لصاحبها حتى تصير الثمرةُ مثلَ أُحُد . كما روى الثوري ووكيع عن أبي هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : ٥١٨ [ان الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربّيها لأحدكم كما يربي أحدُكم مهره حتى إنَ اللقمةَ لتكون مثلَ أُحُد ﴾] وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وان الله هو التواب الرحيم ﴾

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ (١٠٥) ﴾

قال مجاهد : هذا وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين . وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ وقوله تعالى : ﴿وحُصِّل ما في الصدور﴾ وقد يُظهِرُ الله تعالى ذلك في الدنيا للناس .

روى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : ٥١٩ [لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له ، فإن العامل يعمل زماناً من عمره أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً ، وان العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً ، وإذا اراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته ﴾ قالوا يا رسول الله وكيف يستعمله؟ قال « يوفّقه الله لعمل صالح ثم يقبضه عليه »] تفرد به أحمد من هذا الوجه.

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ (١٠٦) ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خُلّفوا أي عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك كسلاً وميلاً إلى الدّعة وطيب الثّمار والظّلال، لا شكاً ونفاقاً. فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجي هؤلاء عن التوبة حتى نزلت : ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ﴾ الآية : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ الآية كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك ، وقوله تعالى : ﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ أي هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا ، وان شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿ والله عليم حكيم ﴾ اي عليم بمن يستحق العقوبة أو العفو، وحكيم في أفعاله وأقواله لا إله الا هو ولا رب سواه .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ

أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۞ (١٠٨)

سبب نزول هذه الآيات الكريمة : أنه كان في المدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ رجل قد تنصّر في الجاهلية يقال له : أبو عامر الراهب . وبعد أن قدم رسول الله ﷺ المدينة وعلا شأن الإسلام والمسلمين في بدر ... دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأبى وتمرّد ... وفرّ إلى مكة ، ثم إلى هرقل ، واستنصره على حرب المسلمين ، فوعده ومنّاه ، وأقام عنده . ثم كتب إلى جماعة من قومه بأن سيقدم بجيش يردُّ فيه محمداً عمّا هو فيه . وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً ومرصداً . فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء . وبعد فراغهم منه ... سألوا رسول الله ﷺ أن يصلي فيه فقال : (إنّا على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله) . وفي عودته من تبوك... وعلى مسافة بعض يوم من المدينة نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما عزم بانوه من الكفر وتفريق المسلمين ؛ فبعث رسول الله إلى ذلك المسجد من هدمه قبل وصوله إلى المدينة . فأنزل عز وجل : ﴿ لا تقم فيه أبداً – إلى قوله – الظالمين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وليَحلِفُنَّ ﴾ أي الذين بنوه ﴿ إن أردنا إلا الحسنَى ﴾ أي إلاّ خيراً قال الله تعالى : ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ أي فيما قصدوا ونووا . وانما بنوه ضراراً لمسجد قباء وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين وارصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل : وهو ابو عامر الفاسق الذي يقال له الراهب لعنه الله . وقوله تعالى : ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ نهيٌ له ﷺ والأمة تبع له في ذلك ، عن ان يقوم فيه أي يصلي أبداً . ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنيانه على التقوى وهي طاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ ، وجمعاً لكلمة المسلمين ومعقلاً للإسلام وأهله ولهذا قال تعالى : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه ﴾ والسياق انما هو في معرض مسجد قباء ولهذا جاء الحديث الصحيح ان رسول الله ﷺ قال : ٥٢٠ [صلاة في مسجد قباء كعمرة] وفي الصحيح : ٥٢١ [ان رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً] .

روى الطبراني عن ابن عباس قال : ٥٢٢ [لما نزلت هذه الآية : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال : « ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم ؟ » فقال يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو قال مقعدته فقال النبي ﷺ : « هو هذا »]

وقد ورد في الحديث الصحيح : ٥٢٣ [أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى ،] وهذا صحيح ، ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه اذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى. ولهذا روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال : ٥٢٤ [المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا] تفرد به أحمد . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد أنه قال : ٥٢٥ [تمارَى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال رجل هو مسجد قباء وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « هو مسجدي »] وكذا رواه الترمذي وصححه والنسائي ورواه مسلم .

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف ، وهو مرويّ عن عمر ابن الخطاب وابنه عبدالله ، وزيد بن ثابت ، وسعيد بن المسيب ، واختاره ابن جرير وقوله تعالى : ﴿ لمسجد أسّس على التقوىَ من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبّون أن يتطهروا والله يحب المطهرّين ﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين ، المحافظين على إسباغ الوضوء والتنزه عن ملابسة القاذورات .

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ (١١٠) ﴾

ربع الحزب

يقول تعالى لا يستوى من أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المسلمين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، فهؤلاء

إنما يبنون بنيانهم على طرف حفرة فانهارت بهم ﴿ في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي لا يصلح عمل المفسدين . قال جابر بن عبدالله : رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم ﴾ أي شكّاً ونفاقاً ، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقاً في قلوبهم كما أشرب عابدو العجل حبه ، وقوله تعالى : ﴿ إلاّ أن تقطع قلوبهم ﴾ أي بموتهم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم من علماء السلف ﴿ والله عليم ﴾ أي بأعمال خلقه ﴿ حكيم ﴾ في مجازاتهم عنها من خير أو شر .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١١١)

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إن بذلوها في سبيله بالجنة وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له ، ولهذا قال الحسن البصري وقتادة بايعهم والله فأغلى ثمنهم ، وقال شمر بن عطية : ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة ، وفىَ بها أو مات عليها ، ثم تلا هذه الآية . ولهذا يقال من حمل في سبيل الله بايع الله أي قبل هذا العقد ووفى به .

روى محمد بن كعب القرظي وغيره : عن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة : ٥٢٦ [اشترط لربّك ولنفسك ما شئتَ ، فقال : « اشترطُ لربّي أن تعبُدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ... ﴾] وقوله تعالى : ﴿ يقاتلون في سبيل الله فَيَقتُلون ويُقتَلون ﴾ أي سواء قَتَلوا أو قُتِلوا أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة ولهذا جاء في الصحيحين : ٥٢٧ [وتكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً مانال من أجر أو غنيمة] وقوله تعالى : ﴿ وعْداً عليه

حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله في كتبه الكبار التي ذكرها . وقوله تعالى : ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ فانه لا يخلف وعده كقوله تعالى : ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾ ولهذا قال سبحانه : ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ اي فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم .

﴿ التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۞ (١١٢) ﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الحميدة ﴿ التائبون ﴾ من الذنوب كلها التاركون للفواحش ، ﴿ العابدون ﴾ اي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال فمن أخص الأقوال الحمد. فلهذا قال جل وعلا : ﴿ الحامدون ﴾ . ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع ،وهو المراد بالسياحة ها هنا ، ولهذا قال سبحانه ﴿ السائحون ﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى : ﴿ سائحات ﴾ أي صائمات . وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة ولهذا قال تعالى : ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه ، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً ، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وبشّر المؤمنين ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله ، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

(بيان أن المراد بالسياحة الصيام) روى ذلك عن عبدالله بن مسعود وابن عباس وعائشة رضي الله عنهم وكذلك روي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وغيرهم .

روى ابن جرير عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٢٨ [السائحون هم الصائمون]

روى ابن جرير عن عبيد بن عمير ، قال : ٥٢٩ [سئل النبي ﷺ عن السائحين فقال : هم الصائمون] وهذا مرسل جيد ، وهذا أصح الأقوال وأشهرها .

وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد وهو ما روي عن أبي داود في سننه من حديث أبي أمامة : ٥٣٠ [أن رجلاً قال يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال النبي ﷺ سياحة امتي الجهاد في سبيل الله .] وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري ، [١] فان هذا ليس بمشروع إلا في ايام الفتن والزلازل في الدين ، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : ٥٣١ [يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن] . [٢]

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝(١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ۝ (١١٤) ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن المسيب عن أبيه قال : ٥٣٢ : [لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : أي عم ، قل لا إله الا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله عز وجل . فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال : أنا على ملة عبد المطلب ، فقال النبي ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فنزلت ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ قالت ونزلت فيه : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾] أخرجاه .

روى الإمام أحمد عن بريدة قال : ٥٣٣ [كنّا مع النبي ﷺ ونحن في سفر ، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب ، فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان ، فقام اليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله مالك ؟ قال : « إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمّي فلم يأذن لي فدمعت عيناي رحمةً لها من النار واني كنت نهيتكم عن ثلاث : نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم زيارتها خيراً.

---

(١) هؤلاء هم المتصوفة الذين يتعبدون الله بما لم ينزل به سلطاناً .

ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث فكلوا وأمسكوا ما شئتم ، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية فاشربوا في أي وعاءٍ شئتم ولا تشربوا مسكراً] .

وروى السهيلي في الروض بسند فيه جماعة مجهولون : أن الله أحيا له أباه وأمّه فآمنا به . [١] وقد قال الحافظ ابن دحية : هذا الحديث موضوع يردّه القرآن والإجماع قال الله تعالى : ﴿ ... ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ [٢]

وقال قتادة في تفسير الآية : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى : ٥٣٤ [ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا : يا نبي الله : إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ، ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي بالذمم ، أفلا نستغفر لهم ؟ قال « بلى والله إني لأستغفر لأبي كما استغفر ابراهيم لأبيه » فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين – حتى بلغ قوله تعالى – ﴿ الجحيم ﴾ ثم عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ، فقال عز وجل : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه الأ عن موعدةٍ وعدها إياه ... ﴾] وقال قتادة : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال : ٥٣٥ (« قد أوحي إلي كلمات فدخلن في أذني ،ووقرن في قلبي : أمرت ان لا استغفر لمن مات مشركاً ، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له ،

---

(١) يجهد بعض أهل الأغراض المعروفة...!!!؟ أن يوردوا هذا الحديث وأمثاله ليضربوا ما جاء في قوله تعالى : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ويجعلوا الله محابياً لرسوله صلى الله عليه وسلم فقالوا : (أن الله أحيا له أبويه فآمنا به) أي تغاضى الله عن شرك أبويه في حياتهما فأحياهما له فآمنا به ثم ماتا ؛ محاولين أن يوهموا العامة بل وحتى الخاصة ... أن الله أحياهما ... إكراماً له وحاشا رب العباد ان يعامل أبوي رسوله بخلاف ما يعامل آباء بقية المسلمين .

(٢) وهذا هو الحق الذي ما بعده إلا الضلال وهذه الآية رقم/١٨/من سورة/النساء/على أن حكم الشرك واحد، إن صدر عن أبوي الرسول أو عن آباء بقية الناس. وجزاء المشركين هو هو...لا فرق بين مشرك ومشرك. وأن هؤلاء الذين وضعوا هذا الحديث، مثلهم في نواياهم الخبيثة، كمثل من يتوارى بأصبعه ظاناً أنه يستتر بها نفسه..!! أو كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمل وتظن الحمقاء أنها لا يراها أحد . فهؤلاء قد اعترفوا بأن أبوي الرسول صلى الله عليه وسلم ... ماتا مشركين وهذا ظاهر من قولهم (أحياهما الله له فآمنا به) . إذ لو كانا مؤمنين لما كان من داع لإحيائهما حتى يؤمنا به من جديد ... !!! فهما وسائر أهل عصرهما مكلفون بدين ابراهيم وهم الذين بدلوه.. إذاً فقد ماتا مشركين باعتراف المخالفين أنفسهم، فبقي عليهم اثبات صحة حديث إحيائهما... وهيهات !!! إذ أن الحديث موضوع مكذوب وقد فضح الله كذبهم عليه وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وكما قال الحافظ ابن دحية : (هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع) . إنهم يضعون هذا الحديث لا حباً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم بعيدون عن هذا الحب، إنما فعلوا ذلك بقصد تكذيب كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ففضحهم الله وهتك أستارهم شأنهم في كل حديث يضعونه افتراء وكذباً. والله الموفق للصواب .

ومن أمسك فهو شر له ولا يلوم الله على كفاف »] وقوله تعالى ﴿ فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ قال ابن عباس : ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم رحمهم الله .

وقوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم ﴾ روى سفيان الثوري وغير واحد عن عبدالله بن مسعود انه قال : الأوّاه : الدّعاء ، وقيل في معنى الأوّاه أقوال متقاربة وأولاها قول من قال : إنه الدعّاء وهو المناسب للسياق ؛ وذلك إن الله تعالى لما ذكر إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه ، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليماً عن من ظلمه وأناله مكروهاً ، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه في قوله تعالى : ﴿ أراغب انت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني ملياً * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا ﴾ فحلم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر. ولهذا قال تعالى: ﴿ إنّ ابراهيم لأوّاه حليم ﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ (١١٥) إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۞ (١١٦) ﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة ، وحكمه العادل ، انه لا يُضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى تقومَ عليهم الحجة .كما قال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ فما كان ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين ، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا ، فأما قبل ان يبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه ،إنَ فعلتموه فلا يحكم عليكم بالضلال بعد أن رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله ، لأن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور به والمنهي عنه.وقوله تعالى : ﴿ إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير ﴾ قال ابن جرير : هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين على قتال المشركين وملوك الكفر ، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه فإنه لا وليّ لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه .

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ (١١٧)﴾

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر، جدب، وحر، وعسر من الزاد والماء. حتى أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما. روى ابن جرير عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب قال: ٥٣٦ [... وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله عز وجل قد عوّدك في الدعاء خيراً فادعُ لنا فقال: «تحب ذلك؟» قال: نعم. فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت، فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.] وقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿لقد تاب الله ... ﴾ الآية ... قال: (العسرة ...) في النفقة والظهر والزاد والماء ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي عن الحق، ويشك في دين الرسول ﷺ ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ثم تاب عليهم﴾ يقول رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ۝ (١١٩)﴾

روى الإمام أحمد عن عبيد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال كعب بن مالك: ٥٣٧[1] [لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها

(١) قلت: لم أختصر شيئاً من قصة كعب بن مالك لما فيها من العبرة والعظة والأحكام.

ط ... إلا في غزوة تبوك ، غير أني تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتبْ أحدٌ تخلّف عنها وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عيرَ قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وماأحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس وأشهر ، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول الله ﷺ قلمّايغزوغزوة إلاّ ورَّى بغيرها حتى كانت تلكالغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدواً كثيراً فخلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوّهم ، فأخبرهم وجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقَلّ رجل يريد أن يتغيب إلاّ ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة ، حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر ، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً ، فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمرَّ بالناس الجدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، وقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعدما فصلوا لأتجهّز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً . ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادَى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهمَمْتُ أن أرتحل فألحقهم ، وليت أني فعلت ، ثم لم يقدَّرْ ذلك لي ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلاّ رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك « ما فعل كعب بن مالك» فقال رجل من بني سلمة : حبسه يا رسول الله برداه والنظر في عطفيه فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلاّ خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك ، حضرني بثّي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً واستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظلّ قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه ؛ فأصبح رسول الله ﷺ وكان

إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلّفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لي : « تعال » فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي :«ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهراً » فقلت : يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك بصدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، قال : فقال رسول الله ﷺ « أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك » فقمت وقام إليَّ رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أُن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، قال فوالله ما زالوا يؤنّبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي. قال: ثم قلت لهم هل لقي معي هذا أحد ؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثلما قيل لك فقلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامري ، وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة ، قال فمضيت حين ذكروهما لي قال ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا كثيراً حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرضُ فما هي بالأرض التي كنت اعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت اشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلّم وأقول في نفسي أحرّك شفتيه بردّ السلام عليَّ أم لا ؟ ثم أصلّي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ ، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسوّرت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ . فسلمت عليه ، فوالله ما ردَّ علي السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال فسكت ، قال فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم قال ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشي بسوق المدينة ، إذا أنا بنبطيٍّ من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب

ابن مالك ؟ قال فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فإذا فيه:

أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وأن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . قال : فقلت حين قرأته : وهذا أيضاً من البلاء ، قال فتيممتُ به التنورَ ، فسجرتُه به حتى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين ، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل أمرأتك قال فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربْها ، قال وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك قال فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء ، قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ان هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال : « لا ولكن لا يقربك » قالت وانه والله ما به من حركة إلى شيء، وإنه والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . قال فقال لي بعض أهلي لو استأذنتَ رسولَ الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال فقلت : والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب .

قال فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنافبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت عليَّ نفسي ، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ، قال : فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض إلى رجل فرساً وسعى ساعٍ من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤمّ رسول الله ﷺ ، وتلقاني الناسُ فوجاً فوجاً يهنؤني بتوبة الله ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك» . قال:

قلت أمن عندك يا رسول الله ام من عند الله قال : « بل من عند الله » قال وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، حتى يعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله ، قال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » قال : فقلت فإني أمسك سهمي الذي بخيبر وقلت يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلاّ صدقاً ما بقيت قال فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك رسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، واني لأرجو ان يحفظني الله عز وجل فيما بقي .

قال : وأنزل الله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ إلى آخر الآيات. قال كعب : فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد ان هداني للاسلام أعظم في نفسي من صدقي مع رسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه فإن الله تعالى قال للذين كذَبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، فقال الله تعالى : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله عز وجل ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ وليس تخليفُه إيَّانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبِل منه .]

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه ، فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها ، وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيرها .

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فلا يهتدون ما يصنعون ، فصبروا لأمر الله ، واستكانوا له ، وثبتوا حتى

كوفئوا بالفرج بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم ، وإنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك ، هذه المدة ... ثم تاب عليهم فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم ولهذا قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ أي اصدقوا ، والزموا الصدق تكونوا من أهله ، وتنجوا من المهالك .

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
٥٣٨ [عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدقَ حتى يكتبَ عند الله صدّيقاً ؛ وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً] أخرجاه في الصحيحين . وروى شعبة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، إقرأوا إن شئتم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ هكذا قرأها ثم قال : فهل تجدون لأحد فيه رخصة .

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (١٢٠) ﴾

يعاتب تبارك وتعالى المتخلّفين عن رسوله ﷺ في غزوة تبوك عامة ، ورغبتهم بأنفسهم عن الجهاد معه ومواساته فيما حصل له من المشقّة ، فإنّهم حرّموا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿ لا يصيبهم ظمأ ﴾ وهو العطش ﴿ ولا نصب ﴾ وهو التعب ﴿ ولا مخمصة ﴾ وهي المجاعة ، ﴿ ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ﴾ أي ينزلون منزلاً يرهب عدوّهم ﴿ ولا ينالون من عدو نيلاً ﴾ أي ظفراً ﴿ إلا كتب لهم ﴾ بهذه ، أعمالاً صالحة

وثواباً جزيلاً ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ .

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ (١٢١) ﴾

يقول تعالى : ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿ نفقة صغيرة ولا كبيرة ﴾ أي قليلاً ولا كثيراً ﴿ ولا يقطعون وادياً ﴾ أي إلى الأعداء ﴿ إلا كتب لهم ﴾ ولم يقل ها هنا : به ، لأن هذه أفعال صادرة عنهم ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة ، حظ وافر ، ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة ، والأموال الجزيلة ، كما روى عبد الله بن الإمام احمد عن عبد الرحمن بن حباب السلمي قال : ٥٣٩ [خطب رسول الله ﷺ ، فحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : عليَّ مائة بعير باحلاسها وأقتابها ، قال ثم حث فقال عثمان بن عفان : عليَّ مائة بعير أخرى بأحلاسها واقتابها ثم نزل مرقاةً من المنبر ثم حث ، فقال عثمان بن عفان : على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . قال فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها ، وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب : « ما على عثمان ما عمل بعد هذا »] روى عبدالله أيضاً عن عبد الرحمن بن سمرة قال : ٥٤٠ [جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة قال : فصبها في حجر النبي ﷺ ، فرأيت النبي ﷺ يقلّبها بيده ويقول : « ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم » يرددها مراراً] وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ﴾ الآية : ما ازداد قوم في سبيل الله بعداً من أهليهم إلا إزدادوا قرباً من الله .

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝ (١٢٢) ﴾

نصف الحزب

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير أحياء العرب مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك ، فانه قد ذهبت طائفة من السلف إلى انه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ [١]

وقال سبحانه ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ... ﴾ [٢] فنسخ ذلك بهذه الآية . وقد يقال : إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير أحياء العرب كلّها وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ، ليتفقّه الخارجون مع الرسول ﷺ ، بما ينزل من الوحي عليه ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو ، فيجتمع لهم الأمران في هذا النفير المعين ، وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد .

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون فيه ويقولون للنبي ﷺ : ما تأمرنا ان نفعله ؟ وأخبرْنا بما نأمر به عشائرنا إذا قدمنا عليهم ، قال فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة ، وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا : من أسلم فهومنّا وينذرونهم ، حتى أن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان النبي ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم ، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٣)

أمر الله تعالى المؤمنين بقتال الكفّار ، الأقرب فالأقرب إلى ديار الإسلام ، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب ، ولما فرغ منهم وفتح الله عليه كافة بلاد الجزيرة ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، شرع في قتال أهل الكتاب ، فتجهّز لقتال الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل كتاب ، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس ، وجدب البلاد

---

(١) الآية (٤١) التوبة (٢) الآية (١٢٠) التوبة

وضيق الحال وذلك سنة ٩ لهجرته عليه الصلاة والسلام . ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ، ثم التحق بربه تعالى بعد حجته بأحد وثمانين يوماً فخلفه أبو بكر الذي ثبَّت الله به الدين، وشرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران . ففتح الله عليه البلاد وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد وانفق كنوزهما في سبيل الله ثم ولي عهده الفاروق عمر بن الخطاب فأرغم الله به أنوف الكفرة والملحدين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً ، وحملت إليه الخزائن من سائر الأقاليم بعداً وقرباً . ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً. أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة عثمان بن عفان . فظهر الإسلام وعلت كلمة الله وكلَّما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم. ثم الذين يلونهم امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي في قتالهم ، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً بأخيه المؤمن ، غليظاً على عدوه الكافر . كقوله تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وفي الحديث : ٥٤١ [أنا الضحوك القتال] أي الضحوك في وجه وليه قتَّال لهامة عدوِّه . وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ أي إن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه . وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة ، في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك ، طمع الأعداء في اطراف البلاد واستحوذوا على قسم من بلاد الإسلام ولله الأمر من قبل ومن بعد . فكلما قام ملك من ملوك الاسلام وأطاع أوامر الله وتوكل عليه تعالى فتح الله عليه من البلاد بقدر ما فيه من ولاية الله . والله المسؤول أن يمكن المسلمين نواصي الكافرين ، وان يعلي كلستهم في سائر الأقاليم انه جواد كريم .

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (١٢٤) ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١٢٥)

يقول تعالى : ﴿ واذا ما أنزلت سورة ﴾ فمن المنافقين ﴿ من يقول أيكم زادته هذه

إيماناً ﴾ أي يقول ذلك بعضهم لبعض ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ أي شكاً إلى شكهم .كقوله تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ وهذا من جملة شقائهم ، أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم ، كما أن سيء المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ● (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ● (١٢٧) ﴾

يقول تعالى : أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿ أنهم يفتنون ﴾ أي يختبرون ﴿ في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ أي لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم . قال مجاهد يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة بالغزو في السنة مرتين . وقوله تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض ﴾ أي تلفتوا ﴿ هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ﴾ أي تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه . كقوله تعالى : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ● كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أي لا يفهمون عن الله خطابه بل هم في شغل عنه ونفور منه .

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ● (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ● (١٢٩) ﴾

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ أي منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي والمغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ لرسول كسرى : ان الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته وذكر الحديث ...

روى الحافظ ابو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي بسنده إلى محمد بن جعفر بن محمد قال أشهد على أبي لحدثني عن أبيه عن جده عن عليّ قال : قال رسول ﷺ : ٥٤٢ [خرجت من نكـــاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يمسني من سفاح الجاهلية شيء] وقوله تعالى : ﴿ عزيز عليه ما عنتّم ﴾ . أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليهـــا ، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق : ٥٤٣ [بعثت بالحنيفية السمحة] ﴿ حريص عليكم ﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع إليكم دنيا وأخرى . .

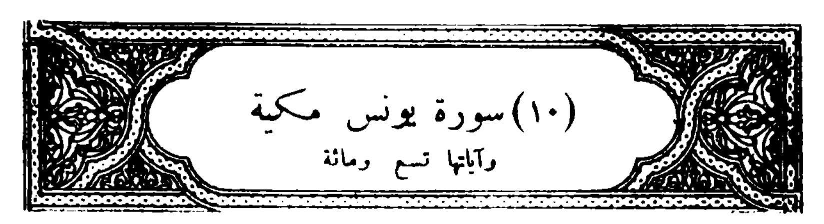
روى الطبراني عن أبي ذر قال : ٥٤٤ [تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلّب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً] وقال رسول الله ﷺ ٥٤٥ ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بُيّن لكم »] روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٤٦ [إن الله لم يحرّم حرمة إلاّ وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش أو الذباب]

وقوله تعالى : ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ واخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين ∗ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ∗ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ وهكذا أمره تعالى : في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ فإن تولّوا ﴾ أي عما جئتهم به من الشريعة العظيمة الكاملة : ﴿ فقل حسبي الله لا إله الا هو ﴾ أي الله كافيَّ لا إله الا هو عليه توكلت .كما قال تعالى : ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله الا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه لأنه ربُّ العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء ، وقدره نافذ في كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل . روى الإمام أحمد عن أُبي بن كعب قال : ٥٤٧ : [آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى آخر السورة .] .

روى أحمد عن عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : ٥٤٨ [أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى عمر بن الخطاب فقال من معك على هذا ؟ قال لا أدري والله اني لأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها فقال عمر : وأنا اشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فضعوها في آخر براءة] .

آخر اختصار تفسير سورة التوبة ولله الحمد والمنة والله الموفق المعين



إلا الآيات : ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ . نزلت بعد الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ * (٢) ﴾

أما الحروف المقطعة في أوائل السور ، فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة . ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ أي هذه آيات القرآن الحكيم المبين وقوله تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ أي ينكر تعالى على الكفار الذين تعجبوا من إرسال المرسلين من البشر !!! فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، فأنزل الله عز وجل ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذرِ الناس وبشّرِ الذين آمنوا أنّ لهم قدمَ صدق عند ربهم ﴾ قال مجاهد : أي الأعمال الصالحة ، صلاتهم وصومهم وصدقتهم ، ومحمد ﷺ يشفع لهم ، واختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ أي ظاهر – ومعناه – أي مع أنّا بعثنا إليهم رسولاً منهم ، رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ وإنهم لكاذبون في قولهم الذي قالوه.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * (٣) ﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، قيل كهذه الأيام ، وقيل كل يوم كألف سنة مما تعدّون كما سيأتي بيانه ثم استوى على العرش والعرش اعظم المخلوقات وسقفها . وقوله تعالى : ﴿ يدبر الأمر ﴾ أي يدبر الخلائق ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ ولا يشغله شأن عن شأن وقوله تعالى : ﴿ ما من شفيع إلاّ من بعد إذنه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴾ أي افردوه بالعبادة وحده لا شريك له . ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله آلهاً غيره وانتم تعلمون ، أنه المتفرد بالخلق ، كقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم عن خلقهم ليقولن الله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله قل أفلا تتقون ﴾

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ ٱللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ● (٤) ﴾

يخبر تعالى أن اليه مرجع الخلائق يوم القيامة ولا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه . وذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى ﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم ، وظل من يحموم .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ● (٥) إِنَّ فِي ٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللهُ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ●(٦) ﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه جعل الشعاع

الصادر عن جرم الشمس ضياءً وجعل شعاع القمر نوراً هذا نوع وهذا نوع آخر ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وقدر القمر منازل فأول ما يبدو صغيراً ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر كقوله تعالى : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ الآية وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وقدره ﴾ أي القمر ﴿ منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فبجريان الشمس والقمر تعرف الأيام والشهور والأعوام ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ اي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة . كقوله تعالى : ﴿ أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم إلينا لا ترجعون ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ نفصل الآيات ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ان في اختلاف الليل والنهار ﴾ اي تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا وإذا ذهب هذا لا يتأخر عنه شيئاً ، كقوله تعالى : ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ . وقولُه تعالى : ﴿ وما خلق الله في السموات والأرض ﴾ من الآيات الدالة على عظمته تعالى كقوله تعالى : ﴿ ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ أي العقول ، وقال هاهنا : ﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ اي عقاب الله وسخطه وعذابه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ❁ (٧) أُوْلَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ❁ (٨) ﴾

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة، ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم . قال الحسن : والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا يأتمرون بها بأن مأواهم يوم المعاد النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام، مع ما هم فيه من الكفر بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ ❁ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا

سُبْحَانَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * (١٠)

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم . يحتمل ان تكون الباء ههنا سببية ، فتقديره بسبب إيمانهم في الدنيا ، يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم . حتى يجوزوه ويخلصوا الى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ قال يكون لهم نوراً يمشون به . وقال ابن جريج في الآية : يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة فذلك قوله تعالى : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة ، وريح منتنة فيلزم صاحبه ويلادُّه [1] حتى يقذفه في النار وقوله تعالى : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين ﴾ أي هذا حال أهل الجنة وقال سفيان الثوري إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ كقوله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً المعبود على طول المدى ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وفي ابتداء كتابه ، وعند ابتداء تنزيله . وانه المحمود في الدنيا والآخرة وفي جميع الأحوال . ولهذا جاء في الحديث **٥٤٩** [إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَّفَس] . فلا إله الا هو ولا رب سواه .

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُمْ بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * (١١)

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده انه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم ، وانه يعلم منهم عدم القصد إلى ارادة

(١) أي يجادله ويغالبه .

ذلك ، فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفاً ورحمة كما يستجيب لهم اذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والنماء والبركة ، ولهذا قال سبحانه ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم ﴾ أي لأهلكهم ولكن لا ينبغي الإكثار في ذلك ، كما جاء في الحديث : الذي رواه البزار عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ ٥٥٠ [لا تدعوا على أنفسكم لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم] وهذا كقوله تعالى : ﴿ ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير ﴾ الآية .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (١٢) ﴾

يخبر تعالى عن قلق الإنسان إذا مسّه الضر . كقوله تعالى : ﴿ واذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ أي كثير لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع واكثر الدعاء في كشفها ورفعها في كافة أحواله فإذا فرج الله شدته أعرض ونأى بجانبه وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿ مر كأن لم يدعنا الى ضر مسّه ﴾ ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال عز وجل : ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ فأما من هـُديَ الى الرشاد والسداد فانـه مستثنى من ذلك كقوله تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۞ (١٤) ﴾

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من البينات

والحجج الواضحات ، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل اليهم رسولاً لينظر طاعتهم له ، واتباعهم رسوله في صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ ٥٥١ [ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني اسرائيل كانت من النساء]

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * (١٦) ﴾

يخبر تعالى عن تعنت مشركي قريش الجاحدين ، المعرضين عنه تعالى ، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له ائت بقرآن غير هذا يكون من نمط آخر ، أو بدّله إلى وضع آخر. قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قل ما يكون لي أن ابدله من تلقاء نفسي ﴾ اي ليس هذا إليّ إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلّغٌ عن الله ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به ﴾ أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته والدليل على أني ما افتريته من عندي أنكم عاجزون عن معارضته . وانكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ أن نشأت بينكم الى حين بعثني الله عز وجل لا تنتقدون عليّ شيئاً تغمصوني به ولهذا قال . ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ولهذا لما سأل هرقل ملكُ الروم أبا سفيان وقد كان إذ ذاك زعيم المشركين هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال ؟ قال ابو سفيان فقلت لا ، فقال له هرقل فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ

لَا يُفلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ (١٧)

يقول تعالى لا أحد أظلم ﴿ ممن افترى على الله كذباً ﴾ وتقوّل على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك . ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف بالأنبياء فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد ان الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس . فان الفرق ما بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب ، لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين حندس الظلماء ، فمن شيم كل منهما وافعاله وكلامه يستدل من له بصيرة ، على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي .

قال عبدالله بن سلام لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انْجَفَلَ الناس [١] فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب فكان أول ما سمعته يقول : ٥٥٢ [يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام] وقال حسان بن ثابت :

لو لم تكن فيه آيات مبيّنَةٌ كانت بديهتُه تأتيك بالخبر

وأما مسيلمة الكذاب فكل من شاهده من ذوي الأبصار والبصائر علم أمره ولا محالة ، بأقواله الركيكة غير الفصيحة ، وأفعاله الرديئة القبيحة ، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة . وكم من فرق بين قوله تعالى : ﴿ الله لا إله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ الى آخرها ، وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي كم تنقين لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين . وقوله قبحه الله ولعنه : الفيل وما ادرك ما الفيل له خرطوم طويل ، وقوله لعنه الله وأبعده عن رحمته : والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزا ، واللاقمات لقماً إهالة وسمناً ، ان قريشاً قوم يعتدون ، الى غير ذلك من الخرافات والهذيانات التي يأنف الصبيان ان يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء . وقال الصديق (رض) للذين أتوا من قومه تائبين بعد أن أسمعوه من هذا الذي ذكرناه واشباهه : ويحكم أين كان يذهب بعقولكم ؟. والله إنّ هذا لم يخرج من إلٍّ [٢]

(١) يعني قومه اليهود ، وأما العرب وهم الأنصار فكانوا في أشد الغبطة والسرور من قدومه صلى الله عليه وسلم.
(٢) من إل أي من وحي .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممَّن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء. ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾ وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل ، وقامت عليه الحجج ، لا أحد أظلم منه كما في الحديث :

٥٥٣ [أعتى الناس على الله رجل قتل نبياً أو قتله نبيٌّ] .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ ٱللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (١٨) وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۞ (١٩) ﴾

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره ، ظانين أن تلك المعبودات تنفعهم شفاعتها عنده سبحانه. فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً ولا يقع شيء مما يزعمون فيها . ولهذا قال عز وجل : ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴾ أي أتخبرون الله بما لا يعلمه في السموات ولا في الأرض ... !!!؟ ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم فقال سبحانه : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس ، كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام. قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان ، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة. ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيَّ عن بينة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ الآية . أي لولا أن سبق في حكمه تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وأنه قد أجل الخلق إلى أجلٍ معدود لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين [1] .

(١) أي شدد الإثم عليهم بما كفروا وأشركوا

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ ﴾ (٢٠)

يقول هؤلاء الكفرة المكذبون : لولا أنزل على محمد آية من ربه ، أي يحول لهم الصفا ذهباً [١] أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً أو نحو ذلك مما الله قادر عليه وهو على كل شيء قدير – حكيم في افعاله وأقواله . كما قال تعالى : ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ الآية يقول تعالى : ان سنتي في خلقي أني اذا آتيهم ما سألوا ، فإن آمنوا والا عاجلتهم بالعقوبة ، ولهذا لما خُيِّر الرسول ﷺ بين إعطائهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا عذبوا ، وبين إنظارهم اختار إنظارهُم كما حلم عنهم غير مرة رسولُ الله ﷺ . ولهذا قال تعالى ارشاداً لنبيه ﷺ الى الجواب عما سألوا :

﴿ فقل انما الغيب لله ﴾ أي الأمر كله لله وهو يعلم عواقب الأمور .

﴿ فانتظروا إني مِعكم من المنتظرين ﴾ اي فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم ، هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم الى القمر ليلة البدر فانشق فرقتين ، فرقة من وراء الجبل ، وفرقة من دونه . وهذا أعظم مما سألوا و مـا لم يسألوا . ولو علم الله منهم انهم سألوا ذلك استرشاداً و تثبتاً لأجابهم ، ولكن علم أنهم إنما يسألون عناداً وتعنتاً فتركهم فيما رابهم وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد كقوله تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ﴾ فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا الى ما سألوا لأنه لا فائدة في جوابهم لتعنتهم وفسادهم ولهذا قال تعالى : ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ (٢١)

---

(١) راجع الحديث رقم /١٦٧/ من سورة البقرة عند الآية رقم ١٦٤ .

هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمةً بعد ضراء كالرخاء بعد الشدة : ﴿ إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ أي استهزاء وتكذيب كقوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ قل الله أسرع مكراً ﴾ أي اشد استدراجاً وإمهالاً حتّى يظن الظان من المجرمين انه ليس بمعذَّب ، وانما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير .

ثم اخبر تعالى انه ﴿ هو الذي يسير كم في البر والبحر ﴾ اي يحفظكم ﴿ حتّى اذ كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ﴾ اي جرين بسرعة رفيقة إذ ﴿ جاءتها ﴾ أي تلك السفن ﴿ ريح عاصف ﴾ أي شديدة ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ اي اشتد موج البحر عليهم أي لا يدعون معه صنماً ولا وثناً بل يفردونه بالدعاء والابتهال ، كقوله تعالى : ﴿ واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾ وقال هاهنا ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه ، ﴾ أي هذه الحال ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ اي لنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا ، قال تعالى : ﴿ فلما انجاهم ﴾ أي من تلك الورطة ﴿ اذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ أي كقوله تعالى : ﴿ كأن لم يدعُنا إلى ضرٍ مسّه ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنـّما بغيكم على أنفسكم ﴾ فلا تضرُّن به أحداً غيركم . وقوله تعالى : ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ ثم إلينا مرجعكم ﴾ أي مصيركم ﴿ فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي نخبركم بجميع اعمالكم ونوفّيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَامُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ (٢٤) وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ (٢٥) ﴾

ضرب الله مثلاً لزهرة الحياة الدنيا ، وسرعة زوالها ، كالنبات الذي أخرجه الله تعالى من الأرض ، بماء أنزل من السماء ، مما يأكل الناس من زروع وثمار مختلفة ، وما تأكل الأنعام من ابّ وقضب . ﴿ حتى إذا اخذت الأرض زخرفها ﴾ أي زينتها الفانية ﴿ وازّيّنت ﴾ أي حسنت بما يخرج منها من زهور مختلفة ﴿ وظن أهلها ﴾ الذين زرعوها ﴿ انهم قادرون عليها ﴾ أي على حصادها ، فتفاجئهم صاعقة أو ريح شديدة ، فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها. ولهذا قال تعالى : ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً ﴾ أي يابساً بعد النضارة ﴿ كأن لم تغنَ بالأمس ﴾ وقال قتادة : أي كأن لم تنعم وكأن لم تكن وذلك كقوله تعالى : ﴿ فاصبحوا في دراهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فيعتبرون بهذا المثل من زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها ، وثقتهم بمواعيدها وتفلّتها عنهم لأن من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها .

وقوله تعالى : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ الآية . لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها ، رغّب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام أي من الآفات والنقائص والنكبات فقال سبحانه ﴿ والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ . وقد جاء من حديث الليث بسنده عن جابر بن عبدالله (رض) قال ٥٥٤ : [خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال : « اني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه أضرب له مثلاً فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولاً يدعو الناس الى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فالله الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وانت يا محمد الرسول. فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها . »] رواه ابن جرير .

حزب ٢٢

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ (٢٦) ﴾

يخبرُ تعالى أنّ لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح : الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وزيادة ﴾ فقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم عن ابي بكر الصديق وحذيفة ابن اليمان وعبدالله بن عباس وسعيد بن المسيب وجمع من التابعين وغيرهم من السلف والخلف فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن صهيب الرومي رضي الله عنه ٥٥٥ [ان رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ يا أهل الجنة : إن لكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازنينا ؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار – قال – فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب اليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم »] .

روى ابن جرير ٥٥٦ [عن أبيّ بن كعب انه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل ﴿ للذين احسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : « الحسنى الجنّة والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل »] وقوله تعالى : ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ﴾ أي قتام وسواد في عرصات المحشر ، كما يعتري وجوه الكفار الفجار من القترة والغبرة ﴿ ولا ذلة ﴾ أي هوان وصَغار أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر بل هم كما قال تعالى في حقهم ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً ﴾ أي نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم ، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين .

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ (٢٧) ﴾

لما آخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات وزيادة ، عطف بذكر حال الاشقياء فذكر تعالى عدله فيهم وانه يجازيهم على النية بمثلها لا يزيدهم على ذلك ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ أي تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال تعالى : ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾

أي من مانع ولا واقٍ يقيهم العذاب . كقوله تعالى : ﴿ يقول الإنسان يومئذٍ أين المفر * كلاّ لا وزر إلى ربك يومئذٍ المستقر ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى ٱللهِ مَوْلَاهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * (٣٠) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر ﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم انتم وشركاؤكم ﴾ أي الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم وافترقوا عن مقام المؤمنين كقوله تعالى : ﴿ وامتازوا اليوم ايها المجرمون ﴾ وكما في الحديث ٥٥٧ [نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس] وقولُه تعالى : ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ أي فرقنا بينهم وبين شركائهم أي أنهم أنكروا عبادتهم وتبرأوا منهم كقوله تعالى : ﴿ سيكفرون بعبادتهم ﴾ وفي هذه الآية إخبار عن قول الشركاء لعابديهم ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيّانا تعبدون ﴾ ما كنا نشعر بعبادتكم ﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾ أننا ما كنا نعلم بها ، وانما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم والله يشهد اننا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا امرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك . وهذا تبكيت عظيم للمشركين في وقت هم أحوج ما يكونون إلى تأييدهم ، وكيف ذلك وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء ، وقد اقام الحجة على عباده فأرسل الرسل وأنزل الكتب آمراً ناهيا كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل امة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة ﴾ والمشركون أنواع قد ذكرهم الله في كتابه وبين أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد ، وقوله تعالى : ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ أي في موقف الحساب يوم القيامة تخبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها خيراً كان أو شراً كقوله تعالى : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخّر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ورُدّوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ أي رجعوا في جميع أمورهم إلى الله الحكم العدل ففصلها وادخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار

﴿ وضل عنهم ﴾ أي ذهب وتخلّى عن المشركين ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه سبحانه وتعالى عما يشركون .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾

يقيم الله حجته الدامغة على المشركين المعترفين بوحدانيته وبربوبيته على وحدانية ألوهيته فقال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر بقدرته ومشيئته فيخرج الحب والزرع والثمر . كقوله تعالى : ﴿ أمّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ أمَّن يملك السمع والأبصار ﴾ أي من وهبكم السمع والبصر ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها كقوله تعالى : ﴿ قل هو الذي انشأكم وجعل لكم السمع والأبصار ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ أي يخرج الثمر من النواة والنواة من الثمر ويخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن والبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة وما جرى هذا المجرى من جميع الاشياء ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿ فسيقولون الله ﴾ أي يعترفون بأن الله تعالى هو الرازق الخالق المدبر ويعلمون ذلك ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم [1] وقوله تعالى : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ﴾ أي فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الذي يجب ان تفردوه بالعبادة ﴿ فماذا بعد الحق الا الضلال ﴾ أي فكل

---

(١) قلت : ان الله الزمهم إلزاماً بالحجة والبرهان من اقرارهم واعترافهم بأن من كان هو الخالق الرازق المدبر المنعم هو أولى استحقاقاً بالعبادة من الذي لم يخلق ولم يرزق ولم ينعم ولم يدبر فكيف تعبدون مع الله الصم البكم الذين لا يعقلون وأنتم تعلمون في الله الصفات التامة الكاملة وتعلمون في آلهتكم الصفات الناقصة أفلا تخافون الله .

معبود سواه باطل لا إله إلا هو وحده لا شريك له ﴿ فأنّى تصرفون ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وانتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء ، وقوله تعالى : ﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ أي كما أن هؤلاء المشركين أصروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع اعترافهم له بصفات الربوبية فمن أجل هذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار جزاءً وفاقاً من نوع العمل كقوله تعالى : ﴿ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۞ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّآ أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۞ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۞ (٣٦) ﴾

هذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره ، وقطع لحجتهم ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أي هل فيمن تعبدونهم من دون الله من يخلق كخلق السموات والأرض ثم يفنيهما ثم يعيدهما من جديد ؟ ﴿ قل الله ﴾ هو الذي يفعل هذا وحده ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل وأنتم تعلمون ﴿ قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق قل الله يهدي للحق ﴾ أي لا أحد منهم يقدر على هدايته وأنتم تعلمون ذلك وانه لا يهدي الحياري ، ولا يقلب القلوب من الغي الى الرشد إلا الله وحده لا شريك له ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدي إلا أن يُهدَى ﴾ أي أفيتّبع من يهدي إلى الحق ويبصّر بعد العمى ، أم يتّبع الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يُهدَى من قبل غيره ؟ كما قال تعالى اخباراً عن ابراهيم: ﴿ يا أبت لمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فمالكم كيف تحكمون ﴾ اي كيف سويتم بين الله وبين خلقه وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا ، وهلا أفردتم الرب جل جلاله بالعبادة واخلصتم إليه الدعوة والإنابة .

ثم بين تعالى انهم يتبعون في دينهم الظن والتخيُّل والتوهم. وكل هذا لا يغني من الحق شيئاً ﴿ ان الله عليم بما يفعلون ﴾ تهديد، لهم ووعيد شديد لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۞ (٤٠) ﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن وانه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ، ولا بسورة من مثله . لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته ، واشتماله على المعاني العزيزة الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا يمكن ان يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ولهذا قال تعالى : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفتري من دون الله ﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ولا يشبه كلام البشر ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي من الكتب المتقدمة ومهيمناً عليها ومبيّناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل ، وقوله تعالى : ﴿ وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ أي وبيان الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين وقوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ اي إن شككتم في أن هذا من عند الله وقلتم أنه من عند محمد افتراءً وكذباً على الله وعليه ﷺ فمحمد ﷺ بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا إن شئتم بمثله ، أي من جنس هذا القرآن واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان ﴿ . قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ ثم تقاصر معهم الى عشر

سور منه فقال في أول سورة هود : ﴿أم يقولون أفتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين﴾ ثم تنازل الى سورة فقال في هــذه السورة : ﴿ام يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين﴾ وهذا هو المقام الثالث في التحدي وكذلك فيسورة البقرة وهي مدنية تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال : ﴿فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ...﴾ هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، واشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهي في هذا الباب .

ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لهم به ، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وطلاوته وإفادته فكانوا أعلم الناس به ، وأفهمهم له ، وأشدهم له انقياداً ، كما عرف السحرة ان ما جاء به موسى عليه السلام لا يصدر الا عن مؤيد مسدد مرسل من الله وكذلك ما أتى به عيسى عليه الصلاة والسلام من احياء الموتى وبرء الأكمه والأبرص لا مدخل للعلاج والدواء فيه فعرف من عرف من قومه أنه عبد الله ورسوله .

ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ انه قال ٥٥٨ : [ما من نبي من الأنبياء إلاّ وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وانما كان الذي أوتيته وحيــاً أوحاه الله إليّ فأرجو أن اكون اكثرهم تابعاً] وقوله تعالى : ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله﴾ يقول بل كذّب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق جهلاً وسفهاً ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم السالفة ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ وليحذر المكذبون أن يصيبهم ما أصابهم . وقوله تعالى : ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع برسالتك ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ فيموت على ذلك ويبعث عليه ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ فيعطي كلاً مــا يستحق من الهداية أو الضلالة وهو العادل الذي لا يجور سبحانه وتعالى . لا إله الا هو ولا رب سواه .

۞ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ۞ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ۞ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ

يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ۞ (٤٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۞ (٤٤)

يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن كذّبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿ فقل لي عملي ولكم عملكم ﴾ [١] كقوله تعالى : ﴿ قُل يا ايها الكافرون لا اعبد ما تعبدون ﴾ الى آخرها . وقولُه تعالى : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ اي يسمعون كلام الله وكلامك اللذين لهما الاثر العظيم في القلوب ليس بمقدورك أن تفهمهم وتهديهم ، فكما انك لا تستطيع ان تسمع هؤلاء الصم ولا أن تهدي العمي ، كذلك لا تستطيع هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله تعالى . ثم أخبر تعالى انه لا يظلم أحداً شيئاً وإن كان قد هدى من هدى بالقرآن ، ففتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفا وأضل به عن الإيمان آخرين فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله [٢] ولهذا قال : ﴿ ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل **٥٥٩** [يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا – إلى أن قال في آخره – يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه] رواه مسلم بطوله .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۞ (٤٥)

يذكر تعالى الناس بقيام الساعة ، وحشرهم من أجداثهم الى عرصات القيامة ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ الآية ... كقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشية أو ضحاها ﴾ وهذا دليل

---

(١) هذا طبعاً قبل نزول آية السيف .

(٢) قلت : لا يفعل سبحانه الا الحق والعدل والحكمة والخير . ومنزه عن نقيض ذلك ... لذا فإنه لا يسأله أحد عن الخير الذي فعله ، لم فعله ؟ لأن الخير مرغوب محبوب ، وغير مستنكر . كما لا يجوز أن يسأله أحد عن شر حل به لم فعلت ذلك بي يا رب ... ؟ لأنه لم يكن هو الذي فعله به لأن الله لا يفعل شراً قط ، وإن كان هو خالقه وخالق كل شيء ... إنما أنت الذي فعلت الشر وظلمت نفسك .

على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله عز من قائل : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ﴾ وقولـه تعالى : ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ أي يعرف الآباء الأبناء والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه.كقوله تعالى ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ويل للمكذبين ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين .

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ (٤٧) ﴾

يخاطب الله تعالى نبيه ﷺ : ﴿ واما نرينّك بعض الذي تعدهم ﴾ أي ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿ أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ﴾ أي مصيرهم ومنقلبهم والله شهيد على افعالهم بعدك . وقد روى الطبراني عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ ٥٦٠ : [عرضت عليَّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها ، فقال رجل : يا رسول الله عرض عليك من خُلق فكيف من لم يخلق؟ فقال «صوروا لي في الطين حتى إني لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه »] وقوله تعالى : ﴿ ولكل امة رسول فإذا جاء رسولهم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ قضي بينهم بالقسط ﴾ أي فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها وكتاب أعمالها من خير أو شر موضوع شاهد عليهم ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً ، أمة بعد أمة . وهذه الأمة الشريفة وان كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضي لهم كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ انه قال : ٥٦١ [نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضي لهم قبل الخلائق] فأمته انما حازت قصب السبق بشرفه ﷺ .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ (٤٨) قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا

جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ❋ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ❋ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ٱلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ❋ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ❋ (٥٢)

يخبر تعالى عن كفر المشركين في استعجالهم العذاب وسؤآلهم عن وقته قبل التعيين مما لا فائدة لهم فيه فأمر تعالى رسوله ﷺ أن يجيبهم فقال سبحانه : ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴾ الآية ... أي لا اعلم شيئاً مما استأثر الله بعلمه إلا ان يطلعني عليه وقد أخبرتكم أن الساعة كائنة ولم يطلعني على وقتها ولكن ﴿ لكل أمةٍ أجل ﴾ أي لكل قرن مدة مقدرة من العمر فإذا انقضى أجلهم ﴿ فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء أجلها ﴾ الآية ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ﴾ أي ليلاً أو نهاراً ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون * أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون ﴾ يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا : ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ وكقوله تعالى جواباً لهم : ﴿ فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ... ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ﴾ أي يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتاً وتقريعاً ﴿ هل تجزون إلاّ بما كنتم تكسبون ﴾ أي إلاّ بما كسبت ايديكم من اعمال ...



وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ❋ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ❋ (٥٤)

يقول تعالى : ﴿ ويستنبئونك أحقٌّ هو ﴾ أي يطلبون اخبارك عن المعاد والقيامة أحق

... ؟ ﴿ قل اي وربي انه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ أي اعادتكم بعد الموت ليس معجزاً لله فكما بدأكم يعيدكم ، وذلك كقوله في سورة سبأ : ﴿ ... قل بلى وربي لتأتينّكم ﴾ أي الساعة وكقوله تعالى في سورة التغابن : ﴿ قل بلى وربي لتبعثن ﴾ ثم اخبر تعالى ان الكافر يود يوم القيامة لو يفتدي نفسه من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿ واسرّوا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط ﴾ أي بالحق ﴿ وهم لا يظلمون ﴾

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * (٥٦) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * (٥٨) ﴾

يخبر تعالى انه مالك السموات والارض ، ووعده الحق ، وانه يحي ويميت وإليه المعاد ، وانه القادر على ذلك ، العليم بما تفرق من الأجسام ، وتمزق في سائر اقطار الأرض بحراً وبراً ثم يمتن على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ﴾ أي زاجر عن الفواحش ﴿ وشفاء لما في الصدور ﴾ أي من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس الشرك ودنس الكفر ، ﴿ وهدى ورحمة أي يحصل به الهداية والرحمة منه تعالى ، وانما ذلك للمؤمنين به الموقنين بما فيه ، كقوله تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا . وقوله تعالى : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ فإنه أولى ما يفرحون به : ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ أي من حطام الدنيا الفانية الذاهبة .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ * (٥٩) وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ * (٦٠) ﴾

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم : نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحللون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل [1] كقوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ روى وقال الإمام أحمد عن مالك بن نضلة قال : ٥٦٢ [أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال : « هل لك مال ؟ » قلت نعم . قال : «من أي المال؟» قال : قلت : من كل المال من الإبل والرقيق والخيل والغنم ، فقال : « إذا آتاك الله مالاً فليُرَ عليك » وقال : « هل تنتج إبلك صحاحاً آذانها فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول هذه بحر وتشق جلودها وتقول هذه صرم وتحرمها عليك وعلى أهلك » قال : نعم قال : فإن ما آتاك الله لك حل ، ساعد الله أشد من ساعدك ، وموسى الله أحد من موساك »] وذكر تمام الحديث ، ثم رواه عن سفيان ابن عينية نحوه بسند قوي جيد .

وقد أنكر تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم الله بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها . ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال عز وجل : ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾ أي ما ظنهم أن يُصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ ان الله لذو فضل على الناس ﴾ أي ذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم . ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ أي إنهم يحرمون ما أنعم الله به عليهم ، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً . وهذا قد يقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ❁ (٦١) ﴾

(١) قلت : البحيرة هي التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها الناس ، والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل إن وصلت احداهما بالاخرى ليس بينهما ذكر.

يخبر تعالى نبيه ﷺ انه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كلّ آن وأنه لا يغيب عن علمه وبصره مثقال ذرة في السموات والأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين ، كقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ فأخبر تعالى أنه يعلم حركة كل شيء فإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة ، كما قال تعالى : ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾ أي إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان : **٥٦٣** [ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك] .[1]

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ (٦٢) ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ (٦٣) لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ (٦٤) ﴾

يخبر تعالى أن أولياءه الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم بهم ، فكل من كان تقياً كان لله ولياً ﴿ لا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما وراءهم في الدنيا ، وعن البزار عن ابن عباس قال : **٥٦٤** [قال رجل يا رسول الله مَنْ أولياء الله ؟ قال الذين اذا رُؤوا ذُكر الله] روى ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **٥٦٥** [إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء » قيل من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم ؟ قال : « هم قوم تحابوا في الله من غير أموال : ولا أنساب ، وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس » ثم قرأ : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ثم رواه أيضاً ابو داود عن عمر بن الخطاب وهذا أيضاً إسناد جيد . روى الامام أحمد عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ فقال :

(١) ولكن ياللأسف إن بعض الفرق (المعرّفة) يعطون هذه المرتبة (مرتبة الإحسان) التي هي لله وحده يعطونها لشيخ طريقتهم باسم (الرابطة الشريفة) وهي : أن يتصور المريد شيخه الغائب أو الميت كأنه واقف أمامه يفيض عليه من علومه ومعارفه (اللدنية ... ؟!) . إن رسول الله يقول إن هذه المرتبة هي لله وحده لاشريك له ، وهم – هداهم الله – يجعلونها لشيوخهم ، (ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً) .

٥٦٦ [يا رسول الله : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ فقال لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي – أو قال أحد قبلك – تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له »] روى الإمام أحمد عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أنه قال : ٥٦٧ [يا رسول الله : الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به فقال رسول الله ﷺ « تلك عاجل بشرى المؤمن »] رواه مسلم وقال ابن جرير عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : ٥٦٨ [الرؤيا الحسنة هي البشرى يراها المسلم أو ترى له] روى ابن جرير عن ام كريز الكعبية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥٦٩ [ذهبت النبوة وبقيت المبشرات] وهكذا روي عن ابن عباس وابن مسعود وابي هريرة ومجاهد وعروة وغيرهم أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة .

وقيل المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى : ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكـــة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نز لاً من غفور رحيم ﴾ .

وفي حديث البراء رضي الله عنه : ٥٧٠ [إن المؤمن اذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا أخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء] وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقر مثبت كائن لا محالة :﴿ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلعَلِيمُ ﴾ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنَ دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿ (٦٦) هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿ (٦٧)

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ ولا يحزنك ﴾ قول المشركين واستعن بالله عليهم ، وتوكل عليه ﴿ ان العزة لله جميعاً ﴾ أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ﴿ هو السميع العليم ﴾ السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم ، ثم أخبر تعالى ان لله ملك السموات والأرض وان المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئاً لا ضراً ولا نفعاً. ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم . ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه ، أي يستريحون فيه من نصبهم وحركاتهم ﴿ والنهار مبصراً ﴾ أي مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها .

﴿ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ (٦٨) قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ (٦٩) مَتَاعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝ (٧٠) ﴾

ينكر تعالى على من ادعى أن له ﴿ ولداً سبحانه هو الغني ﴾ أي تنزه عن ان يكون له ولد بل هو الغني عن كل ما سواه ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك وعبد له ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ إنكار ووعيد وتهديد ، كقوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّا تكاد السموات يتفطرّن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من في السموات والأرض إلاّ آت الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً . ﴾ ثم توعد تعالى الكاذبين عليه ممن زعم ان له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا والآخرة ، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متّعهم قليلاً ﴿ ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ كما قال تعالى ها هنا : ﴿ متاع في الدنيا ﴾ أي مدة قريبة ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد ﴾ أي الموجع المؤلم ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ أي بسبب كفرهم

وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادّعوه من الإفك والزور .



﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ ٱللهِ فَعَلَى ٱللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ❁ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ❁ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ ❁ (٧٣) ﴾

﴿ واتل عليهم ﴾ أقصص على قومك يا محمد ﴿ نبأ نوح ﴾ أي خبره وقومه الذين كذبوه . كما كذبك قومك كيف أهلكهم بالغرق عن آخرهم ليحذر هؤلاء ما أصاب أولئك ﴿ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي ﴾ أي عظم عليكم مقامي فيكم ﴿ وتذكيري ﴾ اياكم ﴿ بآيات الله ﴾ أي بحججه ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ أي لا أبالي سواء عظم عليكم مقامي أو لا ﴿ فاجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ فهيئوا أنفسكم واستعدوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ أي ملتبساً غير واضح . بل بيّنوا حالكم معي فإن زعمتم انكم محقون فلا تؤخروني ساعةً واحدة ومهما قدرتم فافعلوا فإني لا أخافكم لأنكم لستم على شيء وبريء مما تشركون . وقوله تعالى : ﴿ فإن توليتم ﴾ إن أدبرتم عن الطاعة ﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ أي لم أطلب منكم على نصحي أجراً ﴿ ان أجري إلاّ على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي وأنا ممتثل أوامر الاسلام الذي هو دين الأنبياء جميعاً وان تنوعت شرائعهم كما قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ وقد قال الله تعالى عن الأنبياء جميعاً في القرآن انهم من المسلمين . وقال سبحانه وتعالى عن خاتمهم وسيدهم ﷺ : ﴿ ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ وقال في الحديث الثابت عنه ﷺ : ٥٧١ [نحن معاشر الأنبياء أولاد علاّت وديننا واحد]

أي وهو عبادة الله وحده لا شريك له وان تنوعت شرائعنا وذلك معنى قوله أولاد علات : وهم الأخوة من أمهات شتى والأب واحد . وقوله تعالى : ﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه ﴾ اي على دينه ﴿ في الفلك ﴾ وهي السفينة ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ أي في الأرض ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أي كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿ ٧٤ ﴾

يقول تعالى : ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى أقوامهم فجاؤوهم بالآيات ، المبينات بالحجج والأدلة على حد قولهم ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أي ما آمنوا برسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول مرة ، كقوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء بسبب تكذيبهم المتقدم كذلك يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . وهذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتمهم فانه اذا كان قد أصاب من كذّب بأولئك الرسل ما ذكره الله تعالى من النكال فما ظن هؤلاء العرب وقد ارتكبوا أكبر من أولئك .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴿ ٧٥ ﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿ ٧٦ ﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُونَ ﴿ ٧٧ ﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَاءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿ ٧٨ ﴾

يقول تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ أي من بعد الرسل ﴿ موسى وهارون إلى فرعون وملئه ﴾ أي قومه ﴿ بآياتنا ﴾ أي حُجَجِنَا وبراهيننا ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ باستكبارهم عن اتباع الحق ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنّ هذا لسحر مبين ﴾ كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أنهم يكذبون كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ الآية ... ﴿ قال موسى ﴾ منكراً عليهم ﴿ أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون * قالوا أجئتنا لتلفتنا ﴾ أي تثنينا ﴿ عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي الدين الذي كانوا عليه ﴿ وتكون لكما ﴾ أي لك ولهارون ﴿ الكبرياء ﴾ أي العظمة والرياسة ﴿ في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ .

وقد كرر الله سبحانه قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز لأنها من أعجب القصص فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر ، فسخّره القدر وساقه إلى هذا الذي يحذر منه إلى فراشه ومائدته حتّى صار عنده بمنزلة الولد ثم ترعرع . وعقد الله له سبباً فأخرجه من بين أظهرهم ، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم ، وبعثه اليه ليدعوه إلى الله تعالى وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام فتمرد واستكبر فرعون وتولّى بركنه وادعى الربوبية ، وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء ، ومرة بعد مرة ، مما يبهر العقول ويدهش الألباب ، مما لا يقوم ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله . وصمم فرعون وملأه – قبّحهم الله – على التكذيب والجحد حتّى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ، ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ * (٨١) وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ * (٨٢) ﴾

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف [١] ، وقد تقدم الكلام عليها هناك وفي هذه السورة وسورة طه [٢] وفي الشعراء [٣] وذلك أن فرعون لعنه الله . أراد ان يبهرج على الناس معارضاً ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين . بزخارف السحرة المشعبذين فلم يحصل له ذلك المرام وظهرت البراهين الإلهية جهاراً ﴿ والقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾ فخاب استنصار فرعون بالسحّار ونصر الله رسوله الذي استنصر به ، وخذل عدوّه فرعون الذي استوجب من الله النار وقوله تعالى : ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفّوا وقد وعدهم فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل . أراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا ثم يأتي بالحق بعده فيرفع باطلهم . ﴿ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ .

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ۞ (٨٣) ﴾

يخبر تعالى انه لم يؤمن بموسى عليه الصلاة والسلام برغم ما جاء به من المعجزات الباهرات ، إلا قليل من قوم فرعون من الذرّية ، وهم الشباب على وجلٍ وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى الكفر ، لسطوة فرعون وإسرافه في تمرده . قال العوفي عن إبن عباس في قوله تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ﴾ قال فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني اسرائيل من قوم فرعون يسير منهم : امرأة فرعون ، وخازن فرعون ، وامرأة خازنه .

وقد أبعد من قال ان المقصود بالذرية هم بنو اسرائيل ، فالمعروف ان بني اسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به . والذرية معناها القليل قاله ابن عباس والضحاك وقتادة ، ومما يدل على ان بني اسرائيل كانوا كلهم مؤمنين قوله تعالى :

١) الآية /١١٦/ الأعراف (٢) الآية ٧١ و ٧٣ / (٣) الآية /٤٩/ الشعراء .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ۞ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ ۞ (٨٦) ﴾

يخبر تعالى عن موسى انه قال لبني اسرائيل : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين ﴾ أي فإن الله كافٍ من توكل عليه ، كقوله تعالى : ﴿ رب المشرق والمغرب لا آله إلاّ هو فاتخذه وكيلا ﴾ وقد امتثل بنو اسرائيل ذلك فقالوا : ﴿ على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ أي لا تظفرهم بنا ، وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم انما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك . وقال مجاهد : يعني لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وقوله تعالى : ﴿ ونجنا برحمتك ﴾ أي خلّصْنا برحمةٍ منك وإحسان ﴿ من القوم الكافرين ﴾ ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك . .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٨٧) ﴾

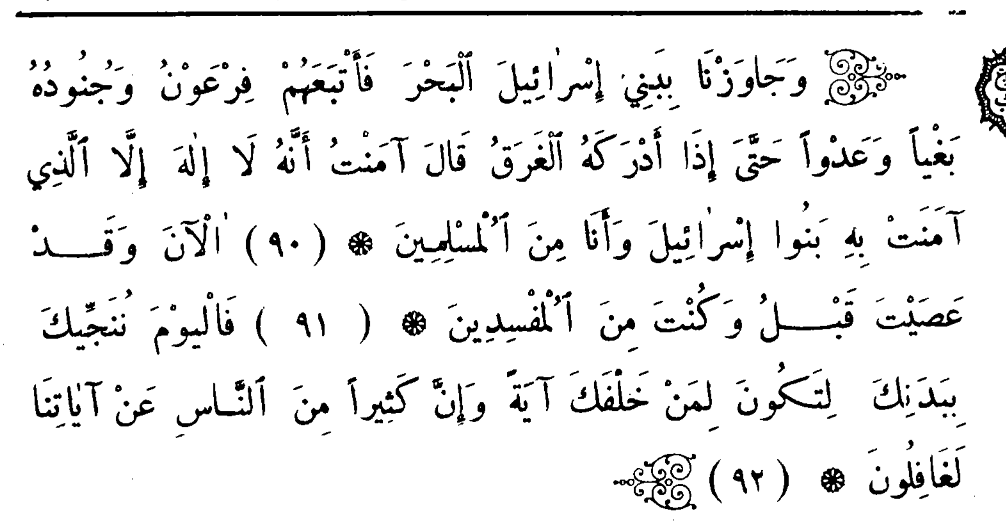
يذكر تعالى سبب انجائه بني اسرائيل من فرعون وقومه ، وكيفية خلاصهم منهم وذلك ان الله تعالى أمر موسى واخاه هارون عليهما الصلاة والسلام أن يتبؤآ أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ واقرب ذلك صواباً قولُ من قال : كانوا خائفين فأمروا ان يُصلّوا في بيوتهم. قاله : ابن عباس ومجاهد وابو مالك والربيع بن أنس والضحاك وغيرهم ، وكأن هذا – والله أعلم – لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيّقوا عليهم، أُمروا بكثرة الصلاة . كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ وفي الحديث : **٥٧٢** [كان رسول الله ﷺ اذا حزبه أمر صلّى] أخرجه ابو داود ولهذا قال تعالى : ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلةً وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ﴾ أي بالثواب، والنصر القريب .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ (٨٩) ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه ، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم ، معاندين جاحدين ظلماً وعلواً وتكبّراً . قال موسى : ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً ﴾ أي من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿ وأموالاً ﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿ في ﴾ هذه ﴿ الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ أي ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ليظن من أغريته، أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم، واعتنائك بهم. ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ أي أهلكها . وقوله تعالى : ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ اي اطبع عليها ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله تعالى ولدينه ، على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء ، كما دعا نوح عليه السلام فقال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ۝ إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمّن عليها أخوه هارون فقال تعالى : ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ قال ابو العالية ، وأبو صالح ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظي ، والربيع بن أنس : دعا موسى ، وأمّن هارون ؛ أي قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون . وقد يحتج بهذه الآية من يقول أن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزّلُ منزلة قراءتها لأن موسى دعَا وهارون أمّن [1] وقوله تعالى : ﴿ فاستقيما ﴾ أي كما أجبت دعوتكما فاستقيما على أمري .

---

(١) قلت : وهذا احتجاج قوي لأن موسى هو الذي دعا وحده فقوله تعالى : قد أجيبت دعوتكما » فكأن كليهما دعوا إذ أن موسى كان يدعو وهارون كان يؤمن . فتبين أن التأمين بمثابة الدعاء ، وكذلك فإن التأمين بعد الفاتحة بمثابة قراءتها أيضاً ، راجع تفسير الفاتحة في المجلد الأول .


وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ❁ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ❁ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ❁ (٩٢)

يذكر تعالى كيفية إغراق فرعون وجنودَهُ . فإن بني اسرائيل لما خرجوا من مصر صحبةَ موسى عليه السلام، وهم فيما قيل ستمائة الف مقاتل سوى الذرية. فركب وراءهم فرعون في أبهة عظيمة وجيوش هائلة ولم يتخلف عنه أحد في سائر مملكته ممن له دولة وسلطان فلحقوهم وقت شروق الشمس وبلغت قلوب بني اسرائيل لدى الحناجر من الخوف والذعر فعندما ضاق الأمر اتسع فأمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم وصار اثني عشر طريقاً ، لكل سبط واحد ، وأمر الله الريح فنشّفت أرضه ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾ وجاوزت بنو اسرائيل البحر فلما خرج آخرهم منه ، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى فلما رآى ذلك هاله ، فهاب وهمّ بالرجوع . وهيهات ولات حين مناص ، نفذ القدر وأستجيبت الدعوة ... ويروى أنه جاء جبريل عليه الصلاة والسلام على فرس وديق [1] حائل [2] فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان وراءه ، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً فتجلّد لأمرائه ، وقال لهم : ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا ، فاقتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل في ساقتهم [3] لا يترك منهم واحداً إلاّ ألحقه بهم فلما تكاملوا في البحر وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم ، فلم ينج منهم أحد وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم وتتراكم فوق فرعون وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وجاوزنا بني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً

---

(١) الفرس الوديق : وهي التي تريد الفحل . (٢) الحائل : غير الحامل . (٣) ساقة الجيش : مؤخرته

وعدوا حتى إذا ادركه الغرق ﴾ وغشيته سكرات الموت ﴿ قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان وذلك كقوله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال : ﴿آلآن وقد عصيت قبل ﴾ أي أهذا الوقت تقول : ﴿آمنت ... ﴾ وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿وكنت من المفسدين ﴾ في الارض الذين أضلوا الناس ﴿وجعلناهم أئمةً يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴿ واتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً ... (١) ﴾

وهذا الذي حكي الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم اللهُ بها رسولَه .

وقوله تعالى : ﴿ فاليومَ ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ... ﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف ان بعض بني اسرائيل شكُّوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه وقوله تعالى : ﴿ وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ اي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها . وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما روى البخاري عن ابن عباس قال :٥٧٣ [قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : « ما هذا اليوم الذي تصومونه » فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبي ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموه »] .

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿ (٩٣) ﴾

(١) ومع هذا ... لا يزال (بعض المتصوفة) يشفقون على فرعون ويقولون بإيمانه ... ! ! ! فما قولهم إذا دعونا الله أن يحشرهم مع فرعون حيثما كان ... ؟

(٢) حال البحر : أي طينه الأسود .

يخبر تعالى عما أنعم به على بني اسرائيل من النعم الدينية والدنيوية وقوله تعالى : ﴿ مبو أصدق ﴾ قيل هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها كما قال تعالى عن قوم فرعون : ﴿ فأخرجناهم من جناتٍ وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني اسرائيل ﴾ ولكن استمروا معَ موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس وكان فيه العمالقة فنكل بنو اسرائيل عن قتالهم فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر ، ثم عادت إليهم ثم أخذها ملوك اليونان فحكموا مدة طويلة وبعث الله عيسى عليه السلام في عهدهم ، فاستعان اليهود لعنهم الله على معاداته بملوك اليونان ، ووشوا عليه عندهم [1] بأنه يفسد عليهم الرعايا فقبضوا على من القى الله عليه شبه عيسى فصلبوه معتقدين أنه هو ﴿ وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ ثم بعد المسيح وثلثمائة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية حيلةً ليفسده وكان فيلسوفاً ، فوضعت له الأساقفة قوانين وشريعة ابتدعوها فبنى لهم الكنائس والمعابد واشتهر دين النصرانية بما فيه من تبديل وتحريف ومخالفة لدين المسيح ولم يبق على دينه إلا القليل من الرهبان فرّوا بدينهم إلى الصوامع في البراري والقفار واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم ولم تزل يدهم على هذه البلاد إلى ان انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولله الحمد والمنة . وقوله تعالى : ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ اي الرزق الحلال ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ اي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم [2] وكيف يختلفون وقد أزال الله عنهم اللبس والغموض بما أنزل عليهم من علم التوراة ، وقد افترق اليهود كما بيّن رسول الله ﷺ في حديثه الصحيح على إحدى وسبعين فرقة ...

﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يفصل بينهم ﴿ يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

---

(١) ولكن أوجدوا في هذا العصر (من يبرئهم) من مسؤوليتهم ...!!!؟

(٢) العلم يعني التوراة فكان اليهود قبلها لا يعرفون أحكامها فلا ينفذونها ومن بعد أن نزلت التوراة وبين الله حكمه فيها ، فمنهم من نفذه ومنهم من امتنع عن ذلك وبقي على جاهليته ، فاختلفوا بينهم فذلك قوله تعالى : « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم » والله تعالى أعلم .

﴿ فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۞ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ۞ (٩٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۞ (٩٧) ﴾

قال قتادة بن دعامة بلغنا ان رسول الله ﷺ قال : ٥٧٤ [لا أشك ولا أسأل] وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري وهذا فيه تثبيت للأمة ، واعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب . كما قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ الآية ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبّسون ذلك ويُحرّفون ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أي لا يؤمنون ايماناً ينفعهم ، بل حين لا ينفع نفس ايمانها أي حين يكشف الغطاء فيرون الغيبَ الذي كانوا يكفرون به شهادة ويرون العذاب الأليم هناك لا ينفع الايمانُ صاحبَه إذا لم يكن آمن من قبل ثم قال تعالى :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۞ (٩٨) ﴾

يقول تعالى فهلاّ كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا اليهم الرسل بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلاّ كذبه قومه أو اكثرهم . كقوله تعالى : ﴿ يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزئون ﴾ وفي الحديث

الصحيح : ٥٧٥ _ [عرض علي الأنبياء فجعل النبي يمرّ ومعه الفئام (١) من الناس والنبي يمرّ معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد] ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرةً سدّت الخافقين الشرقي والغربي والغرض : أنه لم توجد قرية آمنت **أجمعين** بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم الا تخوفاً من وصول العذاب الذي انذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم ، فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا واحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى ان يرفع عنهم العذاب الذي انذرهم به نبيهم فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخِّروا كما قال تعالى : ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين واظهرهما أنه فيهما لقوله تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ فأطلق عليهم الإيمان والإيمان منقذ من العذاب الأخروي والله أعلم وتمام القصة سيأتي مفصلاً في سورة الصافات ان شاء الله تعالى (عند الآية / ١٤٨ /)

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ❁ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ❁ (١٠٠) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولو شاء ربك ﴾ يا محمد لأذنَ لأهلِ الأرض كلّهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله سبحانه ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم (٢) وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ أي تلزمهم وتلجئهم ﴿ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ أي ليس ذلك عليك ولا

---

(١) الفئام : الجماعة من الناس .

(٢) قلت : أي ما خلقهم الا ليكونوا غير مختلفين فيما أمر سبحانه ونهى ، والذين هم متفقون جميعاً ، فيما أنزل الله من الأوامر والنواهي في العقائد والعبادات والمعاملات هم المرحومون منه تعالى برحمته ومن أجل هذه النتيجة خلقهم .

إليك بل الله ﴿ يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد الهادي من يشاء ، المضل لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى : ﴿ ما كان لنفس ان تؤمن إلا بإذن[1] الله ويجعل الرجس ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ أي حجج الله وأدلته ، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل .

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ ۞ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (١٠٣) ﴾

يرشد تعالى عباده إلى التفكر في خلق السموات والأرض ، مما في السموات من نجوم وشمس وقمر ، واختلاف الليل والنهار وإيلاج أحدهما في الآخر ، وارتفاع السماء واتساعها وزينتها ونزول المطر منها بإذنه تعالى واحياء الأرض به بعد موتها . وأخرج فيها الثمار والزرع والأزاهير وما ذرأ من دواب وما في البحر من عجائب وما يحمل من السفن برفق بتسخير القدير لا اله الا هو . وقوله تعالى : ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ أي وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية وما يأتي به الرسل من المعجزات والحجج الدالة على صدقهم ، عن قوم لا يؤمنون . وقوله تعالى : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء

(١) قلت : لا شك ولا ريب أنه لا يحدث شيء في الأرض ولا في السماء وما بينهما إلا بمشيئه وإذنه تعالى ؛ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . ولما كان الإيمان هو رأس الأعمال التكليفية فهو عمل اختياري كباقي الأعمال التكليفية ، ذلك ليستحق فاعله الجنة ، ويستحق تاركه النار . وإن كل مكلف لا شك أنه عرض عليه الإيمان والكفر ، فمن اختار الإيمان عن قناعة مستندة إلى العقل والعلم والفهم ، كان جزاؤه من الله تعالى ان يشاء ويأذن لنفسه أن يستقر في أعماقها الإيمان ، ومن أهمل عقله فلم يلتفت للحجج والأدلة الإلهية ورضي أن يخرج بنتيجة خاسرة ، بأن اختار الكفر على الإيمان ، كان جزاءه من الله تعالى أن يجعل الرجس عليه لأنه لم يستعمل عقله ، فكأنه مخلوق بلا عقل ولذلك وصف الله هؤلاء الصنف بأنهم : « لا يعقلون » فالهداية والإضلال لن يكونا إلا بعد اختيار العبد طريق الكفر أو الإيمان ، فيضله الله أو يهديه جزاء وفاقاً على ما كان من العمل ولا يظلم ربك أحداً لا إله غيره ولا رب سواه .

المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم ﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين ﴾ وهذا حق أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة كقوله عز وجل : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ وكما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ انه قال :٥٧٦ [إن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش ان رحمتي سبقت غضبي] (١)

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ (١٠٧) ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ قل يا أيها الناس ان كنتم في شك من هذا الدين الذي جئتكم به من الله عز وجل فإني لا اعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن اعبد الله وحده لا شريك له وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم واني لا أعبد ما تعبدون من دون الله فادعوها فلتضرني فانها لا تضر ولا تنفع وأمرت أن أكون من المؤمنين ، وقوله تعالى : ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ الآية أي أخلص العبادة له سبحانه وحده حنيفاً أي منحرفاً عن الشرك ﴿ ولا تكونَنَّ من المشركين ﴾ وهو معطوف على قوله تعالى : ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضرٍ ﴾ في بيان أن النفع والضر إنما هو راجع إليه تعالى وحده فهو يستحق العبادة وحده لا شريك له . روى الحافظ ابن عساكر عن

---

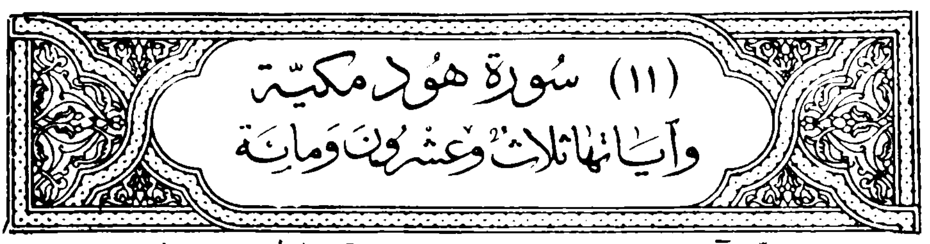
(١) قلت : ولكنه سبحانه وتعالى حرم الكافرين منها يوم القيامة وكتبها للذين آمنوا واتقوا وآتوا الزكاة « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » الأعراف/١٥٦/

أنس بن مالك ان رسول الله ﷺ قال : ٥٧٧ [اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده واسألوه ان يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم] وقوله تعالى : ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ أي لمن تاب حتّى من الشرك به ، فإنّه يتوب عليه .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۞ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۞ (١٠٩) ﴾

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يخبر الناس أن ما جاءهم به من الله هو الحق لا شك فيه فالمهتدي انما ينفع نفسه ومن ضل فراجع ذلك عليه ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ اي ما أنا موكل على هدايتكم إنما أنا نذير لكم والهداية من الله تعالى . وقوله عز وجل : ﴿ واتبع ما يوحي إليك واصبر ﴾ أي تمسّك بما أوحاه اليك ربك واصبر على مخالفيك ﴿ حتّى يحكم الله ﴾ بينك وبينهم ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ بعدله وحكمته سبحانه وتعالى لا رب غيره

آخر اختصار تفسير سورة يونس وسيليها اختصار تفسير سورة هود والله الموفق أولاً وآخراً



إلاّ الآيات : ١٢ و ١٧ و ١١٤ فمدنيّة. نزلت بعد يونس

روى الحافظ ابو يعلي عن أبي بكر قال : ٥٧٨ [سألت رسول الله ﷺ ما شيّبك ؟ قال « شيبتني هود والواقعة وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت »] .

روى الترمذي عن أبي بكر قال :٥٧٩ [يا رسول الله قد شبت فقال : « شيبتني هود ، والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت »] وفي رواية « هود واخواتها » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۞ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۞ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۞ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (٤)

﴿ آلر ﴾ تقدم في أول سورة البقرة الكلام على الأحرف المقطعة في أوائل السور وبالله التوفيق. وأما قوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ﴾ أي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها ، فإن هذا الكتاب كامل صورةً ومعنى . قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير وقوله تعالى : ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ أي الحكيم في أقواله وأفعاله ، الخبير بعواقب

الأمور وقوله تعالى : ﴿ ألاّ تعبدوا إلاّ الله ﴾ أي تفردونه بالعبادة. كقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنني لكم منه نذير وبشير ﴾ أي إني لكم نذير من العذاب ان خالفتموه ، وبشير بالثواب إن اطعتموه كما جاء في الصحيح : ٥٨٠ [ان رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب ، فاجتمعوا فقال : « يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم ألستم مصدقيّ فقالوا : ما جربنا عليك كذباً قال : فاني نذير لكم بين يديْ عذاب شديد »] وقوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ أي وآمركم بالاستغفار والتوبة وبالاستمرار على ذلك ﴿ يمتعكم متاعاً حسناً ﴾ في الدنيا ﴿ إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ أي في الدار الآخرة كقوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ وقد جاء في الصحيح : ٥٨١ [أن رسول الله ﷺ قال لسعد : « وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الاّ أجرت بها حتى ما تجعل فى امرأتك »] .

وقال ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ ويؤتِ كل ذي فضل فضله ﴾ . قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده على أعشاره . وقوله تعالى : ﴿ وان تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ هذا تهديد شديد لمن تولىّ مكذباً أوامر الله تعالى فالعذاب نائله لا محالة ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ أي معادكم يوم القيامة ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي وهو القادر على الإحسان إلى أوليائه والتنكيل بأعدائه ، وعلى بعث الخلائق يوم القيامة ، وهذا مقام الترهيب كما أن الأول مقام ترغيب .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٥)

قال ابن عباس : كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم فأنزل الله هذه الآية . روى البخاري عن ابن عباس قال · أناس كانوا يستحيون أن يتخلّوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيها .روى البخاري

وغيره عن ابن عباس ﴿ يستغشون ﴾ يغطون رؤوسهم . والمعنى : انهم كانوا يثنون صدورهم إنْ قالوا شيئاً أو عملوه فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك فأخبرهم سبحانه أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿ يعلم ما يسرّون ﴾ من القول والعمل ﴿ وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي يعلم ما تكنُّ صدورهم من النيات والضمائر والسرائر ، وما أحسن ما قال زهير بن أبي سُلمى في معلقته المشهورة :

فلا تكتُمُنَّ الله ما في قلوبكم ... لتخفى ، ومهما يُكتَم الله يُعلم
يؤخرْ فيوضعْ في كتاب فيدخر ... ليوم حساب ، أو يعجّل فينقم

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة .

جزء ١٢

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۞ (٦) ﴾

اخبر تعالى انه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض جميعها براً وبحراً وجواً ويعلم سبحانه أين تأوي واين تموت وان جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك . كقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين ﴾ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۞ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء وانه خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك. وجاء في الصحيحين عن النبي ﷺ بألفاظ كثيرة فمنها : ٥٨٢ [... قالوا جئناك نسألك عن أول هذا الأمر [١] فقال : « كان الله ولم يكن شيء قبله » – وفي رواية – « غيره » – وفي رواية « معه » وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض »] وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٨٣ [ان الله قدر مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء] وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض وقال ابن عباس: إنما سمّي العرش عرشاً لارتفاعه. وقال محمد بن اسحق في قوله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾ فكان كما وصف نفسه تعالى إذ ليس الا الماء وعليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والإكرام والعزة والسلطان والملك والقدرة ، والحلم والعلم والرحمة والنعمة الفعال لما يريد .

وقوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أي ليختبركم ولم يقل أكثركم عملاً بل أحسن عملاً ولا يكون العمل حسناً حتى يكون – أولاً – خالصاً لله عز وجل – ثانياً – على شريعة رسول الله ﷺ فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط العمل . وقوله تعالى : ﴿ ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ﴾ الآية ... يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين ان الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض كما قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ الله ﴾ وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقول الله حكاية عنهم : ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي يقولون كفراً وعناداً وما نصدقك على وقوع البعث وما يذكر ذلك إلاّ مَنْ سَحَرْتَهُ فهو يتبعك على ما تقول . وقوله تعالى : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ الآية ... يقول تعالى ولئن أخّرنا العذاب والمؤآخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ﴿ ليقولن ﴾ تكذيباً واستعجالاً ﴿ ما يحبسه ﴾ أي يؤخر هذا العذاب عنا ، فإن سجاياهم قد ألفت

(١) السائلون هم جماعة من أهل اليمن .

التكذيب فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد. والأمّة، تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة فيراد بها الأمد كقوله تعالى في هذه الآية: ﴿إلى أمة معدودة﴾ وتستعمل بمعنى الامام المقتدى به ﴿إن ابراهيم كان أمةً﴾ وتستعمل في معنى الملة والدين كقوله تعالى إخباراً عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة ...﴾ وتستعمل في معنى الجماعة ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس﴾ وقوله تعالى: ﴿ولكل امة رسول ...﴾ والمراد من الأمة ها هنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما في صحيح مسلم: ٥٨٤ [والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني لا يؤمن بي إلا دخل النار] أما أمة الاتّباع فهم المصدقون للرسل كما قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ وفي الصحيح: ٥٨٥ [فأقول أمتي أمتي ..] وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة كقوله تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يخبر تعالى عن صفات الإنسان الذميمة - إلاّ من رحم الله من عباده المؤمنين أنه اذا أصابته شدة بعد نعمة قنط من الخير بالنسبة إلى المستَقبل، وجحد ماضي النعمة كأنه لم يرَ خيراً، وهكذا ان أصابته نعمة بعد نقمة ﴿ليقولَنّ ذهب السيئات عني﴾ أي لا أضام أبداً ﴿إنه لفرح فخور﴾ أي بطر فخور على غيره. وقوله تعالى: ﴿إلا الذين صبروا﴾ على الشدائد ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي في الرخاء والعافية ﴿أولئك لهم مغفرة﴾ أي بسبب ما يصيبهم من الضراء ﴿وأجر كبير﴾ بسبب ما أسلفوه في زمن الرخاء وذلك كقوله تعالى: ﴿والعصر * ان الانسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۞ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۞ (١٤) ﴾

يسلّي تعالى رسوله ﷺ عما كان يتعنَّت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى : ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ۞ أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ فأمر الله تعالى رسوله ﷺ وأرشده ان لا يضيق بذلك ولا يثنيه عن الدعوة اليه تعالى أبداً ، فخاطبه : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا ... ﴾ أي لقولهم ذلك فإنما أنت نذير ولك اسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم كُذّبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل ، ثم بين تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات،وذاته لا يشبهها شيء تعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه ثم قال تعالى : ﴿ فان لم يستجيبوا لكم ﴾ بمعارضة ما دعوتموهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك وان هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه وامره ونهيه ﴿ وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞(١٦) ﴾

قال مجاهد نزلت هذه الآية في أهل الرياء وقال قتادة مفسراً لها : من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها جزاء وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة كقوله تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ﴾ .

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * (١٧) ﴾

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى من الاعتراف له بانه لا لا إله إلا هو كما قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ فالمؤمن باقٍ على الفطرة هذه ، ما غيّرها ولا بدّلها . ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنــه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٨٦ [كـل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء] ؟ وقوله تعالى ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه** ﴾ **أي وجاءه شاهد من الله** من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وقوله تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى أي التوراة كذلك يشهد برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فإن هذه التوراة من آمن بها حقا قاده هذا الإيمان إلى الإيمان بالقرآن فالتوراة ولا شك كما قال الله تعالى : ﴿ إماماً ورحمة ﴾ أي أنز له الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم وقدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ أي بكتاب موسى الذي فيه البشرى برسالة محمد ﷺ . ثم قال الله تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ . أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم واشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وقال تعالى ها هنا :

﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ . في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلاّ دخل النار) وقوله تعالى : ﴿ فلا تَكُ في مرية منه إنه الحق من ربك ﴾ أي القرآن حق من الله لا مرية فيه . وقوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وان تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ (١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۞ (١٩) أُوْلَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ۞ (٢٠) أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۞ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۞ (٢٢) ﴾

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان كما روى الامام أحمد عن صفوان بن محرز قال (كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة قال سمعته يقول: ٥٨٧ «إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم ثم يعطي كتاب حسناته وأما الكفار والمنافقون فيقول ﴿ ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله على الظالمين ﴾

الآية أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث قتادة به وقوله تعالى : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ﴾ أي يردُّون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله تعالى ويجنبونهم الجنة ، ويسلكونهم طريقاً غير معتدلة ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أي مكذبون بوقوعها ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ بل هم تحت قهره وسلطانه قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿ ولكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ وفي الصحيحين : ٥٨٨ [إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته] ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ الآية كقوله تعالى : ﴿ زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ فيعذَّبون على كل أمر تركوه أو نهي ارتكبوه ولهذا كان أصحَّ الأقوال أنهم مكلّفون بفروع الشرائع وقوله تعالى : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ أي لم يستفيدوا مما جعل الله لهم من السمع والبصر فكانوا صُمّاً عن سماع الحق ، عمياً عن اتباعه كقوله تعالى : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا ناراً حامية لا يفتر عنهم العذاب طرفة عين وتبرّأ منهم ما كانوا يعبدون من دون الله من الأصنام والأوثان فلم تنفعهم شيئاً بل ضرتهم كل الضرر . ولهذا قال تعالى : ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ أي لا شك ان من يستبدل الخير بالشر ، والإيمان بالكفر ، والجنة بالنار ، وقرب الرحمن ورؤية الديّان بعقوبته وغضبه ، فهو الأخسر مآلاً يوم القيامة .



﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ● (٢٣) مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ● (٢٤) ﴾

بعد أن ذكر تعالى حال الأشقياء ثنّى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتركوا المنكرات وبهذا ورثوا الجنات ذات الغرف العاليات وجميع ما فيها من النعيم المقيم والنظر إلى خالق الأرض والسموات ، ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال تعالى : ﴿ مثل الفريقين ﴾ أي مثل الأشقياء كالأعمى والأصم ، والسعداء

كالبصير والسميع فالكافر أعمى عن وجه الحق ، أصم عن سماعه فلا ينتفع به . وأما المؤمن ففطن ذكي بصير بالحق سميع للحجة فلا يروّج عليه الباطل ... فهل يستوي هذا وهذا ؟ ﴿ أفلا تذكرّون ﴾ أي أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء كما قال تعالى : ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿(٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿ (٢٦) فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿ (٢٧) ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام إنه قال لقومه ﴿ إني لكم نذير مبين ﴾ أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غيره ولهذا قال سبحانه حكاية عن نوح : ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ وقوله : ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ إن استمررتم على كفركم ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ والملأ هم السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿ ما نراك إلاّ بشراً مثلنا ﴾ كأنهم يظنون أنه لا ينبغي أن يكون الرسول بشراً ، فكيف أوحي اليك من دوننا ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ أي الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ، ثم ان الذين اتبعوك كان ذلك منهم بلا فكر ولا نظر ، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ أيْ أيّ فضيلة في خَلْق ولا خُلُق ولا رزق ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الآخرة.وكلامهم هذا دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ، فإنه ليس عاراً على الحق رذالة من اتبعه ، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل فإن الذين يتبعون الحق هم الأشراف حقيقة ولو كانوا فقراء والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء ثم الواقع غالباً ان ضعفاء الناس هم أتباع الحق ، والكبراء والأشراف هم مخالفوه كما قال تعالى : ﴿ وكذلك

ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ وقولهم ﴿ بادي الرأي ﴾ ليس بمذمة ولا عيب لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال بل لا بد من اتّباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء ، بل لا يفكر ها هنا إلاّ غبيٌّ أو عييٌّ ، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : ٥٨٩ [ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلاّ كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم] أي ما تردد ولا تروّى لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً فبادر إليه . وقوله تعالى : ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ لأنهم لا يرون هذا الفضل لعماهم عن الحق بل هم في ريبهم يترددون في ظلمات الجهل وهم الأفاكون الكاذبون لا أهل الحق ، وهم الأخسرون لا أهل الصدق .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ۞ (٢٨) ﴾

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۞ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ (٣٠) ﴾

يخبر تعالى عمّا ردَّ به نوحُ على قومه في ذلك : ﴿ أرأيتم إن كنت على بينةٍ من ربي ﴾ أي على يقين وأمر جليّ ونبوة صادقة من الله ﴿ فعميتْ عليكم ﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها بل بادرتم إلى تكذيبها ﴿ أنلزمكموها ﴾ أي نغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً ﴾ أي أجرة آخذها منكم إنما ابتغي الأجر عند الله عز وجل ، وكأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه حتى يجلسوا معه مجلساً خاصاً فقال : ﴿ وما أنا بطاردِ الذين آمنوا ﴾ كما سأل أمثالهُم خاتمَ الرسل محمداً ﷺ فأنزل الله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ .

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ ٱللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٣١) ﴾

يخبرهم أنّ نوحاً عليه السلام رسول من الله تعالى يدعو إلى عبادته سبحانه وحده لا شريك له ولا يسألهم أجراً ، وانه يدعو من لقيه من شريف ووضيع فمن استجاب نجا ، كما ليس له التصرف في خزائن الله ، ولا يعلم من الغيب إلاّ ما أطلعه الله عليه ، وليس هو بملك بل هو بشر مرسل ، ولا أقول عمن تحتقرونهم بأنهم لا ثواب لهم على أعمالهم الله أعلم بما في أنفسهم فإن كانوا مؤمنين وباطنهم كظاهرهم فلهم جزاء الحسنى ولو قطع أحد لهم بشرٍّ بعد إيمانهم لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به .

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ۞ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۞ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ (٣٤) ﴾

يخبر تعالى عن استعجال قوم نوح نعمة الله وعذابه وسخطه ، والبلاء موكل بالمنطق ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ أي حاججتنا فأكثرت فلا نتبعك ، ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ أدع علينا بما شئت فليأتنا ما تعدنا من العذاب ﴿ ان كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾ أي انما يعجل عقابكم هو الله الذي لا يعجزه شيء ﴿ ولا ينفعكم نُصحي إن اردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم ﴾ اي إغواءكم ودماركم ﴿ هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ أي هو المتصرف بأزمّة الأمور الحاكم العدل الذي لا يظلم . له الخلق وله الأمر وهو المبديء المعيد مالك الدنيا والآخرة .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ (٣٥)

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكد لها . مقرر لها يقول تعالى لمحمد ﷺ أم يقول هؤلاء الكافرون افترى هذا القرآن وافتعله من عنده ﴿ قل إن افتريته فعليَّ إجرامي ﴾ أي قائم فعل الإجرام عليَّ ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ وانا بريء مما تجرمون وتفترون عليَّ والمعنى أي ليس القرآن مفتعلاً ولا مفترى مني ، لأني اعلم ما عند الله من شديد العقوبة لمن كذب عليه .

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۞ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ۞ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۞ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۞ (٣٩) ﴾

يخبر تعالى انه استعجل قوم نوح نقمة الله بهم فأوحى اليه الله تعالى فدعا عليهم دعوته : التي أخبر الله عنها أنه قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه : ﴿ انه لن يؤمن من قومك إلاَّ من قد آمن ﴾ فلا تحزن ولا يهمنّك أمرهم ﴿ واصنع الفلك ﴾ يعني السفينة ﴿ بأعيننا ﴾ أي بمرأى منا ﴿ ووحينا ﴾ اي تعليمنا لك ما تصنعه ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ﴾ أي لا تكلمني بترك اهلاك الذين كفروا فإنهم لا محالة مغرقون ﴿ ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ وعندما كان يصنع السفينة كان يمر عليه الملأ من قومه ويسخر ون منه ويقولون تعمل سفينة في البر فكيف تجري ؟ ﴿ قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ۞ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ وهذا وعيد شديد وتهديد

أكيد بعذاب مخزٍ في الدنيا ، وسيحلُّ بهم في الآخرة عذاب دائم مستمر أبداً وهذا جزاء الكافرين المكذبين المستهزئين .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * (٤٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا ﴾ أي جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة ، الهتانة التي لا تقلع ولا تفتر ، والعيون التي تفجرت من الأرض كقوله تعالى : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ وقوله تعالى ﴿ وفار التنور ﴾ اي فار الماء من الأرض ، فحينئذ أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح وغيرها من النباتات ذكر وانثى . وقوله تعالى : ﴿ وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول ﴾ واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرابته الا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله فكان منهم ابنه يام الذي انعزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله ، وقوله تعالى : ﴿ ومن آمن ﴾ أي من قومك ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم الف سنة الاّ خمسين فعن ابن عباس كانوا ثمانين منهم نساؤهم ، وقيل ما كان إلاّ نوح وبنوه الثلاثة سام ، وحام ، ويافث وكنائنه الأربعة نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام . والله أعلم [1] .

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَيهَا إِنَّ رَبِّي

---

(١) قلت : إذا صحت رواية أن جميع سكان الأرض منسوبون إلى أولاد نوح الثلاثة سام وحام ويافث . فتكون الرواية الثانية هي الأصح أي ما آمن معه إلا أولاده الثلاثة ونساؤهم وإلا فرواية ابن عباس (الثمانون منهم نساؤهم) أصح .

لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ ۞ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ إِلَّا مَن رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۞ (٤٣)

يخبر تعالى أن نوحاً قال لمن أُمِرَ بحملهم معه في السفينة : ﴿ اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ﴾ أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء وبسمه تعالى يكون منتهى سيرها كما قال تعالى : ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل ربي أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾ ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور ، عند الركوب على السفينة ، وعلى الدابة : كقوله تعالى : ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره﴾ الآية ... وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه كما سيأتي ذلك في سورة الزخرف إن شاء الله وبه الثقة [١] .

وقوله تعالى : ﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم ﴾ وذلك مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين والرحمة والغفران للمؤمنين ، والآيات كثيرة في إقرانه تعالى فيها رحمته بانتقامه وقوله تعالى﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾السفينة سائرة بهم على الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال ماخرةً باذن الله ، وتحت كنفه وعنايته وحفظه .

وقوله تعالى : ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ وهو الابن الرابع واسمه : يام وكان كافراً دعاهأبوه للأيمان وركوب السفينة كيلا يكون له خاتمة الكافرين فأبى ﴿ قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء ﴾ إعتقد ان الطوفان لن يبلغ الى رؤوس الجبال.فقال له أبوه نوح عليه السلام : ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم ﴾ أي لا معصوم كما يقال طاعم وكاس بمعنى مطعوم ومكسو ﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾

(١) عند الآية /١٣/ وقوله تعالى : « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » الزخرف .

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ * (٤٤) ﴾

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلاّ أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها وامر السماء ان تقف عن المطر ﴿ وغيض الماء ﴾ أي ابتلعته الأرض ﴿ وقضي الأمر ﴾ أي قضى الله أمره في أهل الأرض بمن كفر به فلم يبق ديار ﴿ واستوت على الجودي ﴾ قال مجاهد وهو جبل بالجزيرة ارست عليه السفينة قال قتادة : قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من ارض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة .

روى الإمام أحمد عن ابي هريرة قال ٥٩٠ : [مرّ النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال : « ما هذا الصوم » قالوا هذا اليوم الذي نجّى الله به موسى وبني اسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل . فقال النبي ﷺ « أنا أحق بموسى . واحق بصوم هذا اليوم » فصام وقال لأصحابه « من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه ومن كان أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه »] وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولبعضه شاهد في الصحيح . وقوله تعالى : ﴿ وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ أي هلاكاً وخساراً لهم . وبعداً من رحمة الله فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ * (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ * (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ * (٤٧) ﴾

هذا سؤال كشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿ فقال رب إن ابني من أهلي﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي وإن وعدك الحق الذي لا يخلف . فكيف غرق وانت أحكم الحاكمين ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾ أي ليس من اهلك الذين وعدتُ إنجاءهم لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك . ولهذا قال سبحانه ﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ فكان هذا الولد ممّن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه عليه الصلاة والسلام . وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا ... إلى أنه ليس بابنه وانما كان ابن زنية . قال ابن عباس وغير واحد من السلف ٥٩١ ما زنت امرأة نبيٍّ قط . وقول ابن عباس في هذا .. هو الحق الذي لا محيد عنه فإن الله سبحانه أغير من أن يُمَكِّنَ امرأةَ نبيّ من الفاحشة ، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ . وأنكر على المؤمنين الذين تكلّموا بهذا وأشاعوه . ولهذا قال تعالى : ﴿ ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم – إلى قوله تعالى – وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾

قال عبد الرزاق عن ابن عباس قال ـ هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنيّة قال ابن عيينة عن سعيد بن جبير عن ذلك فقال . كان ابنَ نوح إن الله لا يكذب . قال تعالى : ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ قال وقال بعض العلماء : ما فجرت امرأة نبيّ قط وكذا روى عن مجاهد ايضاً وعكرمة والضحاك وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج وهو اختيار ابي جعفر ابن جرير وهو الصواب الذي لا شك فيه .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * (٤٨) ﴾

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجودي من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين . وعلى كل مؤمن من ذريته الى يوم القيامة كما قال محمد بن كعب دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة . وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة . وقال محمد بن اسحق : لما أراد الله ان يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب

السماء. يقول الله تعالى: ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ﴾ فجعل الماء ينقص ويغيض . وقيل ان نوحاً عليه السلام ومن معه ركبوا السفينة في عاشر شهر رجب فساروا فيها مائة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجودي شهراً وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم وقد ورد نحو هذا . في حديث مرفوع رواه ابن جرير ، وانهم صاموا يومهم ذلك والله أعلم .

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ * (٤٩) ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ هذه القصة واشباهها ﴿ من أنباء الغيب ﴾ يعني من أخبار الغيوب السالفة ، ﴿ نوحيها إليك ﴾ نعلمك بها وحياً منا إليك على وجهها الصحيح كأنك شاهدها ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ أي ليس عندك ولا قومك علم بها قبلما أخبرك الله بها مطابقة للواقع كما تشهد كتب الأنبياء قبلك ﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ أي اصبر على تكذيب من كذبك من قومك وعلى أذاهم لك فإنّا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا الآخرة . كما قال تعالى: ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * (٥١) وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * (٥٢) ﴾

يقول تعالى « و » لقد ارسلنا ﴿ إلى عاد أخاهم هوداً ﴾ يأمرهم بعبادة الله وحده لا

شريك له ناهياً لهم عن عبادة الأوثان التي افتروها، ويسمونها كذباً آلهةً، وأخبرهم انه لا يريد منهم أجرةً على هذا النصح والبلاغ من الله تعالى، إنما يرجو ثوابه منه تعالى أفلا تعقلون من يدعوكم الى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة. ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه. وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ولهذا قال: ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ وفي الحديث. ٥٩٢: [من لزم الاستغفار جعل الله لهمن كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب].

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ❁ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ❁ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ❁ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ❁ (٥٦) ﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم ﴿ ما جئتنا ببينة ﴾ أي بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾ اي بمجرد قولك اتركوهم نتركهم. ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ أي بمصدقين ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ أي ما نظن الا أن بعض الآلهة أصابك بخبل في عقلك لنهيك عن عبادتها ﴿ قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ﴾ يقول إني بريء من جميع الأنداد والأصنام ﴿ فكيدوني جميعاً ﴾ أي انتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ ثم لا تنظرون ﴾ أي لا تؤجلون ولا لحظة. وقوله تعالى ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أي تحت سلطانه وقهره، وهو الحاكم العدل الذي لا يجور في حكمه فانه على صراط مستقيم آخذ بنواصي عباده وهو أشفق من الوالد لولده. بينما الأصنام التي يعبدونها من دون الله جماد لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر. وفي هذه المقارنة حجة على صدق ما جاءهم به هود وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۞ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۞ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۞ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۞ (٦٠)﴾

يقول تعالى : ﴿ فإن تولـّوا ﴾ عن الحق [١] ﴿ فقد ابلغتكم ما أرسلت به اليكم ﴾ من وجوب عبادة الله وحده لا شريك له فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي اياكم رسالة الله . ﴿ ويستخلف ربي قوماً غيركم ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ، فانكم : ﴿ ولا تضرونه شيئاً ﴾ بكفركم بل وباله عليكم : ﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها بما يستحقون من خير أو شر ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هوداً والمؤمنين به من عذاب غليظ برحمة الله ولطفه ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ﴾ كفروا وعصوا رسل الله جميعاً .فمن كفر بنبيّ فقد كفر بجميع الأنبياء ، لأنه لا فرق بينهم في وجوب الإيمان بهم ، فعاد كفروا بهود فنزل كفرهم بمنزلة الكفر بجميع الأنبياء والرسل . ﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد . فلهذا ﴿ وأُتْبِعُوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ﴾ وينادي على رؤوس الأشهاد : ﴿ إلا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعادٍ قوم هود ﴾ . قال السدي ما بعث نبيٌّ بعد عاد إلاّ لعنوا على لسانه .

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ۞ (٦١)﴾

(١) أي فقل ياهود : « قد أبلغتكم ... »

يقول تعالى «و» لقد ارسلنا ﴿ إلى ثمود ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحِجْرِ بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم ﴿ أخاهم صالحاً ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده ولهذا قال ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ ابتداءً ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أي جعلكم عماراً تعمرونها ﴿ فاستغفروه ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه ﴿ ان ربي قريب مجيب ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادك عني فإني قريبٌ أجيب دعوة الداعي إذا دعانِ ﴾ .

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۞ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللّٰهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۞ (٦٣) ﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم ﴿ قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن قلت ما قلت ﴿ اتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ أي شك كثير ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربّي ﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿ وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده ، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿ غير تخسير ﴾ أي خسارة .

﴿ وَيَا قَوْمِ هٰذِهِ نَاقَةُ اللّٰهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّٰهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۞ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۞ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ

يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿ ٦٦ ﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿ ٦٨ ﴾

تقدّم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف [1] بما أغنى عن اعادته ههنا والله ولي التوفيق .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿ ٧١ ﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿ ٧٣ ﴾

يقول تعالى : ﴿ولقدجاءت رسلنا﴾ وهم الملائكة ﴿ ابراهيم بالبشرى ﴾ أي تبشره بإسحق بدليل قوله تعالى: ﴿ ولما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ﴾ ﴿ قالوا سلاماً قال سلام ﴾ أي سلام عليكم ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ أي أسرع وقدم لهم عجلاً مشوياً على الحجارة المحماة . وقوله تعالى : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليــه نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ وذلك ان الملائكة لاهمة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه ، فلهذا أعرضوا عنه، عندها نكرهم ﴿ وأوجس منهم خيفة ﴾ فلما نظرت سارة أنه قد أكرم ابراهيم أضيافه وقامت هي تخدمهم وهم لا يأكلون ... تعجبت وقالت : عجباً لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا .

---

(١) سورة الأعراف من الآية رقم ٧٣ – ٧٨ .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا لا تخف ﴾ أي لا تخف منا ﴿ إنّا ﴾ ملائكة ﴿ أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ لنهلكهم ﴿ فضحكت ﴾ سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم ، وغلظ كفرهم وعنادهم فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ أي بولدٍ لها يكون له ولد وعقب ونسل ، فإن يعقوب ولَدُ اسحق وقد استدل من استدل بهذه الآية على ان الذبيح هو اسماعيل . وانه يمتنع أن يكون هو اسحق ؛ لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر ابراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ... ؟ ! ! فتعين أن يكون الذبيح اسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحّه وأبينِه ولله الحمد [1] .

وقوله تعالى : ﴿ قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ﴾ الآية ... كما في الذاريات : ﴿ فأقبلت امرأته في صرّة فصكّت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾ كما جرت عادة النساء في أقوالهن وافعالهن عند التعجب ﴿ قالوا اتعجبين من أمر الله ﴾ اي قالت الملائكة : لا تعجبي فانه جل وعلا اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون ، ولو كنتِ عجوزاً ، وبعلك شيخاً كبيراً فان الله على كل شيء قدير ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد ﴾ أي هو الحميد في جميع افعاله وأقواله ، محمود مُمجّد في ذاته وصفاته ، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا : ٥٩٣ [قد علمتنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال « قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين إنك حميد مجيد . »]

---

(١) يريد مناالذين يقولون بإن اسحق هو الذبيح ، أن نتصور شيئاً يستحيل العقلُ وقوعــَه. وهو : أن نتصور ولادة مولود من أب مات طفلا؟ ! ! وهل هذا معقول وموافق لسنة الله في خلقه... ؟ لا سيما وإنه يفقد عنصر الاختبار والأمتحان لأبراهيم... لأنه لما بشر بولادة اسحق وبأنه سيولد له ولد اسمه يعقوب، علم إبراهيم بالاستنتاج انه لن يصيب اسحق مكروه قبل أن يلد له يعقوب وعندما يأمره الله بذبحه، يكون مطمئناً إلى عدم اكتمال عملية الذبح ... لأن البشارة المسبقة تفيد وتعطى هذا الاطمئنان ، بينما الأمر من الله فيه عنصر الأختبار... بمعنى : هل يطيع ابراهيم أمر ربه ويذبح وحيده اسحق طاعةً لله ؟ دون أن يكون له علم بالنتائج... فإن كان يعلم ابراهيم ذلك ... لم يعد هناك اختبار له من الله لأنه مطمئن إلى أن هذا الولد اسحق لن يذبح بل سيبقى حياً بل وسيتزوج وسينجب ولداً اسمه يعقوب. وكل هذا يعلمه علم اليقين من بشارة الله له بذلك... فأين إذاً ذلك الاختبار الذي أراده الله من إبراهيم ... ؟ لا شك أنه ثبت ثبوتاً تاماً أن الاختبار أصبح مفقوداً بينما هو المطلوب. فمن هذا يتضح ان الذبيح ليس اسحق قطعاً إنما هو إسماعيل بلا شك ولا ريب .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ❁ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ❁ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ❁ (٧٦) ﴾

يخبر تعالى أنه لما ذهب عن ابراهيم الخوف من الملائكة حين لم يأكلوا، ثم بشروه بعد ذلك بالولد وولد الولد، واخبروه بهلاك قوم لوط اخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية قال لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له: ﴿ انا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾ قال لهم أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن قالوا لا – ثم تدرج بتقليل العدد إلى أن قال: أرأيتكم ان كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا لا فقال ابراهيم عليه السلام عند ذلك ﴿ ان فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته ﴾ الآية فسكت عنهم واطمأنت نفسه. وقوله ﴿ إن ابراهيم لحليم أواه منيب ﴾ مدح لابراهيم بهذه الصفات الجميلة وقد تقدم تفسيرها – في سورة التوبة عند الآية رقم / ١١٤ / – وقوله تعالى: ﴿ يا ابراهيم اعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ﴾ الآية ... أي إنه قد نفذ فيهم القضاء وحق عليهم الهلاك وحلول العذاب الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ❁ (٧٧) وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ❁ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ❁ (٧٩) ﴾

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا ابراهيم، واخبروه بإهلاك الله

لقوم لوط هذه الليلة فانطلقوا من عنده فأتوا لوطاً وقوله تعالى﴿ سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب ﴾ اي ساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم وخشي ان لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ وكان لا يعلم أنهم ملائكة فتضيّفوه، فاستحيا منهم فانطلق أمامهم وقال لهم في اثناء الطريق كالمعرّض لهم بأن ينصرفوا عنه فانه والله يا هؤلاء ، ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء . ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات . قال قتادة : قد كانوا أمروا ان لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك . وكانوا على هيئة شبان حسان ما رأى الراءون أحسن منهم وجوهاً ، فجاء بهم لوط ، فلم يعلمْ بهم أحد إلاّ أهل بيته فخرجت امرأته فأخبرت قومها ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ أي يسرعون مهرولين من فرحهم بذلك ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئآت ﴾ أي لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال ... وقوله تعالى : ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ يرشدهم إلى نسائهم فإن النبيّ للأمة بمنزلة الوالد فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة قال مجاهد : لم يكنّ بناته ولكن كُنّ من أمته وكل نبيٍّ أبو أمته وكذا روي عن قتادة وغير واحد. قال ابن : جريج أمرهم ان يتزوجوا النساء لم يعرض عليهم سفاحاً وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي ﴾ أي اقبلوا ما أمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ أي فيه خير يقبل ما آمره به ويترك ما أنهاه عنه ﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ أي إنك لتعلم أن نساء نا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ أي ليس لنا غرض إلا في الذكور وانت تعلم ذلك فأيّ فائدة من تكرار القول علينا في ذلك .

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * (٨١) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام ، أن لوطا توعّدهم بقوله: ﴿ لو أن لي بكم قوة ﴾ أي لكنت نكّلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي ، ولهذا

أُوردفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٥٩٤ [رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد ـــ يعني الله عز وجل ـــ فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه] فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه وأنهم لا وصول لهم إليه : ﴿ قالوا يا لوط إنارسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يكون سائقاً لهم يمنعهم من الالتفات كما أمره الله تعالى : ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ إي اذا سمعت ما نزل بهم ، ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين ﴿ إلاّ امرأتك ﴾ قال الأكثرون هو استثناء من المثبت وهو قوله تعالى : ﴿ فأسر بأهلك ﴾ تقديره فأسر بأهلك إلاّ امرأتك . ﴿ إنه مصيبها ما أصابهم ﴾ هذا وقوم لوط وقوف على الباب ولوط يدافعهم وينهاهم عما هم فيه من القصد السيء والمراد الخبيث بالنسبة لضيوف لوط ، وهم لا يرتدعون بل يتوعدون ويتهددون . فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق . كما قال تعالى : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ﴾ ثم قرّب الملائكة للوط خبر هلاك قومه تبشيراً له فقالوا : ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ ـــ (ونفذ لوط أمر ربّه فسرى بأهله إلا امرأته . وأمرهم أن لا يلتفت منهم أحد إلى ورائه فيما إذا سمعوا ما نزل بهم من العذاب) ـــ

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ❁ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ❁ (٨٣)

يقول تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿ جعلنا عاليها ﴾ وهي سدوم ﴿ سافلها ﴾ أي نكسناها رأساً على عقب ﴿ وأمطرنا عليها حجارةً من سجيل ﴾ اي من طين متحجر قوي شديد كبير ، وقوله تعالى : ﴿ منضود ﴾ اي متلاصق بعضها ببعض في نزولها عليهم وقوله تعالى : ﴿ مسومة ﴾ اي معلّمة مختومة عليها اسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين في القرى مما حولها فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره فتتبعتهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم

عن آخرهم فلم يبق منهم أحد .

قال مجاهد : اخذ جبريل قوم لوط وحملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها . وقال قتادة وغيره : بلغنا ان جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها ارضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها فضمها في جناحه فحواها وطواها في جوف جناحه ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء اصوات الناس والكلاب ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة فدمر بعضها بعضاً فجعل عاليها سافلها وأتبعها حجارة من سجّيل ، وقال محمد بن كعب القرظي : كانت قرى قوم لوط خمس قريات (سدوم وهي العظمى ، وصعبه وصعود وغمرة ودوحاء) احتملها جميعاً جبريل بجناحه ثم قلبها فقتلهم واهلكهم وما حولهم من المؤتفكات فذلك قوله تعالى ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ ثم امطر الله عليهم حجارة من سجيل وقوله تعالى : ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ أي وما هذه النقمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد . وقد ورد في الحديث المروي في السنن عن ابن عباس مرفوعاً : **٥٩٥** [من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل ، والمفعول به] وذهب الإمام الشافعي في قوله : عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل سواء كان محصناً أو غير محصن عملاً بهذا الحديث ، وذهب الإمام ابو حنيفه أنه يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

حزب ٢٤

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۞ (٨٤) ﴾

يقول تعالى ولقد أرسلنا إلى مدين ، وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان وبلادهم تعرف بهم يقال لها مدين فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً ، ولهذا قال ﴿ أخاهم شعيباً ﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿ إني أراكم بخير ﴾ أي في معيشتكم ورزقكم وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه ، بانتهاككم محارم الله ﴿ وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ أي في الدار الآخرة .

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ (٨٥) بَقِيَّتُ ٱللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۝ (٨٦) ﴾

ينهاهم الله تعالى عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط أخذاً واعطاءً ، ونهاهم عن العتو في الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق ، وقوله تعالى : ﴿ بقية الله خير لكم ﴾ قال ابن جرير أي ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس قال وقد روي هذا عن ابن عباس قلت : ويشبه قوله تعالى : ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي برقيب ولا حفيظ أي افعلوا ذلك لله عز وجل لا من أجل أن يراكم الناس

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَآءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝ (٨٧) ﴾

يقولون متهكمين قبحهم الله﴿ أصلاتك ﴾ أي قراءتك ﴿ تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ أي الأوثان والأصنام ﴿ أو ان نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ فنترك التطفيف عن قولك وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد وقال الثوري في قوله تعالى : ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ يعنون الزكاة ﴿ إنكلأنت الحليم الرشيد ﴾ قال ابن عباس وغيره يقولون ذلك استهزاء قبحهم الله ولعنهم .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ (٨٨) ﴾

يقول لهم أرأيتم يا قوم ﴿ إن كنت على بينة من ربيّ ﴾ أي على بصيره فيما أدعو اليه ﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾أي النبوة وقيل الرزق الحلال ويحتمل الأمرين وقوله تعالى :﴿ وما أريد أن اخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ قال قتادة : يقول لم اكن أنهاكم عن أمر وارتكبه : ﴿ ان أريد إلا الإصلاح ما استطعت ﴾ أي فيما آمركم وأنهاكم إنما أريد اصلاحكم جهدي وطاقتي ﴿ وما توفيقي ﴾ أي في اصابة الحق فيما أريده ﴿ إلا بالله عليه توكلت ﴾ في جميع أموري ﴿ وإليه أنيب ﴾ أي أرجع قاله مجاهد .

روى الامام أحمد عن أبي أسيد يقولان عنه ﷺ انه قال : ٥٩٦ [إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له اشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، واذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفرمنه اشعاركم وأبشاركم وترون انه منكم بعيد فانا أبعدكم منه] إسناده صحيح ومعناه والله أعلم : مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به . ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ .

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۞ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۞ (٩٠) ﴾

يقول لهم ﴿ ويا قوم لا يجرمنّكم شقاقي ﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النقمة والعذاب وقوله تعالى : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ يعني إنما هلكوا بين ايديكم بالأمس ﴿ واستغفروا ربكم ﴾ من سالف الذنوب ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة وقوله تعالى : ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ لمن تاب .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۞ (٩١) قَالَ

يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِنَ ٱللهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ❁ (٩٢)

يقولون : ﴿ يا شعيب ما نفقه ﴾ ما نفهم ﴿ كثيراً ﴾ من قولك ﴿ وانا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ يعني واحداً ذليلاً لأن عشيرتك ليسوا على دينك ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ أي لولا معزة قومك علينا لرجمناك بالحجارة ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ أي ليس عندنا لك معزّة ﴿ قال يا قوم : أرهطي أعز عليكم من الله ﴾ يقول أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى ان تنالوا نبيه بمساءة وقد اتخذتم جانب الله ﴿ وراءكم ظهرياً ﴾ أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه ﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ أي هو يعلم جميع اعمالكم وسيجزيكم عليها خيراً أو شراً .

وَيَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَٱرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ❁ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ❁ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ❁ (٩٥)

لما يئس نبيُّ الله شعيب من استجابتهم له قال : ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أي طريقتكم ، وهذا تهديد شديد ﴿ إني عامل ﴾ على طريقتي ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ أي مني ومنكم ﴿ وارتقبوا ﴾ أي انتظروا ﴿ اني معكم رقيب ﴾ قال الله تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ جاثمين ﴾ أي هامدين لا حراك بهم . وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة . وفي الأعراف رجفة . وفي الشعراء عذاب يوم الظلة . وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها . وانما ذكر في كل سياق ما يناسبه ؛ ففي الأعراف لما قالوا : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا

معك من قريتنا ﴾ ناسب ان يذكر هناك الرجفة فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وارادوا إخراج نبيهم منها ، وها هنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي استلبثتهم وأخمدتهم ، وفي الشعراء لما قالوا : ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء ان كنت من الصادقين ﴾ قال تعالى : ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ وهذا من الأسرار الدقيقة ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً . وقوله تعالى : ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك «﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار ، وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق وكانوا عرباً مثلهم .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ * (٩٩) ﴾

يخبر تعالى عن ارسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ أي طريقته في الغي ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى . وانما هو جهل وضلال وكفر وعناد ، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم ، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها ، وشربوا من حياض رداها ، ولفرعون في ذلك الحظ الأوفر ، من العذاب الأكبر كما قال تعالى : ﴿ فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن في ذلك لعبرة لمن يخشى [1] ﴾

وقال تعالى ها هنا : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون مضاعفين في العذاب يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة ﴾ أي

---

(١) قلت : فماذا يقول الذين يقولون بإيمان فرعون ونجاته بهذه الآيات البينات ... ؟ فهل ما يزالون على قولهم بايمانه ونجاته فإن استغفروا وإلا فندعوا الله تعالى أن يحشرهم مع فرعون أينما كان... ويحشرنا نحن مع موسى بن عمران في أعلا الجنان .

أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا ﴿ ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾ قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان ، كقوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝ (١٠١) ﴾

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء ، وكيف أهلك الكافرين ونجّى المؤمنين قال : ﴿ ذلك من أنباء القرى ﴾ أي أخبارهم ﴿ نقصه عليك منها قائم ﴾ أي عامر ﴿ وحصيد ﴾ أي هالك ، ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي إذ أهلكناهم ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم ﴾ أي أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿ من دون الله من شيء ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكهم ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ أي غير تخسير وذلك انها سبب هلاكهم ودمارهم وخسران الدنيا والآخرة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝ (١٠٢) ﴾

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۝ (١٠٥) ﴾

يقول تعالى كما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا ، كذلك نفعل بأشباههم

﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ وفي الصحيحين عن ابي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٩٧ [ان الله ليملي للظالم حتى إذا اخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك اخذربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ... ﴾ الآية] ثم يقول تعالى : إن في اهلاكنا الكافرين وانجائنا المؤمنين ﴿ لآية ﴾ أي عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة كقوله تعالى : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكنّ الظالمين ﴾ وقولهُ تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ أولهم وآخرهم كقوله تعالى : ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ فهو يوم عظيم تحضره الملائكة والرسل والخلائق جميعاً من الأنس والجن والحيوانات ويحكم فيه بالعدل لا يظلم الله فيه مثقال ذرة وان تلك حسنة يضاعفها ، وقوله تعالى : ﴿ وما نؤخره الا لأجل معدود ﴾ أي ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم وضرب مدة معينة اذا انقطعت وتكامل أولئك المقدّر خروجهم قامت الساعة ﴿ يوم يأتي لاتكلم نفس إلاّ بإذنه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لا يتكلمون إلاّ من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ وفي الصحيحين من حديث الشفاعة : ٥٩٨ [... ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم] وقوله تعالى : ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ أي من أهل الجمع – اي في يوم القيامة – شقي ومنهم سعيد كما قال تعالى : ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ (1) ثم بين تعالى حال الفريقين فقال : عز وجل :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۞ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ۞ (١٠٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ اي تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق لما هم فيه من العذاب عياذاً بالله من ذلك ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ قال الإمام ابو جعفر بن جرير : من عادة العرب إذا ارادت ان تصف الشيء بالدوام أبداً ، قالت : هذا دائم دوام السموات والأرض ، أو : هو باق ما اختلف الليل والنهار ،

(١) قلت : أي من أطاع الأوامر وانتهى عن النواهي في الجنة ، ومن عصى ولم ينته ففي جهنم .

ويعنون بذلك كله : أبداً . فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال عز من قائل : ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إلا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد ﴾ كقوله تعالى ﴿ النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم ﴾ وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على اقوال كثيرة واختار ابو جعفر بن جرير ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وابن سنان ورواه ابن ابي حاتم عن ابن عباس : ان الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ،من الملائكة والنبيين والمؤمنين حتى يشفعوا في أصحاب الكبائر ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً قط ، وقال يوماً من الدهر لا إله الا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها.وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً،في تفسير هذه الآية الكريمة . وقال السدي : هي منسوخة بقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ .



﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (١٠٨)

يقول تعالى : ﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ وهم اتباع الرسل ﴿ ففي الجنة ﴾ اي فمأواهم الجنة ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك ﴾ معنى الاستثناء ها هنا : أن دوامهم في النعيم ليس أمراً واجباً بذاته بل هو تحت مشيئته تعالى فله المنة عليهم دائماً ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَفَسُ وعقّب بذلك بقوله تعالى : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ أي غير مقطوع ، قال ابن عباس ومجاهد ابو العالية وغير واحد لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثَمَّ انقطاع بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع كما بيّن هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته وأنه بعدله وحكمته عذبهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [1] وهنا طيب القلوب وثبت

(١) راجع التعليق سورة يونس آية ٤٤ في توضيح معنى قوله تعالى : « لا يسأل عما يفعل ... »

المقصود بقوله عز وجل : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ وقد جاء في الصحيحين : ٥٩٩ [يؤتى بالموت على صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا اهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت .]

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ۞ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۞ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ (١١١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ فلاتك في مرية مما يعبد هؤلاء ﴾ المشركون انه باطل وجهل وضلال فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات فسيعذبهم الله عذاباً لا يعذبه أحداً وان كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة ، ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به ، فلك بمن سلف من الأنبياء يا محمد أسوة ، فلا يغيظك تكذيبهم لك ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ﴾ قال ابن جرير لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضي بينهم ، ويحتمل أن يكون المراد إنه لا يعذب أحداً الا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسل .

ثم أخبر تعالى انه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر فقال جل جلاله : ﴿ وإن كلاً لمّا ليوفينّهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ﴾ أي عليم بأعمالهم جميعاً خيرها وشرها ظاهرة كانت أو باطنة كما في قوله ﴿ وإن كلّ لما جميع لدينا محضرون . ﴾

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ۞ (١١٣) ﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة [١] وذلك من اكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان وهو البغي فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يخفى عليه شيء وقوله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ أي لا ترضوا بأعمالهم ولا تميلوا إليهم ولا تستعينوا بهم فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿ فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ أي ليس لكم ما ينقذكم منه ولا ناصر يخلصكم من عذابه .

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ۞ (١١٤) وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (١١٥) ﴾

قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ قال الحسن في رواية عن قتادة والضحاك وغيرهم : هي الصبح والعصر . وقد يحتمل ان تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء . إنما كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها . وفي اثناء الليل قيام عليه ﷺ وعلى الأمة ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضاً في قول ... وقوله تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئآت ﴾ يقول ان فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان : ٦٠٠ [عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال « من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه »] روى مسلم في صحيحه عن ابي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : ٦٠١ [الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر] وقال ابو جعفر بن جرير عن ابي مالك الأشعري قال قال رسول الله ﷺ : ٦٠٢ [جعلت الصلوات كفارات لما بينهن فإن الله تعالى قال ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئآت ﴾ .

---

(١) قلت : ان كل استقامة على غير ما أمر الله تعالى فهي ليست استقامة لذا يجب أن تكون الأعمال طبق ما أمر الله تعالى وبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم وإلا فهي مردودة غير مقبولة ولذا قال تعالى : فاستقم كما أمرت. » وقال /ص/ (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) وعلى هذا فإن كل بدعة في الدين ضلالة وكل ضلالة في النار .

وروى الإمام مسلم والترمذي والنسائي وابن جرير عن ابن مسعود قال : : ٦٠٣ [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير اني لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك فافعل بي ما شئت فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً فذهب الرجل . فقال عمر لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال « ردوه علي » فردوه عليه فقرأ عليه : ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئآت ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ فقال معاذ – وفي رواية عمر – يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة ؟ فقال : « بل للناس كافة »]

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٠٤ [إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلاّ من أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبُه ولسانهُ ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه قال : قلنا وما بوائقه يا نبي الله قال : « غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالاً حراماً فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلاّ كان زاده إلى النار ان الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن ان الخبيث لا يمحو الخبيث] وقال الإمام أحمد عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال له : ٦٠٥ [يا معاذ اتبع السيئة الحسنة تمحُها وخالق الناس بخلق حسن] .

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ❁ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ❁ (١١٧) ﴾

يقول تعالى فهلاّ وجد من القرون الماضية من قبلكم بقايا من اهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من المفاسد في الأرض ، وقوله تعالى : ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي قد وجد منهم من قليل من هذا النوع وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته ، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة بقوله عز وجل : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ و ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ وفي الحديث : ٦٠٦ [ان الناس إذا

رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب] ولهذا قال تعالى : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الارض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ﴾ أي استمروا على معاصيهم ، ولم ينكرها أحد منهم حتى فجأهم العذاب ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ أي لم يأت بأس الله وعذابه قريةً وأهلها صالحون قط بل حتى يكونوا هم الظالمين كقوله تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ❁ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ❁ (١١٩) ﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمةً واحدةً من إيمان أو كفر كقوله تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين * الا من رحم ربك ﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم ، واعتقاد مللهم ونحلهم ومذاهبهم . قال عكرمة : مختلفين في الهدى وقوله تعالى : ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ أي إلاّ المرحومين من اتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمر الله من الدين الذي اخبرتهم به الرسل ، فكانوا من الفرقة الناجية . وقال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة وان تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وان اجتمعت ديارهم وأبدانهم وقوله تعالى : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ قال ابن وهب عن طاووس أن رجلين اختصما إليه إليه فأكثرا فقال طاووس اختلفتما واكثرتما فقال أحد الرجلين : لذلك خلقنا فقال طاووس : كذبت ، فقال : أليس الله تعالى يقول : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ قال لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة كما قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة . ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ وقال الحسن البصري في رواية عنه قوله تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلامن رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ قال: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿ إلا من رحم

ربك ﴾ غير مختلف فقيل : لذلك خلقهم قال : خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره . وكذا قال عطاء والأعمش . وقال ابن وهب سألت مالكاً عن قوله تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ قال : فريق في الجنة وفريق في السعير . وقوله تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأ ن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ يخبر تعالى أنه سبق في علمه التام أن مِنْ خاتمه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار وأنه لا بد من أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والأنس وله الحجة البالغة والحكمة التامة .

ومن بعض حديث في الصحيحين : ٦٠٧ [... فقال الله عز وجل للجنة : انت رحمتي ارحم بك من أشاء وقال للنار : أنت عذابي انتقم بك ممن أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها] .

﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ (١٢٠) ﴾

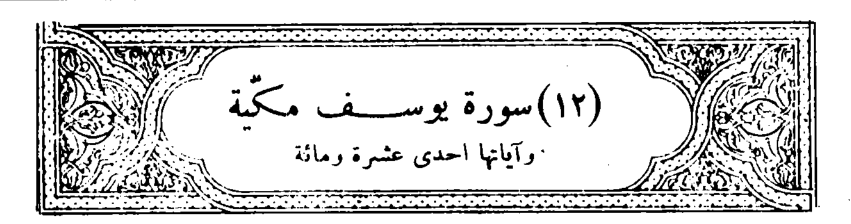
وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ۞ (١٢١) وَٱنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ۞ (١٢٢) ﴾

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ (١٢٣) ﴾

يقول تعالى وكل من الأخبار نقصُّها من أنباء الرسل المتقدمين وأممهم ، وما كان من المحاجّات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وما كان من نصره تعالى لحزبه المؤمنين وخذل اعدائه الكافرين . كل هذا مما نثّبت به قلبك يا محمد ليكون لك اسوة بالأنبياء . وقوله تعالى: ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ أي هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، والموعظة التي تردع الكافرين وتذكر المؤمنين ثم يأمر رسوله ﷺ ان يقول للكافرين ﴿ إعملوا على مكانتكم ﴾ اي على طريقتكم ﴿ إنا عاملون ﴾ أي على طريقتنا ﴿ وانتظروا إنا منتظرون ﴾ من تكون له العاقبة وقد أنجز الله وعده لرسوله فنصره وأيده وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وإنّه سبحانه عالم غيب السموات

والأرض وإليه المآب وسيؤتى كلٌّ عملَه يوم الحساب فله الخلق والأمر ، فأمرَ تعالى بعبادته والتوكل عليه فانه كافٍ من توكّل عليه وأناب إليه ، وقوله تعالى : ﴿ وما ربك بغافلٍ عما تعملون ﴾ أي لا يخفى ما عليه مكذبوك يا محمد بل هو عليم بأحوالهم واقوالهم وسيعاقبهم على كفرهم في الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين . آخر سورة هود والحمد لله على نعمائه أولاً وآخراً .

١٣٨٩/١/٩



إلاّ الآيات : ١ و ٢ و ٣ و ٧ فمدنية نزلت بعد سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ ۝ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْغَافِلِينَ ۝ (٣) ﴾

أما الكلام على الحروف المقطّعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي ، المفصح عن الأشياء المبهمة ويفسّرها ويبيّنها ﴿ إنّا أنزلناه قرآنا عربيّاً لعلكم تعقلون ﴾ ذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأديةً للمعاني التي تقوم بالنفوس.فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة،وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وابتُدِىءَ إنزاله بأشرف شهور السنة وهو رمضان [1] فكمل من كل الوجوه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هـذا القرآن ﴾ وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال ٦٠٨ : [قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا ؟ فنزلت : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾]. بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن .

وبما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن ، وأنه كاف عن

(١) فصار العرب بهذا القرآن وهذا النبي أشرف الأمم حينما اتخذوا القرآن رائداً والرسول قائداً ولكن لما تخلوا عنهما صاروا نهباً لأذل الأمم وأقذر الشعوب جزاء تخليهم عن مهمّاتهم العظمى في العالمين .

كل ما سواه من الكتب ما رواه الامام أحمد عن جابر بن عبدالله ٦٠٩ [ان عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ . قال فغضب وقال : « امتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لاتسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه ، أو بباطل فتصدقونه ، والذي نفسي بيده ، لو أن موسى كان حياً ما وسعه الا أن يتبعني »] وروى الامام أحمد عن عبدالله ابن ثابت ٦١٠ : [جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظه ، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبدالله بن ثابت فقلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً . قال : فسُرِي عن النبي ﷺ وقال : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، انكم حظي من الأمم وانا حظكم من النبيين »] .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) ﴾

يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه وهو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام كما روى الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ٦١١ [الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم] انفرد باخراجه البخاري .

وقال ابن عباس : رؤيا الانبياء وحي ، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن اخوته ، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه . روي هذا عن ابن عباس وغيره وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة . وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره واخوته بين يديه ﴿ وخرُّوا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً . ﴾

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) ﴾

يخبر تعالى عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبير ها خضوع إخوته له ، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وتكريماً . فخشي يعقوب عليه السلام ان يحدث بهذا المنام أحداً من أخوته ، فيحسدونه فيغتالونه ، ولهذا قال : ﴿لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾ أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها ولهذا ثبت عنه ﷺ انه قال : ٦١٢ [إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به وإذا رأى ما يكره ، فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتفل عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره .] ومن هذا يؤخذ الامر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر كما ورد في الحديث : ٦١٣ [استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها ، فإن كل ذي نعمة محسود .]

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ (٦) ﴾

يخبر تعالى عن قول يعقوب لولده يوسف : انه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ ويختارك لنبوته ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ أي تعبير الرؤيا ﴿ويتم نعمته عليك﴾ أي بإرسالك والإيحاء اليك ، ولهذا قال تعالى : ﴿كما أتمها على ابويك من قبلُ ابراهيم﴾ أي الخليل ﴿واسحق﴾ ولده ﴿ان ربك عليم حكيم﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته كما قال في الآية الأخرى .

نصف الحزب

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ۞ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ (٨) ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ۞ (٩) قَالَ قَائِلٌ

مِنهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى لقد كان في قصة يوسف مع أخوته عبرة وموعظة للسائلين عن ذلك : ﴿ اذ قالوا ليوسف واخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ فكيف أحب أبونا يوسف واخاه بنيامين وكان شقيقه ﴿ ونحن عصبة ﴾ أي جماعة ﴿ ان أبانا لفي ضلال مبين ﴾ أي لا حق له في هذا التفضيل .

إعلم انه لم يقم دليل على نبوة اخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ومن الناس من يزعم أنهم أوحي اليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر ، ولم يذكروا من دليل سوى قوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ﴾ وهذا فيه احتمال لأن بطون اسرائيل يقال لهم الأسباط ، ويذكر تعالى انه أوحى إلى الأنبياء من اسباط بني اسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ولكن كل سبط من نسل رجل من اخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم والله اعلم . ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ﴾ أي إنه يزاحمكم في محبة أبيكم لكم فإما أن تقتلوه ، أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه فيبقى أبوكم لكم وحدكم ﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب ﴿ قال قائل منهم ﴾ أي أحدهم : ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ أي لا يؤدي بكم بغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى مقدر له ان يكون نبيا ، وان يكون له التمكن ببلاد مصر والحكم بها ، فصرفهم الله عن قتله بمقالة أحد إخوته بـأن يلقوه في غيابة الجب اي أسفله ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ اي المارة من المسافرين فتستريحوا منه ﴿ ان كنتم فاعلين ﴾ أي ان كنتم عازمين على ذلك . قال محمد بن اسحق بن يسار : لقد اجتمعوا على امر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير دونما ذنب فقد احتملوا أمراً عظيماً غفر الله لهم [١] .

---

(١) وهذا مما يؤيد أن أخوة يوسف ليسوا أنبياء فمثل هذه الأعمال من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة ، ومحاولة القتل ، والكذب على أبيهم بالتالي . كل هذا ... يدل على أن من يحمل مثل هذه الأخلاق لا يكون من الأنبياء . هذا فيما يبدو والله تعالى أعلم .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۞ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۞ (١٢) ﴾

لما تواطأوا على طرحه في البئر جاءوا أباهم ﴿ مالك ﴾ ما بالك ﴿ لا تأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ وهذه توطئة ودعوى ، وهم يبطنون الوقيعة حسداً منهم لأخيهم ﴿ أرسله معنا ﴾ أي ابعثه معنا ﴿ يرتع ويلعب ﴾ أي يسعى وينشط ﴿ وانا له لحافظون ﴾ أي نحفظه ونحوطه .

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۞ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ ۞ (١٤) ﴾

يخبر تعالى ان نبيه يعقوب عليه السلام أجاب بنيه : ﴿ إني ليحزنني ان تذهبوا به ﴾ أي يشق على مفارقته لحين رجوعه ، لفرط محبته ليوسف لما يتوسم فيه من شمائل النبوة والكمال في الخَلْق والخُلُق صلوات الله وسلامه عليه ، وقوله : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ أي اخشى ان تسهوا عنه فيأكله الذئب ﴿ قالوا لئن اكله الذئب ونحن عصبة إنّا إذاً لخاسرون ﴾ أي لئن عدا الذئب عليه ونحن جماعة إنا إذاً لهالكون عاجزون عن حمايته — والمعنى : لن نمكّن الذئب وكيف ذلك ، ونحن جماعة ؟ إذاً ما نحن برجال —

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (١٥) ﴾

يقول تعالى : فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ اي إنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في اسفل البئر وقد أخذوه من

عند أبيه وهم يظهرون له الإكرام شرحاً لصدره ، وادخال السرور عليه فلما بعثه يعقوب معهم ضمه إليه وقبله ودعا له ، فما أن تواروا عن أعين ابيه إلاّ وشرعوا يؤذونه شتماً وضرباً ثم ربطوه بحبل ودلّوه في الجب . فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، واذا تشبث بحافة البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة . فسقط في الماء فغمره . فصعد إلى صخرة في وسطه فقام فوقها .

وقوله تعالى : ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنّهم بأمرهم هذاوهم لا يشعرون ﴾ يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته . وانزاله اليسر حالَ العسر : إنه اوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيّق . تطييباً لقلبه وتثبيتاً له ، إنك لا تحزن مما أنت فيه فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً ، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع . وقوله تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ اي وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك .

﴿ وَجَاءُو أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ۞ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ۞ (١٧) وَجَاءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ۞ (١٨) ﴾

يخبر تعالى عما اعتمده أخوة يوسف من الخداع لأبيهم بعدما ألقوه في أسفل الجب فقد رجعوا ليلاً يبكون . مظهرين الأسف على يوسف . معتذرين عما وقع فيما زعموا : ﴿ إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا ﴿ فأكله الذئب ﴾ وهو الذي كان قد جزع يعقوب منه . وحذر عليه ، وقوله ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ أي ونحن نعلم انك لا تصدقنا ولو كنا عندك صادقين . فكيف وأنت تتهمنا في ذلك . لأنك خشيت أن يأكله الذئب وقد أكله فعلاً . واننا نعذرك في عدم تصديقك لنا لغرابة الحادثة ومن عجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب أي مفترى ، فقد عمدوا إلى سخاة فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أنه قميصه الذي أكله فيه الذئب وقد أصابه من دمه . ولكنهم نسوا ان يُخرّقوه ، فلم يتقنوا

ترويج أكذوبتهم التي لم تنطل على يعقوب عليه السلام ولذا قال : ﴿ بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ أي فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ أي على ما تذكرونه من الكذب والمحال . والصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه كما ذكر ذلك في حديث مرسل .

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۞ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّاهِدِينَ ۞ (٢٠)

يخبر تعالى عما جرى ليوسف عليه السلام في الجب حين تركوه فيه وحيداً فمكث كذلك ثلاثة أيام فساق الله له سيّارةً . فنزلوا قريباً من البئر وأرسلوا واردهم ، وهو الذي يتطلب لهم الماء فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها ، تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه ، واستبشر به وقال : ﴿ يا بشرى هذا غلام ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وأسرّوه بضاعة ﴾ أي وأسرَّه الواردون ، من بقية السيارة ، وقالوا : اشتريناه وتبضَّعناه مِنْ اصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره . وقوله تعالى : ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ أي بما يفعله أخوة يوسف ومشتروه ، والله قادر على تغيير ذلك ودفعه ، ولكن له حكمة وقدر سابق فترك ذلك ليمضي قدره وقضاه [1] كما أنه أيضاً تعريض لرسوله محمد ﷺ بأنه عالم بأذى قومه له وستكون العاقبة له كما كانت ليوسف عليه السلام . وقوله تعالى : ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ يقول تعالى : وباعه إخوته بثمن قليل ناقص أي اعتاض عنه إخوته بثمن أقل من القليل ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ أي ليس لهم رغبة فيه حتّى لو سألوه بلاشيء لأجابوا . قال ابن عباس ومجاهد والضحالة ان الضمير عائد في قوله تعالى : ﴿ وشروه ﴾ على اخوة يوسف لا على السيارة . وهذا أقوى لأن قوله تعالى : ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ إنما اراد اخوته لا أولئك السيارة ، لان السيارة استبشروا به وأسرّوه بضاعة ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه ، فترجّح هذا القول على غيره . وهكذا فقد باعته السيارة بمصر فاشتراه العزيز .

---

(١) قلت : وليعمل كل بما يختار من العمل ثم يجزى كل بما يستحق على عمله خيراً كان أو شراً لأن الإنسان في كل ما هو مكلف به خيرّه الله تعالى كل الاختيار ليكون مستحقاً للجزاء أو العقاب .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (٢٢) ﴾

يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه هيأ له من اشتراه من مصر حتى اعتنى به واكرمه وأوصى أهله به، وتوسّم فيه الخير والصلاح فقال لامرأته: ﴿ اكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ وكان الذي اشتراه وزيراً على خزائن مصر وكان العزيز ذا فراسة بيوسف وذلك ظاهر من قوله: ﴿ اكرمي مثواه ﴾. ويقول تعالى: ﴿ وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض ﴾ أي كما أنقذنا يوسف من اخوته كذلك مكناه في بلاد مصر ﴿ ولنعلّمه من تأويل الأحاديث ﴾ أي تعبير الرؤيا ﴿ والله غالب على أمره ﴾ أي إذا اراد لا يردّ. ولا يمانع بل هو الغالب لما سواه. فعال لما يشاء، وقوله تعالى: ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي لا يدرون حكمته وفعله لما يريد. وقوله تعالى: ﴿ ولما بلغ ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿ أشده ﴾ أي استكمل عقله وخلقه، وبلغ الحلُم، وكان ذلك في سن الثماني عشرة ﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾ يعني النبوة. انه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي انه كان محسناً في عمله، عاملاً بطاعة الله تعالى.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ ۞ (٢٣) ﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه فراودته عن نفسه، أي حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت الأبواب عليه

ودعته إلى نفسها ﴿ وقالت هيت لك ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع و ﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾ وكانوا يطلقون الربّ ، على السيد الكبير ، أي ان بعلك ربيّ أي سيدي أحسن مثواي أي منزلي ، وأحسن إليّ فلا أقابله بالفاحشةفي أهله ﴿ انه لا يفلح الظالمون ﴾ وقد اختلف القراء في قوله : ﴿ هيت لك ﴾ أي تهيأت لك كما روي ذلك عن ابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي ، وأبي وائل ، وعكرمة وقتادة ، وقيل معناها : تعالَ ، واقتربْ ، وكلّها معانٍ متقاربة والله تعالى أعلم .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ۞ (٢٤) ﴾

اختلفت أقوال المفسرين وعباراتهم ، في هذا المقام ؛ فقيل المراد بهمّه خطرات حديث النفس ، وقيل همّ بضربها ، وقيل تمنّاها زوجة ، وقيل همَّ بها لولا ان رأى برهان ربه ، أي : فلم يهمَّ بها [١] وأما البرهان الذيرآه ففيه أقوال أيضاً والصواب أن يطلق كما جعله الله مطلقاً أي دون تحديد برهانٍ معين [٢] ، إنما هو برهان صرف الله به

(١) قلت : وهذا هو الحق والأليق بالنبي ابن النبي ابن النبي ابن النبي ، والكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم وهو يوسف الصديق النبي بن النبي يعقوب بن النبي اسحق بن النبي ابراهيم خليل الله صلى الله عليهم وسلم . وهذا الأليق بمقامه الكريم عليه الصلاة والسلام اذ لولا وجود البرهان لهمّ ولكن لما وجد البرهان ما همّ .

(٢) قلت : أما البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام فقد قيلت فيه أقوال شتى ... فمن قائل أنه رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على أصبعه بفمه . ، ومن قائل أنه رأىخيال العزيز حين دنا من الباب ، ومن قائل انه رفع رأسه إلى سقف البيت ، فاذاكتاب في حائط البيت : « لا تقربوا الزنا،انه كان فاحشة وساء سبيلا » ومن قائل أنه رأى آيات أخرى وما إلى ذلك ... والذي يميل قلبي إليه ، والله تعالى أعلم ، فإن أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمن نفسي وأتوب إلى الله. وهو : ان البرهان صريح واضح في الآية رقم /٢٢/ من هذه السورة وهي قوله تعالى : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين » أي : ولما بلغ يوسف مبلغ الرجال آتاه الله الحكم والعلم أي النبوة ، وهذا قبل أن تراوده امرأة العزيز عن نفسه ، وذلك واضح من ورود الآية التي فيها خبر تكريم الله له بالنبوة ... قبل الآية التي فيها خبر المراودة ، إذاً فلما راودته كان نبياً عرفه الله بنبوته وبمقام الإحسان الذي هو عبادة الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه فالبرهان إذاً هو معرفته بنبوته وأنه سليل الأنبياء وأن الله يراه في جميع أحواله وهذا ظاهر من آخر الآية : « وكذلك نجزي المحسنين » ولذلك أجابها فوراً وبلا أي تردد : « معاذ الله ... » فتحققه في مقام الإحسان لم يدع مجالا له للهم بها مطلقاً فأين ومتى وكيف وقع الهم منه ... ؟ وهو المطمئن الموقن بأن الله يراه ويعلم سره ونجواه ، أجل إنه : « قال معاذ الله ... » واستبق الباب هارباً منها وهي التي لحقت به وقدت قميصه من دبر ، إلى أن فوجئآ بدخول العزيز ... فأين الهم وحديث النفس بالفاحشة مع هذا الموقف العظيم الذي لا يقفه إلا الأنبياء أمثاله ، وهكذا فلولا ان رأى برهان ربه لهمّ والكنه رأى البرهان فما همّ إذ لما وجد البرهان امتنع الهم . والله تعالى أعلم وهو الموفق والهادي إلى الصواب .

يوسف عن السوء والفحشاء ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ أي كذلك نقيه السوءَ والفحشاء في جميع أموره ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ أي من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار ، صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٢٥) قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ (٢٧) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۞ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۞ (٢٩) ﴾

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب : يوسف هارب ، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته وامسكت بقميصه من ورائه فقدته قداً فظيعاً وبينما هي في أثره فألفيا زوجها عند الباب ، عندها غيرت موقفها بمكرها وكيدها متنصلةً أمام زوجها وقاذفةً يوسف بدائها وقالت : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءً ﴾ أي فاحشةً ، ﴿ إلاّ أن يسجن ﴾ أي يحبس ، ﴿ أو عذاب أليم ﴾ أي يضرب ضرباً شديداً ، فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق ، وتبرأ مما رمته به من الخيانة و ﴿ قال ﴾ صادقاً : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ وذكرانها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه ﴿ وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدَّ من قُبُلٍ ﴾ أي من قدّامه ﴿ فصدقت ﴾ في قولها انه راودها على نفسها لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه ودفعته في صدره ، فقدّت قميصه فيصح ما قالت ﴿ وان كان قميصه قدَّ من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبته فأمسكت بقميصه لترده فقدت قميصه من ورائه . اختلفوا في هذا الشاهد ، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال كان صبياً في المهد ، وكذا روي عن أبي هريرة وهلال بن يساف ، والحسن ،

وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم أنه كان صبياً في الدار ، واختاره ابن جرير وقد ورد فيه حديث مرفوع فروى ابن جرير عن ابن عباس عن النبي ﷺ : ٦١٤ [« تكلم أربعة وهم صغار » فذكر فيهم شاهد يوسف] وقوله تعالى : ﴿ فلما رأى قميصه قدَّ من دبر ﴾ أي لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿ قال إنه من كيدكن ﴾ أي هذا البهت التي لطخت به عرض هذا الشاب من جملة كيدكن ﴿ ان كيدكن عظيم ﴾ ثم قال آمراً يوسف بكتمان ما وقع ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ أي لا تذكره لأحد ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ أي الذي وقع منك بإرادة السوء بيوسف ، ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿ انك كنت من الخاطئين ﴾ .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَاهِلِينَ (٣٣) فَٱسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٤) ﴾

يخبر تعالى ان خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة حتى تحدث به الناس ﴿ وقال نسوةٌ في المدينة ﴾ مثل نساء الكبراء بمصر ينكرن على امرأة العزيز ويعبنها ويقلن : ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ أي تدعو غلامها إليها ﴿ قد شغفها حباً ﴾ والشغف الحب القاتل ﴿ انا لنراها في ضلال مبين ﴾ أي في صنيعها هذا ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾

اي بلغهن حسن يوسف فقلن ذلك القول ليتوصلن إلى مشاهدته ، عندها ﴿ ارسلت اليهن﴾ اي دعتهن لضيافتها ﴿ وأعتدت لهنّ متكأً ﴾ أي مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين كالفاكهة ولهذا قال تعالى : ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ تريد أن تمكر بهن بمكر أعظم من مكرهن ، ﴿ وقالت أخرج عليهن . فلمّا ﴾ خرج و ﴿ رأينه أكبرنه ﴾ أي أدهشهنّ حسنُه فقطّعن أيديهن أثناء قطعهن الفاكهة ولم يشعرن لدهشهن بحسن يوسف ويظنّ أنهن يقطعن الفاكهة بينما هن يحززْن السكاكين بأيديهن ، فلما أحسسن جعلن يولولن ، فقالت امرأة العزيز : انتن من نظرة واحدة فعلتن هذا ... فكيف ألام أنا ؟ ﴿ فقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ ثم قلن لها : وما نرى عليك من لوم بعد ما رأينا ... فانه عليه الصلاة والسلام كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في حديث الإسراء الصحيح : ٦١٥ [أن رسول الله ﷺ مرّ بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة قال : « فإذا هو قد اعطي شطر الحسن »] وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول ﷺ : ٦١٦ [أعطي يوسف وأمه شطر الحسن] فلهذا قال هؤلاء النسوة : ﴿ حاش لله ﴾ أي معاذ الله ﴿ ما هذا بشراً إن هذا الا ملك كريم * قالت فذلكن الذي لمتنّني فيه ﴾ تقول هذا ... معتذرة إليهن بأن هذا حقيق ان يحب لجماله وكماله ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي فامتنع وهذا الامتناع من جمال الخلق ، وهكذا اجتمع ليوسف كمال جمال الخلْقِ والخُلق أي كان جميلاً مستعصماً ثم قالت تتوعده مهددة : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكونْ من الصاغرين ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهنّ وكيدهن ، و ﴿ قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني اليه ﴾ أي من الفاحشة ﴿ وإلاّ تصرف عني كيدهنّ أصبُ إليهن ﴾ أي إن وكلتني إلى نفسي فلا املك لها ضراً ولا نفعاً إلاّ بحولك وقوتك ، أنت المستعان وعليك التكلان . فلا تكلني إلى نفسي ﴿ أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه ﴾ وذلك بأن عصمه الله عصمةً عظيمةً وحماه فامتنع من امرأة العزيز واختار السجن على ذلك ، وهذا في غاية مقامات الكمال برغم وفور شبابه وجماله تدعوه سيدته وهي ايضاً في غاية الجمال والمال والرياسة فيمتنع ويختار السجن خوفاً من الله ، ورجاء ثوابه .

ولهذا ثبت في الصحيحين ان رسول الله ﷺ قال : ٦١٧ [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله امام عادل ... – إلى ان ذكر – ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ...] الحديث ...

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٣٥)

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦)

يقول تعالى ثم ظهر من المصلحة لهم فيما رأوا ... انهم يسجنونه الى حين بعد ما تثبت دالة صدقه وعفته ، إنما سجنوه لما شاع الحديث ، إيهاماً أنه راودها عن نفسها ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة ، فلما تقرر ذلك خرج نقي العرض طاهر الذيل صلوات الله عليه وسلامه . أما الفتيان اللذان دخلا معه السجن كان أحدهما ساقي الملك والآخر خبازه ، فأحباه حباً جماً لما رأيا منه ولما اشتهر في السجن بالجود والأمانة والصدق ، وحسن السمت ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير والإحسان الى أهل السجن وعيادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم ، وانهما رأيا مناماً فرأى الساقي انه يعصر خمراً يعني عنباً فقال يوسف تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقي الملك خمراً ، وقال الخباز اني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، ففسر له أنه سيصلب وتأكل الطير من رأسه . وقيل انه لم يعين لكل منهما تفسير منامه وقد أبهمهما لئلا يحزن من فسر منامه بالصلب كما سيأتي ذكر ذلك قريباً...وقال ابن جرير عن عبدالله بن مسعود قال : ما رأى صاحبا يوسف شيئاً، إنما كانا تحالما ليجرّبا عليه.

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٣٨)

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ولهذا قال: ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله ﴾ قال مجاهد: يقول: ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ في يومكما ﴿ الا نبّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ وكذا في السدي. ثم قال: وهذا انما هو من تعليم الله إياي، لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم واسحق ويعقوب ﴾ الآية ... يقول هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ومن يكون كذلك فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً الى سبيل الرشاد ﴿ ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ وهو الإقرار بالتوحيد بأنه لا إله الا الله وحده لا شريك له وفضله تعالى هو: ما أوحاه الينا وأمرنا به أما فضله على الناس إذ جعلنا دعاةً لهم الى ذلك ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل اليهم واتباعهم فيما أمروهم ونهوهم وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس انه كان يجعل الجد أباً، ويقول: والله لمن شاء لاعنته عند الحجر، ما ذكر الله جداً ولا جدةً قال الله تعالى: ﴿ واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ﴾

﴿ يَاصَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۞ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٤٠) ﴾

لما رأى يوسف عليه السلام في سجية الفتيين من قبول الخير والأقبال عليه والإنصات له فقد ارتأى تقديم دعوة التوحيد والإيمان بالله الواحد القهار على تعبير رؤياهما، لما في ذلك التقديم من الأهمية العظمى، فأقبل عليهما يخاطبهما: ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ اي الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه خير أم تلك التي يعبدونها ويسمّونها آلهة، انما هي تسمية منهم ومن تلقاء أنفسهم تلقاها

خلفهم عن سلفهم وليس لذلك مستند من عند الله ولهذا قال: ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي من حجة ولا برهان ثم أخبرهم ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ الذي لــه التصرف والمشيئة والملك ﴿ أمر الاّ تعبدوا إلا إياه ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي هذا هو الدين الذي ادعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذي يحبه ويرضاه ﴿ ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فلهذا كان اكثرهم مشركين . ولما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال :

﴿ يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ۞ (٤١) ﴾

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ ٱلشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۞ (٤٢) ﴾

يقول لهما : ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾ باشر بتفسير منامهم بعد ان اطمأن عليه السلام أنه بلّغ الدعوة دعوة التوحيد وقدمهــا حسب اهميتها عــلى التفسير فقال : أما أحدكما تفسير منامه وانه سيسقي ربّه خمراً أي الملك .

﴿ وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ اي سيصلبه الملك وتأتي الطير وتأكل من رأسه ، وهكذا فإنه عليه السلام لم يعين كل واحد على حدة لئلا يحزن ذاك ولهذا أبهمه في قوله : ﴿ وأما الآخر ... ﴾ وهو - في نفس الأمر - الذي رأى أنه يحمــل فوق رأسه خبزاً . قال الثوري عن ابراهيم بن عبدالله قال : لما قالا ما قالا واخبرهما . قالا : ما رأينا شيئاً فقال : ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ وكذا روي عن ابن مسعود وكذا فسره مجاهد وغيره وحاصله ان من تحلّم بالباطل ، وفسره فانه يلزم بتأويله والله تعالى أعلــم .

وروى الإمام أحمد عن معاوية عن حيدة ، عن النبي ﷺ : ٦١٨ [الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت] وفي مسند أبي يعلى عن أنس مرفوعا : ٦١٩ [الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبّر فإذا عبرت وقعت] وفي مسند أبي يعلى عن أنس مرفوعا

٦٢٠ [الرؤيا لأول عابر] وقوله تعالى : ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أوصى يوسف عليه السلام من ظن أنه ناج : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ أي ذكِّر الملك بقصّتي، فنسي ذلك ، وكان ذلك من جملة مكايد الشيطان لئلا يخرج نبي الله من السجن ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أي أن الشيطان أنسى الذي أوصاه يوسف ان يذكره عند الملك ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ والبضع هو ما بين الثلاث إلى التسع والله تعالى أعلم .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ۞ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ۞ (٤٤) وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۞ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ۞ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ۞ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۞ (٤٩) ﴾

قدر الله في الرؤيا التي رآها الملك السبب في خروج يوسف عليه السلام من السجن معززاً مكرماً ، وقد هالت الملك هذه الرؤيا وتعجب من أمرها فجمع الكهنة وكبار الدولة وامراءها فقصها عليهم فلم يعرفوا تأويلها واعتذروا إليه بأنها : ﴿ أضغاث أحلام ﴾ أي أخلاط أحلام ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ أي حتى ولو كانت رؤيا صحيحة

لماكان لنا معرفة بتأويلها ، تذكّر الفتى الذي كان أوصاه يوسف أن يذكره عند الملك فقال لهم بعد نسيان امر يوسف : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ أي فابعثوني إلى يوسف الصديق الى السجن فبعثوه ، فجاء ، فقال : ﴿ يوسف ايها الصديق أفتنا ﴾ وذكر المنام ... فعند ذلك ذكر اه يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى على نسيانه ما وصاه به بل قال : ﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ففسر البقر بالسنين ، لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع ، وهن السنبلات الخضر ثم ارشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين فقال : ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ يعني ادخروا غلات السبع سنين في سنبله ليكون أبقى له ، وأبعد عن اسراع الفساد إليه الا المقدار الذي تأكلونه ، وليكن قليلاً قليلاً ، لا تسرفوا فيه لتنفقوا في السبع الشداد ، وهن السنون المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات ، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان ، لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب ، وهن السنبلات اليابسات ، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئاً ، وما بذروه فلا يرجعون منه الى شيء ، ولهذا قال : ﴿ يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلاً مما تحصنون ﴾ ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس أي يمطرون وتغل البلاد . ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه وسكر ونحوه ويدخل فيه حلب اللبن ﴿ وفيه يعصرون ﴾ أي يحلبون .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۞ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ ۞ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَائِنِينَ ۞ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٥٣)

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه، فعرف فضل يوسف عليه السلام وحسن اطلاعه وحسن اخلاقه على من ببلده فقال : ﴿ ائتوني به ﴾ أي احضروه ، فلما جاء الرسول بذلك امتنع من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب اليه من جهة امرأة العزيز وان سجنه كان ظلماً وعدواناً فقال : ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وصبره ، صلوات الله وسلامه عليه ففي الصحيحين والمسند عن ابي هريرة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٢١ [نحن احق بالشك من ابراهيم إذ قال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ الآية ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي] وفي لفظ لأحمد عن ابي هريرة عن رسول الله ﷺ في قوله : ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾ فقال رسول الله ﷺ ٦٢٢ [لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر »] .

وقوله تعالى : ﴿ قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ اخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن ايديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطباً لهن كلهن وهو يريد امرأة العزيز عما فعلن بأنفسهن يوم الضيافة ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ فعند ذلك : ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴾ أي ظهر وتبين ﴿ أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ﴾ أي في قوله : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾تقول : انما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وانما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة﴿ وان الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرىء نفسي ﴾ تقول المرأة : ولست أبرىء نفسي فإن النفس تتحدث وتتمنّى ، ولهذا راودته لأن ﴿ النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ إلاّ من عصمه الله تعالى ﴿ ان ربي غفور رحيم ﴾وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب لسياق القصة ومعاني الكلام . وقد حكاه الماوردي في تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام ابو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حـــدة .

وقد قيل : ان ذلك الكلام كلام يوسف عليه السلام يقول : ﴿ ذلك ليعلم اني لم أخنه ﴾ في زوجته ﴿ بالغيب ﴾ الآيتين ... والقول الأول أقوى وأظهر ، لأن سياق الكلام

كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك (١) .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ (٥٤) قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ (٥٥) ﴾

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ (٥٦) وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ (٥٧) ﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب اليه قال : ﴿ ائتوني به استخلصه لنفسي ﴾ أي اجعله من خاصّي واهل مشورتي ﴿فلما كلّمه﴾ أي خاطبه وعرف فضله وبراعته، وما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكمال، قال له الملك : ﴿ انك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ أي إنك عندنا ذو مكانةٍ وأمانة ، فقال يوسف عليه السلام : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ ويجوز للرجل مدح نفسه إذا جُهل أمرُهُ للحاجة فذكر أنه خازن أمين ذو علم وبصيرة بما يتولاّه ، ولما سيستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد ، فأجيب الى رغبته تكرمةً له ولهذا قال تعالى : ﴿ وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض ﴾ أي أرض مصر ، ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ أي يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ أي وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز (٢) فلهذا

(١) الآيتان /٥٢/٥٣/ من قوله تعالى: « ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب إلى قوله غفور رحيم » السياق يدلُّ على ان هذا الكلام من كلام امرأة العزيز ولكنه كلام مؤمنة بالله فهل هي كذلك ؟ فإن كانت كذلك ... وإلا فهو أليق بأن يكون كلام يوسف عليه السلام .

(٢) وصبره على الامتحان العظيم الذي امتحنه الله به من عفة النفس وطهارة الذيل ، وعزوفه عما طلب إليه من الوقوع بالفاحشة وخروجه رغم المغريات الهائلة من هذه الامتحان ظافراً أبياً وطاهراً نقياً

أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ ويخبر تعالى ان ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا والغرض أنّ يوسف عليه السلام ولاّه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة مكان عزيز مصر وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام . قاله مجاهد ، وقيل أنه تزوج امرأة العزيز بعد وفاة زوجها

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ❁ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ ❁ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ❁ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ❁ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ٱجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا ٱنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ❁ (٦٢)

صدق تفسير يوسف للرؤيا فوقعت السبع السنون المخصبة ثم تلتها السنون السبع المجدبة وكان خلالها يوسف يباشر الوزارة بمصر ويشرف على خزن الغلال في سنبلها إبان السنين الخصبة فجمعها أحسن جمع فاحتاط بذلك للسنين السبع المجدبة فوردَ الناس على يوسف من سائر الأقاليم ، يمتارون لأنفسهم وعيالهم ، وكان في جملة من ورد اخوة يوسف عن أمر أبيهم ، لما بلغهم ان عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه : ﴿ وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ وكان يوسف متربعاً أبهّته ورياسته وسيادته فما كان يدور في نفوسهم ان يوسف سيصير الى ما صار إليه لذلك لم يعرفوه أما هو فقد عرفهم ، وشرع يخاطبهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم إلى بلادي ؟ فقالوا للميرة قال فلعلّكم عيون ...؟ قالوا معاذ الله قال فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب النبي ، قال وله أولاد غيركم ؟ قالوا كنا اثني عشر ، فذهب أصغرنا ، وهلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه ، وبقي شقيقه فاحتبسه ابوه ليتسلى به عنه ، فأمر بإنزالهم واكرامهم ﴿ ولما جهز هم بجهازهم ﴾ أي أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم ﴿ قال

ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ أي هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ . يرغبهم في الرجوع إليه ، ثم رهّبهم فقال : ﴿ فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ﴾ أي ليس لكم عندي ميره ﴿ ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾ أي لا ندخر مجهوداً في مجيئه لتعلم صدقنا فيما قلنا ﴿ وقـال لفتيانه ﴾ أي غلمانه ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿ في رحالهم ﴾ أي في أمتعتهم وهم لا يشعرون ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ بها أي خشي يوسف ان لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ * (٦٤) ﴾

يقول الله تعالى : انهم رجعوا إلى أبيهم ﴿ قالوا يا أبانا منع منا الكيل ﴾ يعنون بعد هذه المرة ان لم ترسل معنا أخانا بنيامين فأرسله معنا نكتل وانا له لحافظون أي وسنرجعه إليك ، وهذا كما قالوا له في يوسف ، فتذكر وعدهم له بإرجاعه ، فقال : ﴿ هل آمنكم عليه كما امنتكم على اخيه من قبل ﴾ أي هل أنتم صانعون به إلاّ كما صنعتم بأخيه مـن قبل ...؟ ﴿ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ أي سيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي ، وارجو الله أن يردّه علي ويجمع شملي به إنه أرحم الراحمين.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ ٱللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * (٦٦) ﴾

لما فتح أخوة يوسف متاعهم ووجدوا فيها بضاعتهم ردت إليهم ﴿ قالوا يا أبانا ما

نبغي ﴾ آي ماذا نريد بعد هذا ... ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ وقد اوفي لنا الكيل ﴿ ونمير أهلنا ﴾ إذا أرسلت اخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا ﴿ ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ﴾ لأن يوسف كان يعطي كل رجل حمل بعير ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ أي ان هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله ﴾ أي تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿ لتأتنّني به إلاّ أن يحاط بكم ﴾ إلاّ ان تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ أكّده عليهم فقال : ﴿ الله على ما نقول وكيل ﴾ قال ابن اسحق : وانما فعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها ، فبعثه معهم .

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ＊ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ＊ (٦٨) ﴾

يخبر تعالى أن يعقوب عليه السلام ، لما جهز بنيه مع أخيهم بنيامين الى مصر أمرهم الاّ يدخلوا من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة خشيةً من أعين الناس ان تصيبهم فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه ، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ، ومنظر وبهاء . وقوله ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ أي إن هذا الاحتراز ، لا يرد قدر الله وقضاءه فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ﴿ إن الحكمُ إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون،ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴾ قالوا هي رفع إصابة العين عنهم ﴿ وانه لذ وعلم لما علمناه ﴾ قال ابن جرير : لذو علم لتعليمنا إياهُ ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٦٩) ﴾

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ۞ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ۞ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ۞ (٧٢) ﴾

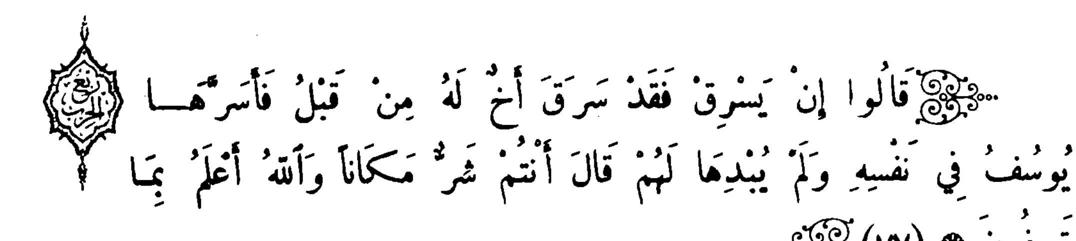
وصل أخوة يوسف عليه السلام ومعهم أخوهم بنيامين ، فأفاض عليهم يوسف عليه السلام من الإكرام والإلطاف والصلة والإحسان ما جعلهم في غاية الكرامة ، واختلى بشقيقه بنيامين فأطلعه على شأنه وعرفه أنه أخوه فقال لا تأسف على ما صنعوا بي ، وأمره بكتمان ذلك عنهم وتواطأ معه أنه سيحتال على إبقائه عنده .

فلما جهز يوسف عليه السلام أخوته وحمّل لهم أبعرتهم طعاماً ، أمر بعض غلمانه أن يضع صاع الملك في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد ثم نادى مناد بينهم ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ فالتفتوا الى المنادي وقالوا : ﴿ ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ﴾ أي صاعه الذي يكيل به ﴿ ولمن جاء به حمل بعير ﴾ وهذا من باب الجعالة ، ﴿ وأنا به زعيم ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ۞ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ۞ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۞ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۞ (٧٦) ﴾

لما اتّهمهم أولئك الفتيان بالسرقة ، قال لهم اخوة يوسف : ﴿ تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾ أي لقد تحققتم من سيرتنا منذ عرفتمونا أنّا : ﴿ ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾ فقال لهم الفتيان : ﴿ فما جزاؤه ﴾ أي السارق ﴿ ان كنتم كاذبين ﴾ أي إن وجدنا فيكم من أخذه ؟ ﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴾ وهكذا كانت شريعة ابراهيم عليه السلام ، أن السارق يسلّم إلى المسروق منه ، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام ، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ففتشها ﴿ ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم ، وإلزاماً لهم بما يعتقدون ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ وهذا من الكيد الذي يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة .

وقوله تعالى : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ أي في حكم ملك مصر انما كان ذلك في شريعة ابراهيم التي يدين بها إخوته ـ والمعنى انه ليس له ان يحكم في دين الملك الذي ما أنزل الله انما يحكم بشريعة آبائه ابراهيم واسحق ويعقوب ، ولهذا مدحه الله تعالى فقال عز من قائل : ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ الآية ... ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ قال ابن عباس : يكون هذا أعلم من هذا . وهذا أعلم من هذا والله فوق كل عالم . وقال قتادة : أي حتى ينتهي العلم الى الله ، منه بديء وتعلمت العلماء واليه يعود .


قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

قَالُوا يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾

تنصل اخوة يوسف الى العزيز لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين : ﴿ قالوا

إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ يعنون به يوسف عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿ فأسرَّها يوسف في نفسه ﴾ يعني الكلمة التي بعدها وهي قوله : ﴿ أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ أي تذكرون . قال هذا في نفسه ، ولم يبده لهم . وهذا من باب الإضمار قبل الذكر ، وهو كثير وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة في منثورها وأخبارها وأشعارها .

ثم لما تعيّن اخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم شرعوا يترقّقون له يعطفونه عليهم ﴿ فقالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ﴾ يعنون أنه يحبه حباًشديداً ويتسلّى به عن ولده الذي فقده ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ أي بدله يكون عندك عوضاً عنه ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ أي العادلين المنصفين القابلين للخير ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده ﴾ أي كما قلتم واعترفتم ، وان فعلنا ما تطلبون ... ﴿ إنّا إذاً لظالمون ﴾ أي نكون قد أخذنا بريئاً بمذنب .

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ ٱللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ ٱللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ ۝ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ۝ (٨١) وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝ (٨٢) ﴾

لمّا يئس أخوة يوسف من إقناع يوسف لاسترداد أخيهم بنيامين بسبب الموثق الذي قطعوهُ لأبيهم بردّه إليه .... ﴿ خلصوا ﴾ أي انفردوا ﴿ نجياً ﴾ أي يتناجون فيما بينهم ﴿ قال كبيرهم ﴾ وهو الذي أشار بإلقائه بالجب دون أن يقتلوه ، قال : ﴿ ألم تعلموا ان أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ لتردّنّه إليه فقد رأيتم كيف تعذر ذلك ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ أي ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ اي هذه البلدة ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿ أو يحكم الله لي ﴾

أي بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بما وقع ، عسى أن يعذرهم ، ويتنصلوا إليه مما وقع . وقوله : ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ اي ما كنا ندري بأن بنيامين سرق شيئاً ، إنما سألنا العزيز ما جزاء السارق فقلنا أخذه ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ أي مصر ﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾ أي التي رافقناها عن صدقنا وحفظنا وحراستنا ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما أخبرناك به ، من أنه سرق وأخذوه بسرقته .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَالِكِينَ * (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * (٨٦)

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿ بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ ظن أنها كفعلتهم بيوسف ثم ترجّى من الله ان يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف ، وبنيامين ، وروبيل ولده الأكبر الذي ظل في مصر منتظراً أمر أبيه بالعودة راضياً عنه أو يتمكن من أخذ أخيه بنيامين خفية ً ولهذا قال : ﴿ عسى الله ان يأتيني بهم جميعاً انه هو العليم ﴾ بحالي ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره ﴿ وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف ﴾ أي جدّد له حزن الأبنين الحزن الدفين على يوسف ﴿ وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ أي ساكت لا يشكو أمره الى مخلوق . فعند ذلك رقّ له بنوه ، وقالوا مترفقين مشفقين : ﴿ تالله تفتؤ تذكر يوسف ﴾ أي لا تفارق ذكر يوسف ﴿ حتى تكون حرضاً ﴾ أي ضعيف القوة ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ أي نخشى عليك من التلف ﴿ قال إنما أشكو بثي وحزني الى الله ﴾ وحده ، ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أي أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سوف أسجد له .

يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رُوحِ ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ * (٨٧)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

يخبر تعالى عن يعقوب عليه السلام أنه ندب بنيه لاستكشاف خبر يوسف واخيه بنيامين وأراد منهم ألاّ ييأسوا ولا يقطعوا أملهم من الله تعالى فيما يقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون وقوله تعالى ﴿ فلمّا دخلوا عليه ﴾ أي على يوسف ﴿قالوا يا أيها العزيز مسنا واهلنا الضر ﴾ يعنون الجدب وقلة الطعام ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاةٍ ﴾ أي ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره ولكنه قليل وأصل الإزجاء : الدفع لضعف الشيء .

وقوله تعالى إخباراً عنهم : ﴿ فأوفِ لنا الكيل ﴾ أي أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك ﴿ وتصدق علينا ﴾ قال ابن جريج ـ تصدق علينا بردّ أخينا إلينا وقال ابن جرير عن مجاهد : سئل هل يكره ان يقول الرجل في دعائه : اللهم تصدق عليّ ؟ قال : نعم ، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب (1) ﴿ إن الله يجزي المتصدقين ﴾

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

يخبر تعالى أن اخوة يوسف ذكروا له ما أصابهم من الجدب وقلة الطعام ، فتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه ، مع ما هو فيه من الملك وسعة التصرف عندها

---

(١) واين يذهب قوله صلى الله عليه وسلم : صدقة تصدقها الله عليكم فاقبلوا صدقته ... ؟

أخذت يوسف عليه السلام رقة ورأفة ورحمة على أبيه وإخوته ، فغلبه البكاء فتعرف إليهم ، وقال : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ والظاهر – والله أعلم – أن يوسف عليه السلام انما تعرف إليهم بنفسه بإذن من الله تعالى له في ذلك، كما أنه أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله أيضاً . ولما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق فقال أتذكرون ما فعلتم بيوسف واخيه وانتم في حالة من الجهل مكتنتكم مما فعلتموه من الذنب فعند ذلك قالوا : ﴿ أئنك لأنت يوسف ﴾ أي تعجبوا من كتمانه نفسه عنهم طيلة السنتين اللتين ترددوا اليه خلالهما وهم لا يعرفونه مع انه يعرفهم قالوا على سبيل الاستفهام ﴿ أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قدمنّ الله علينا ﴾ أي بجمعه بيننا بعد الفرقة طوال سنين وأعوام ، ﴿ انه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلْق والخُلُق والملك ، والنبوة أيضاً – على قول من لم يجعلهم أنبياء – واقروا بخطئهم نحوه ، ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم ﴾ أي لا لوم ولا عتب ، إنما أصفح واسامح ثم زادهم بالدعاء لهم بالمغفرة فقال : ﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ ثم قال :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ۞ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ ٱلْقَدِيمِ ۞ (٩٥) ﴾

يقول : اذهبوا بهذا القميص ﴿ فألقوه على وجه أبي يأتِ بصيراً ﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ أي بجميع بني يعقوب ﴿ ولما فصلت العير ﴾ أي خرجت من مصر ﴿ قال أبوهم ﴾ يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من أهله ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندّون ﴾ تنسبوني الى الفند وهو الخرف والكبَر ، أي لما خرجت العير هاجت الريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام – والمعنى : لولا أن تنسبوني إلى الخرف والكبر وتسفهوا قولي لقلت لكم إني لأجد رائحة يوسف ، وقولهم : ﴿ انك لفي ضلالك القديم ﴾ قال ابن عباس : أي لفي خطئك القديم وهذا كلام غليظ لا ينبغي لهم أن يقولوه لوالدهم ولا لنبي الله ﷺ ، وكذا قال السدي وغيره .

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ۞ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ (٩٨) ﴾

قال مجاهد والسدي : كان يهوذا بن اسرائيل – يعقوب – إنما جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب فأحب أن يغسل ذلك بهذا فجاء بقميص يوسف فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً وقال لبنيه بعد ذلك ﴿ ألم أقل لكم اني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أي أعلم أن الله سيرده إلي ، وقلت لكم ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفنّدون ﴾ عندها قالوا لأبيهم مترفقين له : ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انّا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ أي من تاب إليه تاب عليه قال ابن مسعود وجماعة من التابعين : أجّلهم إلى وقت السّحر ، وقال ابن جرير عن محارب بن دثار قال : كان عمر (رض يأتي المسجد فيسمع انساناً يقول : اللهم دعوتني فأجبت ، وأمرتني فأطعت ، وهذا السحر فاغفر لي . قال : فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبدالله بن مسعود فسأل عبدالله عن ذلك ، فقال : إن يعقوب أخر بنيه الى السحر بقوله : ﴿ سوف استغفر لكم ربي ﴾

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ آمِنِينَ ۞ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ ٱلْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ ٱلشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞ (١٠٠) ﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام هو وبنوه وأهله فقد تحملوا عن آخرهم من بلاد كنعان الى مصر ، وخرج يوسف والملك والأمراء وأكابر

الناس لتلقّيهم ، وقوله تعالى : ﴿ آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ أي قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم اليه : ادخلوا مصر اي اسكنوا مصر ان شاء الله آمنين أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط . وقدر الله تعالى دخول يعقوب في السبع السنين المجدبة ويقال – والله أعلم – ان الله تعالى رفع بقية السنين المجدبة عن أهل مصر ببركة قدوم يعقوب عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ أي أجلسهما معه على السرير ﴿ وخرّوا له سجداً ﴾ اي سجد له أبواه وإخوته الباقون . وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿ وقال يا ابت هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ أي التي كان قصها على أبيه من قبل : ﴿ إني رأيت أحدعشر كوكبا ﴾ الآية ... وقد كان السجود سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام ، فحرم هذا في هذه الملة ، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى وفي الحديث : ٦٢٣ : « ان معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال « ما هذا يا معاذ ؟ » فقال إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يـا رسول الله فقال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها » ، والغرض : أن سجود التحية كان جائزاً في شريعتهم ، ولهذا خرّوا له سجداً فعندها قال يوسف عليه السلام : ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ أي هذا ما آل اليه الأمر ، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر ، وقوله : ﴿ قد جعلها ربي حقاً ﴾ أي صحيحة صدقاً يذكر نعم الله عليه ﴿ وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ﴾ أي البادية فقد كانوا أهل بادية وماشية . وكانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام ﴿ من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ أي إذا أراد أمراً قيض له أسباباً وقدّره ويسّره ﴿ انه هو العليم ﴾ بمصالح عباده ﴿ الحكيم ﴾ في اقواله وافعاله وقضائه وقدره ، وما يختاره ويريد .

قال أبو عثمان النهدي ، عن سليمان : كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة . قال عبدالله بن شداد واليها ينتهي أقصى الرؤيا . وان يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه بمصر سبع عشرة سنة ، ثم قبضه الله إليه . وقال ابو اسحق السبيعي عن عبدالله بن مسعود ، قال : دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون إنساناً وخرجوا منهـا وهم ستماءة الف وسبعون ألفاً .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * (١٠١) ﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعابه ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما منّ الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا ان يستمر بها عليه في الآخرة ، وان يتوفاه مسلماً حين يتوفاه ، وان يلحقه بالصالحين . وهم إخوانه من النبيين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وهذا الدعاء يحتمل ان يوسف عليه السلام ، قاله عند احتضاره : كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ٦٢٤ [ان رسول الله ﷺ جعل يرفع إصبعه عند الموت ويقول « اللهم في الرفيق الأعلى » ثلاثاً] ويحتمل انه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله ، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً ، وكان ذلك سائغاً في شريعتهم . وكان ابن عباس يقول : ما تمنّى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام ولكن هذا لا يجوز في ملتنا . فقد جاء في الصحيحين ٦٢٥ : [لا يتمنّينّ احدُكم الموت لضرٍ نزل به : إمّا محسنا فيزداد ، وإما مسيئاً فلعلّه يستعتب ؛ ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي]

روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال : ٦٢٦ [جلسنا الى رسول الله ﷺ فذكّرنا ورقّقنا فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء ، وقال : يا ليتني ميت فقال النبي ﷺ « يا سعد أعندي تتمنّى الموت ؟ » فردد ذلك ثلاث مرات ، ثم قال « يا سعد إن كنت خلقت للجنة ، فما طال من عمرك ، وحسن من عملك فهو خير لك »] وهذا فيما إذا كان الضر خاصّاً به وأما إذا كانت فتنةً في الدين فيجوز سؤآل الموت ، كما قال تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ وفي حديث معاذ الذي رواه أحمد والترمذي ٦٢٧ : [... وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضي اليك غير مفتون .]

وقال ابن جرير : وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا ... استغفر لهم أبوهم ، فتاب الله عليهم ، وعفا عنهم ، وغفر لهم ذنوبهم ، وذكر السدي : أنّ يعقوب

عليه السلام لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند ابراهيم واسحق فلما مات صبره وأرسله الى الشام ، فدفن عندهما عليهم الصلاة والسلام [1] .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۞ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۞ (١٠٤) ﴾

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قصّ عليه نبأ أخوة يوسف ، وكيف رفعه الله عليهم ، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿ نوحيه إليك ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك لمن خالفك ﴿ وما كنت لديهم ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ أي على القائه في الجب ﴿ وهم يمكرون ﴾ به . ولكننا أعلمناك به وحياً إليك وإنزالاً عليك كقوله تعالى : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ﴾ الآية .

يقول تعالى : إنه رسوله وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق ، مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم .ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر . أي من جعالة ولا أجرة بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً لخلقه ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۞ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۞ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (١٠٧) ﴾

(١) ولكن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأنبياء يدفنون حيث يقبضون .

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات وجنات وجبال وبحار وقفار ، وكم من احياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات مختلفات الطعوم ، والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد الخالق الفرد الصمد .

وقوله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون ﴾ قال ابن عباس : من إيمانهم انهم اذا قيل لهم : منْ خلق السموات ومن خلق الأرض ومنْ خلق الجبال قالوا : الله وهم مشركون به . وفي الصحيحين : ٦٢٨ [إن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك] . وفي صحيح مسلم : [أنهم كانوا إذا قالوا : لبيك لا شريك لك ، قال رسول الله ﷺ : ٦٢٩ « قدقد »] . أي حسبُ لا تزيدوا على هذا . وقال الله تعالى : ﴿ ان الشرك لظلم عظيم ﴾ وهـذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت : ٦٣٠ [يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال ان تجعل لله نِداً وهو خلقك »] .

وقال الحسن البصري في قول تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس ، ذلك يعني قوله تعالى ﴿ ... واذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ وثَمَّ شرك آخر خفيّ لا يَشعُر به غالباً فاعله ، كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض فرأى في عَضُده سيراً فقطعه – أو انتزعه – ثم قال : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون ﴾ وفي الحديث : ٦٣١ [من حلف بغير الله فقد أشرك] رواه الترمذي وحسّنه وروى أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ٦٣٢ [إن الرّقي والتمائم والتولة شرك] .

وروى الامام أحمد عن عيسى بن عبد الرحمن قال : ٦٣٣ [دخلت على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوده فقيل له لو تعلّقت شيئاً فقال : أتعلق شيئاً وقد قال رسول الله ﷺ : « من تعلق شيئاً وكل إليه » ورواه النسائي عن أبي هريرة .]

وفي مسند الامام أحمد حديث عقبة بن عامر قال : قـال رسول الله ﷺ : ٦٣٤ [من تعلق تميمة فلا أتمّ الله له ومن تعلّق ودعة فلا ودع الله له] .

وعن أبي سعيد بن أبي نضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٦٣٥

[إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي منادٍ : من كان أشرك في عمل لله فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك] رواه أحمد وروى الحافظ أبو يعلي الموصلي عن معقل بن يسار ، قال : شهدت النبي ﷺ أو قال : حدثني ابو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٦٣٦ [الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل » فقال أبو بكر : وهل الشرك إلاّ من دعا مع الله إلهاً آخر ؟ فقال رسول الله ﷺ « الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل » ثم قال : « ألا أدلّك على ما يذهب عنك صغيرُ ذلك وكبيره ؟ قل اللهم اني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، واستغفرك مما لا أعلم »] .

وقوله تعالى : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ﴾ الآية ... أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله ان يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون كقوله تعالى : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٠٨)

يقول تعالى لرسوله ﷺ آمراً له أن يخبر الأنس والجن أن هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته ، وهي الدعوة إلى شهادة ان لا إله الا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا اليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي . وقوله تعالى : ﴿وسبحان الله ﴾ أي وأنزه الله و أجلّه وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٩)

يخبر تعالى أنه أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء كما

دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ان الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم ام عيسى نبيّات ، وكل ما جاء في القرآن من الايحاء إليهن أو تكليم الملائكة لهن ، لا يلزم منه أن يكنّ نبيات بذلك ، فإن أرادوا بالنبوة هذا القدر من التشريف فلا شك أنه تشريف لهن ولكن لا يكفي هذا للانتظام بسلك النبوة بمجرده ، والذي عليه أهل السنة والجماعة انه ليس في النساء نبية ، وإنما فيهن صدّيقات كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقيّة فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام فهي صديقة بنص القرآن . وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ﴾ أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، ويعضد هذا القول قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ وقوله تعالى : ﴿ من أهل القرى ﴾ المراد بالقرى : المدن لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً وألطف من أهل بواديهم . وقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم المكذبة للرسل كيف دمرّ الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فإذا استمع هؤلاء خبر أولئك رأو أن الله قد أهلك الكافرين ونجّى المؤمنين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة وهي خير لهم من الدنيا بكثير ، كقوله تعالى : ﴿ إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ۞ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ .

﴿ حَتَّى اذَا ٱسْتَيْئَسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ (١١٠) ﴾

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات كقوله تعالى : ﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ الآية في قوله تعالى ﴿ كذبوا ﴾ قراءتان احداهما

بالتشديد ﴿ قد كُذِّبُوا ﴾ وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها . والأخرى بالتخفيف وفيه أيضاً روايتان عن ابن عباس ، ورواية ابن مسعود ، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بالتخفيف وانتصر لها ابن جرير فقد روى البخاري عن عروة بن الزبير عن عائشة انها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ... ﴾ قال : قلت : أكذّبوا أم كُذِبُوا ؟ قالت عائشة : كذّبوا . قلت : فقد استيقنوا ان قومهم كذّبهم فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك ، فقلت لها ﴿ وظنوا انهم قد كُذِبُوا ﴾ قالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ ممن كذّبهم من قومهم ، وظنت الرسل ان أتباعهم قد كذّبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك . وحدثنا أبو اليمان ، أنبأنا شعبة عن الزهري قال أخبرنا عروة : فقلت لها : لعلها قد كُذِبوا مخففة ؟ قالت معاذ الله .

وقال ابن جريج عن عروة عن عائشة أنها خالفت – القول بالتخفيف – وأبته وقالت : ما وعد الله محمداً ﷺ إلا قد علم أنه سيكون حتى مات ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم . قال ابن أبي مليكة من حديث عروة : كانت عائشة تقرؤها : ﴿ وظنوا أنهم قد كُذِّبوا ﴾ مثقّلة من التكذيب [١] . وانتصر لعائشة ابن جرير ، ووجّه المشهور عن الجمهور وزيف القول الآخر بالكلية ، وردّه وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه . والله تعالى أعلم .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١١١)

يقول تعالى : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم ، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿ عبرةٌ لأولى الألباب ﴾ وهي العقول ، ﴿ ما كان حديثا يفترى ﴾ أي ما

---

(١) قلت : والذي قالته أحسن الأقوال وأصحها وأليقها بحضرة الأنبياء والرسل عليهم السلام . ومن أحب أن يستطلع ما قاله الآخرون فليرجع إلى أصل تفسير ابن كثير .

ما كان لهذا القرآن أن يكذب ويختلق ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي يصدّق ما صح من الكتب السماوية وينفي ما حُرّف وغُيّر ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ من أوامر ونواه في العقائد والعبادات والمعاملات وأنباء الأمم الغابرة والاعتبار بما كان منها من تأييد للرسل أو معادات لهم ، وما كان من نتائج ذلك فلهذا كان ﴿ هدىً ورحمةً لقوم يؤمنون ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ، ويبتغون به الرحمة من رب العباد في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة ، يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم الناضرة ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة .

آخر اختصار تفسير سورة يوسف عليه السلام ولله الحمد والمنة وبه المستعان .

١٣٨٩/٢/١٠

١٩٦٩/٤/٢٧



نزلت بعد سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ (١) ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ أي هذه آيات القرآن ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال سبحانه ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ أي وهذا الكتاب الذي أنزل إليك هو الحق و ﴿ الحق ﴾ خبر تقدم مبتدؤه . وقوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ أي مع هذا البيان والوضوح لا يؤمن أكثر الناس لما فيهم من العناد والنفاق .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۞ (٢) ﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه ، أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد ، ارتفاعاً عن الأرض لا يدرك مداه ، ذلك من كل جانب ، ومحيطة بجميع الأرض سماءً فوق سماء وهكذا إلى السماء السابعة كما قال تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ﴾ الآية ... [١]

وفي الحديث : ٦٣٧ [ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والكرسي في العرش المجيد كتلك الحلقة في تلك الفلاة] . وفي رواية : ٦٣٨ [والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل] . وقوله تعالى : ﴿ بغير عمد ترونها ﴾ أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها وهذا هو الأكمل في القدرة وأليق بالسياق .

وقوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف عند الآية /٥٤/ وإنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، تعالى الله علواً كبيراً . وقوله تعالى : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ أي انهما يجريان إلى أجل معلوم عند الله تعالى . وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب إنما يدخل بالتسخير سائر الكواكب والنجوم بطريق الأولى والأحرى . كقوله تعالى ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ وقولهُ تعالى : ﴿ يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ أي يوضح الآيات ، والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه ، ولا رب سواه .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ (٣) وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ (٤) ﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوي ، شرع في ذكر قدرته وحكمته ، وأحكامه للعالم السفلي ،

فقال تعالى : ﴿ وهو الذي مد الأرض ﴾ أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض ، وأرساها بجبال راسيات شامخات ، وأجرى فيها الأنهار ليسقي فيها الثمرات المختلفة الطعوم والأشكال والألوان والروائح ﴿ فيها من كل زوجين اثنين ﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ أي جعل كلاً منهما يطلب الآخر حثيثا ﴿ إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلائله .

وقوله تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ ولكن هذه خصبة وهذه جدبة وهذه سبخة ،وهذه حمراء ، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء وهذه سوداء ، وهذه محجرة وهذه سهلة أو سميكة أو رقيقة والكل متجاورات ، فهذا كله يدل على الفاعل المطلق لا إله الا هو ولا رب سواه وقوله تعالى : ﴿ وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ﴾ أي من أصل واحد ومتفرقات .

وقوله تعالى : ﴿ يسقي بماءٍ واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها وطعومها وكلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء . مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً ، هذا من أعظم الدلالات على الفاعل الخالق الذي فاوت بين هذه الأشياء بقدرته ، وخلقها على ما يريد ولهذا قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ءَإِذَا كُنَّا تُرَاباً ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ ٱلْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ (٥)

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وإن تعجب ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله ودلائله على قدرته مع انهم معترفون بأنه هو الخالق المبتديء للخلق من العدم فاعترافهم بما هو أعظم وتكذيبهم بما هو دونه لمما يثير العجب فإن تعجب من شيء ﴿ فعجبٌ قولهم أإذا كنا تراباً أإنّا لفي خلقٍ جديد ﴾ !؟ وقد علم كل عاقل ان من بدأ الخلق من العدم ، فالإعادة عليه أسهل كقوله تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ ثم وصف المكذبين بهذا ، فقال سبحانه : ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم

وأولئك الأغلال في أعناقهم ﴾ أي يسبحون بها في النار ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي ماكثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ● (٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ويستعجلونك ﴾ أي هؤلاء المكذبون ﴿ بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أي بالعقوبة كما أخبر عنهم في قوله تعالى : ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطّنا ﴾ أي عقابنا وحسابنا وقوله تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ فكانوا من شدة تكذيبهم ، وعنادهم وكفرهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله ، قال الله تعالى : ﴿ وقد خلتْ من قبلهم المثلات ﴾ أي قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم . وقوله تعالى : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ أي أنه تعالى ذو عفو وصفح وستّر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار ، ثم قرن هذاالحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف كما قال تعالى : ﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمةٍ واسعةٍ ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ فلولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال سبحانه : ﴿ و لويؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة ﴾ .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ● (٧) ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين إنهم يقولون كفراً وعناداً : لولا يأتينا بآية من ربّه كما أرسِل الأوّلون ، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيح عنهم الجبال ، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً ؛ قال تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاّ ان كذب بها الأولون ﴾ الآية قال الله تعالى : ﴿ إنما أنت منذر ﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها و ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولكل قوم هادٍ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أي ولكل قوم داعٍ ،

وقال العوفي عن ابن عباس في الآية : يقول الله تعالى : أنت يا محمد منذر وانا هادي كل قوم ، وكذا قال جماعة من التابعين وغيرهم وعن مجاهد : ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ أي نبيّ ، كقوله تعالى : ﴿ وإن من أمةٍ إلاّ خلا فيها نذير ﴾ وبه قال قتاده وعبد الرحمن بن زيد .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۞ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۞ (٩) ﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفي عليه شيء وانه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات كما قال تعالى : ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناهُ نطفة في قرار مكين ۞ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٣٩ [إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وعمره ، وعمله ، وشقي أو سعيد] وقوله تعالى : ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ الغيض يعني السِقْط ﴿ وما تزداد ﴾ يقول ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً ؛ وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومن تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد في الحمل ، ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه عز وجل . وقوله تعالى : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ أي بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلاً معلوماً . وقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم ، ولا يخفى عليه شيء منه ﴿ الكبير ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء ﴿ المتعال ﴾ أي على كل شيء .

﴿ سَوَآءٌ مِنكُم مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۞ (١٠) لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۞ (١١) ﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه ، وإنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به ، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله تعالى : ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ وقالت عائشة رضي الله عنها : ٦٤٠ [سبحان الذي وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وأنا في جنب البيت ، وانه ليخفى عليَّ بعض كلامها . فأنزل الله : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ .] وقوله تعالى . ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ أي مختف في قعر بيته في ظلام الليل ، ﴿ وسارب بالنهار ﴾ أي ظاهر ماش في بياض النهار . فإن كلاهما في علم الله على السواء ، كقوله تعالى : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وقوله تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ، حرس بالليل ، وحرس بالنهار . يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ليلاً ونهاراً ، كما جاء في الصحيح : ٦٤١ [يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون .] وفي الحديث الآخر : ٦٤٢ [ان معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم]. روى الأمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : [« ما منكم من أحد إلاّ وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » قالوا : ٦٤٣ وإياك يا رسول الله ؟ قال « وإياي ، ولكن الله أعانني عليه ، فلا يأمرني إلاّ بخير »] انفرد به مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ يحفظونه من امر الله ﴾ أي يحفظونه من أمر الله بأمر الله كما جاء في الحديث أنهم قالوا : ٦٤٤ [يا رسول الله : أرأيت رقياً نسترقي بها ، هل تزد من قدر الله شيئاً فقال « هي من قدر الله »] وقوله تعالى ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا

ما بأنفسهم ﴾ قال ابن أبي حاتم عن ابراهيم قال : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني اسرائيل أن قل لقومك : أنه ليس من أهل قرية : ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله ، الا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون ثم قال : إن تصديق ذلك في كتاب الله : ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِىءُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۞ (١٢) وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَٱلْمَلٰئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي ٱللهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۞ (١٣) ﴾

يخبر تعالى انه هو الذي يسخر البرق ، وهو ما يرى من النور الساطع من خلل السحاب ، وقوله تعالى : ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته ، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله ، قاله قتادة. ﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾ أي ويخلقها منشأة جديدة ، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض . قال مجاهد:السحاب الثقال الذي فيه الماء ، قال تعالى : ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وان من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ .

روى الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا ابراهيم بن سعد ، أخبرني أبي قال كنت جالساً إلى جنب حميد بن عبد الرحمن في المسجد ، فمرشيخ من بني غفار فأرسل اليه حميد فلما أقبل قال : يا ابن أخي : وسّع فيما بيني وبينك ، فانه قد صحب رسول الله ﷺ فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه ، فقال له حميد : ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله ﷺ ؟ فقال له الشيخ : سمعت عن شيخ من بني غفار أنه سمع النبي ﷺ يقول : ٦٤٥ [ان الله ينشيء السحاب فينطق أحسن النطق ، ويضحك أحسن الضحك] والمراد – والله أعلم – ان نطقها الرعد وضحكها البرق . وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن ابراهيم قال : يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكاً ، ولا آنس منه منطقاً ؛ فضحكه البرق ، ومنطقه الرعد .

روى الإمام أحمد عن سالم عن أبيه قال : ٦٤٦ [كان رسول الله ﷺ إذا سمع

الرعد والصواعق قال: « اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك »] ورواه الترمذي ، والبخاري في كتاب الأدب ،والنسائي في اليوم والليلة والحاكم في مستدركه روى الامام أبو جعفر بن جرير عن أبي هريرة رفعه : ٦٤٧ [أنه كان إذا سمع الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده »] قال الأوزاعي كان ابن أبي زكريا يقول : من قال حين يسمع الرعد : سبحان الله وبحمده لم تصبه صاعقة . روى الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٤٨ [اذا سمعتم الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً]وقوله تعالى : ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ أي يرسلها نقمةً ينتقم بها ممن يشاء ، ولهذا تكثر في آخر الزمان . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ٦٤٩ [تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتي الرجل القوم فيقول : من صعق قبلكم الغداة ؟ فيقولون : صعق فلان وفلان وفلان] وقد روي في سبب نزول هذه الآية عدة روايات منها ما رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الرحمن بن صحار العبدي انه : ٦٥٠ [بلغه أن النبي ﷺ بعثه إلى جبار يدعوه فقال : أرأيتكم ربكم أذهبٌ هو ؟ أم فضة هو ؟ أم لؤلؤ هو ؟ قال : فبينما هو يجادلهم إذ بعث الله سحابة فرعدت فأرسل عليه صاعقة ، فذهبت بقحف رأسه ، فنزلت هذه الآية]وقيل أنها نزلت في قصة عامر بن الطفيل ، وإربد بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة فسألاه ان يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله ﷺ فقال له عامر أما والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً ورجالاً مردا فقال له رسول الله ﷺ : « يأبى الله عليك ذلك وابناء قيلة » يعني الأنصار ثم إنهما همّا بالفتك برسول الله ﷺ فحماه الله تعالى منهما وعصمه فخرجا يؤلبان الناس لحربه فأرسل على اربد صاعقة فأحرقته وأما عامر فأصابه الله بالطاعون فخرجت فيه غدة فقتلته فنزلت فيهما هذه الآية : ﴿ ويرسل الصواعق ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ أي يشكّون في عظمته ، وأنه لا إله الا هو . ﴿ وهو شديد المحال ﴾ قال علي رضي الله عنه شديد الأخذ .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝ (١٤) ﴾

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ (١٥) ﴾

سجدة

قال علي وابن عباس رضي الله عنهما ﴿ له دعوة الحق ﴾ التوحيد اي لا إله الا الله ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي ومثل الذين يعبدون من دون الله آلهة ﴿كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ﴾ أي يدعو الماء ، ويشير إليه فلا يأتيه أبداً ، أي فكما أن الذي يدعو الماء إليه لا يصل إلى فيه ، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلها غيره لا ينتفعون بهم أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة ولهذا قال تعالى : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي وما عبادة الكافرين للأصنام إلاّ في ضياع . وقوله تعالى : ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض ﴾ ثم ان الله تعالى يخبر عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ولهذا يسجد له كل شيء ، (طوعاً ، سجوداً حقيقياً بوضع الجبهة على الأرض تعظيماً وخضوعاً وتذللاً وذلك ظاهر في المؤمنين والملائكة ومسلمي الجن وكرهاً من الكافرين والمنافقين ، فالمؤمنون يسجدون طوعاً ولا يثقل عليهم السجود واما الكافرون والمنافقون يسجدون إكراهاً وخوفاً)[١] . وقوله تعالى : ﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ الغدوّ البكور ، والآصال جمع أصيل ، وهو آخر النهار والمعنى (أي تتبعهم ظلالهم بالسجود وخص الغدوّ والآصال بالذكر لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما ، وتسجد ظلالهم في هذين الوقتين تبعاً لأجسامهم)[٢] كقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ﴾ .

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَاتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ (١٦) ﴾

يعترف المشركون بأن الله هو خالق السموات والأرض وهو ربها ومدبرها ، ومع

---

(١) و (٢) ما ضمن الهلالين ليس من كلام ابن كثير بل من كلامي .

هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم لا يملكو ن لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فكيف لعابديهم ... ؟ فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له وهو على نور من ربه ؟ ولذا قال سبحانه : ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾ أي ليس الأمر كذلك ... فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله ، ولا ندّ لَهُ ولا عدل له ، ولا وزير له ولا ولد له ولا صاحبة . وانما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له ، عبيد له كما أخبر تعالى عنهم في قوله تعالى : ﴿ ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فأنكر الله عليهم ذلك حينما اعتقدوا ذلك وقال راداً عليهم ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وقال أيضاً : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلاّ آتى الرحمن عبداً ﴾ فإذا كان الجميع عبيده ، فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا برهان بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع ، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم ، تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة غير الله فكذبوهم وخالفوهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة . ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ۝ (١٧) ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائه ؛ فقال تعالى : ﴿ انزل من السماء ماء ﴾ أي مطراً ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ أي أخذ كل واد بحسبه فهذا كبير وسع ماءً كثيراً ، وهذا صغير وسع بقدره ، وهو اشارة إلى القلوب وتفاوتها ؛ فمنها ما يسع علماً كثيراً ، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم يضيق عنها ﴿ فاحتمل النسيل زبداً رابياً ﴾ أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه ، هذا مثل ؛ ومثل ثان وهو قوله تعالى : ﴿ ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع ﴾ الآية ... وهو ما يسبك في النار من

ذهب أو فضة ابتغاء حلية ، أي ليُجعل حليةً أو نحاساً أو حديداً ، فيُجعَل متاعاً ، فانه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ أي إذا اجتمعا ، لا ثبات للباطل ولا دوام له ، كما ان الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ، ونحوهما مما يسبك في النار ، بل يذهب ويضمحل ولهذا قال تعالى : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ أي لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ، ويذهب في جانبي الوادي ، ويعلق بالشجر ، وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس ، يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء والذهب ونحوه ينتفع به ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وقال بعض السلف : كنت اذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه . بكيت على نفسي لأن الله تعالى يقول : ﴿ وما يعقلها الا العالمون ﴾ وهكذا روي في تفسير هذه الآية عن علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس وكذلك عن مجاهد والحسن البصري وعطاء وقتادة وغير واحد من السلف والخلف .

وفي الصحيحين عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
٦٥١ [ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ؛ وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا ، ورعوا ، وسقوا ، وزرعوا ؛ وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به ، فعلم وعلّم ؛ ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به]

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَٱفْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال سبحانه : ﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ أي أطاعوا الله ورسوله فلهم ﴿ الحسنى ﴾ وهو الجزاء الحسن كقوله تعالى : ﴿ واما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ أي لم

يطيعوا الله ورسوله ﴿ لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ﴾ أي في الدار الآخرة لو أن يمكنهم ان يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل منهم ، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿ أولئك لهم سوء الحساب ﴾ أي في الدار الآخرة أي يناقَشون على القير والقطمير والجليل والحقير ومن نوقش الحساب عُذّب ولهذا قال تعالى : ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .

حزب ٢٦

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ۞ (١٩) ﴾

يقول تعالى : لا يستوي من يعلم من الناس ان الذي ﴿ أنزل إليك ﴾ يا محمد ﴿ من ربك ﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ولا اختلاف ، بل كله حق يصدق بعضُه بعضاً ، وأوامره ونواهيه عدل ، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد إليه ولا صدقه ولا اتبعه كقوله تعالى : ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ أي لايستوي هذا وهذا . وقولهُ تعالى : ﴿ انما يتذكر أولو الألباب ﴾ أي إنما يتعظ ويعقل، هم أهل العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم .

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ ۞ (٢٠) وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ ۞ (٢١) وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۞ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَٱلْمَلَٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ ۞ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۞ (٢٤) ﴾

يخبر تعالى عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم العاقبة والنصرة دنيا وأخرى ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ أي ليسوا كالمنافقين إذا عاهد أحدهم

غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف ﴿ ويخشون ربهم ﴾ أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يخافون سوء الحساب في الآخرة، فلهذا كان أمرهم على السداد والاستقامة في جميع أحوالهم . ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ أي عن المحارم والمآثم ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي ﴿وانفقوا مما رزقناهم﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿ سراً وعلانية ﴾ أي في السر والجهر ، آناء الليل وأطراف النهار ﴿ ويدرأون بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن ويقابلون الأذى بالصبر الجميل احتمالاً وصفحاً ، وعفواً . كقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ... ﴾ ولهذا أخبر عن حال السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله تعالى : ﴿ جنات عدن ﴾ أي جنات إقامة يخلدون فيها مع الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء لتقر أعينهم بهم حتى أنه ترفع درجات الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً . وقوله تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ أي تدخل الملائكة عليهم من ها هنا ومن ها هنا للتهنئة بدخول الجنة فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلّمين ، مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الرسل والأنبياء والصديقين. وقد جاء في الحديث : ٦٥٢ [أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾] .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۞ (٢٥) ﴾

هذا حال الأشقياء وصفاتهم ، وذكر ما لهم في الآخرة ، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون ، الذين كانوا يوفون بعهد الله ، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل

وهؤلاء ﴿ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل ويفسدون في الأرض ﴾ كما ثبت في الحديث : ٦٥٣ [آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف واذا أؤتمن خان » – وفي رواية – واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر] ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك لهم اللعنة ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ أي سوء العاقبة والمآل ، ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۞ (٢٦)

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتّر على من يشاء بحكمة منه وعدل وفرح الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً ، كما قال تعالى : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال عزوجل ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾كما قال تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ . روى الامام احمد عن المستورد أخي بني فهر قال قال رسول الله ﷺ ٦٥٤ : [ما الدنيا في الآخرة إلاّ كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم ، فلينظر بما ترجع » وأشار بالسبابه) رواه مسلم في صحيحه .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ۞ (٢٧) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۞ (٢٨) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ۞(٢٩)

يخبر تعالى عن قيل المشركين ﴿ لولا ﴾ أي هلاّ ﴿ أنزل عليه آية من ربه ﴾ كقولهم : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة ، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا وفي الحديث : ٦٥٥ [ان الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً ، وأن يجري لهم ينبوعاً ، وان يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه

أحداً من العالمين وان شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة ؛ فقال : ﴿ بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة »] ولهذا قال لرسوله ﷺ : ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب ﴾ أي هو المضل والهادي سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه كما قال تعالى : ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ ولهذا قال تعالى :
﴿ قل إن الله يضل من يشاءويهدي إليه من أناب ﴾ أي ويهدي إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع إليه ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله ، وتسكن عند ذكره وترضى به مولى ونصيراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [1] أي هو حقيق بذلك .

وقوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس : فرح وقرة عين . وقيل : نعم مالهم ، وطوبى هي الجنة أو شجرة في الجنة كل شجر الجنة منها وكل دار فيها غصن منها ، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماءولبن . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٥٦ [في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة إقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾] .

وفي الصحيحين : ٦٥٧ [أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذي يكون آخر أهل الجنة دخولاً الجنة : تمنَّ فيتمنّى حتى اذا انتهت به الأماني يقول الله تعالى : تمنَّ من كذا ، تمنَّ من كذا ، يذكّره ثم يقول : ذلك لك وعشرة أمثاله] وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل : ٦٥٨ [يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر] .

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝ (٣٠) ﴾

(١) فما قول (القوم ...) حين يقول شاعرهم : بذكر الله تزداد الذنوب ...؟!!! ويعدّون هذا القول ... من القربات ...؟! أرأيتم كيف يزين الشيطان الكفر للنفوس حتى يقنعها بأنه هو الإيمان بعينه ، وتنشرح صدورهم به !!! فيكفرون ولا يستغفرون ويلقون الله على ذلك ؟ اللهم اهدهم صراطك المستقيم .

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿ لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك ﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم ، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله وقد كذب الرسلُ من قبلك ، فلك بهم أسوة . وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك ، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم ، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين . قال الله تعالى : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله وقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ أي كيف نصرناهم ، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن ولهذا أنِفوا يوم الحديبية ان يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم وقالوا ما ندري ما الرحمن الرحيم . قاله قتادة والحديث في صحيح البخاري . وقد قال الله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياماً تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٥٩ [إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن] ﴿ قل هو ربي لا إله إلا هو ﴾ أي هذا الذي تكفرون به ، أنا مؤمن به معترف ، مقر له بالربوبية والألوهية هو ربي لا إله الا هو ﴿ عليه توكلت ﴾ أي في جميع أموري ﴿ وإليه متاب ﴾ أي أرجع إليه وأنيب فإنه لا يستحق أحد ذلك سواه .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْئَسِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) ﴾

يمدح الله القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ويفضله على سائر الكتب المنزلة قبله فقال سبحانه : ﴿ ولو أن قرآناً سيّرت به الجبال ﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تنشق به الأرض ، أو تكلم به الموتى في قبورها ، لكان هذا القرآن أولى الكتب اتّصافاً بذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن

عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به ﴿ بل لله الأمر جميعا ﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل . وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه جامع لها ؛ روى الامام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : ٦٦٠ [خفف على داود القرآن فكان يأمر بدابته أن تسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته ، وكان لا يأكل إلاّ من عمل يديه] انفرد به البخاري والمراد بالقرآن الزبور وقوله تعالى : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ أي من ايمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا : ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن الذي ما تركه من جبار إلاّ قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم ﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا،أو تصيب من حولهم ليتّعظوا ويعتبروا . روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ قال سريّةٌ ﴿ أو تحل قريباً من دارهم ﴾ قال محمد ﷺ : ٦٦١ [﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ قال « فتح مكة »] وقوله تعالى﴿ان الله لا يخلف الميعاد ﴾ أي لا ينقض وعده لرسله بالنصرة ولأتباعهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسلَه ان الله عزيز ذو انتقام ﴾ .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ‎(٣٢) ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ﴾ أي فلك فيهم أسوة ﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾ أي انظرتُهم وأجلتُهم ﴿ ثم أخذتهم ﴾ أخذةً رابيةً ، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم كما قال تعالى : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم اخذتها وإلى المصير ﴾ وفي الصحيحين : ٦٦٢ [إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد ﴾] .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ● (٣٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ أي حفيظ عليم رقيب على كل نفس يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ، ولا يخفى عليه خافية ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾ وقال تعالى : ﴿ وهو معكم اينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ أفمن كان كذلك كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، ولا تملك نفعاً لأنفسها فضلاً عن عابديها ولا كشف ضرٍ عنها ولا عن عابديها ... ؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ اي عبدوها معه من أصنام وأنداد ﴿ قل سموهم ﴾ أي اكشفوا عن اسمائهم حتى يعرفوا فانهم لا حقيقة لهم ولا وجود إذ لو كان لهذه الآلهة وجود في الأرض لعلمها فهو لا تخفى عليه خافية ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ أي بظن من القول اي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم انها تنفع وتضر وسميتموها آلهة ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان * إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى . ﴾ وقال تعالى : ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ قال مجاهد : أي ضلالهم والدعوة إليه باستمرار ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ أي جزاء ما فعلوا من ضلال وإضلال وصدوا عن سبيل الله فجزاهم الله بأن صدهم عن سبيله . ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن يضلل الله فماله من هاد ﴾ كما قال جل وعلا : ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾ .

ربع الحزب

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ● (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ● (٣٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾ أي للمشركين عذاب في الدنيا بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ أي المدّخر لهم مع هذا الخزي في الدنيا، ﴿ أشقّ ﴾ أي من هذا بكثير . كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : ٦٦٣ [إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة] كما قال تعالى : ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيراً * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً * وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً * لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً * قل أذلك خير أم جنّة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً ﴾ ولهذا قرن هذا بقوله تعالى : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي صفتها ونعتها ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي سارحة في ارجائها وجوانبها ، يصرفونها كيف شاءوا واين شاءوا وقوله تعالى : ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء ، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف وفيه : ٦٦٤ [قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكعت فقال : « إني رأيت الجنة ـ أو أريت الجنة ـ فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا »] وعن عتبة بن عبد السلمي : ٦٦٥ [أن أعرابياً سأل النبي ﷺ عن الجنة فقال : فيها عنب ؟ قال « نعم » قال : فما عظم العنقود ؟ قال : « مسيرة شهر للغراب الأبقع ولا يفتر »] رواه الامام أحمد روى الطبراني عن ثوبان قال رسول الله ﷺ : ٦٦٦ [ان الرجل إذا نزع ثمرة من الجنّة عادت مكانها أخرى] روى الحسن بن عرفة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال قال لي رسول الله ﷺ : ٦٦٧ [انك لتنظر إلى الطير في الجنة ، فيخرُّ بين يديك مشوياً] وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ ولما ذكر تعالى صفة الجنة بما ذكر قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لا يستوي أصحاب النار واصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ

وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ، كما قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ قال مجاهد أي اليهود والنصارى من ينكر بعض ما جاءك من الحق ﴿ قل إنما أمرت أن أعبدالله ولا أشرك به ﴾ أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له كما أرسل الأنبياء من قبلي ﴿ إليه أدعو ﴾ إلى سبيله أدعو الناس ﴿ وإليه مآب ﴾ أي مرجعي ومصيري . وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلنا هحكماً عربياً ﴾ أي محكماً معرباً ، شرفناك به ، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي . وقوله تعالى : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ أي آراءهم ﴿ بعد ما جاءك من العلم ﴾ أي من الله سبحانه ﴿ مالك من الله من وليّ ولاواقٍ ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم من أن يتّبعوا سبل أهل الضلالة ، بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية ، على من جاء بها ... أفضل الصلاة والسلام .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً ، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً ، يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، ويأتون الزوجات ، ويولد لهم ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ ﴾ . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٦٦٨ [... أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني] وقوله تعالى : ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله ﴾ أي لم يكن يأتي

قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ لِكل أجل كتاب ﴾ قال الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى : ﴿ لكل أجلٍ كتاب ﴾ أي لكل كتاب أجل يعني لكل كتاب أنزله من السماء مدّة مضروبة عند الله، ومقدار معين فلهذا: ﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ منها ﴿ ويثبت ﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله تعالى : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ اختلف المفسرون في ذلك. فقال الثوري عن ابن عباس : يدبر أمر السنة فيمحو الله بما يشاء الا الشقاء والسعادة والحياة والموت فإنهما قد فرغ منهما . وقال مجاهد : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ... ﴾ الآيتين : يقضي في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة ، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغيّر . [١] روى الأمام أحمد عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٦٩ [ان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلاّ الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلاّ البر] وثبت في الصحيح : ٦٧٠ [إن صلة الرحم تزيد في العمر [وفي حديث آخر : ٦٧١ [إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض] وقال عكرمة عن ابن عباس : الكتاب كتابان ، فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . وعن ابن عباس أيضاً يقول : يبدل ما يشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ وجملة ذلك عنده في ام الكتاب الناسخ ، وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب، وقال قتادة في هذه الآية كقوله تعالى ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخيرٍ منها أو مثلها ﴾ الآية ... [٢]

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۞ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۞ (٤١)

(١ – ٢) يتضح من مجموع ما ورد في تفسير هذه الآية من أحاديث نبوية أو أقوال بعض الصحابة والتابعين أن أم الكتاب لا يتغير فيها شيء ولا يتبدل فهي علم الله بما كان وما هو كائن ... ثم قال لعلمه كن كتاباً فكان كتاباً . وأما ما يمحى ويثبت فهذا من الأقدار المعلقة... وكل ذلك أيضاً مسطور في أم الكتاب .

يقول تعالى لرسول الله ﷺ : ﴿ وإما نرينَّك ﴾ يا محمد ، ﴿ بعض الذي نعدهم ﴾ أي بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا ﴿ أونتوفينك﴾ أي قبل ذلك ﴿ فإنّما عليك البلاغ ﴾ أي إنما أرسلناك لتبلغهم وقد فعلت ﴿ وعلينا الحساب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ... إن إلينا إيا بهم ثم إن علينا حسابهم ﴾ وقولهُ تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ قال الحسن والضحاك ، هو ظهور الإسلام والمسلمين على الشرك والمشركين وقيل أقوال أخرى والقول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قريةً قريةً كقوله تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ وهذا اختيار ابن جرير .

﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾ (أي ليس لأحد أن يتعقّب حكمه فيرده ؛ كما يتعقب أهل الدنيا حكم بعض فيرده ؛ فإنّ شأن الله أعظم وأجل من ذلك وسيحاسب من يردُّ أحكامه حساباً عسيراً سريعاً) [1] .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۞ (٤٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ﴾ برسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله تعالى : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم إنّا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ الآيتين ، وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما تكسب كل نفس ﴾ أي انه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كلاً بعمله ، ﴿ وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴾ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل كلاّ ، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة . ولله الحمد والمنة .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ ۞ (٤٣) ﴾

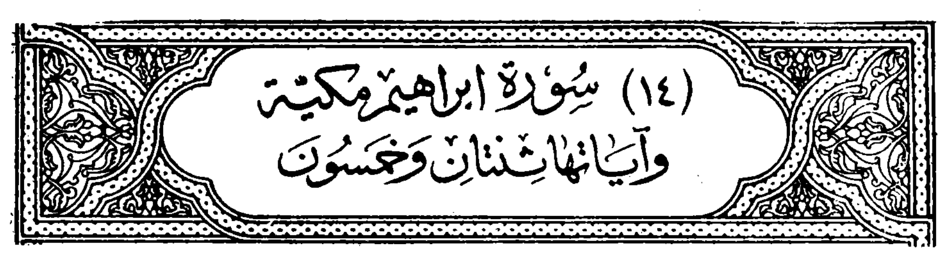
يقول تعالى : يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون : ﴿ لست مرسلاً ﴾ أي ما أرسلك الله ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ أي حسبي الله هو الشاهد عليّ وعليكم ، شاهد عليّ فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون ، فيما تفترونه من البهتان ،

(١) ما بين القوسين ليس من كلام ابن كثير رحمه الله بل من كلامي .

وقوله تعالى : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ ويشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة النبي محمد ﷺ في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به كما قال تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ الآية ... وقال تعالى : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ الآية وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني اسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة .

آخر اختصار تفسير سورة الرعد ولله الحمد والمنة .

١٣٨٩/٢/٢٤
١٩٦٩/٥/١١



إلاّ الآيتين ٢٨ و ٢٩ فمدنيتان نزلت بعد سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * (١) اللهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * (٢) ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * (٣) ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿ كتاب أنزلناه إليك ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد ، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب انزله الله من السماء على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ أي من ظلمات الضلال والغي إلى الهدى والرشد .كما قال تعالى : ﴿ الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ أي العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب القاهر لكل ما سواه والحميد اي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره . وقوله تعالى : ﴿ الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾

وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ أي ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة اي يقدمونها ويؤثرونها عليها ، ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ أي اتّباع الرسل ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أي ويحبون ان تكون سبيل الله عوجاً مائلة وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها ولا من خذلها . فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق ، لا يرجى لهم صلاح .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * (٤) ﴾

وهذا من لطفه تعالى بخلقه انه يرسل رسلاً منهم بلغاتهم ، ليفهموا ما أرسلوا به اليهم كما روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٧٢ [لم يبعث الله عز وجل نبياً إلاّ بلغة قومه] وقوله تعالى : ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم فيضل من يستحق الإضلال ويهدي من هو أهل لذلك ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ الحكيم ﴾ في افعاله .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * (٥) ﴾

يقول تعالى : وكما ارسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم ، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بنى اسرائيل بآياتنا ، قال مجاهد : هي التسع الآيات ﴿ ان أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾ أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات الضلال إلى نور الهدى والإيمان . ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ أي بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وظلمه ، وفلقه لهم البحر ، تظليله إياهم بالغمام وانزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم وقد ورد في الحديث المرفوع الذي رواه الامام أحمد عن أبيّ بن كعب : ٦٧٣ [عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال : « بنعم الله »] ورواه ابن جرير وابن ابي حاتم .

وقوله تعالى: ﴿ ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا من بني اسرائيل من النعم لعبرة لكل صبار في الضراء . شكور في السراء وكذا جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٦٧٤ [ان أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له وان أصابته سرّاء شكر ، فكان خيراً له] .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ * (٨) ﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام حين ذكرّ قومه بأيام الله ونعمه عليهم ، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب ، اذ كانوا يذبحون أبناءهم ويؤجلون نساءهم فانقذهم الله من كل ذلك وهذه نعمة عظيمة . ولهذا قال سبحانه ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ أي نعمة عظيمة عاجزون عن القيام بشكرها وقوله تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربكم ﴾ أي أذنكم وأعلمكم بوعده لكم ، ويحتمل أن يكون المعنى : وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله كقوله تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنّكم ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيد لكم منها ﴿ ولئن كفرتم ﴾ أي بالنعم وسترتموها جحودا ﴿ إن عذابي لشديد ﴾ وذلك بسلبها عنهم وقوله تعالى : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ أي هو غني عن شكر عباده وهو الحميد المحمود وإن كَفَرَهُ مَنْ كَفَرَهُ كقوله تعالى : ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ الآية ... فسبحانه وتعالى الغني الحميد .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * (٩) ﴾

يقصُّ الله علينا أخبار قوم نوح وعاد ثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصي عددَهم إلاّ الله عز وجل. ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات . قال ابن اسحق عن عمر بن ميمون عن عبدالله انه قال في قوله تعالى: ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ كذب النسّابون . وقال عروة بن الزبير : ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان . وقوله تعالى ﴿ فَرَدُّوا أيديهم في أفواههم ﴾ قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة معناه : انهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم ، (قلت) ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام : ﴿ وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب ﴾ فكان هذا – والله أعلم – تفسير لمعنى ﴿ فَرَدُّوا أيديَهم في أفواههم ﴾ وقال العوفي عن ابن عباس: لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم . وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به الآية ... يقولون : لا نصدقكم فيما جئتم به فان عندنا فيه شكاً قوياً .

نصف الحزب

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ * (١٢) ﴾

يخبر تعالى : عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة ، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿ أفي الله شك ﴾ ويحتمل معنى الشك في الوجود أو في الألوهية والأرجح أن الشك قائم لا في الوجود لأن السياق يدل على ذلك لأن الاعتراض من الكفار ينصبُّ على بشرية الرسل الداعين وعلى ما كان يعبد آباء الكفار من الأوثان التي كانوا يعتقدون أنها تقربهم إلى الله ولهذا قالوا : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ ثم طلبوا إليهم أن يأتوهم بمعجزات ظاهرات على أنهم مرسلون من قبل الله ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ وهذا ما يوضح أن الشك قائم في الألوهية لا في الوجود ، فإنه غالب الأمم كانت مقرةً بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى ، وهذا ظاهر من قوله تعالى : ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ إذاً فمحاجة الأمم لرسلهم فيمقام الرسالة، بمعنى : كيف نتبعكم بمجرد ادعائكم بالنبوة وأنتم بشر مثلنا ... ؟ ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ أي صحيح أنّا بشر مثلكم في البشرية ﴿ ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده ﴾ أي بالرسالة والنبوّة ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان ﴾ على وفق ما سألتم ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي بعد سؤآلنا إياه ثم إذنه لنا في ذلك ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي في جميع أمورهم ثم قالت رسلهم ﴿ وما لناألاّ نتوكل على الله ﴾ أي وما يمنعنا من ذلك وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها ﴿ ولنصبرن على ما أذيتمونا وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۞ (١٤) وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۞ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ۞ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۞ (١٧) ﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ وكذلك قال قوم لوط للوط عليه السلام وكذلك قال مشركو قريش لمحمد ﷺ واخبر الله عن حالهم بقوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾ وكان من فضله تعالى أن نصر نبيه محمداً وصار له انصار واعون من سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان ولهذا قال تعالى : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واستفتحوا ﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومها قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، ويحتمل ان يكون المعنى أن الامم استفتحت على أنفسها كما قالوا : ﴿ اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ أي متجبر في نفسه عنيد معاند للحق ، وفي الحديث : ٦٧٥ [أنه يؤتى بجهنم يوم القيامة ، فتنادي الخلائق فتقول : وكلت بكل جبار عنيد] الحديث . وقوله تعالى : ﴿ من ورائه جهنم ﴾ أي من وراء الجبار العنيد جهنم ، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد ويعرض عليها غدوّاً وعشيّاً إلى يوم التناد ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ أي في النار ليس له شراب الا من حميم وغساق ، هذا حار في غاية الحرارة ، وهذا بارد في غاية البرد والنتن وقال الامام أحمد عن أبي امامة رضي الله عنه : ٦٧٦ [عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ﴾ قال : « يقرب إليه فيتكرّهه فإذا أدنيَ منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطّع أمعاءه حتى يخرج من دبره » قول الله تعالى : ﴿ وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ ويقول : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾] وهكذا رواه ابن جرير من حديث عبدالله بن المبارك به وقوله تعالى : ﴿ يتجرعه ولا يكاد يسيغه ﴾ اي يتغصّصه ويتكرّهه ولا يكاد يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ أي يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه قال الضحاك عن ابن عباس ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ قال : أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم . ليس منها نوع إلاّ يأتيه الموت منه لو كان يموت ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال : ﴿ لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنه أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلاّ إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت ولكنه لا

يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال . ولهذا قال تعالى : ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ أي ولد من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ وقال تعالى : ﴿ ان شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك انت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره واشكاله مما لا يحصيه إلا الله عز وجل جزاءً وفاقاً ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ ۝ (١٨) ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت ، وعدموها وهم أحوج ما يكونون إليها فقال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم ﴾ أي مَثَلُ أعمالِهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى لأنهم كانوا يحسبون انهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً ، ولا ألفَوْا حاصلاً ، إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿في يوم عاصف﴾ فلم يقدروا على شيء من اعمالهم إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم العاصف كقوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ وقوله تعالى في هذه الآية ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة ، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝ (٢٠) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس أفليس الذي خلقهن بما ومن فيهن على اختلاف أصنافهن ومنافعهن بقادر على أن يخلق خلقاً جديداً ويذهبكم؟ بلى انه على كل شيء قدير ﴾كقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا ان الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعيَ بخلقهن بقادر على ان يُحيي الموتى بلى انه على كل شيء قدير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي ليس ذلك عليه تعالى بعظيم ولا ممتنع بل هو عليه هين إذا خالفتم أمره يذهبكم ويأتِ بآخرين على غير صفتكم ، كقوله تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدلْ قوماً غيركم * ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقال هنا سبحانه: ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز ﴾ .

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ * (٢١) ﴾

يقول تعالى ﴿ وبرزوا ﴾ أي برزت الخلائق كلها برُّها وفاجرها لله الواحد القهار ﴿ فقال الضعفاء ﴾ وهم الأتباع لسادتهم وكبرائهم ﴿ للذين استكبروا ﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له وعن موافقة الرسل قالوا لهم : ﴿ إنا كنّا لكمُ تبعاً ﴾ أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ﴿ فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فقالت القادة لهم ﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا ، وسبق فينا قدر الله وفيكم ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا أو جزعنا . والظاهر ان هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها كما قال تعالى : ﴿ واذ يتحاجّون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنا لكم تبعاً فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار قال الذين استكبروا إنّا كلٌ فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٢٢) وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۞ (٢٣) ﴾

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات وأسكن الكافرين الدركات فقام فيهم إبليس لعنهالله يومئذٍ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم ، وغبناً إلى غبنهم ، وحسرةً إلى حسرتهم ، فقال : ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ أي على ألسنة رسله ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم ، كما قال تعالى : ﴿ يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً ﴾ ثم قال : ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان ﴾ أي ما كان لي من دليل ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿ إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ بمجرد ذلك ، هذا وقد أقامت عليكم الرسلُ الحججُ والأدلة على صدق ما جاءوكم به فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿ فلا تلوموني ﴾ اليوم ﴿ ولوموا أنفسكم ﴾ فإن الذنب ذنبكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾ أي بمنقذكم من عذابكم ﴿ وما أنتم بمصرخيّ ﴾ بمنقذيَّ من العذاب والنكال ﴿ إني كفرت بما أشركتموني من قبل ﴾ أي إني جحدت أن أكون شريكا لله عز وجل ، قاله ابن جرير وهذا هو الراجح كما قال تعالى : ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ .

وقوله : ﴿ إن الظالمين ﴾ أي في إعراضهم عن الحق واتّباعهم الباطل ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا .

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال ، وأن خطيبهم

ابليس عطف بمآل السعداء فقال : ﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ حيث ساروا وأين توجهوا ﴿ خالدين فيها ﴾ ماكثين أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام ﴾كما قال تعالى : ﴿حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ويلقون فيها تحيةً وسلاماً ﴾ وقال تعالى : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَاءِ ۞ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۞ (٢٦) ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى : ﴿ مثلاً كلمةً طيبة ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ كشجرة طيبة ﴾ وهو المؤمن ، ﴿ اصلها ثابت ﴾ يقول لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿ وفرعها في السماء ﴾ يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد : ان ذلك عبارة عن عمل المؤمن ، وقوله الطيب ، وعمله الصالح ، وان المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء وهكذا رواه السدي عن مرة عن ابن مسعود قال : هي النخلة .

روى البخاري عن ابن عمر قال : ٦٧٧ [كنا عند رسول الله ﷺ فقال « أخبروني عن شجرة تشبه – أو – كالرجل المسلم لا يتحاتُّ ورقها صيفاً ولا شتاءً وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم ، فلم يقولوا شيئاً ، قال رسول الله ﷺ « هي النخلة » فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه ، والله لقد كان وقع في نفسي إنها النخلة قال : ما منعك ان تتكلم ؟ قلت : لم أركم تتكلمون ، فكرهت ان أتكلمَ أو أقولَ شيئاً ، قال عمر : لأن

تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا] .

روى احمد عن مجاهد : صحبت ابن عمر إلى المدينة فلم أسمعه يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً قال : ٦٧٨ [كنا عند رسول الله ﷺ فأتى بجمار فقال : من الشجر شجرةٌ مثَلُها مثلُ الرجل المسلم. فأردت أن أقول هي النخلة فنظرت فإذا أنـا أصغر القوم فقال رسول الله ﷺ « هي النخلة »] أخرجاه . والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف وشتاء أو ليل أو نهار كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿ بإذن ربها ﴾ أي كاملاً حسناً طيباً مباركاً ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون

وقوله تعالى : ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات ، مشبه بشجرة الحنظل ، ويقال لها الشريان ، رواه شعبة بسنده عن أنس أحسبه رفعه قال : ٦٧٩ [﴿ مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾ قال « هي النخلة » ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴾ قال هي الشريان] روى ابن أبي حاتم عن أنس ابن مالك أن النبي ﷺ قال : ٦٨٠ [﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴾ « هـي الحنظلة » فأخبرت بذلك أبا العالية فقال : هكذا كنّا نسمع] ورواه ابن جرير من حديث حمّاد بن سلمة به

وقوله تعالى : ﴿ اجتثَّتْ ﴾ أي استؤصلت ﴿ من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ولا يصعد للكافر عمل ، ولا يتقبل منه شيء .

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ ۞ (٢٧) ﴾

روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٦٨١ [المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾] ورواه مسلم وبقية الجماعة كلهم من حديث شعبة به .

روى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال : ٦٨٢ [خرجنا مع رسول الله ﷺ

في جنازة رجل من الأنصار . فانتهينا إلى القبر ولما يلحد . فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال « استعيذوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثا ثم قال : « ان العبد المؤمن اذا كان في انقطاع من الدنيا ، واقبال من الآخرة ، نزل اليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة . وحنوط من حنوط الجنة حتّى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتّى يجلس عند رأسه فيقول : ايتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ــ قال ــ فتخرج تسيل ، كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عين حتّى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرّون بها ، يعني على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هــذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتّى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له . فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها ، حتّى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض . فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى قال : فتعاد روحه في جسده . فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقولان له ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام فيقولان له : ما هــذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله ، فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادي منادٍ من السماء : أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة ــ قال ــ : فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مدَّ بصره ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي كنت يسرُّك هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة حتّى أرجع إلى أهلي ومالي ــ قال ــ وإن العبد الكافر اذا كان في انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح . فجلسوا منه مــد البصر . ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه . فيقول : ايتها النفس الخبيثة . اخرجي إلى سخط من الله وغضب ــ قال ــ : فتفرّق في جسده فينتزعه كما ينتزع السفود مــن الصوف المبلول . فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتّى يجعلوها في تلك

المسوح فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ، فيقولون : فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لا تفتح له ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ فيقول الله : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري فينادي مناد من السماء : أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد فيقول : ومن أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر ؟ فيقول أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة»] ورواه أبو داود من حديث الأعمش والنسائي وابن ماجة من حديث المنهال بن عمرو به .

روى الامام عبد بنُ حُمَيْد رحمه الله تعالى في مسنده عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : ٦٨٣ [« ان العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وانه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ قال فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله و رسوله ، قال فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة » قال النبي ﷺ « فيراهما جميعاً »] قال قتادة : وذكر لنا انه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ويملأ عليه خضراً إلى يوم القيامة . رواه مسلم عن عبد بن حميد به وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب به.روى جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٦٨٤ [والذي نفسي بيده ان الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولون عنه مدبرين ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه ، والزكاة عن يمينه ، والصوم عن يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة : ما قِبَلي مدخل ، فيؤتى عن يمينه ، فتقول الزكاة : ما قبلي مدخل ، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام : ما قبلي مدخل فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات ما قبلي مدخل ، فيقال له : اجلس ، فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له : أخبرنا عما نسألك ، فيقول :

دعني حتى أصلي ، فيقال له : انك ستفعل فأخبرنا عما نسألك ، فيقول وعما تسألوني ؟ فيقال : أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه ، وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول : أمحمد ؟ فيقال له : نعم ، فيقول : أشهد أنه رسول الله ، وأنه جاءنا بالبيّنات من عند الله فصدقناه ؛ فيقال له على ذلك حَيِيت وعلى ذلك مت وعليه تبعث إن شاء الله ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينوَّر له فيه ؛ ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له : انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ، ثم تجعل نسمته في النسم الطيب ، وهي طير خضر يعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدىء من التراب « وذلك قول الله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ورواه ابن حبان.

وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية قال : ان المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة ، فسلموا عليه وبشروه بالجنة ــ ثم ذكر حاله كما تقدم في الأحاديث السابقة ــ ثم قال ... وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة فيبسطون أيديَهم.والبسط :هو الضرب ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ عند الموت فإذا أدخل قبره أقعد ، فقيل له : مــن ربك ؟ فلم يرجع إليهم شيئاً وأنساه الله ذكر ذلك ، وإذا قيل : من الرسول الذي بعث اليك ؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً ﴿ ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝ (٣٠) ﴾

قال البخاري : قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ ألم تعلم ؟ كقوله ﴿ ألم تر كيف ﴾ألم تعلم والبوار: الهلاك . ﴿ قوماً بوراً ﴾ هالكين . حدثنا علي بن عبد الله بالسند ــ إلى ابن عباس ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال : هم كفار مكة والمعنى يعم جميع الكفار وقد روي عن علي نحو ذلك . قال ابن ابي حاتم عن ابن أبي حسين قال : قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : ألا أحد يسألني عن القرآن ، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به مني وان كان من وراء البحار لأتيته ؛ فقام عبدالله بن الكواء فقال : من الذين بدلوا نعمة الله كفراً واحلوا قومهم دار البوار ؟ قال : مشركو

قريش أتتهم نعمة الله الإيمان فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد هم كفار قريش قتلوا يوم بدر وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع عن ابن عمر .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله ﴾ أي جعلوا له شركاء عبدوهم معه ودعوا الناس إلى ذلك ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً على لسان نبيه ﷺ ﴿ قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار ﴾ أي مرجعكم إليها كما قال تعالى : ﴿ نمتّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ .

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ۞ (٣١) ﴾

يأمر الله عباده بطاعته . والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك . وان ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب والمراد بإقامة الصلاة هو المحافظة عليها وقتاً وحدوداً وركوعاً وسجوداً وخشوعاً . والإنفاق خفيةً وجهراً وذلك لخلاص أنفسهم ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ لا بيع فيه ولا خلال ﴾ أي ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه وقوله تعالى : ﴿ ولا خلال ﴾ اي ليس هناك مخالة خليلٍ فيصفح عمن استوجب العقوبة،بل هناك العدل والقسط.والمراد انه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية . ولا صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً.كما قال تعالى : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾

﴿ ٱللهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ ۞ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۞ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ

مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۞ (٣٤)

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً ، والأرض فراشاً ﴿ وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع كقوله تعالى : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجاً من نباتٍ شتّى ﴾ فقال تعالى : ﴿ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ﴾ أي وسخر لكم الفلك بأن جعلها طافيةً على تيار ماء البحر تجري عليه بأمره تعالى ، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من اقليم إلى آخر لجلب وتبادل السلع والتجارات وسخر الأنهار تشقُ الأرض من قطر الى آخر رزقاً للعباد من شرب وسقي ، وغير ذلك من المنافع ﴿ وسخر لكم الشمسَ والقمر دائِبَيْن ﴾ أي يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ أي والليل والنهار يتعارضان فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر كقوله تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ يقول هيأ لكم ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم . وقوله تعالى : ﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها كما قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد وإن نعم الله أكثر من أن يُحصيها العباد ، ولكن أُصبحوا تائبين وأمسوا تائبين وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول : ٦٨٥ [اللهم لك الحمد غير مكفيّ ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا]

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۞ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ (٣٦)

يقول تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً ﴾ دعا إبراهيم عليه السلام

لمكة بالأمن وقد استجاب الله له فقال تعالى : ﴿ أولم يروا أنّا جعلنا حَرَماً آمنا ﴾ ولما قال ابراهيم : ﴿ هذا البلد آمناً ﴾ فعرَّفَه لأنّه دعا بهذا الدعاء بعد بنائه ، ولهذا قال تعالى حاكياً عن لسان ابراهيم : ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق ﴾ ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة ، فأما حين ذهب إبراهيم بإسماعيل وأمّه وهو رضيع إلى مكان مكة،فإنه عليه السلام دعا أيضاً فقال : ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ أي في حالة لم يكن هناك بلدٌ بعدُ فقال : ﴿ بلداً ... ﴾ فلم يعرّفه .

وقوله : ﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ ينبغي لكل داع أن يدعوَ لنفسه ولوالديه ولذريته . ثم ذكر انه افتتن بالأصنام خلائق من الناس ، وأنه تبرأ ممن عبدها وردّ أمرهم إلى الله فقال : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ أي إن شاء الله عذبهم وإن شاء غفر لهم كقول عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجويز وقوع ذلك .

روى عبدالله بن وهب عن عبدالله بن عمرو ٦٨٦ [إن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿ رب إنهن اضللن كثيراً من الناس ﴾ الآية ... وقول عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ... ﴾ ثم رفع يديه ثم قال : اللهم أمتي ، اللهم أمتي ، اللهم أمتي وبكى فقال الله : اذهب يا جبريل إلى محمد – وربك أعلم – وسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ فقال الله : اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءُك)

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝ (٣٧) ﴾

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثانٍ بعد الدعاء الأول [١] الذي دعا به إبراهيم عليه السلام عندما ولّى عن هاجر وولدها ، وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه تأكيد ورغبة إلى الله عز وجل ، ولهذا قال : ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ . وقوله : ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾

---

(١) راجع سورة البقرة الآية رقم /١٢٦/ « رب اجعل هذا بلداً آمناً ... »

قال ابن جرير : هو متعلق بقوله : ﴿ المحرّم ﴾ أي انما جعلته محرماً ليتمكن أهله من اقامة الصلاة عنده ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ فقوله من الناس اي اختص به المسلمون وقوله ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك وقد استجاب الله ذلك كما قال عز وجل : ﴿ أولم نمكّن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته انه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهي تجبي إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام [١] .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ ۞ (٣٨) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ ۞ (٣٩) رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۞ (٤٠) رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۞ (٤١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي لأهل هذا البلد وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها ، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء ثم حمد ربه تعالى على ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال: ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء ﴾ أي إنه يستجيب لمن دعاه وقد استجاب لي فيما سألته من الولد ثم قال ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ﴾ أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿ ومن ذريتي ﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿ ربنا وتقبل دعاء ﴾ أي فيما سألتك فيه كله ﴿ ربنا اغفر لي ولوالديّ ﴾ وكان هذا قبل أن يتبرّأ من أبيه لما تبيّن له عداوته لله عز وجل ﴿ وللمؤمنين ﴾ أي كلهم ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ أي يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم خيراً كانت أو شراً .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ

(١) وتجبى الآن إليها – والجزيرة تبع لها – ثمرات كل شيء من كافة أنحاء المعمورة اللهم أوزعنا أن نشكر نعمتك.

لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ ۞ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۞ (٤٣)

يقول تعالى : ولا تحسبن يا محمد إذا أجّل الظالمين أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم على صنعهم . بل هو يحصي ذلك عليهم ويعدّه عداً. ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ أي من شدة الهول يوم القيامة . ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر فقال : ﴿ مهطعين ﴾ مسرعين كما قال تعالى : ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ قال ابن عباس وغيره : رافعي رؤوسهم ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ أي أبصارهم شاخصة مديمو النظر ، لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والمخافة مما سيحل بهم . عياذاً بالله العظيم من ذلك.ولهذا قال عز وجل : ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ أي أن قلوبهم ليس فيها شيء لكثرة الخوف والوجل.ثم قال تعالى لرسوله ﷺ :

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۞ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۞ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۞ (٤٦)

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب ﴿ ربنا أخّرْنا إلى أجل قريب نجبْ دعوتك ونتبع الرسل ﴾ كقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني ... ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدَ ولا نكذب بآيات ربّنا ﴾ فقال تعالى رادّاً عليهم : ﴿ أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ أي أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة انه لا معاد ولا جزاء ... فذوقوا هذا بذلك كقوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾ أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿ حكمة بالغة فما تغني النذر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وان كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ وقد روى العوفي عن ابن عباس في تفسيرها يقول : ما كان مكرهم لتزول منه وقال كذا قال الحسن البصري ووجّهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها ، وانما عاد وبال ذلك عليهم قلت : ويشبه هذا قول الله تعالى : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً . ﴾ والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ وان كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ يقول شركهم كقوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا ﴾ وهكذا قال الضحاك وقتادة [1] .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۞ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۞ (٤٨) ﴾

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾ أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، ثم اخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب وذو انتقام ممن كفر به وجحده ﴿ فويل يومئذ للمكذّبين ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض وهي هذه غير الصفة المألوفة المعروفة كما جاء في الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٨٧ [يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها معلم لأحد]

روى الامام احمد عن عائشة انها قالت : ٦٨٨ [أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ قالت : قلت أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « على الصراط »] رواه مسلم منفرداً عن البخاري والترمذي وحسنه وصححه قال حسن صحيح وابن ماجه .

---

(١) والتفسير الثاني مطابق لمراد الآية ، وإن كان الكلام الأول صحيحاً في حد ذاته .

وروى احمد أيضاً عن عائشة رضي الله عنها : ٦٨٩ [إنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ قالت : قلت يا رسول الله فأين الناس يومئذ ؟ قال : « لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي ذاك ان الناس على جسرهم . »] وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ انه قال : ٦٩٠ [يبدل الله الأرض غير الأرض والسموات ، فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظي ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ثم يزجر الله الخلق زجرةً فإذا هم في هذه المبدلة »] وقوله تعالى : ﴿ وبرزوا لله ﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ الواحد القهار ﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب .

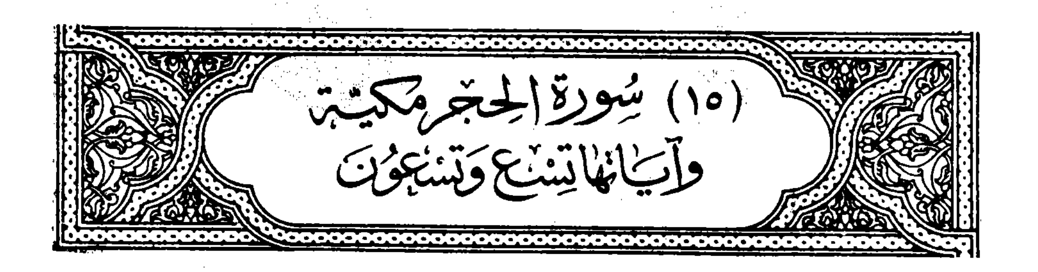
﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۞ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۞ (٥٠) لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۞ (٥١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ وتبرز الخلائق لديّانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿ مقرّنين ﴾ أي بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف كقوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ والأصفاد هي القيود . وقولُه تعالى : ﴿ سرابيلهم من قطران ﴾ أي ثيابهم من قطران وهو الذي تطلى به الإبل وقال ابن عباس القطران هو النحاس المذاب وقولُه تعالى : ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ كقوله تعالى : ﴿ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ وفي حديث القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٦٩١ [النائحة اذا لم تتب توقف في طريق بين الجنة والنار وسرابيلها من قطران وتغشى وجهها النار] وقولُه تعالى : ﴿ ليجزيَ اللهُ كلَّ نفس ما كسبت ﴾ أي يوم القيامة « كقوله تعالى : ﴿ ليجزيَ الذين أساءوا بما عملوا ﴾ الآيه ... ﴿ ان الله سريع الحساب ﴾ أي سريع النجاز وان جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم ، كقوله تعالى ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۞ (٥٢) ﴾

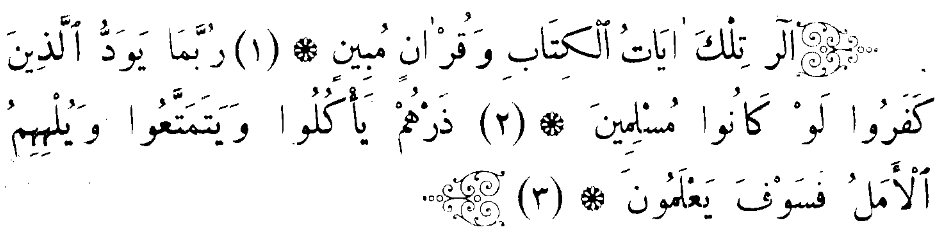
يقول تعالى : هذا القرآن بلاغ للناس كقوله تعالى : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ أي هو بلاغ لجميع الخلق من انس وجن كما قال في أول السورة : ﴿ آلر.كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ الآية ﴿ ولينذَروا به ﴾ أي ليتعظوا به ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿ وليذكَّرَ أولو الألباب ﴾ أي ذوو العقول . آخر سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين .

٤ / ٣ / ١٣٨٩
٢٠ / ٥ / ١٩٦٩



إلاّ الآية /٨٧/ فمدنية نزلت بعد سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ





قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور . وقوله تعالى : ﴿ ربما يود الذين كفروا ﴾ الآية إخبار عنهم أنّهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين . ونقل السديُّ في تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة : أن كفار قريش لما عُرِضوا على النار تمنَّوا أن لو كانوا مسلمين . وقيل : المراد ان كل كافر يود عند احتضاره ان لو كان مؤمناً . وقيل هذا إخبار عن يوم القيامة كقوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ قال ابن جرير عن ابن عباس وأنس بن مالك أنهما كانا يتأولانها يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار . فيقول لهم المشركون : ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا ، قال : فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم . فذلك حين يقول تعالى : ﴿ ربما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ وقال عبد الرزاق عن مجاهد مثله وهكذا روي عن الضحاك وقتادة وأبي العاليه وغيرهم وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة منها ما رواه الطبراني عن انس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٩٢ [« إن ناساً من

أهل لا إلَه إلاّ الله يدخلون النار بذنوبهم فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلاّ الله وأنتم معنا في النار ؟ فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقيهم في نهر الحياة فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ويدخلون الجنة ويسمَّون فيها الجهنميين » فقال رجل : يا أنس أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ فقال أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » نعم أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا] ثم قال الطبراني : تفرد به الجهبذ صالح بن اسحق ...

وروى الطبراني أيضاً عن ابي موسى الأشعري ، وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً بألفاظ متشابهة إلا ان رواية أبي سعيد الخدري : ٦٩٣ [« فيسمون في الجنة الجهنميين من أُجل سواد في وجوههم فيقولون: يا رب أذهب عنا هذا الاسم ، فيأمرهم فيغتسلون في نهر في الجنة فيذهب ذلك الإسم عنهم » فأقر به أبو أسامة وقال : نعم] .

وكذلك رواه ابن أبي حاتم عن محمد بن علي عن ابيه عن جده مرفوعاً بهذا المال إلى أن يقول ﷺ ـ حكاية عن أهل الكتاب ومن في النار من أهل الأديان والأوثان لمن في النار من أهل التوحيد : ٦٩٤ [آمنتم بالله وكتبه ورسله فنحن وأنتم اليوم في النار سواء فيغضب الله لهم غضباً لم يغضبه لشيء فيما مضى . فيخرجهم إلى عين في الجنة وهو قوله : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾] وقوله تعالى : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ تهديد شديد لهم ووعيد أكيد ، كقوله تعالى : ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ ولهذا قال : ﴿ ويلههم الأمل ﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أي عاقبة أمرهم .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۝ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ ۝ (٥) ﴾

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها ، وانه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم،ولا يتقدمون عن مدتهم.وهذا تنبيه لأهل مكه وإرشادٌ لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۞ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ۞ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۞ (٩) ﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ أي الذي تدّعي ذلك ﴿ إنك لمجنون ﴾ أي في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ماوجدنا عليه آباءنا ﴿ لوما ﴾ أي هلاّ ﴿ تأتينا بالملائكة ﴾ أي يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون ﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ بالرسالة والعذاب ثم قال تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى : ﴿ له لحافظون ﴾ على النبي ﷺ ولكن ظاهر السياق في قوله قوله تعالى : ﴿ انّا نحن نزلنا الذكر وانّا له لحافظون ﴾ يدل على ان الحفظ انما هو للقرآن العظيم من التبديل والتغيير، وهذا هو المراد من قوله سبحانه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ۞ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۞ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۞ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ۞ (١٣) ﴾

يسلّي الله تعالى رسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش : أنه أرسل من قبله من الأمم الماضية وإنه ما أتى أمةً من رسول إلا كذبوه واستهزأوا به ، ثم أخبر أنه تعالى سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى . قال أنس والحسن البصري ﴿ كذلك نسلكه ﴾ أي الشرك ، وقوله تعالى : ﴿وقدخلت سنة الأولين ﴾ أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار وكيف أنجى الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ * (١٥) ﴾

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وشدة مكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك ، بل قالوا ﴿ إنما سكرت أبصارُنا ﴾ أي أخذت أبصارنا وشبّه علينا وإنما سحرنا .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * (١٧) إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ * (١٨) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ * (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * (٢٠) ﴾

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات ، ما يحار نظره فيه ولهذا قال مجاهد وقتادة : البروج ههنا هي الكواكب . (قلت) وهذا كقوله تبارك وتعالى : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ الآية ... ومنهم من قال : البروج هي منازل الشمس والقمر . وقال عطية العوفي : البروج ههنا هي قصور فيها الحرس وجعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين لئلا يسمعوا إلى الملأ الأعلى ، فمن تمرّد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه...

فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليّه . كما جاء مصرحا به في الصحيح . كما روى البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال : ٦٩٥ [« إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان] قال علي وقال غيره صفوان ينفذ هم ذلك فإذا فزع عن قلوبهم قالوا :

ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر ، ووصف سفيان بيده ، وفرج بين أصابع يده اليمنى ، نصبها بعضها فوق بعض بما أدرك الشهابُ المستمع قبل أن يرمي إلى صاحبه فيحرقه ، فربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض ، وربما قال سفيان : حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى في فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مئة كذبة فيصدق ، فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا ويوم كذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقاً للكلمة التي سمعت من السماء] . ثم ذكر تعالى خلقه للأرض ومده إياها وتوسيعها وبسطها ، وما جعل فيها من الجبال الرواسي ، والأودية والأراضي والرمال ، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة .

وقوله تعالى : ﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء مرزون ﴾ قال ابن زيد : من كل شيء يوزن ويقدر بقدر وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش وهي جمع معيشة . وقوله تعالى : ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ أي انه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش وبما سخر لهم من دواب يركبونها وانعام يأكلونها وعبيدو إماء يستخدمونهم ورزق الجميع على خالقهم لا عليهم ، فلهم المنفعة وعلى الله الرزق .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۞ (٢١) وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ۞ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَارِثُونَ ۞ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَأْخِرِينَ ۞ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ (٢٥) ﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء ، وان كل شيء سهل عليه يسير لديه وانعنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ كما يشاء وكما يريد ، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه

الرحمة روى ابن جرير عن الحكم بن عيينة في قوله تعالى : ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ قال : ما عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل ولكنه يُمطَرُ قوم ويحرم آخرون بما كان في البحر وقوله تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ اي تلقح السحاب فتدر ماءً ، وتلقح الشجر فتفتح عن أكمامها وأوراقها ، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الانتاج بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الانتاج لأنه لا يكون إلاّ بين شيئين فصاعداً . وقال عبيد بن عمير الليثي : يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قمّاً ، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب ، ثم يبعث الله المؤلّفة فتؤلّف السحاب ، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وارسلنا الرياح لواقح ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فأسقيناكموه ﴾ أي أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه لو نشاء جعلناه أجاجاً . كما قال تعالى في سورة الواقعة : ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ أي ما أنتم له بحافظين . بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض ، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به . ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً . وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم .

وقوله تعالى : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾ إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع . واخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها ، وإليه يرجعون . ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم ، فقال تعالى : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ الآية قال ابن عباس رضي الله عنهما : المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام . والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة . وروي نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة . ومحمد بن كعب ، والشعبي وغيرهم . وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وقد قيل أقوال أخرى في تفسير الآية فيها نكارة شديدة فقال محمد بن كعب : ليس هكذا ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ الميت والمقتول ﴿ والمستأخرين ﴾ من يخلق بعد . ﴿ وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾ فقال عون بن عبد الله – وهو أحد رجال السند – وفقك الله وجزاك خيراً . رواه ابن جرير .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * (٢٦) وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ * (٢٧) ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس . والظاهر انه كقوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار ﴾ وعن ابن عباس ومجاهد والضحاك : إن الحمأ المسنون هو المنتن .

وقوله تعالى : ﴿ والجانّ خلقناه من قبل ﴾ أي من قبل الإنسان ﴿ من نار السموم ﴾ وعن ابن عباس : إن الجان خلق من لهب النار . وقد ورد في الصحيح : ٦٩٦ [خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار . وخلق آدم مما وصف لكم] والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتده .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * (٢٩) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ *(٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ *(٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * (٣٣) ﴾

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً ، وافتخاراً بالباطل ، ولهذا قال : ﴿ لم أكن **لأسجد** لبشر خلقته من صلصال من حمأٍ مسنون ﴾ كقوله ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وقوله : ﴿ أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ ﴾ .

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ *(٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ * (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * (٣٨) ﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى ، وأنه رجيم أي مرجوم ، وأنه قد أتبعه لعنةً لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة . وعن سعيد بن جبير انه قال : لما لعن الله إبليس تغيرت صورته التي كان عليها ، ورن رنّة فكل رنّة في الدنيا إلى يوم القيامة منها رواه ابن أبي حاتم ، وأنه لمّا تحقق الغضب الذي لا مرد له ، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة وهو يوم البعث ، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً ، فلما تحقق النظرة قبحه الله .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ۝ (٤٤) ﴾

يخبر تعالى عن ابليس وتمرده أنه قال للرب سبحانه ﴿ بما أغويتني ﴾ أي بسبب ما اغويتني وأضللتني ﴿ لأزيننَّ لهم في الأرض ﴾ أي لأحسنن لذرية آدم المعاصي وأأزهم إليها ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ أي كما أغويتني وقدّرتَ علي ذلك ﴿ إلاّ عبادك منهم المخلصين ﴾ كقوله : ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ ﴿ قال ﴾ الله تعالى متهدداً متوعداً : ﴿ هذا صراطي عليَّ مستقيم ﴾ أي مرجعكم كلكم إليَّ ، فأجازيكم بأعمالكم ان خيراً فخير وان شراً فشر ، كقوله تعالى : ﴿ إنّ ربك بالمرصاد ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ أي الذين قدَّرتُ الهداية لهم فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم ﴿ الاّ من اتبعك من الغاوين ﴾ استثناء منقطع وقد أورد ابن جرير من حديث عبد الله بن المبارك ما خلاصته : أن نبياً كان إذا أراد أن يستنبيء ربه عن شيء خرج إلى مسجده خارج قريته فصلىَّ ما كتب الله له ثم سأله ما بدا له فبينا هو في مسجده إذ جاء عدو الله ـ يعني إبليس ـ حتى جلس بينه وبين القبلة فقال النبي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقال عدو الله : أخبرني بأي شيء تنجو مني ؟

فقال النبي بل اخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم مرتين فأخذ كل على صاحبه إلى أن قال النبي قوله تعالى ﴿وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم﴾ وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك قال عدوُّ الله : صدقت بهذا تنجو مني فقال النبي أخبرني بأي شيء تغلبُ ابنَ آدم قال : آخذه عند الغضب والهوى . وقوله تعالى : ﴿ وان جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ أي موعد جميع من اتبع ابليس كما قال عن القرآن ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ ثم أخبر ان لجهنم سبعة أبواب ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ أي لكل باب جزء من اتباع ابليس يدخلونه لا محيد لهم عنه ، أجارنا الله منها كلٌّ بقدر عمله وعن ابن عباس : سبعة أبواب : أولها جهنم ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم . ثم الهاوية وروى عن ابن جريج والأعمش بنحوه ، وهكذا فإن منازل أهل النار بأعمالهم .

ربع الحزب

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ۞ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۞ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۞ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۞ (٥٠) ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار ، عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون وقوله تعالى : ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ أي سالمين من الآفات ، مسلّم عليكم ﴿ آمنين ﴾ أي من كل خوف وفزع ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء ..

وقوله تعالى: ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ﴾ وقد روى سعيد في تفسيره : حدثنا أبو فضالة عن لقمان عن أبي أمامة قال : لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما في صدره من غل حتى ينزع منه مثل السبع الضاري . وهذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة عن أبي سعيد الخدري حدثهم ان رسول الله ﷺ قال :

٦٩٧ [يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا ، اذن لهم في دخول الجنة]

قال ابن جرير عن أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعدما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ وقال سفيان الثوري عن ابراهيم قال: جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على علي رضي الله عنه فحجبه طويلاً ثم أذن له فقال له: أمّا أهل البلاء فتجفوهم فقال علي: بفيك التراب إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾.

وقوله تعالى: ﴿لا يمسهم فيها نصب﴾ يعني المشقة والأذى وقوله ﴿وما هم منها بمخرجين﴾ كما جاء في الحديث: ٦٩٨ [يقال يا أهل الجنة ان لكم ان تصحّوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم ان تشبّوا فلا تهرموا أبداً وان لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً]. وقال الله تعالى: ﴿خالدين فيها لا يبغون عنها حولا﴾. وقوله تعالى: ﴿نبىء عبادي إني أنا الغفور الرحيم * وان عذابي هو العذاب الأليم﴾ أي أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عذاب أليم وهي دالة على مقامَيْ الرجاء والخوف، روى ابن جرير عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: ٦٩٩ [طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال: «ألا أراكم تضحكون» ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع الينا القهقرى فقال، «اني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله يقول: لم تُقْنِطْ عبادي: ﴿نبىء عبادي إني أنا الغفور الرحيم * وان عذابي هو العذاب الأليم﴾].

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ * (٥٦)﴾

يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضيف إبراهيم﴾ وكيف ﴿دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى

أيديهم لا تصل إلى العجل السمين الحنيذ [١] ﴿ قالوا لا توجل ﴾ أي لا تخف ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ أي إسحق عليه السلام ﴿ قال ﴾ متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿ أبشرتموني على أن مسّني الكبر فبم تبشرون ﴾ فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً، وبشارة بعد بشارة ﴿ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾ فأجابهم بأنه ليس بقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنّت امرأته فإنه يعلم من قدرة الله تعالى ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۞ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (٥٩) إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَابِرِينَ ۞ (٦٠) ﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى أنه شرع يسألهم عما جاءوا له فقالوا: ﴿ إنّا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من الهالكين، ولهذا قالوا: ﴿ إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين ﴾ أي الباقين المهلكين.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۞ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۞ (٦٤) ﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شبان حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره قال ﴿إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكّون في وقوعه بهم ﴿ وأتيناك بالحق ﴾ كقوله تعالى: ﴿ ما ننزل الملائكة إلاّ بالحق ﴾ وقولهُ تعالى: ﴿ وإنا لصادقون ﴾ تأكيد لخبرهم اياه بما أخبروه به من نجاته واهلاك قومه.

---

(١) سورة هود آية /٦٩/ والحنيذ: المشوي.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۞ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ۞ (٦٦) ﴾

يذكر تعالى عن الملائكة انهم أمروا لوطاً ان يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل ويمشي وراءهم ليكون احفظ لهم ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو انما يكون ساقة يزجي الضعيف ويحمل المنقطع . وقوله ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ أي اذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ أي تقدمنا إليه في هذا ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ أي وقت الصباح كقوله تعالى في الآية الأخرى ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ .

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۞ (٦٨) وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۞ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٧٠) قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۞ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ (٧٢) ﴾

يخبر تعالى عن مجيءِ قوم لوط لما علموا بأضيافه ، وصباحة وجوههم ، مستبشرين فرحين ﴿ قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحونِ ۞ واتقوا الله ولا تخزونِ ﴾ وهذا قبل أن يعلم أنهم رسل الله ، وأما هاهنا فتقدم ذكر أنهم رسل وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجّتهم ولكن الواو لا تقتضي الترتيب ولا سيما إذا دل دليل على خلافه ، فقالوا له مجيبين : ﴿ أو لم ننهك عن العالمين ﴾ أي أوما نهيناك أن تضيّف أحداً ؟ فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم ايضاح القول في سورة هود بما أغنى من إعادته وقوله تعالى : ﴿ لعمرك إنّهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض ، قال ابن عباس : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ

وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال الله تعالى : ﴿ لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ أي في ضلالتهم يترددون وغافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا سيُصبِحهُم من العذاب المستقر .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۞ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ۞ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ۞ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ۞ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٧٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ وهي ما جاء من الصوت القاصف ﴿ مشرقين ﴾ عند شروق الشمس ـ وقد تقدم في سورة هود كيف أن جبريل رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها وجعل عاليها سافلها، وأرسل حجارة السجيل عليهم بما فيه كفاية ـ وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ أي ان آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته كما قال مجاهد : ﴿ للمتوسمين ﴾ قال : للمتفرّسين ، وقيل للناظرين والمعتبرين والمتأملين وكله قريب .

وقوله تعالى : ﴿ وانها لبسبيل مقيم ﴾ أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي والقذف بالحجارة ، حتى صارت بحيرةً منتنة خبيثة ، بطريق مهيع[1] مسالكه مستمرة إلى اليوم .كقوله تعالى : ﴿ وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ان في ذلك لآيةً للمؤمنين ﴾ أي ان الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وانجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله .

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۞ (٧٨) فَٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ۞ (٧٩) ﴾

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، وكان ظلمهم بشركهم بالله ، وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة ، وعذاب يوم الظلة ،

---

(١) المهيع : الطريق الواسع البين .

وقد كانوا قريباً من قوم لوط زماناً ومكاناً ولهذا قال تعالى ﴿ وإنهما لبإمام مبين ﴾ أي طريق ظاهر ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ (٨٠) وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۞ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً ءَامِنِينَ ۞ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۞ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ (٨٤) ﴾

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا نبيهم صالحاً عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب الرسل جميعاً ، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين . وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح كالناقة التي أخرجها الله لهم من صخرة صماء بدعاء صالح ، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم فلما عتوا وعقروها قال لهم : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ وذكر تعالى أنهم ﴿ كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾ أي من غير خوف ولا احتياج اليها بل اشراً وبطراً وعبثاً كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مرّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فقنع رأسه وأسرع دابته وقال لأصحابه : ٧٠٠ [لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلاّ أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم] وقوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ أي صباحاً من اليوم الرابع ، ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عُقر وهالئلا تضيق عليهم في المياه فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۞ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٨٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وان الساعة لآتية ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء و الأرض وما بينهما باطلاً ﴾ بل بالحق اي بالعدل ليجزي كلاً بعمله ثم أخبر نبيه بقيام الساعة ﴿ وان الساعة لآتية ﴾ أي كائنة لا محالة ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به كقوله تعالى : ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ قال مجاهد وغيره كان هذا قبل القتال وهو كذلك فان هذه مكية والقتال انما شرع بعد الهجرة . وقوله تعالى : ﴿ إنّ ربك هو الخلاق العليم ﴾ تقرير للمعاد وانه تعالى قادر على إقامة الساعة فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء ، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض كقوله تعالى : ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۞ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٨٨) ﴾

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : كما آتيناك القرآن العظيم ، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها ، وما متعنا بها أهلها من الزهرة الفانية ، لنفتنهم فيه ، فلا تغبطهم عليه ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ، ومخالفتهم دينك ، ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ أي ألِنْ لهم جانبك كقوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ . وقد اختلف في السبع المثاني ما هي ؟ فمن قال أنها هي السبع الطوال يعنون البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف والأنفال والتوبة سورة واحدة قال ابن عباس : ولم يعطهن أحد الا النبي ﷺ روي هذا القول عن ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وبعض التابعين وقال سعيد بن جبير بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام .

والقول الثاني : أنها الفاتحة وهي سبع آيات . وروي ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس قال ابن عباس والبسملة هي الآية السابعة وقد خصكم الله بها ، وبه قال ابراهيم النخعي والحسن البصري ومجاهد وغيرهم . وقال قتادة : ذكر لنا أنهن فاتحة

الكتاب ، وانهن يثنّين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع واختاره ابن جرير واحتج في بالأحاديث الواردة في ذلك وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة ولله الحمد . وقد أورد البخاري في ذلك حديثين (أحدهما عن أبي سعيد بن المعلى قال : مرّ بي رسول الله ﷺ (وفيه ...) : ٧٠١ [... الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته (والثاني) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٠٢ [أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم] فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم . ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك لما فيها من هذه الصفة كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً ، فلا تنافي فإن ذكر الشي لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ لا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ أي استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ، كأنه يعزيه عن الدنيا . قال ابن عباس : ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ نهي الرجل أن يتمنّى ما لصاحبه. وقال مجاهد : ﴿ الى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ هم الأغنياء .

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ۞ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۞ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۞ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٩٣) ﴾

يقول تعالى آمراً نبيه ﷺ أن يقول للناس : ﴿ إني أنا النذير المبين ﴾ المبين النذارة للناس من عذاب أليم أن يحلّ بهم على تكذيبه كما حلّ بمن تقدمهم من الأمم المكذبّة لرُسُلها ، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام . وقوله تعالى : ﴿ المقتسمين ﴾ أي المتحالفين على الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم ، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتّنه وأهله ﴾ الآية أي نقتلهم ليلاً ، قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا فكأنهم كانوا لايكذبون بشيء من الدنيا إلاّ أقسموا عليه فسمّوا مقتسمين ، وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ : ٧٠٣ [انما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل اتى قومه فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما

جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق] .

وقوله تعالى : ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ يعني أصنافاً أي من قال : سحر ومن قال ، كهانة ، ومن قال أساطير الأولين وقال عطاء: قال بعضهم ساحر وقالوا مجنون وقالوا كاهن فذلك العضين . وكذا روي عن الضحاك وعن غيره .

وقال محمد بن إسحق عن محمد بن ابي محمد عن عكرمة او سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا شرف فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ؛ فقالوا وأنت يا ابا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به ، قال : بل انتم قولوا لأسمع ، قالوا : نقول كاهن، قال: ما هو بكاهن ، قالوا : فنقول مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، قالوا : فماذا نقول ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة، فما انتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف انه باطل، وإن اقرب القول ان تقولوا هو ساحر ، فتفرقوا عنه بذلك ، وانزل الله فيهم (الذين جعلوا القرآن عضين) أصنافاً (فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون) وعن مجاهد في هذه الآية قال : عن لا إله إلاّ الله وروي كذلك عن أنس موقوفاً ورواه الترمذي وغيره من حديث أنس مرفوعاً ، **وقال عبد الله هو ابن مسعود : والذي لا إله** غيره ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر . **فيقول** : ابن آدم ماذا غرك مني بي ؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟

روى ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٠٤ [يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كُحْل عينيه . وعن فتات الطينة بأصبعه ، فلا ألفينّك يوم القيامة وأحدٌ غيرك أسعد بما آتاك الله منك] وعن ابن عباس : قال : لا يسألهم – الله – هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ولكن يقول لمَ عملتم كذا وكذا ؟ .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ ۞ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ ۞ (٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۞ (٩٩)

يقول تعالى آمر رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصدع به ، وهو مواجهة المشركين به . كما قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ أي أمضه . وعن ابن مسعود : ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فخرج هو وأصحابه . وقولُه تعالى : ﴿ واعرض عن المشركين إنّا كفيناك المستهزئين. ﴾ أي بلغ ما انزل اليك من ربك ولا تلتفت الى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿ ودُّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ ولا تخفهم فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم . روى الحافظ ابو بكر البزار عن أنس قال : ٧٠٥ [« إنا كفيناك المستهزئين ﴿ الذين يجعلون مع الله إلٓهاً آخر ﴾ قال : مرّ رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم فجاء جبريل ، أحسبه قال فغمزهم ، فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا] . روى ابن اسحق عن ابن عباس قال : كان رأسهم الوليد بن المغيرة وهو الذي جمعهم وكانوا خمسة على أصح القولين وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم ، من بني أسد ، وزهرة ومخزوم ، وسهم . وخزاعة . وقوله تعالى : ﴿ الذين يجعلون مع الله إله آخر فسوف يعلمون ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر . وقوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ اي وإنا لنعلم يا محمد انه يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض فلا يثنيك عن إبلاغك رسالة الله . وتوكل عليه فانه كافيك وناصرك عليهم ، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة ولهذا قال سبحانه ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ كما جاء في الحديث المروي عن الإمام أحمد عن نعيم بن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ٧٠٦ [قال الله تعالى : يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النّهار أكفِك آخره .) ورواه أبو داود والنسائي.

وقوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حين يأتيك اليقين ﴾ قال البخاري : قال سالم : الموت وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغيرهم والدليل على ذلك قوله تعالى : إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا : ﴿ لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ أي الموت . وفي الصحيح عن أم العلاء امرأة من الأنصار ٧٠٧ [أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات قالت

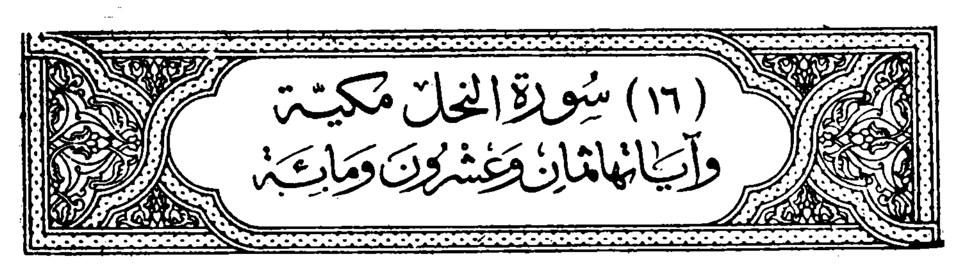
ام العلاء : « رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ » فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ، فمن ؟ فقال : « أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير »]

ويستدل بهذه الآية : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلي بحسب حاله . ويستدل بها على تخطئة الملاحدة إلى ان المراد باليقين المعرفة . فمتى وصل أحدهم الى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم وهذا كفر وضلال وجهل [1] فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم . وكانوا مع هذا أعبد . واكثر الناس عبادة ، ومواظبة على فعل الخيرات الى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين هنا الموت كما قدمناه والحمد لله على الهداية ، وعليه الاستعانة والتوكل . وهو المسؤول ان يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها فانه جواد كريم آخر اختصار تفسير سورة الحجر والحمد لله رب العالمين .

١٣٨٩/٣/١٩ هـ
٤ /٦/ ١٩٦٩ م

---

(١) قلت : هؤلاء الملاحدة هم أهل وحدة الوجود التي هي نهاية حقائق علم التصوف وآخر درجات الحقيقة عندهم وهي مرتبة الوصول بأن يعتقد الواصل إليها انه بلغ الحقيقة ... !!! وهي الاعتقاد بأن الخالق عين المخلوق مهما تعددت الأشكال والذوات. فالكل واحد وهو الله... !!! فإذا أصبح العبد رباً فمن يعبد...؟ أيعبد نفسه ...؟ وهنا تسقط التكاليف نعوذ بالله من الكفر والخذلان ، وسوء المنقلب ، ومن همز الشيطان ونفثه... فإن من يشرفه الله بالإسلام ويذوق حلاوته، ثم يختار مرارة هذا المنقلب الشركي المخيف فهو أهل لأحط دركات جهنم ، وأعظم عذاب أهل السعير .



إلاّ الآيات الثلاث الأخيرة فمدنيّة نزلت بعد الكهف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نصف الحزب

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (١) ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة ، كقوله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ أي قرب ما تباعد ، فلا تستعجلوه ويحتمل عود الضمير على الله أو عوده على العذاب ، وكلاهما متلازم ، كما قال تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينّهم بغتةً وهم لا يشعرون ﴾

روى ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٠٨ [« تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس ، فما تزال ترتفع في السماء ، ثم ينادي منادٍ فيها : يا أيها الناس ، فيقبل الناس ، بعضهم على بعض : هل سمعتم ؟ فمنهم من يقول : نعم ، ومنهم من يشك ، ثم ينادي الثانية : يا أيها الناس ، فيقول الناس بعضهم لبعض : هل سمعتم ؟ فيقولون نعم ، ثم ينادي الثالثة : يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال رسول الله ﷺ فوالذي نفسي بيده إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبدا ، وان الرجل ليمدن حوضه فما يسقي فيه شيئاً أبداً ، وان الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً ــ قال ــ ويشتغل الناس »] ثم أنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه سواه تعالىٰ وتقدس ، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال : ﴿ سبحانه وتعالىٰ عما يشركون . ﴾

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ * (٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح ﴾ أي الوحي • وقوله تعالى : ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ وهم الأنبياء. كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أن أنذروا ﴾ أي لينذروا ﴿ أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ أي فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * (٣) خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * (٤) ﴾

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل ليجزي عباده كلاً بما قدم من عمل . ثم نزّه نفسه عن الشرك ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له،فلهذا يستحق ان يعبد وحده لا شريك له • ثم نبه على خلق جنس الانسان من نطفة مهينة ضعيفة . فلما استقلّ ودرج إذا هو يخاصم ربه ويكذبه ويحارب رسُلهُ ! ! ! وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدّا • كقوله تعالى : ﴿ أو لم يرَ الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بشر بن جحاش قال : ٧٠٩ [بصق رسول الله ﷺ في كفه . ثم قال : « يقول الله تعالى : ابن آدم أنّى تُعجزُني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم قلتَ : أتصدق ، ... وأنّى أوان الصدقة ؟] .

﴿ وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ *(٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ *(٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * (٧) ﴾

يمتّن الله على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها في سورة الأنعام الى ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها واشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون.ويأكلون من أولادهاوما لهم فيها من الجمال والزينة ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون ﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى فإنها تكون أمده خواصر ، وأعظمه ضروعاً ، وأعلاه أسنمةً . ﴿ وحين تسرحون ﴾ أي غدوة حين تبعثونها الى المرعىٰ ﴿ وتحمل اثقالكم ﴾ التي تعجزون عنها نقلاً وحملاً ﴿ إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس ﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة تستعملونها في الركوب والتحميل كما قال تعالىٰ : ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم ﴿ ان ربكم لرؤوف رحيم ﴾ فقيّض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم،كما قال سبحانه ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾

قال ابن عباس : ﴿ لكم فيها دفء ﴾ أي ثياب ﴿ ومنافع ﴾ ما ينتفعون يه من الأطعمة والأشربة .

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ (٨) ﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالىٰ لعباده ، يمتّن به عليهم ، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها الله للركوب والزينة بها ، وذلك أكبر المقاصد منها ، ولما فصلها من الأنعام وخصّها بالذكر ، استدل من استدل من العلماء ممن ذهب الى تحريم لحوم الخيل بذلك كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء ، بأنه تعالىٰ قرنها بالبغال والحمير وهي حرام فقد روى فيها أحاديث عن خالد بن الوليد مفادها لو صحت تحريم لحوم الخيل ولكن ما صحت لأن فيها بقية بن الوليد [1] وصالح بن يحيىٰ بن المقدام ابن معد يكرب [2] وهذا وإن ثبت عكسه في الصحيحين عن جابر بن عبدالله قال ٧١٠ [نهىٰ رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل] ورواه الإمام أحمد وأبو

(١) بقية بن الوليد مدلس . (٢) وصالح بن يحيى بن المقدام بن معد يكرب فيه كلام .

داود باسنادين كل منهما شرط مسلم عن جابر قال : ٧١١ [ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير ، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل] . وفي صحيح مسلم عن اسماء بنت ابي بكر رضي الله عنهما قالت : ٧١٢ [نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة] ؛ فهذه الأحاديث أدل وأقوى وأثبت [١] وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم واكثر السلف والخلف .

﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ [٢]

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (٩) ﴾

لما ذكر الله تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسيّة نبّه على الطرق المعنوية الدينية ، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسيّة إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية ، كقوله تعالىٰ : ﴿ وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ وفي القرآن من ذلك كثير وعلى هذا الأساس ذكر الله الطرق التي يسلكها الناس إليه تعالىٰ فبيّن ان الحق منها ما هي موصلةٌ إليه تعالىٰ فقال عز من قائل : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ وقال جل وعلا : ﴿ قال هذا صراط عليّ مستقيم ﴾ قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ قال : طريق الحق علىٰ الله . وهذا أقوى الأقوال من حيث السياق لأنه تعالىٰ أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه ، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق ، وهي الطريق التي شرعها ورضيها ، وما عداها مسدودة ، والأعمال فيها مردودة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ومنها جائر ﴾ أي حائد زائغ عن الحق . قال ابن عباس وغيره : هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة ، كاليهودية والنصرانية والمجوسية . ثم أخبر تعالىٰ أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال عز من قائل : ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾

---

(١) أي من الأحاديث التي ذكرنا أنها ضعيفة قبل قليل. (٢) أي ويخلق في المستقبل من المراكب ما لا تعلمون، كما رأينا في زماننا هذا من الدراجات والسيارات والطائرات . وغداً الصواريخ ... والله أعلم .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ (١١) ﴾

لما ذكر تعالىٰ ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء وهو العلو ، مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم ، فقال سبحانه : ﴿ لكم منه شراب ﴾ أي جعله عذباً زلالاً يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحاً أجاجاً ﴿ ومنه شجر فيه تسيمون ﴾ أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم .

وقوله تعالى : ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها ، ألوانها وروائحها وأشكالها ولهذا قال جل وعلا : ﴿ ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ أي دلالة وحجة على أن لا إله إلا الله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾ .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝ (١٣) ﴾

ينبه تعالى عباده على آياته ومننه العظام في تسخيره الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم الثوابت والسيارات ليهتدى بها في الظلمات ، وكلٌّ يسير في فلكه الذي خصص الله بلا زيادة ولا نقصان ، والجميع تحت قهره وتقديره.ولهذا قال : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ أي لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله كلامه

ويفهمون حججه . وقوله تعالى : ﴿ وماذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ﴾ لما نبه تعالى على معالم السماء نبّه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذكّرون ﴾ آلاء الله ونعمه فيشكرونها .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۞ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (١٨) ﴾

يخبر تعالىٰ عن تسخيره البحر العظيم ممتناً على عباده بتذليله لهم بتيسيرهم للركوب فيه وأكل ما فيه من السمك والحيتان ، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام . وبما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر وتسهيل استخراجها حليةً ، وبحمله السفن التي تمخره أي تشقه وهو الذي أرشد عباده إلى صنعتها إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام الذي أول من ركب السفن وأخذ الناس عنه صنعتها جيلاً بعد جيل . ويسيرون فيها من قطر الى قطر ويجلبون من كل قطرٍ وإليه ما هم بحاجةٍ اليه ولهذا قال سبحانه ﴿ ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ نعمه وإحسانه .

ثم ذكر سبحانه الأرضَ وما ألقى فيها من الجبال الشامخات كيلا تضطرب بما عليها ليهنأ عيشهم عليها ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ والجبال أرساها ﴾

وقوله تعالىٰ : ﴿ وأنهاراً وسبلاً ﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد ينبع من موضع وهو رزق لأهل موضع آخر فيقطع البقاع ويخترق الجبال والآكام ، فيصل إلى ما قدر الله وصوله إليه تجري حيناً وتنقطع حيناً آخر ما بين نبع وجمع فسبحان من قدّر وسخّر ويسّر فلا إله إلا هو ولا رب سواه . وكذلك جعل فيها

سبلاً أي طرقاً تسلك من بلاد إلى بلاد وتمر من الجبال إلى أي بلدٍ فيها أو أرض .

وقوله تعالى : ﴿ وعلامات ﴾ أي دلائل من جبال وآكام يستدل بها المسافرون بحراً وبراً إذا ضلوا الطريق . وقوله سبحانه : ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ في ظلام الليل ، ثم نبه تعالى على عظمته وانه لا تنبغي العبادة إلاّ لمولي هذه النعم دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون ، ولهذا قال : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ ثم نبههم على عميم نعمه على عباده واحسانه إليهم فقال عز من قائل : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ قال ابن جرير : يقول ان الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وانبتم الى طاعته واتباع مرضاته ، رحيم بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة .

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ (١٩) وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۞ (٢١) ﴾

يخبر تعالى أنه يعلم السرائر كما يعلم الظواهر ، وسيجزي كلاً بعمله خيراً كان أم شراً ، ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، وقوله تعالى : ﴿ أموات غير أحياء ﴾ أي لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل : ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ أي لا يدرون متى يكون بعثهم فكيف يُرتجَى عند من هذه صفاته نفع أو ثواب أو جزاء ؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء [1] .

---

(١) قلت : ان الأصنام التي يعبدونها ما كانوا يعبدونها لذاتها ، إنما كانوا يعبدون مَنْ وراءها من الصالحين الذين نحتت هذه الأوثان والأصنام على صورتهم ، زاعمين أنهم يقربونهم إلى الله زلفى بعبادتهم تماثيلَهم بأشخاصهم مع أنهم أمواتٌ لا يسمعون،ولا يبصرون ولا يعقلون،ولا يعلمون أيان يبعثون،فهذه الأوصاف ليست صفات جمادات وأحجار إنما هي صفات أولئك الصالحين الأموات بدليل أن الله يصفهم بصفات العقلاء الذكور أي أن جمعهم كان بالواو والنون . ولو كانوا جمادات لوصفهم بقوله : لا تشعر أيان تبعث ولكن لما قال : « وما يشعرون أيان يبعثون » فُهم أن مرادَ الله منصرف إلى أولئك الصالحين الذين نُحتت هذه الأوثان والأصنام على صورهم.وما مشركو زماننا بأحسن حالا من أولئك،إنما بدلوا الأوثان بالقبور ولعل الافتتان بالقبر أعظمُ خطراً من الافتتان بالصنم لأن جثة ذلك الصالح موجودةٌ داخل القبر فذلك أدعى للافتتان بصاحب القبر المدعو،من دون الله من الصنم الذي يمثل صورته فقط،دون أن يعلم عابدوه مكان قبره حتى يقصدوه ويقتربوا من جثته . اللهم جنبنا مزالق الزلل ولا تجعل في قلوبنا محلاً لعبادة غيرك وأحسنْ خاتمتنا بالايمان الكامل .

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ۝ (٢٣) ﴾

يخبر تعالىٰ أنه لا إله إلا هو الواحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك ، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿ واذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذاذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ وقوله ﴿ وهم مستكبرون ﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال تعالىٰ : ﴿ ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾

ولذا قال تعالى هاهنا : ﴿ لا جرم ﴾ أي حقاً ﴿ ان الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون ﴾ أي وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ۝ (٢٥) ﴾

يقول تعالىٰ : وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا ﴾ معرضين عن الجواب ﴿ أساطير الأولين ﴾ أي لم ينزل شيئاً ، إنما هو الذي يتليٰ علينا أساطير الأولين أي مأخوذ عن كتب المتقدمين كقوله تعالىٰ : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تمليٰ عليه بكرةً وأصيلاً ﴾ أي يفترون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادّة مختلفة باطلة ، وهكذا فإن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ . وقوله تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم ﴾ أي ليتحملوا خطيئة ضلالهم في أنفسهم. وخطيئة إغوائهم لغيرهم ، واقتداء أولئك بهم ، كما جاء في الحديث : ٧١٣ [من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، لا يُنقص ذلك من اجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه ، لا يُنقص ذلك من آثامهم شيئاً] قال مجاهد : يحملون أثقالهم ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ، ولا يخفّف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً . ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ أي يحملون .

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوءَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ۞ (٢٧) ﴾

قوله تعالىٰ : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ قال ابن عباس : هو النمروذ وقال زيد ابن أسلم : أول جبار كان في الأرض النمروذ فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق ، وكان جباراً أربعمائة سنة فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ، ثم أماته وهو الذي بنىٰ الصرح إلى السماء الذي قال الله تعالىٰ ﴿ فأتىٰ الله بنيانهم من القواعد ﴾ أي اجتثه من أصله وأبطل عملهم كقوله تعالىٰ : ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ وقال الله ههنا : ﴿ فأتىٰ الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم ﴾ أي يظهر فضائحهم ، وما كانت تجنّه ضمائرهم فيجعله علانية ، كقوله تعالىٰ : ﴿ يوم تبلىٰ السرائر ﴾ أي تظهر وتشتهر كما في الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ٧١٤ [ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند أسته بقدر غدرته ، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان] وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرّونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرّعاً لهم وموبخاً ﴿ اين شركائي الذين كنتم تشاقّون فيهم ﴾ أي تحاربون وتعادون في سبيلهم ، أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا ؟ كقوله تعالى ﴿ هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فما له من قوة ولاناصر ﴾ فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار : ﴿ قال الذين أوتوا العلم ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة ، فيقولون حينئذ ﴿ إن الخزيَ اليوم والسوء على الكافرين ﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه .

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون (٢٨) فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين (٢٩) ﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿ فألقوا السلم ﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فقال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك ﴿ بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون » فادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ أي بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله ، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها ، فاذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ، كما قال تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾

﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين (٣٠) جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين (٣١) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون (٣٢) ﴾

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء الذين قالوا لم ينزل الله شيئاً انما

هذا أساطير الأولين ، أما المؤمنون السعداء ، لما سئلوا عما أنزل الله قالوا خيراً . أي رحمةً وبركةً لمن اتبعه وآمن به ثم اخبر سبحانه فيما وعدهم به فقال عز من قائل : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ الآية ... كقوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ أي أخبر بأن دار الآخرة خير من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا ، كقوله تعالىٰ : لرسوله ﷺ : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ ثم وصف الدار الآخرة فقال سبحانه : ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾

وقوله تعالىٰ : ﴿ جنات عدن ﴾ بدل من دار المتقين ﴿ يدخلونها ﴾ أي يقيمون فيها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي بين اشجارها وقصورها﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ كقوله تعالىٰ : ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾ وقوله تعالى : ﴿كذلك يجزي الله المتقين ﴾ أي كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله . ثم أخبر تعالىٰ عن حال المؤمنين عند الاحتضار أنهم طيبون أي مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء ، وان الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة كقوله تعالى : ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون * نزلاً من غفور رحيم ﴾. وقد قدمنا الأحاديث في قبض الروح المؤمنة والروح الكافرة . عند قوله تعالى : ﴿ يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * (٣٤) ﴾

يهدد الله المشركين بأنهم لا ينتظرون إلاّ أن تقبض الملائكة أرواحهم أو تقوم القيامة بأمر الله وما فيها من أهوال ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي هكذا أشرك سلفهم حتى ذاقوا بأس الله وحلّوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ لأنه بلغهم

واقام الحجة عليهم بإنزال كتبه ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي بتكذيب الرسل فأصابتهم عقوبة الله على ذلك ﴿ وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ عندما كان الرسل يهددونهم بعقاب الله تعالىٰ، فلهذا يقال لهم يوم القيامة ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ۞ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ (٣٦) إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۞ (٣٧) ﴾

يخبر تعالىٰ عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك، واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من دونه من شيء ﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل [١] وغير ذلك مما ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالىٰ كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكننا منه، فرَّد الله عليهم شبهتهم ﴿ فهل على الرسل إلاَّ البلاغ المبين ﴾ أي ليس كما زعمتم بل أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي وبعث الرسل في كل أمة، وكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده ﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وذلك منذ أن حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل اليهم، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب كما قال تعالىٰ: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله الا أنا فاعبدون ﴾ وقال

---

(١) البحيرة: التي يجدعون آذانها فلا تحلب لأحد من الناس بل تبقىٰ ممنوعة لطواغيتهم والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بل تثنى بعد انثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. رواه البخاري ومسلم.

تعالىٰ في هذه الآية الكريمة ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ فمشيئته الشرعية منتفية عنهم ، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله . وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدراً فلا حجة لهم فيها (١)

ثم إنه تعالىٰ أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد انذار الرسل فلهذا قال تعالىٰ : ﴿ فمنهم من هدى الله ومنهم من حقّت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق ، كيف ﴿ دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ ان حرصه على هدايتهم لا ينفعهم اذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالىٰ : اخباراً عن نوح عندما قال لقومه : ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد ان يغويكم ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يُضِلّ (٢) ﴾ أي من أضلّه الله ، وما من مخلوق يستطيع ان يهديه من بعد الله ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ينقذونهم من عذابه ووثاقه ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ۞ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ (٤٠) ﴾

(١) قلت : لأن المشيئة الكونية ليست مجبرة لهم بأخذ الكفر عقيدة إذ أن العقيدة من الأمور التكليفية التي جعل الله للإنسان فيها الاختيار المطلق ليكون الانسان أهلا للثواب أو للعقاب . ولما علم الله تعالى في أول الأمر – وقبل الخليقة – من هذا المكلف أنه سيعرض عليه الإيمان والكفر وإنه سيختار الكفر مثلا ... فكتبه عليه وقدره ، وشاءه له فهذه هي المشيئة الكونية ، ثم لما خلق هذا المكلف وبلغ سن التكليف وعرض عليه الإيمان والكفر فإنه اختار الكفر وفق ما علم الله منه ما سيختار ، فأين للكافر الحجة بالمشيئة الكونية والحالة هذه ... ؟ أما في الأمور غير التكليفية ، فالمشيئة الكونية مجبرة له كأن يخلقه الله أسود أو أعمىٰ وما شابه ، مما لا دخل للاختيار به فهو مجبر على ذلك ولا يترتب عليه أية مسؤولية ، وله أن يحتج بالمشيئة الكونية وعلى هذا فكل مشيئة كونية تتعلق بمشيئة شرعية فلا حجة لصاحبها بالمشيئة الكونية أصلا والله أعلم وهو الموفق للصواب .

(٢) قلت : لا يضل الله أحداً إلا من بعد تبليغه واقامة الحجة عليه ، وبعد الإختيار المطلق من المكلف ، فإن اختار الضلال بعد ذلك وأمعن فيه فإن الله يضله نهائياً جزاء وفاقاً .

يخبر تعالىٰ عن المشركين أنهم غلظوا الأيمان بالله تعالىٰ بأنه لن يبعث الله الموتىٰ ، فحلفوا على نقيض ما آخبرهم الرسل مكذبين ما بلغوهم إياه ، فقال تعالى مكذباً لهم وراداً عليهم ﴿ بلىٰ ﴾ أي نعم سيكون البعث ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ أي لا بدّ منه ﴿ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فلجهلهم يخالفون الرسل ويكفرون . ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد ، وبعث الأجساد فقال عز من قائل : ﴿ ليبين لهم ﴾ أي للناس ﴿ الذي يختلفون فيه ﴾ أي من كل شيء ﴿ وليعلمَ الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ أي في أيمانهم وإقسامهم لا يبعث الله من يموت ؛ ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعّاً ، وتقول لهم الزبانية ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * إصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ ثم أخبرعن قدرته على كلّ شيء ممايشاء وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء كقوله تعالى : ﴿ وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي أنْ نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن . فلا يحتاج سبُحانه إلى تأكيد ولا يمانع ولا يخالف فقد قهر سلطانُه وجبروته وعزته كلّ شيء ، فلا إله الا هو ولا رب سواه ، روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال ٧١٥ : [يقول الله تعالى : شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقال ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ قال : وقلت : ﴿ بلىٰ وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أما شتمه إيّاي فقال : ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ وقلت ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾] هكذا ذكره موقوفاً وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظٍ آخر .

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * (٤١) ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * (٤٢) ﴾

نزلت هذه الآية والله أعلم – في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة ، حتى خرجوا من بين أظهرهم الى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم : عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم

رسول الله ﷺ ، وابو سلمة بن عبدالله الأسود في جماعة قريب من ثمانين رجل وامرأة رضيَ الله عنهم وارضاهم ولقد فعل فوعدهم تعالى بالمثوبة في الدارين فقال تعالى : ﴿ لنبوّئنّهم في الدنيا حسنة ﴾ فقد عوّضهم الله مسكناً طيباً في المدينة ورزقاً طيباً فيها خيراً مما كانوا فيه ، فإن من ترك شيئاً لله عوّضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك وقع فقد مكّن الله لهم في البلاد ، وصاروا أمراءً وحكاما ، وكل منهم للمتقين إماما . ثم اخبر تعالىٰ بأن لهم ثواباً في الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال عز من قائل : ﴿ ولأجر الآخــرة أكبر ﴾ أي مما أعطيناهم في الدنيا ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لو كان المتخلفون عــن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لهم جزاء طاعته وطاعة رسوله ﷺ ثم وصفهم تعالىٰ فقال : ﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ (٤٣) بِٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۞ (٤٤) ﴾

قال الضحاك عن ابن عباس : لما بعث الله محمداً ﷺ أنكر قسم من العرب ذلك وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ الآية ... وقال تعالىٰ هنا : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم فسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ﴾ يعني فاسألوا أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم ، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا ان يكون محمد ﷺ بشراً رسولاً وكذا قال مجاهد عن ابن عباس ان المراد بأهل الذكر هم أهلُ الكتاب . والغرض ان هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قل إنما انا بشر مثلكم يوحَى إلي ﴾ ثم أرشد تعالى الذين يشكّون في كون الرسل من البشر أن يسألوا أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة ، ثم ذكر تعالىٰ أنه أرسلهم ﴿ بالبينات والزبر ﴾ بالحجج والدلائل والزبر وهي الكتب قاله ابن عباس وغيره . والزبر جمع زبور ، تقول العرب : زبرت الكتاب اذا كتبته . وقــال

تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ ثم قال تعالىٰ : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر ﴾ يعني القرآن ﴿ لتبين للناس ما نزّل اليهم ﴾ أي من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه واتباعك له ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصّل لهم ما أجمل وتبيّن ما أشكل ﴿ ولعلّهم يتفكرون ﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين .

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ۞ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ (٤٧) ﴾

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئآت ويدعون إليها ، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم على ذلك ، مع قدرته تعالىٰ على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون كقوله تعالى : ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور * أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾

وقوله تعالى : ﴿ أو يأخذهم في تقلّبهم ﴾ أي في تقلّبهم في المعايش واشتغالهم بها في أسفارهم ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليـــه .

وقوله تعالىٰ : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشد . فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد،ثم قال تعالى : ﴿ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ أي لأنه لم يعاجلكم بالعقوبة وفي الصحيحين : ٧١٦ [إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾]

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۞ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي



ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۞ (٥٠)

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي دانت له المخلوقات بأسرها : جماداتها وحيواناتها ونباتاتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة ، فأخبر ان كل ماله ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال ، أي بكرة وعشياً وعند زوال الشمس ، فإنه جميعاً ساجد بظلّه لله تعالى.وقوله تعالى : ﴿ وهم داخرون ﴾ أي صاغرون ، فسجود كل شيء فيؤُه ، وقوله تعالى : ﴿ والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ أي عن عبادته ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ أي يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أي مثابرين على طاعته تعالى وامتثال أوامره ، وترك زواجره .

وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ۞ (٥١) وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۞ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۞ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۞ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ (٥٥)

يخبر تعالى أنه لا إله الا هو ، فلا تنبغي العبادة إلاّ له وحده لا شريك لـه ، فإنه مالك وخالق ورب كل شيء ﴿ وله الدين واصباً ﴾ أي دائماً خالصاً له ، أي له العبادة وحده فارهبوا أن تشركوا به شيئاً واخلصوا له الطاعة كما أمر كقوله تعالى : ﴿ ألا

لله الدين الخالص ﴾ ثم أخبر انه مالك النفع والضر ، وكل إحسان وفضل منه وحده ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ أي تلحون في الرغبةإليه ، مستغيثين به ، لعلمكم أنه لا يقدر على إزالة الضر إلا هو ﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم ﴾ بمعنى : قيضنا لهم ذلك ليكفروا أي يستروا الحق ويجحدوا نعم الله عليهم عقاباً لهم لاختيارهم لأنفسهم هذه العاقبة المرذولة ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ أي اعملوا ما شئتم فسوف ترون عاقبتكم السيئة بما كنتم تعملون .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ۞ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلهِ ٱلْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ۞ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي ٱلتُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ (٦٠) ﴾

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا : هذا لله – بزعمهم وهـذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾ فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنّهم عن ذلك الذي افتروه وليجازيهم عليه أوفر الجزاء في نار جهنم . فقال سبحانه : ﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾ ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه سبحانه ، فأخطأوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث [1] كما قـال تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ وقوله تعالى ههنا : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ : أي تنزه عن قولهم وإفكهم ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ من الذكور ويأنفون البنات التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ﴿وإذا بشر أحدهم

(١) قلت : أي جعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله ، ونسبوا لله ولداً ولا ولد له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات ، وهم لا يرضونها لأنفسهم .

بالأنثى ظل وجهه مسوداً ﴾ أي كئيباً من الهم ﴿ وهو كظيم ﴾ ساكت من شدة الحزن ﴿ يتوارى من القوم ﴾ أي يكره أن يراه الناس ﴿ من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ﴾ أي إن أبقاها أبقاها مُهانةً لا يورثها ولا يعتني بها ، ويفضل أولاده الذكور عليها. ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ أي يدفنها فيه وهي حيّة كما كانوا يصنعون في الجاهلية ، أفمن يكرهونه هذه الكراهية ، ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟! ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ أي بئس ما قالوا وبئس ما قسموا وبئس ما نسبوه إليه ، كقوله تعالى : ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوّداً وهو كظيم ﴾ وقوله ههنا : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾ أي النقص ، إنما هذا خليق أن ينسب إليهم ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ۝ (٦٢) ﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة تبعاً لإهلاك بني آدم ولكنه جل جلاله يحلم ويستر وينظر إلى أجل مسمّى أي لا يعاجلهم بالعقوبة قال أبو الأحوص : كاد الجُعَل أن يعذب بذنب بني آدم ولكن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله .

روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : ٧١٧ [ان الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر]

وقوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أي من البنات ، والشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله . وقوله تعالى : ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك ان لهم الحسنى في الدنيا

وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى كقوله تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الأنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي ان لي عنده للحسنى فلننبئنَّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنّهم من عذاب غليظ . ﴾

فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمنّي الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل. كما ذكر ابن اسحق انه وُجد حجرٌ في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حكم ومواعظ . فمن ذلك : تعملون السيئآت وتجزون الحسنات ؟ أجل كما يجتني من الشوك العنب .

ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تمنيهم ذلك : ﴿ لا جرم ﴾ أي حقاً لا بد منه ﴿ أن لهم النار ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وانهم مفرطون ﴾ اي معجلون الى النار ، من الفرط وهو السابق الى الورْد وقيل منسيون مضيعون ، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة الى النار وينسون فيها أي يخلدون .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ (٦٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۞ (٦٥) ﴾

يذكر تعالى أنّه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل ، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة فلا يزعجنّك تكذيبُ قومك لك ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه . ﴿ فهو وليّهم اليوم ﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال ، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً ولا صريخ لهم ، ولهم عذاب أليم . ثم قال تعالى لرسوله ﷺ إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه . فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿ وهدى ﴾ أي للقلوب ﴿ ورحمة ﴾ أي لمن تمسك به ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب

الميتة بكفرها ، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿ إنَّ في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ ۞ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ (٦٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وان لكم ﴾ أيها الناس ﴿ في الأنعام ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ؛ ﴿ لعبرةً ﴾ أي لآية دلالةً على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ﴿ نسقيكم مما في بطونه ﴾ أفرده هاهنا عوداً على معنى النعم أو الضمير عائد على الحيوان ، فإن الأنعام حيوانات أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان ، وفي الآية الأُخرى مما في بطونها ويجوز هذا وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ كلاَّ إنها تذكره فمن شاء ذكره ﴾

وقوله تعالى : ﴿ من بين فرث ودم لبناً خالصاً ﴾ أي يخلّص الدمَ بياضُه وطعمه وحلاوته ما بين فرث ودم في باطن الحيوان ، فيسري إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته فيصرف منه دم إلى العروق ، ولبن الى الضرع ، وبول الى المثانة ، وروث إلى المخرج وكل منها لا يخالط الآخر بعد انفصاله عنه ولا يتغير به . وقوله تعالى : ﴿ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ أي لا يغصّ به أحد ، ولما ذكر اللبن وانه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ثنّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه . ولهذا أمتن عليهم فقال تعالى : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ﴾ دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه ودلَّ على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل أو العنب كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء ، وكذا حكم سائر الأشربة من الحنطة والشعير والذرة والعسل وغير ذلك وقوله تعالى : ﴿ سكراً ورزقاً حسناً ﴾ قال ابن عباس : السكر ما حرّم من ثمرتيهما والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانةً لعقولها .

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ (٦٩) ﴾

المراد بالوحي هنا:الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها ومن الشجر ومما يعرشون ، وبيوت النحل محكمة في غاية الإحكام والإتقان في تسديسها ورصها بحيث لا يكون بينها خلل ، ثم أذن الله تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التي سهلها الله عليها حيث شاءت؛ في الجو والبراري والأودية والجبال ثم تعود إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة فتبني الشمع من أجنحتها وتقيء العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، ثم تصبح إلى مراعيها .

وقوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ ما بين ابيض وأصفر وأحمر وغير ذلك على اختلاف مراعيها ومأكلها منها وقوله تعالى : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ أي في العسل شفاء للناس ، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة فانه حار والشيء يداوى بضده . والدليل على أن المراد بقوله تعالى ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ هو العسل ، الحديث المروي في الصحيحين من رواية قتادة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه :

٧١٨[ان رجلاً جاء الى رسول الله ﷺ فقال : ان أخي استطلق بطنه ، فقال : « اسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال : يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده الا استطلاقاً ، قال : « اذهب فاسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً ؛ فقال رسول الله ﷺ « صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً فبرىء] قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت ، فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالاً ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ، ثم سقاه فكذلك ، فلما اندفعت فضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه ، وصلح مزاجه ، واندفعت الأسقام والآلام ببركة اشارته ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ أي ان في إلهام الله لهذه الدواب

الضعيفة الخلقة ، الى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء ، لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها . فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر ، الحكيم العليم ، الكريم الرحيم .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۞ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده ، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ثم يتوفاهم ، ومنهم من يتركه حتّى يدركه الهرم وهو الضعف في الخلقة ، كما قال تعالى : ﴿ الله الــذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوةً ﴾ الآية وفي سن الهرم يحصل ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ولهذا قال سبحانه : ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ أي بعدما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الخرف . ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو : ٧١٩ [اعوذ بك من البخل والكسل والهرم ، وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات]

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۞ (٧١) ﴾

يبيّن تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجّهم : لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك . فقال تعالى منكراً عليهم : أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى الله تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾ الآية ... وقال مجاهد في هذه الآية : هذا مثل الآلهة الباطلة وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله ، فهل منكم مــن أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه ، فتعدلون بالله خلقه وعباده ؟ فإن لم ترض لنفسك هذا ، فالله أحق أن ينزّه منك .

وقوله تعالى : ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ أي أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فجحدوا نعمته ، وأشركوا معه غيره .

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ۞ (٧٢) ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً يتزاوجون وجعل منهم البنين والحفدة ، وهم أولاد البنين وعن ابن عباس قال : بنوك حيث يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك . وقال مجاهد : بنين وحفدة : ابنه وخادمه وقال في رواية ـ الحفدة والأنصار والأعوان والخدام وقيل أَخْتان الرجل وقيل : الأصهار ، وكل هذه الأقوال داخلة في معنى الحفدة وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت : وإليك نسعى ونحفد ، ولما كانت الحفدة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار فالنعمة حاصلة بهذا كله ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أي من المطاعم والمشارب ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره : ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ أي يسترون نعم الله عليهم ، ويضيفونها إلى غيره ، وفي الحديث الصحيح : ٧٢٠ [ان الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه : ألم أزوِّجْك ، ألم أُكرِمْك ، ألم أُسخِّر لك الخيل والإبل ، وأَذَرْك ترأَّسُ وتَـــربَّع]

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۞ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ (٧٤) ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخلاّق الرزّاق ، وحده لا شريك له ، ومع هذا ...! يعبدون من الأصنام والأنـــداد

والأوثان ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ، أي لا يقدر على إنزال المطر ولا إنبات الزرع ولا الشجر ولا يملكون ذلك لأنفسهم ، أي ليس لهم ذلك ، ولا يقدرون عليه لو أرادوه ولهذا قال : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً ﴿ ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أي أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو ، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره .

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَّمْلُوكاً لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٧٥) ﴾

ربع الحزب

هذا مثل ضربه الله تعالى للكافر والمؤمن قاله ابن عباس فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، مثلُ الكافر ، والمرزوق الرزق الحسن ، فهو ينفق منه سراً وجهراً ، مثَلُ المؤمن .

قال مجاهد : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ولمّا كان الفرق ظاهراً واضحاً لا يجهله إلاّ كل غبيّ قال الله تعالى : ﴿ الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون ﴾

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ (٧٦) ﴾

قال مجاهد : وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ، ولا يقدر على شيء بالكلية فلا مقال له ولا فعال ، وهو مع هذا كلٌّ ، أي عيالٌ وكلفةٌ على مولاه ﴿ أينما يوجّهْهُ ﴾ أي يبعثه ﴿ لا يأتِ بخير ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿ هل يستوي ﴾ من هذه صفاته ﴿ هو ومن يأمر بالعدل ﴾ فمقاله حق وفعاله مستقيمة ﴿ وهو على صراطٍ مستقيم ﴾

وقيل الأبكم مولى لعثمان بن عفان ، ومن ﴿ هو على صراط مستقيم ﴾ هو عثمان بن

عفّان الذي كان ينفق عليه ، ويكفيه المؤونة وكان الآخر يكره الأسلام ويأباه ، وينهاه عن الصدقة والمعروف ، فنزلت فيهما . قاله ابن عباس ، واختاره ابن جرير .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (٧٧) وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ (٧٩) ﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته ، وعلمه بغيب السموات والأرض واختصاصه به وحده ، فلا أحد يطلع على الغيب إلا أن يطلعه الله على ما يشاء ، وفي قدرته التي لا تخالَف ولا تمانَع ، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكن .كما قال : ﴿ وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي كطرفة العين وهكذا قال ها هنا : ﴿ وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر أو هوَ أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة ﴾ ثم ذكر تعالى منّهُ على عباده في إخراجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً . ثم يرزقهم السمع والأبصار والأفئدة التي هي العقول التي مركزها القلب على الصحيح ، فهذه القوى والحواس ، تحصل للانسان تدريجياً . كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله ، حتى يبلغ أشده وذلك ليتمكن من عبادة ربه تعالى فيستعين بها على طاعة مولاه . ولهذا قال سبحانه : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ أي نعمه التي لا تعد ولا تحصى .

ثم نبّه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخّر بين السماء والأرض ، كيف جعله يطير بجناحين ما يمسكه هناك إلا الله تعالى بقدرته . وسخر الهواء يحملها ويُسيّر الطيرَ كذلك كما قال تعالى : في سورة الملك : ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرّحمن إنه بكلّ شيءٍ بصيرٍ ﴾ وقال ها هنا : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ❁ (٨٠) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ❁ (٨١) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ❁ (٨٢) يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ❁ (٨٣) ﴾

يذكر تعالى وتبارك تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت سكناً لهم تأويهم وتستّرهم وينتفعون بها ، وجعل لهم في أسفارهم بيوتاً من جلود الأنعام يستخفونها حلاً وترحالاً. ولهذا قال تعالى : ﴿ تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها ﴾ أي الغنم ﴿ وأوبارها ﴾ أي الإبل ، ﴿ وأشعارها ﴾ أي المعز والضمير عائد على الأنعام ﴿ أثاثاً ﴾ أي تتخذون منه أثاثا أي مالاً﴿ومتاعاً﴾وثياباًفيتخذ من الأثاث : البسط والثياب ويتخذ مالاً وتجارة وقوله تعالى : ﴿ إلى حين ﴾ أي إلى أجل مسمى . وقوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴾ يعني الشجر ﴿ وجعل لكم من الجبال أكناناً ﴾ أي حصوناً ومعاقل ، كما ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ كالدروع من الحديد والزرد وغير ذلك ، ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أموركم وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ بكسر اللام من تُسْلِمون أي من الإسلام . وقوله تعالى : ﴿ فإن تولّوا ﴾ أي بعد هذا البيان والامتنان ، فلا عليك منهم ﴿ فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ وقد أدّيته إليهم ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ أي يعرفون أنه تعالى هو مُسدي النعم والمتفضّل بها عليهم ومع هذا ينكرونها ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۞ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ۞ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۞ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ۞ (٨٨) ﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة ، وانه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيُّها ، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ أي في الاعتذار ، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ﴿ ولا هم يستعتبون ۞ وإذا رأى الذين ظلموا ﴾ أي الذين أشركوا ﴿ العذاب فلا يخفف عنهم ﴾ أي لا يفتّر عنهم ساعةً واحدة ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب ، فإنه إذْ جيء بجهنم تقاد بسبعين الف زمام مع كل زمام سبعون الف ملك ، فيشرف عنق منها على الخلائق ، وتزفر زفرةً لا يبقى أحد إلاَّ جثا لركبتيه ، فتقول : إني وكلت بكل جبار عنيد الذي جعل مع الله إلها آخر وبكذا وبكذا ... وتذكر أصنافاً من الناس ، كما جاء في الحديث ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم كما يلتقط الطائر الحب ، قال الله تعالى : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبوراً ، لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾

ثم أخبر تعالى عن تبرىء آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال جل وعلا : ﴿ واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ أي قالت لهم الآلهة كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ۞ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذٍ السلم ﴾ أي

ذلوا واستسلموا يومئذ لله جميعاً فلا أحد إلاَّ سامع مطيع ، كقوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ والقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير ثم قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً ﴾ الآية ... أي عذاباً على كفرهم ، وعذاباً على صدّهم الناس عن اتّباع الحق ، كقوله تعالى : ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه ﴾ أي ينهون الناس عن اتباعه ويبتعدون هم منه أيضاً كما قال تعالى : ﴿ قال لكلٍ ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم وقوله تعالى : ﴿ فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ أي بما كانوا يصدون الناس عن الحق وليس من فسادٍ أعظم من الصد عن الخير والحق والهدى .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۞ (٨٩) ﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ : ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ يعني أمتك ، أي اذكر ذلك اليوم وهوله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى اليها عبدالله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل امةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ فقال له رسول الله ﷺ « حسبك » فقال ابن مسعود رضي الله عنه : فالتفتُّ فإذا عيناه تذرفان .

وقوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ قال ابن مسعود : قد بيّن لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء . فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي وكل حلال وكل حرام ، ﴿ وهدى ﴾ أي للقلوب ﴿ ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ والمراد – والله أعلم – إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي انزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة .كما قال تعالى : ﴿ فلنسألنَّ الذين أرسل إليهم ولنسألنَّ المرسلين ﴾

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَآئِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ (٩٠) ﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلهافمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل . قال ابن عباس ﴿ ان الله يأمر بالعدل ﴾ شهادة ان لا إله إلا الله ، وقال سفيان بن عينية : العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً ، والإحسان ان تكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر ان تكون علانيته أحسن من سريرته . وقوله تعالى : ﴿ وايتاء ذي القربى ﴾ أي يأمر بصلة الأرحام كما قال تعالى : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ فالفواحش المحرمات ، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها ، ولهذا قال في الموضع الآخر : ﴿ قل إنّما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ وأما البغي فهو العدوان على الناس ؛ وقد جاء في الحديث : ٧٢١ [ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم] وقوله تعالى : ﴿ يعظكم ﴾ أي يأمركم بالخير وينهاكم عن الشر ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ وقال الشعبي عن بشير بن نهيك : سمعت ابن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿ ان الله يأمر بالعدل والإحسان الآية ... رواه ابن جرير . وعن قتادة : قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ الآية ... ليس من خلق حسن ، كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى عنه وقدم فيه . وانما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامّها . (قلت) ولهذا جاء في الحديث : ٧٢٢ [ان الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها] روى الحافظ أبو يعلى عن عبدالملك بن عمير قال : ٧٢٣ [بلغ أكثم ابن صيفي مخرجُ النبي ﷺ فأراد أن يأتيه ، فأبى قومه أن يدَعوه ، وقالوا : أنت كبيرنا لم تكن لتخفَّ إليه قال : فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه ، فانتدب رجلان فأتيا النبي ﷺ فقالا : نحن رسل أكثم بن صيفي ، وهو يسألك من أنت ؛ وما أنت ؟ فقال النبي ﷺ : أما من أنا ، فأنا محمد بن عبدالله ، وأما ما أنا ، فأنا عبد الله ورسوله » قال

ثم تلا عليهم هذه الآية : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ الآية قالوا : ردِّدْ علينا هذا القول ، فردَّده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكثم فقالا أبىَ أن يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب وسطاً في مصر ـ أي شريفاً ـ وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أذناباً]

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۞ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۞ (٩٢) ﴾

هذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبرّوا و تتقوا ﴾ الآية ... لأن قوله تعالى : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان التي هي على حث أو منع والخاضعة للتكفير عنها ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ يعني الحلف ، أي حِلف الجاهلية . ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله ﷺ : ٧٢٤ [لا حلف في الإسلام ، وأيّما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدّة] وكذا رواه مسلم عن ابن أبي شيبة به . ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحِلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فإن في التمسك بالإسلام كفايةً عمّا كانوا فيه . وأما ما ورد في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه انه قال : ٧٢٥ [حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا] فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك والله اعلم .

روى الإمام أحمد عن نافع قال : ٧٢٦ [لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن

عمر بنيه ، وأهله ثم تشهد ، ثم قال : أما بعد فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال : هذه غدرة فلان ، وان من اعظم الغدر – الا أن يكون الإشراك بالله – ان يبايع رجل رجلاً على بيعة الله ورسوله ثم ينكث بيعته فلا يخلعن أحد منكم يداً ولا يسرفنّ أحد منكم في هذا الأمر فيكون فصل بيني وبينه »] المرفوع منه في الصحيحين وقوله تعالى : ﴿ ان الله يعلم ما تفعلون ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الإيمان بعد توكيدها وقوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً ﴾ قال مجاهد وقتادة وابن زيد هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده وقوله تعالى : ﴿ انكاثاً ﴾ اي انقاضاً أو نكونوا انكاثاً أي ناكثي العهود ولهذا قال تعالى بعده : ﴿ تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم ﴾ أي خديعةً ومكراً ﴿ أن تكون أمة هي أربىَ مِن أمة ﴾ أي تحلفون للناس اذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم ، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم ، فنهى الله تعالى عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى اذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى . وقوله تعالى : ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿ وليبينَنَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير أو شر .

﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٩٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجعلكم ﴾ أيها الناس ﴿ أمة واحدة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم﴾ أي لوفقَ بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تباغض

ولا شحناء ﴿ ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ (١) ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على النقير والقطمير . ثم حذّر تعالى عباده عن اتخاذ الإيمان دخلاً أي خديعة ومكراً لئلا تزل قدم بعد ثبوتها ، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها ، وزل عن طريق الهدى بسبب الايمان الحانثة ، المشتملة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول في الاسلام ، ولهذا قال تعالى ﴿ وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ﴾ أي لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فما عند الله خير لكم من الدنيا بحذافيرها . ولهذا قال تعالى : ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد ﴾ أي ينقضي فإنه إلى أجل معدود مقدر متناه ﴿ وما عند الله باق ﴾ أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له ﴿ ولنجزين الذين صبروا اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام ، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم ، أي ويتجاوز عن سيئها .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو انثى من بني آدم ، وقلبه مطمئن بالإيمان بالله ورسوله ، بأن يحييه حياةً طيبة في الدنيا وان يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة ، والحياة الطيبة تشمل جميع انواع النعم التي تنشرح بها الصدور في الدنيا والآخرة ، كما جاء في الحديث الذي رواه الامام أحمد عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ٧٢٧ [قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه] ورواه مسلم من حديث عبدالله بن يزيد المقري به وقال روى الامام أحمد عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : ٧٢٨ [إن الله

(١) قلت : ولا يشاء إضلال أحد من المؤمنين الذين أخلصوا وأفردوا العبادة له وأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه طبق ما بلغ رسله أما الذين اختاروا الضلالة سبيلا وما حادوا عنها وأمعنوا في ذلك فإنه سبحانه وتعالى يضلهم أي يزيدهم ضلالا جزاءً ما فرطوا بحق ربهم ولا يظلم ربك أحداً .

لا يظلم المؤمن حسنة، يُعطى بها في الدنيا، ويُثابُ عليها في الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتّى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً] إنفرد بإخراجه مسلم.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۞(٩٨) إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞(٩٩) إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۞(١٠٠)﴾.

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيّه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب ليس بواجب، حكاه ابن جرير وغيره من الائمة، وقد تقدّمت الأحاديث الواردة في الاستعاذة في أول التفسير ولله الحمد والمنّة والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبّس على القارىء قراءته، ويخلط عليه ويمنعه من التدبّر والتفكّر. وقوله تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي لا سلطان له على من كان مؤمناً متوكلاً على ربه حق التوكل فلا حجة له على المؤمنين المتوكلين ﴿إنما سلطانه على الذين يتولّونه﴾ أي يطيعونه، واتخذوه ولياًمن دون الله ﴿والذين هم به مشركون﴾أي اشركوه في عبادة الله بسبب طاعتهم له.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۞ (١٠٢)﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم وذلك لأنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها ومنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ ﴿إنما أنت مفتر﴾ أي كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، كقوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ الآية ... فقال تعالى مجيباً لهم ﴿قل نزله روح القدس﴾ أي جبريل ﴿من ربك بالحق﴾ أي بالصدق والعدل ﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ فيصدّقوا بما أنزل أولاً وثانياً،

وتطمئنّ له قلوبهم ﴿ وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ أي وجعله هادياً وبشارةً للملسمين الذين آمنوا بالله ورسوله .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۞ (١٠٣) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين ما كانوا يفترونه من الكذب والبهت بأن محمداً إنما يعلّمه القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم لا يعرف العربيّة إلاّ يسيراً بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه فردّ الله عليهم بقوله عز من قائل : ﴿ لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ اي القرآن ، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته،وبلاغته ومعانيه التامة من رجل أعجميّ لا يكاد يعرف شيئاً من العربيّة ؟ لا يقول هذا من له أدنى مِسكة من العقل .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ ۞ (١٠٥) ﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ فهذا النوع من الناس لهم عذاب أليم موجع في الآخرة . ثم أخبر تعالى أن رسول الله ﷺ ليس بمفتر ولا كذّاب لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرارُ الخلق ، ﴿ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس ، والرسول محمد ﷺ كان أصدقَ الناس وأبرّهم وأكملَهم علماً وعملاً وإيماناً وايقانا ، معروفاً بالصدق في قومه لا يشك في ذلك أحد منهم وكان يدعى بينهم بالأمين ، ولهذا لما سأل هرقل ملكُ الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل .

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ (١٠٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۝ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ (١٠٩) ﴾

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر ، وشرح صدره بالكفر واطمأنَّ به أنه قد غضب عليه لعلمه بالإيمان ثم عدوله عنه ، فمثل هذا النوع من الناس لهم عذاب أليم عظيم في الآخرة ، لأنهم أقدموا على الردة لأجل الدنيا ، فطبع الله على قلوبهم جزاء نكولهم عن الحق فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم ، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم . ﴿ لا جرم ﴾ أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿ أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، أما قوله تعالى : ﴿ إلاَّ من أكرِه وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله .

روى ابن جرير عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : ٧٢٩ [أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئناً بالإيمان فقال النبي ﷺ : « ان عادوا فعد »] . ولهذا اتفق العلماء على أن المكرهَ على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاءً على مهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم الكفر وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى أنهم ليضعوا الصخرةَ العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم ، وهو يقول : أحدٌ أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها ، رضي الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال مسيلمة الكذاب أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول نعم . فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا

أسمع . فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك رضي الله عنه . ولا شك أن الأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله كما ذكر ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم فقال له ملكهم تنصّر وانا اشركك في ملكي وأزوجك ابنتي فقال له : لو اعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على ان ارجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت . فقال إذاً أقتلك فقال انت وذاك ثم عُذّبَ أمامه بعضُ أسرى المسلمين عذاباً تقشعر من هوله الأبدان فلم يكن ليترك دينه إلى ان يئسوا من ارتداده فقال له الملك قبّل رأسي أطلقك فقال وتطلق معي جميع أسارى المسلمين ؟ قال : نعم ، فقبل رأسه ، فأطلقه وأطلق معه جميع أسرى المسلمين عنده فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبدالله بن حذافة وأنا أبدأ فقام وقبل رأسه رضي الله عنهما .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * (١١١) ﴾

هؤلاء صنف آخر من المستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه وانتظموا في سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، وصبروا ، فأخبر تعالى أنه من بعدها ، أي تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ ليس أحد يجادل عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة . ﴿ وتوفى كل نفس ما عملت ﴾ من خير أو شر ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير ولا يزاد على ثواب الشر ولا يظلمون نقيراً .

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا

رَغداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللهِ فَأَذَاقَهَا ٱللهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمناً لا يخاف ، كما قال تعالى : ﴿ وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنّا ﴾ وهكذا قال ها هنا : ﴿ يأتيها رزقها رغداً ﴾ أي هنيئاً ﴿ من كل مكان فكفرت بأنعم الله ﴾ أي جحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم فلهذا بدّلهم بحاليهما الأوّلين خلافهما ، فقال : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد ان كان يجبي اليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، وذلك انهم استعصوا على رسول الله ﷺ ، وأبوا إلاّ خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العلهز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه .

وقوله تعالى : ﴿ والخوف ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كلّ ما لهم ، في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم ومنهم ، وامتن به عليهم في قوله تعالى : ﴿ لقدمنّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغَد ، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً ، ورزقهم بعد العيلة ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم ، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة ، قاله العوفي عن ابن عباس واليه ذهب جمع من التابعين ، بخلاف من يقول ان هذا المثل المضروب يعني المدينة .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ حَلَالاً طَيِّباً وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ

وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

يأمر الله تعالى عباده أن يأكلوا رزقه الحلال الطيب ويشكروه على ذلك،فمن أنعم وحده لزم أن يعبد وحده ، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على غير اسم الله . ومع هذا : ﴿ فمن اضطُرَّ غيرَ باغ ﴾ أي احتاج إليه من غير بغي ولا عدوان ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ أي تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ولله الحمد [1]

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حلَّلوا و حرَّموا بمجرد ما وصفوه ، واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم ، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك مما ابتدعوه في جاهليتهم فقال سبحانه : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾ ويدخل في هذا كل ما ابتدعوه وحللوه وحرموه ثم توعد على ذلك فقال عز وجل : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة كما قال سبحانه : ﴿ نمتِّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذابٍ غليظٍ ﴾

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾

---

(١) أي عند الآية رقم (١٧٣)

لما ذكر تعالى تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وانما أرخص فيه عند الضرورة ، ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرَّمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها وما كانوا فيه من التضييق ، فقال تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرَّمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾ [1] ولهذا قال ها هنا ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي فاستحقوا ذلك وقوله تعالى : ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ أي اقلعوا عن المعاصي وأقبلوا على الطاعات ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ أي تلك الفعلة والزلة ﴿ لغفور رحيم ﴾ .

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ (١٢٠) شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۞ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ (١٢٣) ﴾

يمدح تعالى عبده ورسوله ابراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال سبحانه : ﴿ إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ﴾ فأما الأمة فهو الإمام الذي يقتدى به ، والقانت : هو الخاشع المطيع ، والحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال تعالى : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ وقال مجاهد : أمة أي أمة وحده [2] والقانت : المطيع . و قوله تعالى : ﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ أي قائماً بشكر نعم

---

(١) أي في سورة الانعام الآية رقم (١٤٦)

(٢) قلت : إن كان تفسير « أمة » بمعنى إمام يقتدى به أو كما قال مجاهد : أمة أي أمة وحده فكلا الصفتين موجودتان فيه عليه الصلاة والسلام فلا شك إنه إمام يعلِّم الخير للناس كما أنه أيضاً وحده أمة أي يعادل الأمة كثرة ولو كان وحده لأن الحق معه فكلٌّ من كان الحق معه فهو أكثر ممن معهم الباطل ولو كانوا الأكثرين عدداً ، لأن الكثرة العددية لا قيمة لها البتة،إلاَّ إذا كانت متمسكةً بالحق . فإذا كان صاحب الحق وحده في جانب والناس كلهم مخالفون له في الجانب الآخر فالأكثرية الحقيقية هي ذلك الواحد الفرد صاحب الحق ولاعبرة لباقي الناس مهما كثروا وهم ليسوا شيئاً أبداً والحق وأهل الحق هم المنصورون في كل حين .

الله عليه ، كقوله تعالى : ﴿ وابراهيم الذي وَفىَّ ﴾ أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به . وقوله تعالى : ﴿ اجتباهُ ﴾ أي اختاره .كقوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكّنا به عالمين ﴾ ثم قال عزَّ مِنْ قائل : ﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضيّ . وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿وانه في الآخرة لمن الصالحين﴾وقوله تعالى : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي يا محمد اتبعْ دين إبراهيم فإن إبراهيم كان كاملاً في طريقته وتوحيده ولذلك أوحينا إليك أن اتبع ما كان عليه ﴿ وما كان من المشركين ﴾ كقوله في الأنعام : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراطٍ مستقيم ٭ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ثم قال تعالى منكراً على اليهود :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٭ (١٢٤) ﴾

ان الله تعالى شرع لكل أمة يوماً يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع للمسلمين يوم الجمعة ويقال انه كان مشروعاً كذلك لبني اسرائيل فعدلوا عنه إلى يوم السبت فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة ، ووصّاهم أن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأخذ مواثيقهم وعهودهم على ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ إنّما جُعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ قال مجاهد : اتبعوه ، وتركوا الجمعة حتى بعث الله عيسى بن مريم وانه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع ، وان النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى الأحد مخالفةً لليهود .كما تحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة والله أعلم . وقد روى مسلم عن أبي هريرة وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ ٧٣٠ [أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد،وكذلك هم تبع لنا القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا والأوّلون يوم القيامة والمقضيّ بينهم قبل الخلائق]

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ❁ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ❁ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ❁ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ❁ (١٢٨)

يأمر تعالى رسوله ﷺ لدعوة الخلق إلى الله بالحكمة ، أي بما في الكتاب والسنة من الزواجر والأوامر ليحذروا بأس الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ أي ناظرهم برفق ولين وحسن خطاب ، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله تعالى : ﴿ فقولا له قولاً ليناً لعلّه يتذكّر أو يخشى ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ أي علم الشقي منهم والسعيد وكتب ذلك عليهم عنده وفرغ منه ، فادعهم إلى الله تعالى ولا تذهب نفسك عليهم حسرات فليس عليك هداهم أي انما انت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب .

وقوله تعالى : ﴿ وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ أي يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمماثلة في استيفاء الحق اي ان اخذ رجل منكم شيئاً فخذوا مثله ، قاله ابن سيرين وغيره . وقاله ابن زيد ، كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين ، فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا : يا رسول لو أذن الله لانتصرنا من هؤلاء الكلاب ، فنزلت هذه الآية ثم نسخ ذلك بالجهاد روى عبدالله بن الإمام أحمد في مسند أبيه عن أبي بن كعب : ٧٣١ [لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلاً ومن المهاجرين ستة ؛ فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قريش بعد اليوم ، فنادى مناد : ان رسول الله ﷺ قد أمن الأسود والأبيض الا فلاناً وفلانا — ناساً سمّاهم — فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ إلى آخر السورة فقال رسول الله ﷺ « نصبر ولا نعاقب »] كما في قوله تعالى : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

وقولُه تعالى : ﴿ واصبر وما صبرك إلاّ بالله ﴾ تأكيد للأمر بالصبر واخبار بأن ذلك

لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته ، وحوله وقوته ثم قال تعالى : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك ﴿ ولاتك في ضَيْقٍ ﴾ أي غم ﴿ مما يمكرون ﴾ أي مما يُجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك ، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم . وقوله تعالى ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ أي معهم بتأييده ونصره ، وهذه معية خاصة ، كقوله تعالى : ﴿ إذ يوحي إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ وأما المعيّة العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ألم ترَ أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . ﴾ أي بعلمه وسمعه وبصره ـ(١)

وقولُه تعالى : ﴿ الذين اتَّقَوْا ﴾ أي تركوا المحرمات ﴿ والذين هم محسنون ﴾ أي فعلوا الطاعات فهؤلاء يحفظهم الله ، وينصرهم على أعدائهم ، آخر تفسير سورة النحل ولله الحمد والمنه وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

٥ / ٥ / ١٣٨٩
١٩ / ٧ / ١٩٦٩

---

(١) أمّا ذاته العليّة ففوق العرش بلا كيف وهو مع خلقه بصفاته العُلى يعلمُ خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، هذه عقيدة السلف الصالح وما كان عليه الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام رضي الله عنهم. اللهم أحينا عليها وأمتنا عليها وابعثنا عليها راضين مرضيّين بفضلك ومنّك وكرمك.

فهرس المحتويات

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

١٠ سورة يونس مكية نزلت بعد سورة الاسراء

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

١٢ سورة يوسف مكية نزلت بعد سورة هود

أهمّ ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسّرة	

(١) وهي : من ربــّك ، ما دينــُك ، من نبيـُّك رحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد شرحها شرحاً [illegible]

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

فهرس أحاديث المجلد الثاني

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٥	صح م	ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ او فيسبغ الوضوء ، يقول أشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له	٧٨
٢٥	صح م	ما من رجل يتوضأ فيغسل يديه او ذراعيه إلا خرجت خطاياه منها	٧٩
٢٥	صح	الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان	٨٠
٢٥	صح	لا يقبل الله صدقة من غلول ، ولا صلاة بغير طهور . . .	٨١
٢٦	صح فق	نحلني أبي نحلاً فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ	٨٢
٢٦	صح	... من يمنعك مني ؟ قال النبي ﷺ الله عز وجل	٨٣
٢٩	صح فق	سمعت رسول الله ﷺ يقول لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً	٨٤
٣٢	صح بخ	أنا أولى الناس بابن مريم لانه ليس بيني وبينه نبي	٨٥
٣٣	صح	... إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني اسرائيل – وفي لفظ لمسلم – عن أهل الكتاب	٨٦
٣٤	صح	من أصبح منكم معافى في جسده آمناً في سربه عنده قوت يومه	٨٧
٣٦	صح	... ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ...	٨٨
٣٦	صح	لقد شهدتُ من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه	٨٩
٣٩	صح	أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « أنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم	٩٠
٤٠	صح	يا رسول الله أرأيْت إن دخل بيتي وبسط يده ليقتلني ؟ قال	٩١
٤٠	صح	لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الاول كفل منها ...	٩٢
٤٠	صح	ما من ذنب أجدر أن يجعل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخره لصاحبه في الآخرة	٩٣
٤٢	صح فق	... ألا تخرجون مع راعينا في إبله ، فتصيبوا من أبوالها وألبانها	٩٤
٤٢	صح	وألقوا في الحرة فجعلوا يستسقون ، فلا يُسقون	٩٥

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٧٣	صح	إن الرجل من بني اسرائيل كان اذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه ...	١٣٦
٧٤	صح	والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ...	١٣٧
٧٤	صح م	والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر ...	١٣٨
٧٤	صح م	من رأى منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ...	١٣٩
٧٤	صح	إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكَر بين ظهرانيهم ...	١٤٠
٧٥	صح	ما خلا يهودي بمسلم إلاّ همّ بقتله	١٤٠
٧٦	صح	قال إنهم كانوا كرابين أي فلاحين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ...	١٤١
٧٧	صح فق	إن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي عن عمله في السر ...	١٤٢
٧٧	صح	... فقال النبيُّ ﷺ لكنّي أصومُ وأُفطر ، وأصلي وأنام	١٤٣
٧٧	صح فق	... فقال عبد الله أدنُ فاطعَم ، وكفّر عن يمينك ...	١٤٤
٧٩	صح	كفّر رسول الله ﷺ بصاع من تمر وأمر الناس به	١٤٥
٧٩	صح م	إنه ذكر أن عليه عتق رقبة ، وجاء معه بجاريةٍ سوداء	١٤٦
٨٠	غريب	اجتنبوا هذه الكعاب الموسومة التي يزجر بها زجراً	١٤٧
٨٠	صح م	من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه	١٤٨
٨١	صح	من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله	١٤٩
٨١		مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلي ، مثل الذي يتوضأ بالقيح ...	١٥٠
٨١	صح	حرمت الخمر ثلاث مرات	١٥١
٨٢	صح فق	انه نزل تحريم الخمر وهي في خمسة : العنب ، والتمر ، والعسل ، ...	١٥٢
٨٢	صح فق	كنت ساقي القوم يوم حرّمت الخمرُ في بيت أبي طلحة ..	١٥٣
٨٢		إنّ ربي تبارك وتعالى حرّم الخمر والكوبة والقنين ...	١٥٤
٨٢	صح	لُعِنت الخمرُ على عشرة أوجه ...	١٥٥

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٠٤	صح بخ	... فقال : يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة ، عراة غرلاً	١٩١
١٠٥	صح	... قال « إني سألت ربّي عزّ وجلّ الشفاعةَ لأمتي ، فأعطانيها	١٩٢
١٠٥		(اللهم أمتي	١٩٣

انتهت سورة المائدة

٦ ـ سورة الأنعام

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٠٧	صح	لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدَّ الأفق	١٩٤
١٠٧		نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سدَّ ما بين	١٩٥
١١١	صح فق	ان الله لما خلق الخلق ، كتب كتاباً عنده فوق العرش	١٩٦
١١١		إن لكل نبيٍّ حوضاً وأرجو أن أكون أكثرهم واردة	١٩٧
١١٢	صح	اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت	١٩٨
١١٢	مرسل	بلغوا عن الله ، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر	١٩٩
١١٨		... يا أبا ذر هل تدري فيم تنتطحان ؟ ... قال : لا قال	٢٠٠
١١٩	صح	إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب	٢٠١
١٢٢	صح	(ولا تطرد الذين يدعون ربهم) نزلت في ستة من	٢٠٢
١٢٢	صح	إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن إلى	٢٠٣
١٢٣	صح	انه يرى ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا	٢٠٤
١٢٤	صح فق	يا رسول الله : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من	٢٠٥
١٢٥	صح بخ	مفاتح الغيب خمس لا يعلمهنَّ إلاَّ الله	٢٠٦
١٢٦		مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نَفْسه ويرد إليه ...	٢٠٧
١٢٧	صح بخ	لما نزلت : (قل هو القادر ...) قال رسول الله (أعوذ	٢٠٨
١٢٨	صح م	... سألت ربي ثلاثاً : سألته أن لا يهلك أمّتي بالغرق	٢٠٩

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٢٨		لما نزلت : (قل هو القادر ...) فقام النبي ﷺ فتوضأ	٢١٠
١٢٨	صح	... دعوت ربي أن يرفع عن أمتي الرجم من السماء	٢١١
١٢٨	صح	ليكونن في هذه الأمة قذف وخسف ومسخ وذلك من	٢١٢
١٢٩	صح	... وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في	٢١٣
١٣٠	صح	رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . . .	٢١٤
١٣٢	صح	إن إسرافيل قد التقم الصور ، وحنى جبهته ، ينتظر متى	٢١٥
١٣٢	صح	قال أعرابي : يا رسول الله : ما الصور ؟ قال : قرن	٢١٦
١٣٤	صح	كل مولود يولد على الفطرة	٢١٧
١٣٤	صح	إن رسول الله ﷺ قال : قال الله إني خلقت عبادي	٢١٨
١٣٦	صح بخ	لما نزلت (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال أصحابه وأينا لم	٢١٩
١٣٦	صح	لما نزلت هذه الآية ... شقّ ذلك على الناس فقالوا :	٢٢٠
١٣٦	صح	... ألحدوا ولا تشقوا ، فإن اللحد لنا والشقّ لغيرنا . .	٢٢١
١٣٧		من أعطي فشكر ، ومنع فصبر ، وظلَم فاستغفر ،	٢٢٢
١٣٨	صح بخ	إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به فئتين عظيمتين	٢٢٣
١٤١	صح فق	أعطيتُ خمساً لم يعطهنّ أحدٌ من قبلي	٢٢٤
١٤٢	صح	يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلاّ ما أكلت . .	٢٢٥
١٤٦	صح	إن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي	٢٢٦
١٤٦	صح فق	أن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه .	٢٢٧
١٤٨	صح	أقرأني رسول الله ﷺ : (وليقولوا درست)	٢٢٨
١٤٩	صح	(ملعون من سبّ والديه ،) قالوا : يا رسول الله :	٢٢٩
١٤٩	مرسل	كلّم رسول الله قريش فقالوا : يا محمد تخبرنا موسى	٢٣٠
١٥١	صح	أتيت النبيّ وهو في المسجد فجلستُ ، فقال : يا أبا ذر :	٢٣١
١٥١	صح م	الكلب الأسود شيطان	٢٣٢
١٥٢	صح	لا أشك ولا أسأل	٢٣٣
١٥٤	صح	الإثم ما حاكَ في صدرك ، وكرهت أن يطّلع الناس عليه .	٢٣٤
١٥٤	صح فق	إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما	٢٣٥
١٥٤	صح فق	ما أنهر الدم ، وذكر اسم الله عليه فكلوه	٢٣٦

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٥٥	صح	المسلم يكفيه اسمُه إنْ نسي أن يسميَ حين يذبح .	٢٣٧
١٥٥	صح	ان الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان و ما استكرهوا	٢٣٨
١٥٦	صح	... يا رسول الله ما عبدوهم ؟ فقال : بلى . إنهم أحلوا	٢٣٩
١٥٨	صح	إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل . واصطفى من بني	٢٤٠
١٥٩	صح فق	ينصب لكل غادر لواء عند أسته يوم القيامة ، فيقال هذه	٢٤١
١٦٠	حسن لغيره	فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام قالوا يا	٢٤٢
١٦٥	غريب	من أعان ظالماً سلطه الله عليه	٢٤٣
١٦٥	.	يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى . .	٢٤٤
١٦٩	صح	إن النبي أمر من كل جاذٍ عشرة أو سق من التمر بقنو	٢٤٥
١٧٠	صح بخ	كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة . . .	٢٤٦
١٧٢	صح بخ	ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت يا رسول الله ماتت	٢٤٧
١٧٢	صح	سمعت أبا هريرة يقول ذكر — أي القنفد — عند النبي	٢٤٨
١٧٤	صح	... لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا	٢٤٩
١٧٦	صح	من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها	٢٥٠
١٧٦	صح	أيكم يبايعني على ثلاث ثم تلا رسول الله ﷺ : (قل	٢٥١
١٧٦	صح فق	بايعوني على أن لا تشركو بالله شيئاً ... (حديث عبادة)	٢٥٢
١٧٦	صح فق	أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من	٢٥٣
١٧٦	صح م	من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة	٢٥٤
١٧٦	.	لا تشركوا بالله شيئاً وإن قطعتم أو صلبتم أو حُرِّقتم . .	٢٥٥
١٧٧	صح فق	سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة	٢٥٦
١٧٧	صح فق	لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما	٢٥٧
١٧٧	صح فق	لا يحلّ دم امرىءٍ يشهد أن لا آله إلاّ الله وأني رسول الله	٢٥٨
١٧٧	صح بخ	من قتل معاهداً لم يرحْ رائحة الجنّة وإن ريحها ليوجد من مسيرة	٢٥٩
١٧٨	صح	خطّ رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال : هذا سبيل الله	٢٦٠
١٧٩	صح	مكرر في الحديث رقم /٥٨/	٢٦١
١٨١	صح بخ	لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها	٢٦٢
١٨١	صح م	ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانُها خيراً . طلوع	٢٦٣

٧ ــ سورة الاعراف

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٩٧	صح فق	... يا أيها الناس لا تتمنّوا لقاء العدوّ واسألوا الله العافية	٣٩٧
٢٩٨	صح	لا تتمنوا لقاء العدو وأسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم	٣٩٨
٢٩٨	.	إن كلّ عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه	٣٩٩
٢٩٩	صح	أخذ رسول الله قبضته من التراب فرمَى بها في وجوه	٤٠٠
٣٠٠	صح م	يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي و جعلته بينكم	٤٠١
٣٠٢	صح	... ومن كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يحلن عقدة ولا	٤٠٢
٣٠٣	صح م	ألا إن القوّة الرمي إلا أن القوّة الرمي	٤٠٣
٣٠٣	صح م	أرموا واركبوا وإن ترموا خير من أن تركبوا . . .	٤٠٤
٣٠٣	.	الخيل الثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل	٤٠٥
٣٠٣	صح بخ	الخيل معقود في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة ، الأجر	٤٠٦
٣٠٣	صح	إن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمئة ضعف	٤٠٧
٣٠٤	صح فق	يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ...	٤٠٨
٣٠٤	.	إن المسلم اذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما	٤٠٩
٣٠٥	صح	قوموا إلى جنّة عرضها السموات والأرض	٤١٠
٣٠٦	صح	لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ ما تقولون في هؤلاء	٤١١
٣٠٧	صح فق	وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي	٤١٢
٣٠٧	.	إنّ رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر	٤١٣
٣٠٧	صح	إني عرفت أن اناساً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا	٤١٤
٣٠٨	صح	... (سمعت أنين عمّي العباس في وثاقه) فأطلقوه فنام	٤١٥
٣٠٨	صح	... (الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فإن الله	٤١٦
٣٠٨	صح بخ	أتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال:انثره في	٤١٧
٣٠٩	صح بخ	المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض والطلقاء من	٤١٨
٣١٠	صح م	... ادعهم إلى الاسلام فإن أجابوك فأقبلْ منهم وكفّ	٤١٩
٣١٠	صح فق	لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم	٤١٠
٣١١	صح حسن	لا يتوارث أهل ملّتين شتّى.	٤٢١
٣١١	صح حسن	أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين	٤٢٢
٣١١	صح فق	المرء مع من أحب	٤٢٣

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٢٧	صح م	نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم	٤٥٠
٣٢٩	صح م	لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم	٤٥١
٣٣١	صح	بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال . وأحَلّوا لهم الحرام	٤٥٢
٣٣٢	صح	إن الله زَوى لي الأرض مشارقَها ومغاربها	٤٥٣
٣٣٢	صح	ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليلُ والنهار	٤٥٤
٣٣٢	صح	لتركبنّ سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة	٤٥٥
٣٣٣	.	(تبّاً للذهب والفضة) يقولها ثلاثاً فشقّ ذلك على . . .	٤٥٦
٣٣٣	صح	ألا أخبرك بما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة	٣٥٧
٣٣٤	صح م	ما من رجل لا يؤدّي زكاةَ ماله إلاّ جعل له يوم القيامة	٤٥٨
٣٣٤	صح فق	من ترك بعده كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع . .	٤٥٩
٣٣٤	صح فق	ألا إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض	٤٦٠
٣٣٥	صح	إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو	٤٦١
٣٣٨	صح م	الدنيا في الآخرة إلاّ كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم . .	٤٦٢
٣٣٩	صح فق	يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ... ؟	٤٦٣
٣٣٩	صح فق	سئل الرسول ﷺ عن الرجل يقاتل بشجاعة ويقاتل	٤٦٤
٣٤٠	صح	تكفّل الله المجاهد في سبيله إن توفّاه أن يدخله الجنّة .	٤٦٥
٣٤٣	صح	هل لك يا / جد / العام في جلاد بني الأصفر.	٤٦٦
٣٤٤	صح	إن الله لا يملّ حتى تملّوا وإن الله طيّب	٤٦٧
٣٤٦	صح	(ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك من بعدي ... احذروا	٤٦٨
٣٤٦	.	والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه إنّما	٤٦٩
٣٤٦	.	... إنّ الله لم يرض بحكم نبيّ ولا غيره في الصدقات .	٤٧٠
٣٤٧	صح	لا تحل الصدقة لغنيّ ولا لذي مِرّةٍ سويّ	٤٧١
٣٤٧	صح	... إن شئتما أعطيتكما ولاحظّ فيها لغنيّ ولا لقويّ	٤٧٢
٣٤٧	صح	ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس . .	٤٧٣
٣٤٧	صح	إنّ الصدقة لا تحلّ لمحمّد ولا إلى آل محمّد إنما	٤٧٤
٣٤٧	صح م	... فما زال يعطيني حتى إنه لأحبّ الناس إليّ	٤٧٥
٣٤٨	صح	إني لأُعطي الرجلَ وغيره أحب إليّ منه ، خشية أن ...	٤٧٦

١٠ ــ سورة يونس

١١ — سورة هود

١٣ — سورة الرعد

١٤ — سورة إبراهيم

١٥ ــ سورة الحجر

١٦ ــ سورة النحل

انتهى المجلد الثاني ويليه المجلد الثالث